ثلاثية الأمالى
لأبى على حسن ولد خالى

وثانينا الكومى

سيرة شعبية يرويها

خيرى شلبى




وثانينا الكومى

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨
الطبعة الثانيــة ٢٠٠٩

رقم الإيداع ١٤٦٤٢/ ٢٠٠٧
ISBN 998-977-09-2074-2

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

خيرى شلبى

ثلاثية الأمالى
لأبى على حسن ولد خالى

وثانينا الكومى

سيرة شعبية يرويها

دار الشروق

أيام الأسبوع سبعة

الأولة ـ هلت ليالى القمر

نجحت أمى ذات ليلة في أن تتصيدنى فى حالة رائقة، إذ إن الأمر الذى ودت أن تحدثنى فيه قد يسعدنى فأطير فى الهواء فرحا، وقد يصدمنى فأشكمها فى وجهها بقبضة يدى. لكنها أمى يا بوى ولا كل الأمهات، حويطة أشد من حوط المشير ولد أبو عامر يابوى، تصيدت روقان مزاجى وضحكى على الفاضية والمليانة فصارت تحكى نوادر وأخبارا ونكتا تمثل خلالها أدوار الهتماوات والأطفال والمخنثين وسباع الليل ـ أى الكلاب. حتى ضحكت وصفيت الغم كله، وقلت: «كفاك يا أم لقد أوجعت بطنى من الضحك». فسرعان ما أمرت أخواتى البنات بأن يفضضنها سيرة ويقمن لتلصيق الجلة وتبييت الفراخ، والتتميم على الأرانب، وسد هواء الباب الكبير وخروم العشة حتى لا تجد العرسة منفذا تنفذ منه للدجاج، والحذر من الثعبان الساكن بجوار العشة فى أمان لا يؤذى إلا من حاول إيذاءه، إلى أن يأذن الله باستقدام أحد الرفاعية للقبض عليه يداً بيد فى صنعة لطافة.

داخلنى الاطمئنان يابوى وحدثت بقلبى «نغمشة» مفرحة فى انتظار لخبر طيب؛ وقبل أن أتهيأ يا خال كانت أمى قد رمت به فى جملة

واحدة كأنها لاتزال تحكى النوادر والأخبار والنكت. التهيت برهة ثم انتبهت فجأة فصحت فيها: «ماذا قلت يا أم؟» قالت كأنها تخشى من ترديد الخبر مرة أخرى: «ألم تسمع؟» قلت: «أحب أن أتأكد»، قالت بكثير من الحرج وقليل من الفرح المضمر، مشوحة: «يو.. و.. ه.. قلت إن خرابة يدور على أختك سعدية!».

رجعت بدماغى إلى الوراء يا بوى، اعتدلت فى قعدتى عدة مرات، شوك فى كل موضع صار يشكنى فى قلبى، صارت كل الدماء فى عروقى أسنان شوك تسعى فى عروقى، تشعل النار فى حلقى، فى رأسى، فى عينى. ربنا ما يوقعك فى ضيقة كهذه يا خال، تحلف اليمين أنها ولا ضيقة القبر!

«خرابة»؟! «خرابة» بذات نفسه يا بوى؟! يدّور على أختى «سعدية» يريد أن يخطبها ويتزوجها، وهو الذى يستطيع بإشارة إصبع أن يخطفها ويستحلها كخليلة، كجارية دون أن يجرؤ على اعتراض طريقه نفر واحد لا من الناس ولا من الحكومة من التخين للجعيص فيها. أما أنا فلست سوى قشة ريشة إذا تمطع ونفخها طيّرها الريح بدداً. الحكومة بجلالة قدرها لم تجرؤ على اعتراضه يابوى، ولم تفلح فى الإمساك به يابوى، فهل أقدر أنا يا غلبان يا مسكين أن أعترضه أو حتى أعترض عليه؟! هذه والله محنة جديدة منيت بها يا حسن ياولد أبى ضب، فهل لم تجد المحن فى الدنيا هدفا تستضعفه سواك؟! لولا تأكدى من حب أمى لوثقت أنها دعت علىّ بألا يجبرنى الله ويجعلنى أبد الدهر فى قلق ووجع دماغ!

هى برهة واحدة يا بوى، سرعان ما رأيت نفسى بعدها قد تحسنت وصرت فى آخر روقان. اختلست البصر نحو أمى فوجدتها مطرقة إلى الأرض، وجهها ملفوف برداء أحمر ـ وليس أسود كالعادة ـ توحى إلى بأنه من علامات الفرح والموافقة عندها، فقلت لنفسى ولماذا لا توافق يا ولد أبى ضب؟ لقد كان بإمكان «خرابة» أن يفعل ما يحلو له لكنه استرجلك واعتبرك وعمل لك حسابا ووقاراً؛ فجاء يدخل البيوت من أبوابها، رغم أن دخول البيوت محرم عليه منذ سنوات وسنوات باعتباره أحد ستة مطاريد يحكمون الجبل ويتسلطنون عليه. قل يا بوى إننى شعرت بالعزوة مقدما، انتفخت فى قعدتى وانتويت الحديث فى المهمات على أرض الموافقة. لكن خاطرا ملعونا جرى كحشرة البرص فى ركن من دماغى، فاقشعر جسدى من نعومته وزفلطته واختراقه نخاعى: كيف تأتى لخرابة أن يرى أختك «سعدية» يا ولد وهو الذى لا ينزل البلدة قط إلا بتدبير يتم على مدى أيام، ومراقبة مستمرة على طول ليال، وفى لحظة لا يعرفها أحد، حتى من رجاله المرصوصين على امتداد الطريق الذى سيرتقيه رائحا غاديا من الجبل إلى داره، ومن داره إلى الجبل والبنادق والمدافع الرشاشة مخبأة فى أعشاشها داخل الثياب كالدجاج الراقد على بيض يتكسر، والقذائف العمياء على أهبة الانطلاق بدون تفاهم مع الصدور أو الأكتاف أو الأدمغة أو القلوب فإن نفد الرصاص فالخناجر والسكاكين والسيوف مربوطة على السيقان والزنود والسواعد غير بائنة، هكذا هو كلما نوى رؤية أولاده فى يوم موسم أو يوم عيد أو ليلة مفترجة، وهكذا زوجته هى الأخرى كلما نوت أن تأتيه فى مربضه السرى بالجبل تحت نفس الحراسة المشددة! . .

فـ «خرابة» يا خال مطرود منذ ما يربو على عشرين عاما، ومحكوم عليه بمائة وخمسة وسبعين عاما من السجن المؤبد والأشغال الشاقة المؤبدة، مع أن عمره كله لم يبلغ الأربعين بعد، حيث إنه قتل أرواحا لا حصر لها، فى معارك مع أولاد عمه ومع الحكومة، نجح خلالها فى ترحيل أبناء عمومته إلى بلدة أخرى، مكتفين شره بالبعاد، ونجحت الحكومة فى أن تسكنه الجبل إلى الأبد كبديل عن السجن، لكنها، لزناخة مخها، لم تفطن إلى أنها عينته إمبراطوراً على الجبل وعلى البلدة كلها، فمن يتحكم فى الجبل يتحكم فى البلدة على الدوام، حاكم الجبل هو حاكم البلدة. وإن كان لها عمدية وخفراء يسندهم عسكر ومأمير وحكمداريون ومخاريق لا حصر لهم. البلدة، والبلاد المجاورة كلها تحب «خرابة» لأنه حماها من لصوص ومن عائلات متجبرة كثيرة كبيرة؛ فطارد اللصوص حتى محاهم، واستبقى أرْجَلَهُم، فتوّبهم وضمهم لرجاله، فصاروا من خلصائه، أما العائلات المتجبرة فكسر أنفها، وفرض عليها الفرضة تدفعها عن يد وهى صاغرة: تقول سبحان الله والحمد لله. اسمه«خرابة» لكنه سخى جواد على رجاله، يخطب لهم أجمل الفتيات وأغنى السنايير يكلف لهم ولهن أعراسا داوية حافلة يرقص فيها الخيل ويرتع القوم على المزمار والطبل البلدى ليالى بطولها حتى الصباح، لهذا تمنى كل شبان البلدة أن يكونوا من رجاله يابوى، ولو جئت للحقيقة لقلت إن شبان البلدة كلهم بالفعل من رجاله، يخدمون تحت إمرته أو إمرة زوجته، أولاده صحابه، حتى من يشاع عنهم أنهم من رجاله لهم فى صدور الناس مراتع وفى قلوبهم مدافئ وفى رحابهم خيرات. ويل لمرشح الدائرة، إذا لم يتصل بـ «خرابة» وينسق معه كل شىء، على المرشح أن يتنكر

حتى فى زى امرأة خلبوصة ويسلم نفسه لرجال «خرابة» ليجد نفسه بين يوم أو أكثر قد التقى امرأة مثلها، أو كهلا طيب القلب، أو شحاذا غلبانا، أو درويشا أبله يتكلم معه باسم «خرابة» كلاما لا ترد فيه سيرة «خرابة» على الإطلاق ولا شىء يتعلق بأمره. إنما هو كلام عن الانتخابات والعائلات والأحزاب مما يتكلمه عموم الناس فى كل مكان دون أن يثيروا شبهة ولا قيلة، ولكن المرشح يعرف بعْد لحظة الانفضاض والانصراف أن هؤلاء الذين قابلهم كانوا «خرابة» بذات نفسه، والمرشح مهما كان شريرا لن يكون غبيا أبدا؛ فيبلغ عسكر الشرطة والمباحث ليقيموا كمينا للقبض على «خرابة» لأنه لو فقد عقله، ففعل ذلك، فإن مذبحة سيعلو أوارها فى الحال، يكون هو أول ضحاياها من أول بادرة شك تُشتم ريحتها فى المحيط الجبلى كله. ولماذ يفعل المرشح ذلك وهو يمنّى نفسه برضاء «خرابة»، ليفوز بالتزكية، فلو فاز ـ ولابد أن يفوز ما فى ذلك ريب ـ فآه ثم آه ثم آه على النعيم الذى يحل على كليهما ويفيض على أهل الدائرة، النائب يتعهد بينه وبين نفسه بالعهد الذى قطعه على نفسه تلميحا أو تصريحا مع «خرابة»؛ بأن يظل يحمى أهل الدائرة، فكيف يحميها يا بوى؟ يعنى أن يظل يحاجى عليها ويمنع أرجل الحكومة من النزول إليها أو إقامة نقط ومراكز فيها، ومهما كثرت القرى وتغولت المدن، يظل كل مركز شرطة يحتوى على مجموعة كبيرة من البلاد يحار فى حكمها الفرس والروم يا بوى، وتظل المدارس مقصورة على المدن البعيدة، حتى لا تصيب القرى بكثير المتلامضين المتفلحسين جلابى المشاكل ووجع الدماغ، هذا هو عين ما كان يطلبه المرشح لكى تبقى دائرته مجرد ضيعة يتملك ثلاثة أرباعها على الأقل. فمعظم الناس عنده إذن أجراء، وكان «خرابة»

يعرف دائما أن المرشح يخدعه بطلاء القول، فكان يلف عليه من وراء لوراء، ويطلب وساطته لإدخال أبناء الناس الموسرين سلك المدارس، وثمة شبان كثيرون فى الدائرة يدينون لـ «خرابة» بفضل إلحاقهم بكلية المحامين وكلية الدكاترة وكلية المهندسين وبالوظائف:

تومرجية فى المستشفيات، وكتبة فى التفاتيش، وملاحظو أنفار فى الوسايا، هذا كله لخرابة وحده فما بالك بخمسة مطاريد آخرين عتلات من حكام الجبل؟!

«خرابة» هذا كله يا بوى، جاء يخطب أختى «سعدية» فيا لها من أملة كبرى، ولكن كيف بالله يا مسلمين عرف «خرابة» أن لى أختا واسمها «سعدية» بالذات، وأنها جميلة لدرجة تستحق أن يتزوجها على زوجته أم أولاده المجدع، التى لم تفرط فى عرضه قط، ولم تكن أقل شهامة منه! دعنا من هذا، ولكن لا تدعنا من هذه النقطة التى ربما كانت ثقبا غائرا يا بوى: كيف تعرّف «خرابة» على أختى؟!

وهنا غاضت الدماء فى وجهى وارتفع دق الطبول فى قلبى، لكن أمى كانت أسرع من دقات قلبى، إذ قالت: «كان خرابة نازلا فى العيد الفائت فى دُغَيْشَة الفجر متنكرا فى زى درويش عبيط، فرآها خارجة من الدار إلى الترعة تملأ البلاص، وهى تتدلع فى المشى على راحتها ظنا منها أن الطريق خالية، فرآها، فسحرته، فسأل عنها، فدلوه، فبعث يطلب منا عنوانك فى مصر ليفاتحك فى أمرها، فاستمهلناه بعض الوقت؛ زاعمين أنك عائد فى القريب العاجل!».

الصدق كان واضحا فى نبرة الولية يابوى، فلم أشأ أن أصدقها، أو أكذبها، لكننى قلت على سبيل الاختبار وإطالة مهلة التفكير: «وهل

توافـقـين يا أم علـى أن تزوجى ابنتك على ضـرة؟!» شـوحت بيـدها قـائلة: «ياخـوية، النبى عليـه الصـلاة والسلام اتجوز أربعـة، واحنا فى ديك السـاعة! لما نبـقى من عيلة خرابة! وفى عـزوته!» وجدت نفـسى أقول لها: «على بركة الله يا أم ما دمت ترين هذا فلا يحق لى أن أمانع! مبـروك على سعـدية هذا العـريس التخـين! ولكننى يا أم لن أكـون من رجاله فى يوم من الأيام! فما أظن أن لى لقـمة عيش فى الجبل بعد أن شفت بعينى حلاوة الدنيا فى البندر». قالت الولية بفروغ بال أفزعنى والله يا بوى: «ياعـالم! يا ترى من يعيش!»، لكننى صحت من ورائها فى ورع«على رأيك! يا ترى من يعـيش!» ووالله كنت فى قرارة نفـسى قد بدأت أفرح بهذا النسب التخين.



الثانية ـ عُرسُ القَمَر

تحلف اليمين يا بوى أن مخى يتبرجل كلما تذكرت أن «خرابة» سيصبح زوجا لأختى «سعدية» الخوف كان يجرى فى مفاصلى، فهذا رجل من عتاة المطاريد، فكيف يتهيأ له أن يقيم فرحا لنفسه كعريس لابد أن يحضر زفته بنفسه أمام القوم كلهم. أنا طبعا لست أقبل أن يدخل على أختى بدون فرح حتى لو وافقت الولية، دخول العروس بدون فرح يحضره الجميع هو سبى واغتصاب وعار، ستكون الفضيحة بجلاجل وشخاليل، ستقول ألسنة السوء: إن فى الأمر سرًا آخر، ولسوف يؤلفون من عندهم ويتلمسون الأعذار لـ «خرابة»، ولكنهم فى نفوسهم، لن يصدقوا أعذارهم، لا، لا، لا، يا خال، كل شىء فى بلدنا مقبول، ويمكن تبريره إلا العرس بدون فرح تلعلع فيه الزغاريد وتنقش الطبول صفحة السماء بالنقر ودوائر الأنغام.

لكنه «خرابة» يا بوى والأجر على الله، فالرجل الذى دوَّخ الحكومة وهزمها لن يعجز بالطبع عن إقامة عرس له.

صدق أو لا تصدق يا بوى أن عرس «خرابة» على أختى «سعدية» لم يكن له ضريب فى البر كله، لقد رأيت من الأعراس كثيرا، فلم أجد

لهذا العرس أخا؛ إذ خرجت الوفود من لدن«خرابة» فى السر إلى كل أصدقائه ومعارفه وعملائه وكل من يفرض عليهم حمايته إتاوته، فأبلغوهم خبر الزفاف وموعده بالساعة والدقيقة، ولم يكن من بين كافة المدعوين وغيرهم من يجرؤ - أو يقبل - أن ينبئ الحكومة حتى يبقى العرس فى نظر رائيه مجرد عرس كبير والسلام.

يوم العرس اصطف رجال «خرابة» من أول الجبل حتى قلب البلد فأحاطوا بدارنا ودار «خرابة» وساحة العرس إحاطة الإسورة للمعصم، وأحيط دوار العمدة وداره من غير أن يشعر هو بشىء، وقطعت أسلاك التليفون على الطرقات ليصبح التليفون فى دوار العمدة جثة هامدة لا نفع فيها، واتخذ رجال آخرون مواقعهم على كل السكك ومداخل البلدة من جميع الجهات. كل هذا حدث فى أول النهار فما كاد العصر ينطق، حتى وافانا أهل المزمار والطبل البلدى، ثم أهل الفراشة، فنصبوا السرادق الكبير المهول، وأقاموا منصة لرقص الغوازى بعيدا عن ساحة رقص الخيل، عند خروج الناس من صلاة العصر فوجئوا بزيطة وزمبليطة فى الوسعاية أمام دار «خرابة» وأمام دارنا، الطبل يصدح والمزمار يزأر، والخيول الأصيلة ترقص تحت الرجال تفعل الأعاجيب. أما دارنا فقد امتلأت لتمها بالنساء، وكانت الماشطة قد جلت أختى «سعدية» وجعلت منها عروسا بحق وحقيق، زادتها جمالا، حتى خيل لى أنها فتاة أخرى قادمة من البندر، ولحظتذاك استخسرتها فى «خرابة»، ثم عدت فقلت لنفسى: إنه رجل وهى تستاهل!

راحت طلقات الرصاص تدوى محلقة فى سماء البلدة كأسراب العصافير المضيئة، وكان العريس ذاهبا يستحم فى دار خاله قبلى البلد وطلقات الرصاص تزغرد له طوال الطريق بعد صلاة العشاء، انطلق

موكب الزفة من دار الخال، فلف البلدة كلها ساير داير، تتقدمه المزيكة، وتتقدم المزيكة طلقات الرصاص، «خرابة» فى قلب الزفة كالبلية لا يكاد يبين، إذ هو قصير القامة، نحيف الجسد كنصف فرع يابس ورأسه كرأس الهدهد مستطيل مدبب، والعمامة الكبيرة حول اللبدة فى عرض كتفيه، ووجهه يطل من تحتها مجرد عينين صقريتين تطلقان رصاصات مشتعلات، ومن تحتها أنف صغير دقيق كبز متكلس فوق راحة يد، والجلابية الكشمير تحتها القطنية، فالصديرى، فالفانلة ذات الأكمام، والعطر يفوح من صدره، فإذا رفع يده بالتحية وجدتها صغيرة كيد طفل صغير، تكاد لا تبين فى فراغ كمه الواسع، تنسدل ثيابه حتى الأرض فتخفى قدميه الصغيرتين.

كانت هذه ثانى مرة أرى فيها «خرابة»، أما الأولى فكانت قبل ذلك ببضعة أسابيع، يوم جاء إلى دارنا بليل كى يخطب «سعدية» منى ومن أولاد أعمامى الفقهاء، ويقبّضنا مهرها: مائة وخمسين جنيها أخضر من أهيف القد ممشوق القوام، وفوق ذلك، يأمر واحداً من رجاله بتشغيلى حارسا لواحد من معارفه القبط فى بلدة «أبو حجر»، فنفذ أمره ثانى يوم، واستلمت الشغل والعربون، فكان ذلك شيئا جميلا من «خرابة»، جعلنى أحبه وأعرف أن الرجال كرامات وعقول، وليست أجساداً وأموالا.

خرجت «سعدية» من دارنا فى زفة كبيرة تتقدمها الدربكة والمغنية، وهذه تتقدمها الزغاريد منافسة لَعْلَعة طلقات الرصاص، حتى وصلنا بها إلى دار العريس التى ابتناها خصيصا فى بضعة أيام، أجلسنا العروس فى الحوش فوق كرسى عال وبجوارها شقيقتها «هندية»، التى

بدت أخطر منها، وبجوارها من الناحية الأخرى، شقيقتها التالية، وبجوارها ابنة خالتها «فوقية»، وسط حشد من النسوة ترش عليه الملح فلا تسقط منه حبة واحدة على الأرض، والمغنية شغالة والنقوط يَرف عليها من كل امرأة وصبى. فى نصف الليل وصل العريس فدخل على عروسه والفرح شغال فى السرادق رقصا ومغنى ونمرا متوالية من كل صنف ولون. أولاد عمى والبنات يقفون تحت شباك العريس، وأيديهم على قلوبهم، يتعجلون خروج الماشطة بالمحرمة البيضاء، وقد تبقعت بدم الشرف الغالى. صار أولاد عمى والأشقياء يغنون ساخرين: «إن كنت غشيم اطلع بره» فما كادوا يتمون غنوة استحثاثه، حتى دوَّت صرخة سريعة مفاجئة مقطومة، دوت فى أعقابها الزغاريد، وانفتح الباب، وخرجت الماشطة فاردة المحرمة بين يديها كالعلم؛ فانبرى النسوة يغنين: قولوا لأبوها الدم بل الفرشة! قولوا لأبوها يروح بقى يتعشى!» بعدها خرج العريس لتحية المعازيم وحصر النقوط، وكان القادمون من صلاة الفجر يتقابلون مع المعازيم العائدين من العرس فيسلمون على بعضهم البعض فى فرح.

عَدَّت الليلة على خير يا بوى، وفى اليوم التالى وضعنا أيدينا على قلوبنا وبقيت موضوعة هكذا شهرا كاملا يا بوى، و«خرابة» مختف فى داره الجديدة يعتصر نفسه داخل عروسه ويعلمها نفسه على حقيقتها، وكلما ارتفع صياح فى أى مكان فى البلدة، جرينا نستطلع الخبر، وفى يقيننا أن الحكومة وصلت وقبضت على «خرابة» من حضن عروسه، فلما أصبحنا ذات يوم، ذهبنا كالعادة للصباحية على العروس وجدنا «خرابة» قد رحل فدخل الاطمئنان قلوبنا وأيقنا فى ستر الله.

الثالثة ـ زمن الولاد

جرى القرش في يميني يا خال، وطابت لى الحياة فى الصعيد؛ حيث الرجل الذى أخدمه يكرمنى أشد الكرم، ولست أعرف إن كان إكرامه لى انبساطا منى أم خوفا من «خرابة». لكننى مشيتُ فى البلدة مرفوع الرأس منفوخ الصدر يا خال، الناس يشيرون نحوى من طرف خفى قائلين: هذا صهر «خرابة»، فيعتدل السامعون فى الحال يغيرون نظرتهم لى، يختلف تعاملهم معى، سعى إلى مصاحبتى خلق كثيرون. أصبحت أنعزم على الغداء، والعشاء، والأفراح كل يوم فى كل مكان، لا أدخل دارنا إلا بعد صلاة الفجر.

من بين من صاحبونى على حس «خرابة» ولد مجدع اسمه «هليّل» وأبوه فلاح من ذوى الأملاك يدعى «يوسف النجار»، حلو التقاطيع كابنه مسمسم الملامح، عشرى اللسان رقيق الكلام، الولد كأبيه، ولا خلاف بين الاثنين حتى فى مظهر العمر، إذ إن الأب يبدو فى سن ابنه مع أن الولد فى العشرين من عمره باليوم والساعة والدقيقة ـ كلاهما يرتدى ثياب الآخر، ولا يمكن لأحد أن يفرق بينهما سواء فى الصوت أو فى الشكل أو فى طريقة الكلام. والوالد يضع يده على مساحات

كبيرة من أراضى طرح النهر فى أزمنة الفيضان، يسهر على زراعتها ليل نهار، وما على الولد إلا السعى فى بيع المحاصيل وطلوع الأسواق للمتاجرة فيها وفى المواشى الصغيرة السن، نتاج زريبة كبيرة أنشأها الوالد من شطارته. ولد؛ ولا كل الولدان يا بوى، كريم، سخى، جواد، يكسب كثيرا مع أنه زاهد فى الدنيا، قليل النفقات على نفسه وملذاته، إلا حين أكون معه، فحينئذ يصرف بلا حساب، وهو فى غاية الاستمتاع لرؤية الصحاب مسرورين بسببه. كان مؤمنا يؤدى الفرض بفرضه، يفكر فى طلوع الحجاز، غير أنه يؤجل السفر إليه حتى يئون الأوان، كما يقول، والأوان فى نظره، أن يكون هو نفسه قد أصبح يثق فى أنه قادر على احتمال مسئولية الحج، التى هى ليست لعبة يشتريها كل من معه المال. تعلمت الصلاة تقليدا له، لا خوفا من الله، وواظبت عليها حبا فى أن يربطنى الناس بصاحبى «هليّل» حين يمتدحونه، وما أكثر ما يفعلون، فكانوا يروننى معه كلما ذهب إلى المسجد لأداء الفريضة، ويرونه معى كلما ذهبتُ للسهر فى مكان بعيد أشرب فيه الحشيش، غير أنه كان لا يشرب إلا خطفا لأنفاس سطحية لا تستمر فى الدماغ.

بفضله ـ هليّل ـ يا بوى انتقلت دارنا من حال إلى حال، حيث أصبحت طواجن اللبن الحليب تعرف طريقها إلى دارنا صباح كل يوم، تحمل سخونة الضروع، حتى صرنا كالفلاحين أصحاب المواشى، ندخر الحليب ليروب، فنحصل على قشدة، وزبد، وسمن، وجبن قريش وكذلك نصنع الفطير المشلتت. قل يا بوى إن صحوبيتى لـ «هليل» ولد «يوسف النجار» صارت حديث الناس كلهم، وغطت على

خبر زواج «خرابة» من أختى «سعدية». من طيبة قلبى يا بوى لم أفهم إلا مؤخرا، كنت كالأطرش فى الزفة: اندهش من اندهاش الناس لهذه الصحوبية، إذ كانوا يفتشون عما يكون وراءها من غرض، أما أنا فأسخر من زناخة مخهم، وأقول فى كل مناسبة: إن الحب نفسه غرض، حب الإنسان لإنسان آخر هو فى حد ذاته شيء يقوم فى النفس من غير أن تعرف النفس لماذا قام.

إلى أن جاء يوم ظهرت فيه الحقيقة يا بوى، إذ فوجئت بصاحبى «هليل» يعزم نفسه ـ وأباه ـ على العشاء عندنا فى يوم أختاره أنا. قلت مندفعا بكل حماسة: «ولماذا لا يكون ذلك الآن يابو العم؟ تظن أننا نعطى نفسنا مهلة نستعد فيها لضيافتك! واه يا خال! طلاق بالثلاثة من ذراعى لتجيئن اليوم أنت وأبوك وكل من تهواه مرافقا من العائلة!» قال «انتظرنا ليلة الخميس القادم بعد يومين» قلت: «وماله! يا تلتميت مرحبا!» انبأت الولية أمى بالخبر فاشترت جديا صغيرا نحرته وشوته، واشترت قفصا من الفاكهة من سقط الجناين، وبعد صلاة المغرب يوم الخميس طرق بابنا، ودخل صاحبى «هليّل» ساحبا أباه «يوسف النجار» خلفه، فلم نعرف من فيهم الأب ومن الابن، كنا قد فرشنا وسط الدار كله بالحصير والمساند، فجلسنا جميعا نتحدث فى أمور الدنيا وأحوالها، جاءت الطبلية فتوسطتنا، من فوقها الصينية النحاسية الكبيرة ـ صينية العشاء ـ توالت أطباق الشوربة، والثريد، وأكوام اللحوم المسلوقة والمشوية والمقلية فى السمن، فأكلنا حتى بشمنا من التخمة، وجيء بالطست والإبريق، اللذين استعارتهما أمى من دار عمى الشيخ الكبير فى آخر الحارة، فاغتسلنا وحمدنا الله، وقبلنا أيدينا ظهرا لبطن، شكرا لله على نعمته، وجيء بالوابور وبعدة الشاى،

وجعلنا نفرقع السجائر، ونشرب الشاى، ونقول النكت والنوادر نضحك على الفارغة والملآنة، ومحسوبك، يلهو وفى الباطن، لا حد لانشغالى وقلقى من سر هذه الزيارة فى الظاهر. وكانت الولية أمى، لذكائها، تروح وتجىء من بعيد لبعيد، تتسقَّط الأخبار، تتعجلها، كلما أحست أننا رأيناها، وقفت وتكلمت بعض الكلام عن الستر، وأولاد الأصول، وحسن التربية، ففهمت أن أمى فقست الفولة، وفسرت هذه الزيارة بأن «يوسف النجار» جاء بولده «هليِّل» للحديث فى أمر ترفع له الزغاريد مدوية. عندئذ، بدأ الموضوع ينوِّر فى دماغى يا بوى، قلت لنفسى: أقطع ذراعى إن ما كان «يوسف النجار» قد جاء يخطب أختى «هندية» لابنه الوحيد «هليّل» صاحبى العزيز. وتذكرت أننى فى حضور سابق للصعيد زوجت اثنتين من أخواتى دفعة واحدة، زغرودة فى ذيل زغرودة، فتيقن قلبى فى الحال أن هذه الفرحة ستتكرر اليوم أيضا، وأننى فى هذه الحضرة سأستمع إلى الزغرودة الرابعة فى حوش دارنا، ولن يبقى فى الانتظار لأمى سوى زغرودة لى بعد وقت يعلمه الله، حسب شروط القسمة والنصيب يا بوى.

رقص قلبى والله من الفرح؛ لأننى رأيت الولد والبنية لائقين على بعضهما آخر تمام. ثم زعلت بينى وبين نفسى يا خال؛ الولد إذن كان يصاحبنى من أجل «هندية» وليس حبا فى شخصيتى!! كاد الغضب يعصف برأسى، فجاءنى خاطر خبيث يوزنى على رفض طلبه - إن طلب - احتجاجا على عدم اعتباره لى، حيث كان يجب أن يكلمنى من الأول ليعرف رأيى قبل المجىء ليخطب، غير أننى لم أقدر يا بوى، فأنا أحب الولد، وما صدقت أن عثرت على صاحب مثله يعزنى ويودنى ولا يبخل علىّ بشىء.

ـ وأخيرا تكلم يا بوى فإذا به صامت من فرط الخجل .

واعتدل فى قعدته، وأطرق برأسه إلى الأرض، فبدت عليه الحيرة الكبيرة، وفى كل مرة: يشرع فى الكلام، ثم يسكت، ويختلق موضوعا آخر يهرب إليه. فلم أطق صبراً يا بوى، وإذا بى أبادره قائلا مع ابتسامة مرتعشة: «نفسك فيها كلام تود قوله؟» فإذا به يرفع رأسه صائحا: «نعم والله! عندى كلام مهم جئت من أجله!». صحت فيه بدورى: «قله يابو العم وإلا فقعت مرارتى!» فاعتدل قائلا فى خجل: «أصل! صراحة! أنا مكسوف!». رقص قلبى من الفرح، والشك، فشوحت قائلا: «إذن دع والدك يتكلم نيابة عنك يابو العم! لماذا جئت به إذن! أليس ليتكلم نيابة عنك يابو العم؟!».

إذا بالولد «هليّل» يكتم ضحكة فى صدره، وإذ بأبيه يبدو عليه الخجل كالفتاة، قال صاحبى: «شوف يا أبو على يا صاحبى! الآن تنعكس الآية! افهم قولى! يعنى أنا الذى جئت لأتكلم بالنيابة عن أبى» تحجرت الابتسامة على شفتى، ونشف ريقى، قلت «كيف يا خال؟!» قال صاحبى بشجاعة سريعة: «صراحة يابو العم! أصل الحكاية أن أبى يطلب القرب منك فى أختك هندية!» تنفست قائلا: «أهلا وسهلا! يا مرحب بيه! نوديها لحد الدار!». فانتفض الرجل يا بوى كالملسوع من عقرب، كاد يتنطط كالأطفال، يملأ الدنيا زئيطا، ثم قال: «إذن سمعونا الفاتحة!».

قلت: «اهدأ قليلا! فالعريس نفسه ليس فرحا هكذا مثلك!» فإذا بالرجل ينهدُّ حيله فى الحال وتنقبض ملامحه، وإذا بصاحبى «هليّل» يشوح فى وجهى بجدية كبيرة: «افهم يا صاحبى إن العريس هو أبى!».

تخشَّب قلبى يا بوى، قلت: «أبوك؟! بذات نفسه؟! إذن! هو الذى يريد أن يتزوج من أختى هندية؟!»، رد قائلا بكل بساطة وقد ازداد جرأة: «وماذا فيها؟ سيدفع المهر الذى تطلبون بدون مساومة!» . أخذت، والله، أنظر فيهما معا، نظرة عليه، وأخرى على أبيه، فلا أكاد أميز فرقا بين الوجهين، اللهم إلا بعض تجاعيد بسيطة لا يراها إلا من يدقق فى وجه الأب، فصرت من شدة اللخمة والحرج أضحك بصوت زاعق، فلما رأيتهما ينظران لى فى كثير من الغضب، خفت أن أخسر صاحبى، فصرت أردد: «وماله! داحنا يزيدنا شرف ! عن إذنكم خمسة!» .

قفزت داخلا على أمى المتقرفصة خلف باب القاعة تسمع الحديث. فلما انفردتُ بها، انفجرتُ أضحك فى عبى، حتى كادت روحى يخرج من الضحك، فزغدتنى الولية، وقالت بفحيح غاضب: «بتضحك على إيه يا ولد؟!» قلت: «إنك لم تعرفى الخبر يا أم!» قالت مشوحة: «عرفت كل شىء وسمعت كل شىء!» . مسحت دموع الضحك وقلت: «فما رأيك إذن يا أم؟!» تحلف اليمين يا بوى أن الولية كادت تطيّر برجاً من دماغى، إذ بها تقول بكل بساطة: «خير وبركة! هل نطول يا ولد؟! رجل غنى وملء هدومه كهذا لا نرضى به؟! فبمن نرضى إذن؟!» . فكرت قليلا وقلت: «ياولية إنه كبير فى السن، وابنه رجل كبير!» قالت الولية: «النبى محمد عليه الصلاة والسلام تزوج ستنا عائشة وكانت سنها تسع سنوات وهو فى بحر الخمسين! هذا الرجل لن يزيد على الخامسة والثلاثين! لقد تزوج وهو صغير فأنجب وهو صغير، إنه الآن فى عز شبابه ورجولته! تعرف يا ولد! لو كان الذى سيخطب ابنتى هو صاحبك «هليّل» ما فرحت كما فرحت الآن

بأن يخطبها أبوه لنفسه! صاحبك طائش مهما صلى وصام! قد يتزوج عليها بعد حين، أما أبوه فعاقل وحكيم يفهم قيمة البنت! سيضعها فى عينيه ولن يتزوج عليها أبدًا! افهم كلامى ولا تجعله يخرج من هنا إلا مجبور الخاطر!» .

طب ما رأيك يا خال أننى قلبت كلامها فى دماغى بسرعة فوجدته حكيما موزونا مقنعا؟ أى والله يابوى، هذا ما شعرت به فى كلام الولية، فقلت لها : «صدقت والله يا أم» . وطلعت على الضيوف أبتسم بصدق هذه المرة قائلا : «مبروك عليك يا عم! عشنا وشفنا الأولاد يخطبون لآبائهم!» ، وصعَّرت خدى نحو صاحبى راميا إليه بنظرة غدارة ماكرة وقلت : «أنت إذن كنت تصاحبنى من أجل هذا الغرض يابو العم؟! تشكر على كل حال! ميلتنى لكى ينط أبوك على ظهرى فيدخل دارنا يتزوج أعز بناتنا؟! طب يا أخى كنت تعال دوغرى من الأول! ماكان هناك داع لأن تلف علىّ وتصاحبنى فأتوَهم فى نفسى أننى واحد جدير بالصحوبية» . فهرب صاحبى من نظرى وغرق فى بحار من الخجل، والعرق، والاحمرار، صارت الابتسامة الخجول ترتفع وتنخفض على ثغره كصور التليفزيون على أيامكم هذه حين يصيبها الرعاش، وصار يقول : «أبدا، والله، يابو العم! أنت أعز صاحب لى! العكس ما حصل، والله، ياخوى! أبى هو الذى ميلنى ونط فوق ظهرى من لحظة ماعلم أننى صاحبتك، صار يشجعنى ويغرينى ويمدح لى فيك وفى أعمامك الفقهاء الكبار، حتى صورك لى ملاكا نازلا من السماء فأحببتك كل هذا الحب يا حسن! هذه كل المسألة والله على ما أقول شهيد!»، فانبسط قلبى من هذا الكلام يا خال، وانفتح للولد أكثر وأكثر، كدت أنهنه باكيا، إذ إننى لم أكن صادقت فى

حياتى من يحبنى لله مثل هذا الولد، ولما شعرت بسخونة الدمع تنحدر على خدى مسحتها بكم جلبابى مبتسما أقول: «خلاص يا عم! براءة! براءة! برا. . . . ءة!» . انبسط الرجل هو الآخر آخر انبساط، صارت ابتسامة كبيرة تبُك الدم وقال: «أتراك وافقت إكراما لى أم للولد الذى جاء معى؟!» .

أعتقتنى أمى من الرد، إذ بانت قائلة: «من أجلك طبعا يا زين الرجال! يا أصيل! يا سيد الناس!» . أسرع الرجل قائلا كأنما يخشى أن نرجع فى كلامنا: «سمعونا الفاتحة من أجل النبى!»، فرفعنا أكفنا جميعا، واندمجنا فى قراءة الفاتحة بفرحة صادقة، صدق الله العظيم. حينئذ مال «يوسف النجار» نحوى هامسا: «شوف» يا ولد سأدفع مهرا ضعف ما دفعه خرابة مرتين! افهم كلامى! لست أتحدى خرابة فهو حبيبى! وإنما أنا أحب العروس وأعرف قدرها!» . قلت مع أمى فى نفس واحد: «يكفينا شخصك يا رجل! نحن لا نتاجر ببناتنا!» .

وكان عرس «هندية» أشد من عرس «سعدية» بكثير يا بوى، حضره كل من يمشى على الطريق. وبقى هذا الزواج حديث البلدة شهوراً طويلة يابوى، وحياتك جاءت أختى «سعدية» لتحضر عرس شقيقتها «هندية»، كانت حاملا وبطنها كبيرة، وحينما ذهبت أختى «هندية» لتحضر ولادة شقيقتها «سعدية» كانت حاملا وبطنها كبيرة، أما أنا فقد بت أمشى فى سبهللة بكامل حريتى، أضرب عصاى، وأجرى وراءها شاعرا بأننى أخيرا قد تخلصت من جبل من الهموم كان يكتم أنفاسى، وبأننى قد آن لى أوان النعيم.

الرابعة ـ يَوم الهَول

قلت إننى لن أكون من رجال «خرابة» ذات يوم، وقد شهد الله على قولتى يا بوى، فبقيت مصمما عليها، فأنا أحب الحرية يا بوى، وأتعشقها كالعصافير تتعشق البراح، تذوب فى هواه، أنا غير «خرابة» يابوى، «خرابة» فى الأصل، يعشق الجبل عشقا، ومنذ كان طفلا صغيرا وهو يهرب من أهله إلى الجبل، فى الجبل يجد متسعا لمضاجعة النساء والفتيات الساقطات وإخفاء المسروقات وكل شىء، كان يخدم المطاريد خدمات كبيرة، فيكون لهم مرسالا إلى نسائهم، أو عشيقاتهم، أو رجالهم المحبوسين فى دوار العمدة، يشترى لهم الطلبات فلا يطلب أجرا على أى خدمة، فأحبوه ونشروا عليه حمايتهم. قل إن «خرابة» نشأ وتربى فى الجبل، فلما كتب عليه الحظ الأغبر أن يكون منفيا مطرودًا من الحكومة فى الجبل، لم يكن فى ذلك أى عقاب له، بل إنه لو سجن لهرب من السجن إلى الجبل، بل لو تركوه حرا فى البلاد لهرب من الحرية وجاء يسكن الجبل، نعم يا بوى، فالجبل غرامه الأوحد، وهو يعرف كل شبر فيه. يعرف كيف يدخل من هنا، ليخرج من هناك، دون أن يدرى أحد من المراقبين، يعرف كيف يتوّه مطاريده توهانا لافوقان منه ولا اهتداء إلى الأبد، بعض مطاريده من المخبرين السريين وضباط المباحث المغامرين ظل يغريهم بمطاردته، مسهلا لهم أمر القبض عليه بعد خطوات قليلة حتى دحلبهم إلى عمق

سحيق فى الجبل يبدو كأنه المغارة وهو مجرد طريق إليها طوله أفدنة، وتتخلله صخور كثيرة من كل حجم وأتربة، فصخرة لابد من صعودها، وكومة أتربة لابد من خوضها، وصخرة أخرى تسد الطريق تاركة منفذا كالبرزخ لا يعبره إلا من كان جسمه كجسم العرسة، لكن «خرابة» يسلك فيها كلمح البصر، أما مطاردوه فقد اعتراهم الصرع والصراخ والحمى والخوف فرجعوا يتخبطون شهورا، يتعذبون فى السراديب، حتى ماتوا، وتعفنت جثثهم، وأكلتها ذئاب الجبل وطيوره الجارحة.

ذمة ودين يا بوى، لقد ماتت الحكومة كمداً، وسلمت أمرها لله، وحرّمت ارتكابها لهذه الفعلة الحمقاء مرة ثانية، كل هذا و«خرابة» أيامها مجرد شاب صغير السن لم يقو فى الإجرام بعد، كان لا يزال مجرد واحد يعشق حياة الجبل بين المطاريد الذين يخلبونه، يأسرون قلبه بشجاعتهم وتحديهم للحكومة وللعائلات الكبيرة العفية. لم يكن محتاجا يا بوى، وهذا هو العجب. ذمة ودين يا بوى، أن أهله ناس مبسوطين كل الانبساط، والعمدة كان منهم ذات يوم، العمدة كان عمه لزم، وكان «خرابة» مرشحا للعمدية إذا مات عمه، تشاء الصدف أن يموت العم ميتة ربانية و«خرابة» سارح فى الجبل لا يعلم، فلما وصله الخبر بعد يومين، كانت لعبة العمدية قد طبخت فى المديرية لتأكلها عائلة شيخ البلد الكبيرة العدد والأطيان والدواب، فما كان من «خرابة» إلا أن ركب حصانه الذى يسميه الأدهم - على اسم حصان «عنترة بن شداد» - وتمنطق بسيفه وخنجره وبندقيته التى هى فى العادة من آخر طراز وصل إلى الجيش المصرى، إذ إن سماسرة السلاح وجلابه لا يهدأ لهم نشاط ما بقى فى الجيش دفع من المجندين أيديهم

قريبة من مخازن الأسلحة. نزل «خرابة» ، يومها من الجبل يتبختر فوق ظهر الأدهم، وخلفه أربعة رجال شباب على أربعة أفراس شداد، كل رجل بفرسه جاء من طرف أحد المطاريد الكبار مجاملة «لخرابة» ومساعدة له على استرداد حقه فى العمدية - كان قد سبقهم ولد من الأشقياء، قام بقطع أسلاك التليفون من مكان بعيد. الوقت بعد صلاة العشاء، وقد كمن الناس فى دورهم منكمشين فى الدفء وكان العمدة الجديد - شيخ البلدة سابقا - قد نقل التليفون الأم من دوار عم «خرابة» إلى دواره، وجلس بين رهط من أصحابه وأبناء عمومته يشربون الشاى ويتحدثون فى أمر جوهرى بالنسبة لهم كعائلة، إذ إنهم عائلة ثقيلة الدم يابوى، لو جلس واحد منهم على جبل لتفتت غيظا ونكالا، وهم يعرفون ذلك عن أنفسهم حق المعرفة يابوى، وهم أول من يدركون أن خلق الله، كلهم يتمنون زوالهم من الوجود، غير أنهم لا يبينون ذلك، ولهذا فكان حديثهم تلك الليلة ينصب على هذه النقطة وحدها، يوصون العمدة الجديد بأن يستقوى ويجمد قلبه وإلا هزأت البلدة به وبهم، وضاعت منهم العمدية هدراً، وكان العمدة الجديد يجيب على ذلك فى تلويح واضح بأن الله يفعل ما يريد، إلا وصهيل الأفراس يجلجل فى الخلاء أمام الدوار، فتزعزعت القعدة وتكومت فوق بعضها تتشاور، وقفز منها من يرى الخبر، ثم عاد وقال إنه «خرابة» يطلب مقابلة العمدة الجديد ليبارك له، فما سمع العمدة ذلك حتى استقام عوده من جديد، ومشى الدم فى عروقه، فنهض واقفا مظهرا علامات الترحيب والسعادة، ونهض من خلفه بقية الرجال ومضوا وراءه نحو باب الدوار، فاجتازوا الحوش الواسع إلى باب الشارع حيث يقف «خرابة» ورجاله بأفراسهم راكبين، ربك والحق، استاء العمدة وانكزر

فى نفسه من أن «خرابة» لا ينزل عن الحصان فى مواجهته، لكنه ابتلع غصته وقال: «أهلا وسهلا اتفضل يا رجل واشرب الشاى أو تناول العشاء». فقال «خرابة»: «أما الأكل والشرب فقد ملأت به بطنك فى غيبتى! وظننت أن الطبخة إذا طبخت فى المديرية وشرفها الحكمدار بتخريط البصل وغسل اللحم وعصر الطماطم يمكن أن يجعل الأكلة شهية! أو أن ينجيك الله من صاحب الحق الذى أكلت لحمه! لكننى، وحق سكناى فى الجبل، لن أدعك تهضم هذه الأكلة الدسمة! فأنا البقية الحية من اللحمة التى أكلتها اليوم مطبوخة! ولو لم تكن غدرا لعفوت عنك وباركت لك حقا! لكنك أثبت غدرك ولؤمك، فلم تصبر على جثة عمى حتى تترطب من سخونة الموت فى قبرها! فنقلت التليفون إلى دارك، وهو الآن جثة هامدة! وإننى لأعرف أنك تعرف أننى رجل ولا كل الرجال! فكيف إذن تجرأت على خيانة الميت وتتجرأ على خيانتى وأنا حى؟!».

وقع العمدة من طوله يا خال، صار ينظر حواليه يستنجد بأى واحد، ارتفع صوت برطمة وهلضمة وصوت زعيق وتهديد من داخل الدار، ورأى «خرابة» شبح بندقية ترتفع ماسورتها من منطقة مظلمة فى حوش الدار تستعد للتنشين عليه بعد برهة قصيرة، فسحب فى الحال مدفعه الرشاش ونشن على ماسورة البندقية بطلقة طيرتها فى الهواء بددًا، وطيرّت خلفها صراخا هائلا، ثم حول وجهة المدفع نحو صدر العمدة فأفرغ فيه، وإلى صدور الذين حوله فأفرغ فيهم، صارت الجثث تتساقط وهو يخوض بفرسه فوق الجميع رائحا غاديا والمدفع الرشاش يصب النار فى كل اتجاه، ومن خلفه الفرسان الأربعة يصولون ويجولون فى كل من يأتى من عائلة العمدة، فلما نفد منهم الرصاص،

جردوا سيوفهم، وانهالوا فوق الرقاب تقطيعا وتمزيقا. كانوا يفعلون ذلك وهم يلوون أعناق الأفراس لتمضى بهم فى اتجاه الجبل، حتى إذا ما تملكوا الخلاء، انفردت أرجل الأفراس عن آخرها تسابق الريح طائرة، حتى اختفت تماما في الجبل. وفى تلك الليلة حصرت عائلة العمدة خسائرها فكان عدد الموتى عشرة رجال أشداء، من بينهم اثنان من أولاده وثلاثة من أولاد أخيه والباقى من مؤيديه وخفرائه، أما الجرحى وفاقدو الأطراف وذوو العاهات المستديمة فكثير عددهم، وكلهم من عائلة العمدة شيخ البلدة سابقا.

«خلى» بالك «خرابة» كان يعلم ويثق أن البلدة كلها ستكون فى صفه كرها فى هذه العائلة وحبا فى شجاعته وهيبة أهل عائلته، وكان واثقا لذلك أن شيئا لن يحدث له فى هذه المعركة.

خذ عندك أياما وأصبحت الجثث متكومة تنتظر مجىء النيابة والحكومة، بعد دفن الجثث والتحقيق مع بعض الخلق ممن شهدوا الواقعة، انطلقت مجموعة من سيارات عالية يسمونها «الجب» تزعق بشدة وتتسلق صخور الجبل كالقطط المفترسة وأهل البلاد من فوق أسطح الدور يتفرجون على السيارات وهى تغوص فى أحشائه فتختفى فى سفوحه وتظهر ثانية على صخوره ومنحنياته يوما كاملا من الصباح إلى المساء دون طائل، فبعضها عاد إلى البلدة لاهثا وبعضها لم يعد نهائيا، وقد شهد معظم أصحاب السطوح العالية أن ست عربات دخلت الجبل من كل الاتجاهات فلم يعد منها سوى أربع. بقيت الحكومة شهوراً تطلق عصابات من الراجلين والراكبين والكلاب الشمامة تلف الجبل تدخله شقا شقا وفى النهاية عادت كلها بخسران

كبير مبين مؤكدة ـ ويا للعجب ـ أن الجبل ليس يسكنه أحد، لا من البشر ولا من الحيوانات، كيف يا بوى؟ حقيقة الأمر يا بوى أنهم حكموا على الجبل من مظهره الجوانى أقصد من طرقاته السالكة الواضحة أما سفوحه وشعابه وبحاره الجافة وشقوقه ومغاراته السحرية وقلاعه المنحوتة فيه من أيام الفراعين فليس يفطن أحد إلى مواقعها، وإن فطن بالصدفة فليس يجرؤ على الاقتراب منها، وإذا كان معهم كلاب شمامة ففى أعماق الصخور المضمومة كلاب آباؤها ذئاب لا تعرف ربنا، أما إذا هيأ لهم جنونهم إطلاق الرصاص، فسينهال عليهم وابل من النيران من أماكن خفية فى قلب الصخور.

ذمة ودين يا خال أن العربات الجب التى لم تعد من الجبل يومذاك، بحثت عنها عصابات الأهالى المتصلين بحياة الجبل فعرفوا أن المطاريد قد اعترضوها وأسروها وخبأوها فى أماكن سرية، ليستخدموها فى أغراضهم الخاصة تنفع فى جلب المخدرات وتوصيل الطلبات والحرب مع الحكومة.

قل إن الأوضاع استمرت على ذلك حوالى الحول يا بوى. وكانت عمدية البلدة قد انتقلت إلى «هريدى» ولد عم العمدة القتيل، فبدأ يسايس الناس، يأخذهم باللين، يقضى لهم مصالحهم، بدون مقابل، لكن أهل البلدة، مع ذلك، كانوا يتحسبون للنذالة المتأصلة فى نسله، فلا يصدقونه، ولا يقتنعون به. ولقد ذهب المرسال إلى «خرابة» فى الجبل بأن العمدة الشاب يسايس الناس فى الظاهر، ويدعى الأمانة، أما فى الباطن فإنه لشر متأصل فيه ينوى الإيقاع بالبلدة كلها فى قبضة الحكومة، يجعلَ الحكومة هى اليد التى ينتقم بها، إذ هو يستقبل كل

يوم ضيفا أفنديا يقوم هو بإطلاقه على الناس متكلما كلاما غامضا عن «المال» و «المكوس» و «السخرة» و «الجهادية» ، وعن أشياء تنوى الحكومة أن تحفرها وتبنيها ، أو تشقها ، ويلزمها تبعا لذلك ، أعداد وفيرة من الرجال ، ومبالغ طائلة من الأموال ، فيرتعد الخلق ويدفعون تبرعات ويبرطلون دفاعا عن أولادهم وممتلكاتهم ، ودرءًا لتهم غامضة قد يتعرضون لها ، والعمدة الشاب ـ حامل ابتدائية الأزهر ـ فرح بهذه المناظر التى تحدث أمام دواره ، وبمناظر الخلق يقعون من طولهم أمامه رعبا ورهبا ، يتحولون إلى عبيد ، يتوسلون ويستجدون الرحمة والرأفة من هذه الطرابيش المعووجة على ناحية ، والمستعدة دائما للحكم عليهم بأربع سنين فى الزنازين يا خال .

لم تمض ثلاثة أيام على وصول هذا المرسال إلى «خرابة» فى الجبل ، حتى تهيأ للنزول فى اليوم الرابع ، فملأ جيوبه كلها بالطلقات النارية ، وحمل بدلاً من السيف سيفين وخنجرين وربط كل ذلك فى ثيابه المحكمة حول جسده رباطا وثيقا ، لكل شىء جرابه المخصوص ، ومثله فعل الفرسان الأربعة باتوا من رجاله بعد أن تنازل عنهم أصحابهم كهدية منهم لـ «خرابة» ، الذى سبق له أن خدمهم جميعا خدمات كبيرة يا بوى ، ونفّذ لصالحهم عمليات لم يكن سواه يستطيع تنفيذها مهما كان جبروته ، نفذها «خرابة» بقلبه الجامد كأنه يمر على قارعة الطريق للتخلص من ضرورة . الفرسان الأربعة أحبوا «خرابة» حبا شديدا وسهروا على حياته وملذاته بإخلاص ، ودربوا له عشرات من الولدان لا حصر لهم ، جىء لهم بخيول مسروقة فور ولادتها ، ومرباة على الغالى فى اسطبلات الجبل العريضة بلا حدود ، أما هو فقد أسكن الولدان فى دور فى البلدة وفى قصور منحوتة فى الجبل حسب

درجاتهم فى القوة وفى الصفاء والإخلاص المتين. بفضلهم كان «خرابة» يتعالن النزول أحيانا إلى البلدة كل سوق، ليمشى راكبا فرسه الأدهم مخترقًا جمهور الباعة فى صلافة وكبرياء، لا يهمه أن يخوض الفرس فى سبوبة بائع لخمة، أو يدفع لكعيا متطاوسا فيرميه على الأرض مفلقسا، ولو قام وشتم فإن عشرات من أولاد الحلال المشفقين عليه سوف يسارعون بإغلاق فمه وتنبيهه بصنعة لطافة، إلى الدواهى الخطرين السائرين خلف «خرابة» على الدوام على شكل باعة سريحة وناس عاديين طيبين، لكن آه لو احتكوا بك أو احتككت بهم يا بوى: قرصتهم والقبر والعياذ بالله يا خال؛ بفضلهم كذلك يا بوى كان يذهب مسافرا إلى مصر المحروسة فى مولد الحسين بن على سيد الشهداء، وإلى طنطا فى مولد البدوى، شىء لله يابو عرب، وإلى دسوق فى مولد الدسوقى شىء لله يا أبا العينين. يمكث فى المولد أسبوعه كله على هيئة واحد من الدراويش الصالحين لا يساورك الشك فى منظر وجهه البرىء المشع وذقنه النظيفة والمسبحة المتدلية بين يديه كأسلاك الاتصال بينه وبين الذات العلية، شيخ ومن حوله دراويشه يرتعون فى معيته، رجل هو - أحيانا - من المجاذيب السابحين فى الملكوت لا بأس. إن المطاريد لا تنقصهم الحيل يا بوى، وحيلهم كلها خطيرة، ولهم فى تجمد قلوبهم وبرود أعصابهم بلاط ثابت يمشون فوقه بعزم شديد، دون أن يطرف لهم جفن يا خال، اسألنى أنا عنهم يا بوى.

كان «خرابة» قد ركب فرسه الأدهم وتلبسته شخصية عنترة بن شداد، فأخذ يصيح ويجعر ويتحسس الحصان، فيبرطع فى المدى المتاح من الجبل ثم يرتد عائدا ويتنطط بحصانه كلاعب الكرة، يسخن قبل نزوله الملعب، أما الفرسان الأربعة فقد ركبوا هم الآخرون وأخذوا

يصيحون فى الولدان الذين سيمشون فى الطليعة راجلين، أن يسرعوا فالوقت قد حان، والشمس لحظتئذ كانت تلهث فى محاولة لانتزاع قرصها الأحمر الواقع بين سنامين متجاورين على ظهر الجبل متعاليين متحدين والقرص يصرخ بأعلى ألسنة اللهب، والأفق برمته يكاد يتفحم بالسحب السوداء، ومع ذلك فشرخة الهلال كانت كأصبع الموز واقفة على مبعدة قليلة فى بطن الأفق البعيد وكان يتحرك فيبدو مثل الكتكوت، يبزغ شيئا فشيئا وقشر البيضة كتل من السحب المبيضة المغبرة المتكسرة، لحظتها صاح «خرابة» قائلا: «قدامى يا رجال» . فهبط فريق من الولدان المسلحين بالمطاوى والسنج والقضبان الحديدية مهمتهم فتح الطريق واستكشاف غوامضه وأسراره، للمسارعة بإبلاغ القادمين وراءهم ليسرعوا بدورهم فى الارتداد. هؤلاء الولدان مدربون على اكتشاف المؤامرات والكمائن والخيانات يا بوى، ولد زوانى يا بوى أجارك الله منهم، يقدرون على التصرف النهائى عند اللزوم، إنهاء حياة رجل أو رجلين مصدر شك أهون عليهم من الرجوع خطوة واحدة إلى الوراء.

إن هى إلا برهة وجيزة وهبط فريق من الولدان راكبى الحمير والبغال الحمولة والخيول السريعة العدو، مهمتهم حمل الذخيرة الاحتياطية وحمل الرسائل الفورية عند تلقيها فى منتصف الطريق من الراجلين المتقدمين، فيكون سهلا على الخيول أن ترتد مسرعة لكى تعطل «خرابة» عن النزول، تحيط به، تسربه من مكان خفى إلى مكان أخفى. دقائق معدودة وهبط «خرابة» يحوطه الفرسان الأربعة، اثنان على يمينه ويساره، وواحد أمامه والآخر خلفه مباشرة يتلقى عنه أى غدر محتمل. دقائق أخرى معدودة وهبطت فرقة من الخيالة بالكرابيج

المخفية، أما الطريق من مهبط الجبل إلى المكان المقصود فمحفوف بالحرس المسلح فى مظهر خفى. وصل «خرابة» إلى دوار العمدة فوجده قاعدا بين بعض الطرابيش المعووجة على ناحية وبينهم ثلاثة من الفلاحين. لم يكن «خرابة» يعرف أن هؤلاء الذين يجلس العمدة معهم هم المحضر التابع للمحكمة جاء يحجز على أحد الفلاحين وفاءً لضريبة أو أظنها غرامة من غرامات الحكومة، التى لا تفرغ على الدوام تكبل خلق الله بالقيود تحرمهم نسمة الدنيا ياخال، أما الطربوش الثانى فإنه مهندس الرى الذى جاء يعاقب بعض الناس على اعتداءات وهمية على أراضى الحكومة، وأما الطربوش الثالث فإنه لواحد مجهول من عباد الله، تعرف به المحضر على مقهى مجاور للمحكمة فى المدينة فاصطحبه فى هذا المشوار الرسمى، إذ إن وجود أفندى آخر معه يقوى موقفه فى نظر الناس ويجعل البرطيل مضاعفا لقسمته على اثنين، باختصار، جاء به المحضر لينصب به على الناس. لكن سوء الحظ جمع بينهم فى تلك اللحظة من أجل قدرهم.

دوار العمدة كانت شبابيكه مفتوحة على البحرى، لذا فقد كان «خرابة» وهو مقبل نحوهم ينظر إلى وجوههم ورقابهم، وعلى مبعدة قليلة أعطى الأمر لرجاله بالتوقف، وبأمر آخر توزعوا على كل الشبابيك بسرعة، ومن خلال قضبانها الحديدية المتشكلة على هيئة مربعات ودوائر ومستطيلات متداخلة، نشنت أرواح البنادق على أرواح الجالسين من رقابهم وانطلقت الأعيرة النارية متتالية متضاعفة كالمطر ينصب نيرانا متلاحقة كبرق الرعد المخيف، فسقطوا جميعا جثثا هامدة: العمدة والثلاثة الطرابيش وخفيران وتملّى غلبان ونفر أجير. قبل أن تفيق سماء البلدة من دوى الانفجارات النارية كانت الخيول قد

ارتدت مسرعة تكاد حوافرها لا تلمس الأرض، ومن خلفها يلتئم الطريق شيئا فشيئا فيتدفق فيه العوام ويتعرف الحرس على بعضهم البعض يدفعون عن بعضهم البعض ما قد يلحق بهم من عدوان متوقع، ثم إنهم صاروا يذوبون فى الطريق، وبدأ الطريق يصفو من عكارتهم وتأهبت عائلة العمدة للطم الخدود والصراخ وإرسال المراسيل هنا وهناك.

مثلما حدث فى القتلة الأولى حدث هذه المرة، حضر طاقم من العربات الجب والخيول والرجال والكلاب، طافوا بأطراف الجبل وبعض أحشائه المتاخمة للعمران شهورا طويلة دون أن يكشفوا عن شىء ودون أن يطرأ على خيالهم أن فى قلب الجبل سوقا شعبية كاملة وكبيرة وثابتة، تباع فيها جميع السلع والمطالب من المآكل والمشارب والملابس والنساء الفاتنات، فإنها سوق الهوى والمتع وكل ما لا يوجد فى أى سوق فى أى بلد من بلاد القطر يا خال، اسمع ما أقوله لك وصدقنى بدون كلام! احذر أن تنبس بحرف، أوصيك والزمان يوصيك أن تمنع نفسك من الدهشة عن الدهشة حتى لا يصيبك الخبل. اعلم يا بوى، أننى رأيت كل ذلك بعينى رأسى ولمسته بيدى وجنبى وبطنى وظهرى ودماغى وكل عرق فىّ والله على ما أقول شهيد.

الله وكيل يا بوى، لم يعد من هذه الفرقة المهاجمة سوى نفر قليل. بعدها كفت الحكومة وهمدت، وجاءت الأخبار بأحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة وبالإعدام، فبقيت مجرد حبر على ورق وسوف تأكله الفيران حقا فى دواليب الحكومة فى البدرومات الرطبية التى تندفن فيها بعون ربك كل القوانين التى تصدر فى مصر المحروسة، نعم يا بوى، فليس يسرى القانون فى ديارنا إلا على الغلابة والمساكين وأبناء

السبيل، هى هكذا ديارنا منذ عهد آدم وحواء: «حاميها حراميها».

عائلة العمدة يئست من العمدية، كرهتها، حيث لم يعد فى رجالها من يصلح لحماية العمدية طلقة لطلقة ورجلا لرجل وجيلا لجيل، فإذا بهم يتقاعسون عن السعى وراء العمدية، فقفزت عائلة «خرابة» فاستردتها بفضل جهود من «خرابة» بذلها فى اختيار واحد من عائلة أخواله فى بلدة «دير الجنادلة»، وهى عائلة غنية مرهوبة الجانب، لكنها والحق يقال فى حالها دائما، ولا تتدخل فى شئون أحد، اختار «خرابة» خاله «عبد الكريم أبو هميلة» وضغط عليه حتى أرغمه على ترشيح نفسه فى البرلمان عن دائرة البلدة، وكان الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» مستنيرا وورعا وفيه تقوى، حتى لقب بالشيخ مع أنه لم يتعمم فى حياته، ولم يدخل الأزهر وإن قرأ القرآن وخطب فى المسجد مثل فطاحل الشيوخ والخطباء، وكان الرجل يأنس فى نفسه القدرة على النجاح فى الانتخابات لحسن سمعته وجانب عائلته المرهوب لكنه كان عازفا عن الدخول فى معارك من أى نوع، ويعمل حسابا لوصية تركها جدهم القديم ـ الذى قيل إنه كان من مماليك السلطان الغورى ـ يوصيهم فيها بأن يبتعدوا عن سوق السياسة فلا ينزلوه طوال عمرهم، لكن الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» تحت ضغط «خرابة» المتواصل قرر ترشيح نفسه بالفعل، وبالفعل فاز بالدائرة بجولة انتخابية واحدة قام بها رجال «خرابة» وصبيانه برسائل شفوية لرءوس العائلات، وكل رأس من هذه الرءوس يعلم علم اليقين أنه معرض للخطف ذات يوم، ولهتك الحرمة حتى يدفع الفدية، ولذا ما إن يلتقيه رسول «خرابة» حتى يلتقيه الفزع والمتعة فى نفس الوقت، إذ إنه سيكون سعيدا غاية السعادة

بتلقى رجاء «خرابة» وسيكون أكثر سعادة بتنفيذه.

بين يوم وليلة صار الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» نائبا عن الدائرة وارتمت العمدية تحت أقدام «خرابة» فشاطها بقدمه إلى أعلى كالكرة ثم تلقفها بيديه وسلمها لابن عمه فى حفل كبير، فلقد حضر بنفسه حفل تنصيب ابن عمه «عبيدة» على العمدية، وللعلم يا بوى، هذا الحفل شرفه بالحضور طرابيش تخينة من طرابيش الحكومة لم يفطن أحد منهم - أو لعله لم يعلم أصلا - بأن هذا الولد المجدع الجالس بينهم ملء هدومه وقعدته رغم نحافته هو «خرابة»، صاحب أكبر صيت بين مطاريد الجبل. ولم يكن أحد منهم - فضلا عن ذلك يا بوى - يعرف أو يخطر على باله أن «خرابة» هذا الولد المفعوص هو الذى سيدير العمدية والدائرة الانتخابية من الجبل، ولسوف يصل صوته إلى البرلمان وربما إلى «أبو عبد الناصر» نفسه. فهكذا الحكام دائما يا بوى يحاربون اللصوص الكفرة الفجرة، لكنهم فى داخلياتهم، فى ذوات أنفسهم يحبونهم ويتمنون أن يصيروا من رجالهم، ألم تسمع بذلك اللص الظريف الذى أحبه السلطان وحاربه فلما لم يقدر على هزيمته أتى به وعينه رئيسًا لشرطته؟ جاء السلطان بلص يحارب به اللصوص، والسلطان يحسبها لنفسه قائلا: ليسرق رجل واحد هو رئيس الشرطة خير من آلاف السارقين، وغاية الأمر يا بوى أن كل سلطان يريد أن يؤمن ظهره بقوة وهو لن يجد هذه القوة وهذه الحماسة إلا عند عتاة اللصوص والمجرمين ممن يقدرون على سفك الدم دون أن يطرف لهم جفن يا بوى. هذه هى الحقيقة يا بوى فدعك من أى كلام آخر.

الخامسة ـ يوم الفزع الأكبر

ها هو ذا «خرابة» قد صار فى عز مجده يا بوى. وفى مقدوره أن يتزوج ابنة أحد الباشوات المصاحبين لخاله «عبد الكريم أبو هميلة» . لكنه ـ ويا للعجب ـ تقدم ليخطب شقيقتى «سعدية» ولقد اتضح لى ـ ويا للعجب أيضا ـ أنه خطبها إكراما لنسل أعمامى الفقهاء أولا ، ولجمالها الفريد ثانيا ، حيث إنها كانت ذات بشرتين على وجهها يابوى ، فتحت بشرتها الخمرية القمحية بشرة أخرى حمراء كلون الورد تنضح على البشرة القمحية على الدوام. وقال لنا «خرابة» بالحرف الواحد يوم الخطوبة : إنه خطب «سعدية» لأنها تجمع بين كرم الأصل وجمال الخلقة وحسن الخلق ، والسلوك والسمعة وهذا ما يضمن أصلا كريما لنسله القادم .

وبالفعل يا خال ، أكرم الله شقيقتى «سعدية» فأنجبت له ولدا وبنتا جميلين تبارك الخلاق فيما خلق . كما أكرم شقيقتى «هندية» فأنجبت لزوجها ولدًا فرح به صاحبى «هليل» كأنه ابنه هو .

وقد بات من الواضح لنا وللبلدة كلها يا خال ، أن الحياة فى حضن شقيقتى «سعدية» قد طابت لـ «خرابة» ، فركن إليها واستحلاها إلى آخر الحدود ، فبات لا يغادر حضنها إلا فى أوقات معينة تستلزم وجوده فى الجبل ، أو حين يبلغه البريد أن فى الجو غيامة .

إلى أن كان يوم لا رده الله ولا أرانا وجهه ثانية أبدا.

كنا فى ساعة القيالة و«خرابة» راقد فى حضن زوجه القديمة مدخرا الليل كالعادة لحضن زوجه «سعدية»، إذ جاءه البريد بأن أقداماً غريبة وطأت أرض البلدة متوجهة إلى دوار شيخ البلد وهو من عائلة أخرى بعيدة، فلماذا لم يتوجهوا لبيت العمدة؟! الأمر إذن فيه سر غامض وعلى «خرابة» أن يتخذ كامل احتياطاته. فما كان من «خرابة» إلا أن سحب نفسه من حضن زوجه واغتسل بسرعة ولبس ثيابه، وأرسل فى الحال نفرا من الخفراء النظاميين يتسقط الأخبار خلسة من دوار شيخ البلد، فعاد رسولهم لاهثا يبلغ «خرابة» أن خبر استقراره فى البلدة قد وصل إلى الحكومة، وأن المباحث جاءت تسأل فقط عن حقيقة الأمر لكن من الواضح أنهم جاءوا للقبض عليه بدليل وصول عربة سوداء محملة بالجنود المدججين بالسلاح!!

كان «خرابة» يتلقى هذا الخبر وهو راكب فرسه وراء باب الحوش ومن حوله الفرسان الأربعة وهم راكبون، فما إن سمع الخبر حتى أزاح الباب وغمز الحصان فانفلت به خارجا وانفلتت وراءه خيول مرافقيه فتملكوا الطريق المتجه إلى خارج البلدة.

وا.. ه يا خال! واه.

أدركته الشرطة السوداء يا خال، التى اتضح أنها غير الواقفة عند دوار شيخ البلد، وأنها كانت كامنة فى مكانها هذا تحسبا لخروجه. الجنود كانوا خائفين فأطلقوا على الخيول وابلا من الرصاص، فسقطت بعض الخيول على الأرض ومن بينها الأدهم حصان «خرابة»، فنزل

«خرابة» على الأرض يجرى متخفيا من حلاوة الروح، فظل يجرى وبعض الجنود وراءه وهو يضللهم ويزوغ منهم فى الحوارى الضيقة وبين النخيل حتى وجد أمامه قمينة مبنيَّة حديثا وطوابق الطوب لا تزال خضراء لم تشتعل تحتها النيران بعد.

شاهده الجنود المطاردون وهو ينحرف مستترا بهذه القمينة، فلما لاحقوه، وجدوا ثلاث قمائن متجاورة، تفصل بينها طرق ضيقة، لا تتسع لمرور شخص بينها. وكان من الصعب عليهم أن يعرفوا أى طريق سلك، فلا بد إذن أن يكون قد ذاب فى الهواء أو ابتلعته الأرض، هكذا صاروا يقولون يا بوى، وهم يصفقون كفا على كف.

انشغلوا به فلم يتمكنوا من القبض على أحد من صحابه، إذْ هربوا جميعا يا بوى. لكن أمر «خرابة» كان مثيرا للغيظ يا بوى وكانوا جميعا كأنهم حيكوا من الخلف، فصاروا نسوانا، وهكذا انتشرت فرق من العسكر راحت تفتش القنوات والترع وجذوع النخيل، ويقف على كل قمينة طوب نفر من العسكر، وراح نفر آخر يفتش دور البلدة كلها داراً داراً وخُنًّا خُنًّا وصندوقا صندوقا، حتى غطيان الحلل المقلوبة على الأرض رفعوها ونظروا تحتها مفتشين عن «خرابة»!! أى والله يا بوى فالحكومة حين تخيب تصبح أعبط من الخواجة «ينى»، الذى جاء يوما ليبيع الماء للصعايدة فى زجاجات، لم يسلم صاحب دار أو أحد المارين فى الشوارع من ضربهم. كانت مجزرة والله يابوى، ضرب فى ضرب فى ضرب، بدباشك البنادق وبالكرابيج والمساوق والجزم الميرى، ضرب غبى أعمى لا يرحم عجوزا ولا يشفق على مريض، والسؤال يتكرر مع كل ضربة: خرابة فين يا ولد؟ والجواب أيضا يتكرر: ما

اعرفش! ما اعرفش، ما اعرفش، انضربت البلدة كلها ضربا مبرحا لم ينج منه النساء ولا الفتيات ولا الأطفال.

عند قمائن الطوب أمسك العسكر بأحد أصحابها وظلوا يضربونه وهو يقول: ما اعرفش، حتى تعبوا من الضرب، فكتفوه وانهالوا جميعا عليه حتى لفظ أنفاسه، فانتقلوا إلى رجل آخر من أصحاب القمائن وانهالوا عليه بالكرابيج السودانى وهو يقول: ما اعرفش، فلما أوشك يلفظ أنفاسه هو الآخر جاء طفله الصغير يصرخ ويلطم خديه قائلاً للضارب: «اترك أبى وأنا أريك مكان «خرابة»، فتركه وتقدم الطفل فأشار إلى قمينة الرجل الميت وقال: هنا، فصار العسكر ينظرون إلى قمينة الطوب من كل ناحية فإذا هى مجرد بناء مسدود بالطين من كل ناحية، فتعجبوا من إشارة الطفل، وظنوه محتالا صغيرا يسرح بعقولهم، شخط فيه أفندى متقمط بالأحزمة: «فين يا ولد؟» ، فأشار الطفل مرتعشا إلى طاقة صغيرة مسدودة بالطين وقال: «هنا». أخذ الضابط يتحسس الطاقة فوجد طينها طريا، فأشار إلى بعض الرجال أن يزيلوا هذا الطين، فتقدم نفر من العسكر ونخروه فانفتح فى القمينة ثقب كبير يتسع لجسد كجسد «خرابة» ، وتبين لهم أن «خرابة» لحظة أن كان يجرى لحق به الرجل الميت فأمسكه وسرب جسده كالثعلب من الخلف، فإذا هو فى سرداب طويل معد لحطب النيران التى ستشتعل تحت هذا الطوب، ثم إن الرجل الميت أغلق عليه بالطين فى لمح البصر تاركا ثقوبا خفية يدخل منها الهواء.

نظروا جميعا فى ثقب السرداب فرأوا جسد «خرابة» ممدداً كالثعبان، فجروه حتى أخرجوه، وفى الحال كتفوه، وهم يزغردون كالنساء، فى مقابل صراخ منتحب يرتفع أواره فى سماء البلدة ـ

شحنوه فى عربة الشرطة وجروا به إلى دوار شيخ البلدة الذى كان منذ شهور قليلة قد نجح فى أن يركب لنفسه تليفونا خاصا من حر ماله ـ البلدة كلها من خلف العربة تلطم الخدود وتصرخ وتقذف العسكر بالطوب والحجارة وأقراص الجلة الطرية والشتائم المقذعة، والعسكر يهددونهم بإطلاق الرصاص فى الهواء فيزداد روع الناس وينهالون عليهم بالطوب حتى نفدت ذخيرة العسكر، فاستعملوا العصى الغليظة والكرابيج.

فى دوار شيخ البلدة وقف الحكمدار كالزعزوع الأجرودى يروح ويجىء فى فرح شديد، وجهه أصفر كالليمونة وعلى شفتيه الدقيقتين شارب تركى غشيم. العسكر وضعوا «خرابة» أمامه مكتوف اليدين والقدمين فبدا صغير الحجم بشكل لم يتوقعه أحد، بدا صبيا صغيرا غرا، نظر إليه الحكمدار بغيظ قائلا فى سخرية: «إنت بقى خرابة؟! إنت؟!». فرد عليه «خرابة» قائلا: «ولسه خرابة! وسأبقى خرابة!». فما كان من الحكمدار إلا أن بصق فى وجهه يا بوى، وقال بغيظ: «ماتردش علىّ يا لوطى يا ابن القحبة!». فإذا بـ«خرابة» يرد عليه البصقة بأشد منها حتى ملأت وجه الحكمدار، وقال: «اللوطى هو أنت والقحبة هى أمك!». الحكمدار صار ينتفض كالجدى المذبوح يقول فى شعور بالخوف: «تشتمنى وتبصق فى وجهى يا لوطى؟» ـ رد «خرابة» على الفور: «ما لوطى إلا أنت».

ثمة خفير نظامى كان يقف بجوار «خرابة» حاملا بندقيته ذاهلا لا يعرف ماذا يفعل، وإذا بالحكمدار يصرخ فيه قائلا: «أفرغ فيه الرصاص يا خفير!». فوقف الخفير ذاهلا يا بوى، فتح فمه مردداً كالأبله:

«هه!» ، فى حين ينتفض الحكمدار مواصلا الصراخ فيه : «إنى آمرك أن تفرغ فيه الرصاص» . تلجلج الخفير المسكين ، ماذا يفعل يا بوى؟ صار كالفأر فى المصيدة يلتفت حواليه يستغيث بالله فى صمت ، وأخيرا خلع البندقية من كتفه وتقدم بها نحو الحكمدار قائلا : «لا أقدر يا سعادة البيه! هذه بندقيتكم ، فخذوها! وهذه لبدتكم أيضا ، فخذوها!» ووضعهما على الترابيزة ومضى ، فصار الحكمدار يضرب فى «خرابة» ببوز حذائه قائلا : «تشتمنى يا كلب!» و «خرابة» يرد عليه قائلا : «ما كلب إلا أنت وأبوك» . طاش صواب الحكمدار يا خال ، نزع مسدسه من خاصرته ، أفرغ فى قلب «خرابة» ست رصاصات كومته على الأرض قتيلا .

واه يا بوى على منظرك يا خرابة وأنت تنتفض فى قيدك كالذبيحة من حلاوة الروح والدم ينزف منك على الأرض .

الجنون أصاب الناس كلهم يا خال ، فاندفعوا صارخين مولولين ، واندفع شيخ البلدة فأمسك بالتليفون وصاح بكل ذعر : «يا مديرية! أنا قبضت على الشقى المعروف خرابة ولكن سيادة الحكمدار قتله الآن بست رصاصات! إلحقى بى يا مديرية قبل أن تقوم المذبحة!» . فقفز الحكمدار وانتزع منه السماعة وصار يجعر فيها : «أنا الحكمدار! أنقذونا حالا! أرسلوا لنا قوة كبيرة! البلدة كلها هائجة علينا تضرب فينا بالرصاص! حتى اسمعوا! »، وصار يضرب الرصاص بمسدسه فى الهواء .

هاج الناس يا بوى هيجانا كبيرا وكانوا يلتمون أمام الدوار فى قوة متزايدة ، من بين هذا الموران والفوران لفظت الجموع من بينها رجلا

رفيع القوام ملثما يضع يده فى فتحة سيالته، اقتحم حجرة الدوار ونزع من جنبه من تحت ثيابه مدفعا رشاشا صوبه بسرعة مذهلة فى صدر الحكمدار وصب عليه النار فأرداه قتيلا فى الحال يتخبط فى دمائه، ثم اندفع يجرى داخل الدار ليوهم أنه سيختفى فى قاعاتها الداخلية، وهو فى حقيقة الأمر سيهرب من بابها الخلفى المطل على جرن موصول بالحقول البعيدة المتاخمة للجبل.

العسكر هاجوا وماجوا وتدفقوا جميعًا على الحجرة ينظرون فى أمر حكمدارهم ووابل من الرصاص ينهال عليهم من كل فتحة فى الحائط حتى تكومت جثثهم فوق بعضها بما فيهم شيخ البلد الخائن. أما نحن أهل «خرابة» ونسبه، فقد جرينا هنا وهناك نبحث عن ذلك الرجل العظيم الرفيع القوام الملثم الذى أوقع بحكمدار الحكومة وشيخ بلدها وبعض الضباط والعسكر فى مقابل «خرابة». لففنا حول الدار، ففوجئنا بفارس يمتطى ظهر جواده يقف قرب الباب كأنه ينتظر أحدا. ثم فوجئت بعد برهة ـ ويا للعجب ـ بامرأة تخرج من الباب الخلفى منكوشة الشعر مصفرة الوجه تكاد من فرط الاضطراب تنكفئ على الأرض يا بوى، بل إنها انكفأت بالفعل ونهضت بسرعة تجرى نحو الفارس الواقف بعيدا بحصانه. شىء إلهى جذبنى إليها يا خال، فجريت نحوها كاشفا وجهها فإذا هى أختى «سعدية» !! واه يا بوى، أختى «سعدية» كانت هى الرجل الملثم الذى أوقع بالحكمدار؟! واه يا بوى كيف أصدق هذا؟ أفيك هذه الشجاعة كلها وهذه المرجلية كلها يا سعدية؟! الله يخرب عقلك يا بنت! هل ورثت ذلك من أهلنا أم أن خرابة عصر فيك رجولته عن حق؟!

لحقت بها يا خال وأنا من شدة إعجابى بها وشدة خفقان قلبى خوفا عليها أكاد أقبل الأرض التى تجرى عليها، حين وصلت إليها عند الحصان استصغرت نفسى جنبها والله يا بوى ووجدتنى أتلجلج ولا أعرف كيف أتكلم معها. وحق النبى أشرف خليقة الله لقد غاب صوتى كما يغيب لحظة أتكلم مع رجل واعر كبير المقام. وكانت هى ـ شأن كبار المقام ـ قد أسلمت يديها للفارس الذى أركبها خلفه، وقد ظهر لى أنها ستتجاهلنى وتمضى غير عابئة بى، فصرخت بكل عزمى: «سعدية! رايحة فين؟!» . قالت: الجبل يا روحى! لم يعد لى مكان سواه! سوف أحتل مكان «خرابة» حتى آخذ بثأره كاملا ممن وشوا به! لا تخشوا على من شىء فأنا رجل كما تعرف والآن صرت أرجل مما تعرفون!» ، ثم هزت ساقيها تستحث الحصان على المشى فحركه الفارس فانطلق يسبق الريح فى اتجاه الجبل.



السادسة ـ يوم الطوفان

كالنسوان هرولت جزعا مولولا أشق الثياب، أصوصو فى الشوارع المبذورة كلها بخلق الله، المنذهل الصارخ المولول، فما يدرى أحد علام يصرخ جاره وعلى من يولول: تقول قامت القيامة يا بوى وتحقق قول عمى الفقيه، إذ انذهلت كل مرضع عما أرضعت. أطفال صغار يزحفون على الأرض يصرخون لله ما يغيثهم يا خال، أقدام الذاهلين تدوسهم تعجنهم وتمضى متعثرة فيضيع صراخ اللحم المدهوس فى صراخ عمومى، آت من عموم النواحى فيه النواح والصوات والعراك والضرب والرصاص. خلق كثيرون يروحون ويجيئون فى كل مكان من كل مكان إلى كل مكان ولا أحد يعرف ماذا يفعل ماذا يحدث ماذا تخبئ الأقدار. لو رأيتهم ظننتهم جماعة كثيرة وهم كل واحد منهم فى واد يصطدم بأخيه بالحائط بالسائر، يدوس فوق ابنه وفراخه وهو لا يدرى ماذا يفعل. من حين لحين يدب فيهم ذعر مفاجئ وكبير فإذا هم طوب يجرى يتقاذف يتصادم. إذ بعربات الكميون والكافورى تدخل البلدة مشحونة بالعسكر المسلحين بالعصى والدروع والقنابل والبنادق. وحيث أنت ذاهل فى طريقك ناسيا ماذا أنت وماذا كنت، فيدهمك وقوف العربة وتقافز العسكر منها كالقرود المتوحشة تتجمع

فى سـرعـة الطيـور تهـجم عليك صـفـا واحـدا بالعـصى والقنابل والرصـاص، كل واحـد من الخلق وحظه يا خـال. منهم من مـات برصاصة، ومن لم يمت بعشر رصاصات، ومن مات بزغدة بوكس فى الجنب، ومن مات من الخضة.

هاجت النساء يا بوى وازدحمت السماء بالأصوات يا بوى، بدوى الزلازل يا بوى، نبحت الكلاب فى عواء صارخ يا بوى، انذعر الحمام واليمام والغربان والحدآن. لعلعت طلقات المدافع الرشاشة تحلف اليمين يا بوى أنها صبغت السماء بلون جهنم، وارتفعت ألسنة اللهب فى كل الأركان البائنة من خيمة السماء وكانت أسراب الحمام الملتاث - بنفس النبالة المعروفة عنه يا بوى - تتكفل بنقل بريد اللهب على جناحيه إلى أحمال القش والحطب، وأقراص الجلة فوق أسطح الدور، وفى الأجران، وعلى شواشى النخيل الجاف، والأشجار اليابسة، وكان صوت طقطقة النيران يبتلع كافة الأصوات يعزل البلدة عن رحمة السماء حتى صرنا داخل كرة من النيران الحمراء تنتظر وصول معجزة إلهية يا خال، والواحد منا ماشى يطوح وجهه يمينا وشمالا كالفقيه عندما يقرأ تحاشيا لألسنة النار الصغيرة التى كانت تتطاير فى الهواء بسرعة مذهلة كالريش الملون كحلوى غزل البنات إن تفاديتها بوجهك علقت بخلقاتك التى تلبسها يا بوى.

الله وكيل يا بوى، الخلق أفاقت مرة واحدة، كيف يا بوى؟ أشهد يا بوى والله وكيل أننى ما كنت أراهم يفيقون إلا حينما يتمكن واحد من خناق عسكرى، واه يا بوى مما يجرى لحظتها تقول: كلب أمسك بقطعة عظم وقبض عليها فصارت هى وعمره سواء. هذا وحق الله ما

رأيته يا خال، كل الذاهلين ما إن يروا عسكريا في قبضة الأهالى حتى يفيقوا فجأة ويرتموا فوقه نهشا وتمزيقا. يظهر يا خال أن الأهالى حين ذاقوا طعم لحم الحكومة وجدوه لذيذا فأصابهم السعار وركبهم جنون الفوقان أو قل فوقان الجنون، وقالت أنيابهم هات يا حكومة لحمك الطرى المعلوف من دمنا لنأكله ونمرمشه، هات لحمك يا حكومة هات فجحا أولى بلحم ثوره.

تحلف اليمين يا خال، أن جميع ما كان فى أيدى العسكر من سلاح خطفته الأهالى ـ أما جثث العسكر فواه عليها وعلى ما جرى لها، يعز على الفائت أن يرى جثة بثياب صفراء دون أن يمزقها، ولم يعد يميز جثث الأهالى من جثث الحكومة سوى الجزمة الميرى فى الأرجل، فكل من وجد الأهالى فى قدميه جزمة ميرى حملوه وألقوه بجُثته فى الحرائق التى صارت متجاورة مندلعة لا أمل فى مقاومتها.

الله وكيل يا بوى، لو كنت مكانى فى قلب هذا الأتون لأيقنت أن البلدة فانية حيث الكل فى غيبوبة يائسة. ولا بد أن ملائكة من السماء اخترقت خيمة الجحيم ونزلت بخراطيم المياه والبلاليص حتى أطفأت النيران كلها، لكننا عدنا من تشردنا الطويل فى البلاد والغيطان المجاورة لنبحث تحت أنقاضنا عن بقايا متاع، فلا نجد إلا بقايا لهب مشتعل وركام سواد متفحم.

* * *

السابعة ـ يوم الطلوع من الهديم

الناس أصبحوا يعثرون على ذويهم بالصدفة والله يا بوى. يتصادف أن يكون العجوز ماشيا فى ذهوله منذ بضعة أيام، لا يعرف أين يذهب بل لا يعرف نفسه، فإذا بابنه أو أحد أقاربه يلتقيه على الطريق فى بلدة بعيدة فيأتى به. أما أنا فحينما أفقت وانمحت من رأسى ومن عينى خيمة الجحيم الحمراء المغبرة بدخان أسود، وبدأ الهاتف يجيئنى ويقول لى: إننى لى دار وأهل يجب أن أسأل عنهم وأعرف المصير الذى آلوا إليه. كنت لحظتها كمشانا فى حضن الجبل السفلى بين عشرات من العرايا المجروحين المليئة أجسادهم بالقروح واللهاليب. وكنت أتذكر أننى شاركت فى إطفاء بعض الحرائق فى أطراف البلدة، ولم أعرف لماذا لم أجر لإطفاء الحرائق التى لابد أنها نشبت فى دارنا هى الأخرى.

زعلت من نفسى آخر زعل والله يابوى، جاءنى وازع يوزّنى على قتل نفسى فى التو واللحظة قبل أن أعرف أى خبر. تذكرت أن العسكر حين طاردونا جريت مع الذاهلين حتى وصلنا إلى أطراف البلدة فقطعت علينا الحرائق طريقنا من كل ناحية. فطردت هذا الهاتف وقلت لنفسى: إذا كانت أختى «سعدية» هجمت بمفردها على الحكومة وجندلت حكمدارها بمدفع رشاش؛ فإننى يجب أن أختشى على دمى

وأكون رجلا يستطيع الوقوف أمام الحرائق والأخبار المؤسفة. كنت أجرى نحو الدار والطريق يلخبطنى ويلخبط اللخبطان فأعود إلى الوراء فأتلخبط أكثر فأعود ثانية لأدخل حارة يتضح بعد برهة أنها ليست حارتنا.

مكثت على ذلك من الضحى حتى أذان العصر أخبط فى البلدة تخبيطا دون أن أعثر لحارتنا على أثر. منظر البلدة قد تغير يا خال، إذ إن دوراً احترقت بكاملها على الجانبين وغيرت وجه الشارع، ودوراً انهدمت فوق دور فسدت الشارع، حوارى انسدت من ناحية وتم فتحها من نواح أخرى فنشأت حارات جديدة لم نكن نعرفها، حوارى أخرى كان بينها وبين بعضها مسافات كبيرة نمشيها فى تلت ساعة أصبحت داخلة فى بعضها. التقانى صاحبى «هليل» أجر خلقاتى معفرا ذاهلا وكان هو يجر بعض الجمال المحملة بالطوب، فتركها تمضى إلى وجهتها المعلومة وجرى نحوى يأخذنى بالحضن يقول: «دوَّختنا يا بو العم إلهى ربنا يدوخك! يومان ونحن نسأل عنك فى كل مكان! خفنا أن تكون ضعت فى النيران مع الذين التهمتهم الحرائق! أو دفنت تحت الهديم! وقلنا لعله هرب مع الذين هربوا من مدافع العسكر وقنابلهم إلى بلاد بعيدة!».

قلت وأنا أبكى من كل عين حفان: «مضى على الحريق إذن يومان يا خوى!»، قال: «سلامة عقلك! مضى يومان وليلتان! تعال! تعال!». قلت ذاهلا وأنا أمضى معه كطفل عثر على أبيه فى غربة موحشة: «ألا تعرف أين ذهبت دارنا يا هليّل يا خوى!». ضحك بعين دامعة وأشار نحو كومة هديم على بعد حارتين بين بضعة جدران، تقف وحدها

عريانة وقال: «هذه داركم فلا تأمل فيها الآن! خل عوضك على الله! لابد أنه سيعوضك! فكن صادق الإيمان ولا تحزن على ما حدث!».
وقعت من طولى يا خال، رميت نفسى على الأرض، صرت أمرمغ رأسى فى التراب وأصرخ بعز ما فىّ من ألم: «أمى! أخى! أمى! أخى»
. قبض «هليل» على كتفى ورفعنى صائحا: «امسك نفسك يا جدع فأمك بخير وأخوك أيضا بخير وهما عندنا الآن فى دارنا! كان أبى عند الحريق قرب دار حماته فحوَّد ليختبئ من النيران! فلما شبكت النيران فى داركم كان هو أكبر المطفئين وكنت وحدى أطفئ النار التى شبكت فى دارنا من الناحية البحرية ولم ينفعنى سوى الطلمبة فى حوش الدار! هندية بالطشوت والحلل! فى ظرف ساعات تمكنا من إزالة أحمال القش والحطب على سطح دارنا ودور الجيران التى لم تلحقها النيران! ولولا أننا هدمنا الجدران فوق الخشب والحطب المحترق ما نجونا! ولقد عاد أبى بحماته وأخيك إلى دارنا! وأنا الآن ذاهب بهذا الطوب لترميم الجدران المتهدمة ترميما مؤقتا!».

تلقف قلبى هذه الكلمات يا بوى، كما تتلقف الأرض الشراقى قطرات الغيث، فاستكن قلبى فى صدرى قليلا، لكننى بقيت أولول وأشد خلقاتى أكاد أمزق ما بقى فيها، فلكزنى «هليّل» قائلا: «لماذا تبكى يا جدع مادام الله نجاك ونجى أمك وإخوتك؟!» قلت باكيا: «الدار يا هليّل! كيف أبنيها من جديد بعدما انهد حيلنا؟!» قال «هليل» بكل بساطة: «مثلما بنيتموها فى الأول تبنيها ثانية بإذن الله!». جعرت من جوف بطنى: «كيف يا هليّل كيف؟! من يده فى الماء ليس كمن يده فى النار!». قال «هليّل» وهو يغمزنى فى كتفى: «الحكومة سوف

تساعد الخلق يا جدع! أتظن أنها تتركهم هكذا بعد أن بهدلتهم كل هذه البهدلة! الحكومة يجب أن تدفع الطاق عشرة!» . شوحت فى وجهه بغيظ : «حكومة ماذا يابو العم! الحكومة التى تحرقنا لا تساعدنا على القيام ثانية! » . قال : «الحكومة لم تحرقنا يا جدع! أقصد أقول لك إن الحكومة لم تحرقنا وحدها! الذى أحرقنا بحق وحقيقى هم أهل المشير!» . تسمرت فى الأرض مرتعشا يا خال : «المشير! مشير ماذا يابو خاله؟!» . قال : «أبو عامر يا جدع! أهناك مشير غيره!» ووضع يده على كتفى يستحثنى على المسير قبل أن تتفرق الجمال وتضيع من النظر .

لكننى ـ تحلف اليمين يا بوى ـ تسمَّرت فى الأرض وشعرت أن شواكيش غليظة تدق فوق رأسى تريد ألا تكف عن الدق إلا بعد أن تغطس رأسى كلها فى الأرض كالمسمار فى الخشب . قلت لصاحبى بفحيح مرتعش ينتفض بالخوف والذعر : «ما دخل أهل المشير فى هذه المسألة يابو العم! هل داست لهم بلدتنا على طرف؟! » . قال صاحبى : «اتضح يا جدع أن الحكمدار المقتول أصله من بلدة المشير وعلى صلة قربى متينة به! ولهذا كان الحكمدار منفوخا وفعل ما فعل فى خرابة وفينا!» .

يوه يوه يوه! المسألة هكذا إذن يا بوى؟! قلت وقد اقشعر بدنى من الرعب «المسألة مادامت هكذا فإننا بعون الله مقضى علينا قل علينا يا رحمن يا رحيم! وهل نحن على مقاس المشير يا بوى؟ إن مأمورا فى مركز يستطيع أن ينيمِّنا من المغرب لو أراد ويعدمنا العافية! فأين نروح من المشير يا بوى ومع أهله الذين طلعوا من المنيا وضموا الصعيد كله

تحت يمينهم؟» .

أردت أن أمشى مع صاحبى لكننى لم أستطع نزع قدم واحدة من الأرض، فصحت فى صاحبى بشىء من القوة كأننى اكتشفت أمرا خطيراً غاب عن بال صاحبى: «كيف يا خوى تقول هذا الكلام؟! ألسنا نحن الأسايطة تبع الريس أبو عبد الناصر يا خوى؟! هل يتجرأ المشير على أهل الرئيس! كيف يابو خاله؟!» . قال صاحبى وهو يشوح فى وجهى: «وأين هم أهل الرئيس يا جدع؟! إن المشير له عائلة كبيرة فى المنيا وفى كل مكان فى الصعيد! أما الرئيس فليس له عائلة! لا فى أسيوط ولا فى أى مكان غير إخوته الذين يعيشون على مقربة منه!» .
قلت مشوحا فى وجهه أنا الآخر: «كيف يا بو خاله! إننا كلنا أهل الريس وعائلته! مصر كلها أهله وعائلته! وهو لا يرضى أن يحصل ما حصل لنا!» . شدنى صاحبى من ذراعى فى استحقار واستصغار لشأنى ورد «هذا كلام الجرانين يا جدع! فضك منه! فأبو عبد الناصر مسكين مثلنا كان الله فى عونه! ألم تسمع ما يقوله بعض الناس فى نواحينا إن المشير هو الذى يسند الريس! إنهم يقولون: إن المشير هو الذراع اليمنى للريس! بدونه لا يفعل الريس شيئا! ويستطيع نزع المريسة منه وقتما يشاء! لكنه لن يفعل لأنه والريس أصدقاء عمر طويل وبين أولادهما حب وغرام!» .

قلت: «نعم أسمع! لكن الذى يقول هذا الكلام يقوله من تحت لسانه ولا يجرؤ على التصريح به، نحن لا نعرف غير الريس وحده يا أبو خاله، نشكو إليه حالنا وما حل بنا من خراب!» . شدنى «هليّل» صاحبى بقوة قائلا: «اشتك لله فلن يغيثك أحد سواه، لو كانت

الشكوى لغيره تفيد لتغطت جثث ووجوه الحكام كلهم بورق الشكاوى! إمش يا جدع، إمشى وخليك عاقلا، فأيام الملك والإنجليز لم تذهب ولكن اسمها هو الذى تغير! الأمر لله من قبل ومن بعد!»

قلت وأنا أنخلع من الأرض بسهولة: «عيب الشكوى لله أنها لا تأتى بنتيجة يا أبو خاله، إن الله عادل وعظيم أى نعم ولكن المصيبة أنه يؤجل كل الحسابات إلى يوم القيامة، فالواجب أن نأخذ حقنا بأيدينا يا أبو خاله، هل نعصى الله؟! اشمعنى هم عصوه؟! أقول لك: فلنفعل أفاعيلهم! وحينما نمثل يوم القيامة أمام الله نقول له يا مولانا هم فعلوا بنا كذا وكذا فكان لابد أن نرد عدوانهم بمثله على الأقل وهم أقوياء عنا يا مولانا ومهما فعلنا بهم لا نفعل ربع ما فعلوه بنا! فإذا لم يصدقنا حلفنا له بالله العظيم وبالقرآن المجيد أننا لم نكذب عليه!»

غمزنى فى ذراعى غمزة مفاجئة وقال يستحثنى على المشى: «أهم شىء الآن هو أن تراك أمك وتطمئن عليك أختك هندية!» .

مضيت معه يا خال؛ وجاءنى الهاتف فصحت بسرعة: «أولاد خرابة؛ ماذا حل بهم؟!». انفجر صاحبى «هليّل» فى الضحك كمن يرى أمامه مسخة. قلت مغتاظا: «علام تضحك يابو العم؟!» . قال وهو يطبطب على ظهرى بحنو وفى صوته شفقة كبيرة على حالى: «يا حول الله يا رب! حدث لعقلك شىء يا حسن؟! جسمك سليم فهل شبكت النار فى صندوق دماغك الجوانى؟!» . قلت فاغرا فاهى من الدهشة: «كيف يابوى؟» قال بجدية: «تقدر تقول لى أين كنت طول هذا الزمن؟ قل لى من الذى كان يحيكك فى الجبل أو فى مكان بعيد كل هذا الوقت؟! كيف تنسى الأمانة التى أوصتك بها أختك سعدية

ساعة نحسها حين قالت لك خل بالك من العيال؟!»

حرقني الكلام يا بوى في قلبى فصارت عيناى تكب الدمع مدراراً على صدرى، ولسانى العاجز عن النطق في يتلوى في حنكى قائلا ـ أقصد محاولا أن أقول: «معك الحق يا هليل! معك الحق! وحق هذه الليلة ومساها إننى لا أعرف أين كنت، أين ذهبت، ماذا فعلت، كل ما في دماغى الآن أننى كنت في قلب حريق يزحف بى من مكان لمكان! عقلى الآن يكاد يكون مشى من دماغى! ألا تعرف أين ذهب يا هليّل ياخوى؟! أيكون قد وقع منى في قلب الهول الكبير يا هليّل! قلبى يحدثنى أن القيامة قامت يا هليل وأننا من أهل جهنم الحمراء! قلبى يحدثنى أننا ناس طيبون ولهذا نجونا من الهول ونذهب الآن إلى موضع الموازين ليعرفوا ماذا بقى علينا لله من ديون فندفعها أو نأخذها مصاريف حبس في أحد السجون الواقعة في المنطقة الفاصلة بين جهنم والجنة الفيحاء!

قال هليل ببساطة وثقة: «عقلك الآن مدفون تحت هديم داركم!» ، ومصمص بشفتيه متصعبا ثم سحبنى فمضينا صامتين لبرهة طويلة ثم دهمنا الهول المفاجئ: عربات مصفحة وعربات إسعاف وزمامير وأجراس تصلصل وخيول يركبها عسكر بطرابيش وبرانيط وطاسات نحاسية. أراد «هليل» أن يطمئننى فسحبنى قائلا: «الحكومة تنقل الجثث من تحت الأنقاض ورماد الحرائق تذهب بها إلى كردون نصبوه خارج البلدة لفرز الجثث! فالجثث التى تفحمت وتمزقت يكومونها على جنب! والجثث التى بقى فيها شيء يدل عليها على جنب! هكذا يفعلون من صبيحة ربنا وهذه الإسعاف طلبوها من البارحة من أجل

ناس كانت لاتزال فيها الروح! زمانها الآن قد فارقتهم! ولن ينوب أصحابها من عربة الإسعاف إلا البهدلة والغربة! وقانا الله شر فظاعة غربة الجثة! فهى أشد والله من غربة الروح يا جدع!» . وتصعب «هليل» ومصمص بشفتيه قائلا: «ولكن بالله يا جدع! مع من ستحقق الحكومة الشاطرة هذه؟! الحكومة أم الطرابيش والأقمطة الصفراء! مع من ستحقق هذه الحكومة التى تعوج الطرابيش على ناحية وتحكم بأربع سنين؟! أخذوا جثة حكمدارهم وجثث عسكرهم كلها البارحة ولن يتعرفوا على باقى جثث العسكر التى أكلتها النيران!».

الدموع رجعت تهطل من جديد يا خال فيما صرت أردد: «ماقلت لى أولاد خرابة أين ذهبوا ودارهم ماذا دهاها؟!» . مسح دموعه بكمه الواسع وحضننى قائلا: «اهدأ وسأقول لك كل شىء!» . ثم تحدرت كلماته تحكى لى العجب العجاب: «النار ـ تخيل يا جدع ـ ما جرؤت على الاقتراب من دار خرابة ولابد أنها هى الأخرى تخاف ولهذا خشيت بأس خرابة! فاحترمت دياره! وألقت بنفسها بعيدا عن الجدران الواطئة، التى كانت شواشى القش على رأسها تصطدم بطلقات الرصاص، والحمائم المشتعلة تهوى فوقها موهوجة وديار خرابة كما تعلم يحميها ظهر الجبل! إذ هى تقع خلفه بين صحبة من الدور بناها أصحابها من عائلة خرابة على مشارف أراضيهم الزراعية، فكان الجبل يصد اللهب بصدره! وحين همدت النيران تماما صباح ذلك اليوم، وبدأت السماء تغسل نفسها من بطع الجحيم، وسحب الغبار والدخان المحترق، حيث ساعدتها الأشجار العالية التى لا نهاية لها، والزروع الكثيرة على استنشاق أنفاسها وصار من الممكن أن يمشى الناس فى

الطرقات، كان القلق قد وصل بأمك إلى منتهاه فراحت تصوت وتلطم وتجعر طالبة خبرا عنك وعن أولاد خرابة، إذ إن الحريق فى نظرها شب من لحظة ما وصلها خبر القبض على خرابة أما لحظة أن وصلها خبر مصرعه فكانت لحظة الموت للعالم أجمع! ولقد ماتت بالفعل مرات عديدة! وردت فيها الروح طالبة أولاد خرابة! فذهبت بصحبة أبى إلى ديار خرابة صباح اليوم عند الشروق فالتقتنا زوجة خرابة الأولى فى احتفال كبير وأكرمتنا آخر كرم، وغادرت جميع النساء المعزيات خارجة إلينا متعصبة بالشاش الأسود غارقة فى السواد إلا وجهها الكبير الأبيض كالرغيف الفلاحى المرحرح، بعينين واسعتين زرقاوين فى قلبهما كرتان ضئيلتان من سواد الثوب والشاش والليالى التى قضاها خرابة بعيدا عنها فى أعماق الجبل، كانت جميلة كالبدر ليلة تمامه! قوية كثور معلوف، مسترجلة كشيخ قبيلة، قالت لأمك بكل هدوء واتزان ـ ناسية أنها أم ضرتها ـ ورطوبة الدمع فى عينيها وشفتيها كأوراق الورد تشرَّبت قطرات الندى لتوها: «إن سعدية قد أصبحت اليوم فى مركز خرابة بالنسبة لأهله والعائلة كلها، إنها هى التى سبقت كل رجال العائلة وفتيانها لتمسح عن العائلة عارا لم تكن لتمحوه السنوات وإن طالت، وكتبت على هذه العائلة أن تبقى إلى نهاية العمر مسموعة حاضرة فى الكبيرة والصغيرة، سعدية حقنت عيالنا كلهم بحقنة الرجولية والشهامة والفداء ستظل فى دم العيال تصرخ فى العروق، إذا كانت امرأة جدكم خرابة قد ثأرت له من الحكومة نفسها فى عقر دارها فى أجعص جعيص فيها فماذا ينتظر منا نحن يا رجال ويا شباب؟! هى قد فاجأت العائلة كلها بهذا الفعل العظيم، وإنى لموقنة أن زوجى خرابة حين أحبها وتزوجها فوقى إنما كان ذلك بوحى إلهى! إن خرابة ليس

يختـار أى أحـد، من يتـزوجهـا خـرابة لابد أن تكون داهيـة من أعظم الدواهى؛ إن سعدية لم تحدثكم عن شروط عقد الزواج الذى تم بينها وبين خرابة وهو عقد آخر غير الذى قرئ عليكم ليلة العرس. فمن بين شروطه الاتفاق على تنفيذ عملية الثأر فى حموتها فى الحال وأن من تواتيها فرصة المبادرة بالعملية عليها أن تلبس ثياب خرابة وشخصيته أبد العمـر ولهـا أن تحتل مـركزه تحمل مكانتـه، تحل محله فى الجبل! إننى ضعفت لبرهة قصيرة باعتبارى أمًا تعز أولادها وإنى لنادمة عليها الآن كل الندم، إنى لأحسد سعدية قدر ما أحببتها، لقد سرقت مجدى الذى قضيت العمر أحلم به، أن أكون أول امرأة تمتطى صهوة الجبل، تسكنه بين المطاريد الرجال، سعدية الآن هى الرجل وعيالها فى عهدتى أنا! هى أمانة لن أفرط فيها لأى سبب من الأسباب، إنهم لابد أن يكونوا عيال خرابة بحق وحقيقى ولن يكونوا كذلك إلا إن تربوا فى عهدتى تحت رعـايتى أسقـيهم أباهم، وأهلا وسـهلا بك أنت الأخـرى يا أم الغالية! والله لو أكرمتنى يا أم الغالية وأكرمت زوج ابنتك تحت ثراه لبقيت معنا فى هذه الدار أنت وابنك إلى آخر الأيام!» .

فلمـا سـمع «هليل» وأبوه هذا الكلام الطيب انصـرف على وعـد بإحضار جدة الأولاد لكى تراهم وتطمئن بنفسها.

ثم قـال «هليل» وهو يحـود بى وراء الجمـال إلى الكوعة التى هى دارهم الكبيرة:

ـ «وعلى كل حال فالحمد لله أنك ظهرت لتذهب معنا لرؤية أولاد أختك!» .

وكان واضحا أن دارهم هى الأخرى قد تغيرت.

أبواب الجنة ثمانية

الأولة ـ قيام العَجَل

استقبلتنا «بهانة» زوجة «خرابة» الأولى ففتحت لنا المندرة الكبيرة وتربعت أمامنا تستقبل وفودًا من الرجال والشبان من العائلة والعائلات المجاورة، جيء بالغداء خروفا مذبوحا لتوه، فصرنا نأكل ونتفرج على أولاد أختى يمرحون فى الدار لاهين، غير عابثين حتى بوجودنا فاستعجبت والله ياخال، واستعجبت أمى، كما استعجب «هليل» وأبوه من الولاد الذين قتل أبوهم منذ أيام ونفيت أمهم طريدة إلى الجبل، ومع ذلك يمرحون، مع الأولاد يلعبون، يغنون، وأمى ترى ذلك فتزداد إشفاقا عليهم، وتسح من عينيها الدموع، لكنها فى النهاية مسحت دموعها وصارت تتكلم مع «بهانة» فى أمور الدنيا والدين، وأفاعيل الزمان، ونذالة الأقدار، وغدر الأيام، وعندما أذنت العشاء قامت لتصلى، فقامت «بهانة» لتصلى خلفها، وقمنا نحن لننصرف فحلفت «بهانة» بطربة العزيز الغالى، أن أمى لا ترجع معنا وأنها تظل مقيمة فى ديار «خرابة» حتى ننتهى من بناء دارنا على أقل من مهلنا.

«بهانة» شخصية ليس من السهل تضييع حلفانها يا بوى، كما أنه ليس من الصواب تضييعه وليس من العقل مجادلتها فى أمر قفّلت دماغها دونه. فسلمت عليها ومضيت فسلمت على أمى وشعرتُ وأنا أطيل السلام عليها أننى أودعها لغيبة طويلة لا أعرف عنها شيئا بعد، لكننى سوف أغيب، قلت لها باكيا: «ادع لى يا أم». فانبرت تدعو وهى تقيم الصلاة فى نفس اللحظة وتخلط كلام الدعاء بكلام الإقامة.

فى طريق العودة، ونحن نلف حول جذع الجبل فى سفحه السحيق كان القمر العجيب يشجع نفسه على الظهور شيئا فشيئا، ويتسحب من فوق شواشى السحاب، لينظر متلصصا، ويعود فيتخفى وراء موجات من الدخان الشبيهة بالجبال الرمادية، فلما لم يجد القمر أخطارا فى سماء البلدة، أظهر جزءاً كبيرا من كتفه، فصرنا نرى القنيان الرفيعة، والصخور المتخفية، والحفر المتنكرة. والد «هليل» استنظف صخرة كبيرة كأنها أصبع فى قدم الجبل، وجلس فوقها، فجلسنا جواره ووزع علينا سجايئره، وجعلنا ندخن فى صمت. وقتها كنت أشعر أن الدنيا تجر أنينى وتدخل معى فى هزار ماسخ ثقيل الدم، وأن أيامًا من النحوس تريد أن تتحالف معى على العيش والملح، وكانت الشرخة المتقوسة من كتف القمر تريد أن تواسينى وتكلمنى طالعة نازلة مع أمواج السحاب، تخيلتها والله تقول لى: عيشك مقطوع ها هنا يا حسن يا ولد أبى ضب فارحل، فأيام النحوس لن تنى تطاردك فى هذا البلد وليس أمامك سوى الجبل وأنت يا حلو لست فى مقاسه، أما مصر المحروسة فهى واسعة لك فيها مخارز وفسح للشقاء فارحل إليها وانج بنفسك.

ميِّلت على صاحبى «هليل» وقلت له إننى نويت السفر فى أول قطار يقف على محطة «صدفة» . شهق صاحبى واندهش أبوه وشوح بيده فى وجهى غاضبا : «أجننت يا ولدى! «خليك» معى يا ابن الناس! تشتغل مع أخيك هليل! إنه يحتاج لك فى شغله ورزقك ورزقه على الله! بدلا من الغربة فى بلاد الله» . رفعت ذراعى قائلا بصوت قاطع : «والله والله! لن أبقى فى هذه البلدة الخراب ساعة زمن واحدة! وإن كان ولدك صاحبى حقا فليسلفنى أجرة السكة أردها إليه بعد أيام! وإذا لم يفعل فإننى سأركب القطار بدون تذكرة فوق سطحه!» . فقام «هليل» وحضننى وبكى . كان يعرف أن مخى ناشف كالزلطة ، وأنه سيتعب من الكلام معى ، فقال : «خلاص يا عم! لكن أتسافر هكذا؟!» وأشار إلى خلقاتى البالية ، المصبوغة بالفحم والوسخ . قلت : «لقد انهدمت دارنا فوق حوائجنا!» . قال : «وثيابك أليست ثيابى؟! فثيابى إذن ثيابك!» قلت : «طبعا! طبعا!» قال : «قم معى لحد الدار!» . ذهبنا معا إلى الدار فأعطانى ثوبين وقميصين وسروالين وبُلغة صفراء عتيقة ولبدة جديدة وخمسة جنيهات بحالها ، وأوصانى بعدم قطع الجوابات فعاهدته على ذلك وحضنته ثم حضنت والده وأختى «هندية» ومضيت فمضى خلفى «هليل» عازما ألا يتركنى وحدى فى هذه الساعة المقطوعة ، وكان شبح ذراعه المرفوع بالتلويح يتراجع فى ظلام الرصيف المنسحب تحت شباك القطار .

* * *

الثانية ـ الحضور المباغت

صدق من قال إن الأرض كروية يا بوى، وأن الدنيا دوارة. فمن الذى جاء بالواد «بربش» رفيق القمار فى «مصر عتيقة» أيام كنت صاحب مقهى إلى قطار الصعيد فى محطة «صدفة» ؟! ما كدت أجلس والقطار ينسلخ من بيوت البلدة ويرتع فى مزارعها حتى سمعته ينادى علىّ من الكرسى الملاصق للشباك المقابل. يخرب مطنك يا بربش من الذى جاء بك هنا يا ولد يا شقى؟ تعال اقعد هنا جوارى. لم أكن أتوقع أن يجىء لكنه جاء، ترك كرسيه المجاور للشباك وجاء ينحشر بجوارى. كنت أظنه سيتكبر بحكم هذه البذلة الفخيمة التى يلبسها، أو على الأقل سيستاء من قولتى له «يا ولد» أمام الخلق من الركاب، بدون أن أحترم بذلته ورباط عنقه المحبوك وشعره المصفف الناعم اللامع كحذائه الذى لابد أنه لا شغلة له غير تلميعه. سرى فى عروقى شعور متأسف يقول لى إننى كان يجب علىّ احترامه أمام الخلق فأكلمه مثلما كنت أكلمه فى «مصر عتيقة» قائلا له: يا وحيد بك (الاسم الذى دخل به علىّ أول يوم ويناديه به الرفاق دائما)، لكننى عدت فشعرت بالخوف يا بوى، شىء إلهى فى نفسى قال لى: خلى بالك منه يا حسن

فربما مراده يلعب عليك لعبته بهذا الود وهذه النعومة لينشل ما معك أو ينصب عليك نصبة، خصوصا أن قرصته والقبر، فأنا أعرفه ولدا يلعب بالبيضة والحجر، وكان هو الذى يتحدث دائما باسم رفاقه ويرسم لهم ما يفعلون وفى النهاية يسرقهم فى لعب القمار بخفة يد فيها ألف حاو شاطر، وكان يزعم لى أنه صعيدى الأصل. غير أننى لم أكن أصدقه أبدا، لأن وجهه نحيل، أبيض، طويل الأنف، ثقيل الحاجبين، أزرق العينين، مهيب الطلعة، لسانه طرى ناعم، وصوته رنان مرن، كابن مدينة من ألف جيل، فكيف يا بوى أصدق أنه صعيدى، وليس فيه من المرجلية قلامة ظفر؟! خذ منه كلاما حلوا من هنا لحد الصبح يملأ دماغك فتصدق أنه «بك» فعلا، وهو فى حقيقة أمره لم يفطر بعد، ولم يذق طعم الزاد من أيام عـديدة، ولحظة أن تصـدقـه يكون على الله العوض فيما معك من نقود وجواهر وأشياء ثمينة تستحق البيع أو الرهن، إذ إنه سوف يقودك إلى أن تخلعها له عن طيب خاطر بل ربما استأذنته برهة تذهب خلالها إلى دارك لكى تحضر له نقودا كبيرة قد يحتاجها. ذلك هو «بربش» الجبار «المسجل خطر» فى دفاتر الشرطة. ورغم أنى عرفت حقيقة أمره بعد ثلاث أربع قعدات فى مقهاى تلك المزعومة بـ«مصر عتيقة» ، وجئت بداغه، إذ عرفت اسمه الحقيقى، وحارة درب عجور التى ولد وتربى فيها، لأب ماسح أحذية، وأم تعمل بَلاَّنة، فإنه مع ذلك، كان كثيرا ما يحاول أن يبيع لى البكوية، وأن يلبسنى الطرطور، يقرطسنى، لكى أعطيه وضعه أمام الخلق، حتى يتمكن من النصب عليهم على راحته.

ذلك يا بوى كان أول شلة «مصر عتيقة» التى بسببها أغلقت المقهى.

أما «غـزولى» ـ ثانى واحـد فى هـذه الشلة ـ فـإنه مـن الصـعـيـد فـعـلا والصعيدية واضحة عليه وفيه، برغم أنه أوجه من «بربش»، وأجمل، وأأنق، يتصوره المرء ممثلا من أهل السينما. يغير ملابسه باستمرار، فـيجىء كل يوم ببذلة جـديدة نظيـفة. بعكس «بربش» الذى لديه بذلة واحدة يعتنى بها جيدا، ويحافظ على نظافتها. و«غزولى» كبير الدماغ يا بوى، غليظ الملامح، واسع العينين كبيرهما، كأنهما، لوزتا قطن، تطل منهما نظرات صعيدية، تتلصص، تلبد فى حقول الذرة، تهجم عليك أثناء الكلام معك، يطق منها الشرر. إذا تكلم فبصوت عـال رنان، يطلب منك أن تجعل بالك معه لحظة واحدة فإن مللته بعد لحظات تعـارك مـعك. فـإن تعـارك هاج، وأرغى وأزبد، وبرطم وهلضم، وبوظ دور اللعب، وربما دفع الورق فبعثره، أو الترابيزة فقلبها، ولسانه الصعيدى المعووج الممطوط لا يكف عن البرطمة والجعجعة. تحلف اليمين أنه فلاح صعيدى يتعارك عند الساقية، لكنه سريعا ما يهدأ يابوى أما إذا عرفت خلته، فصرخت فيه بعنف وأظهرت زعلك فحينئذ يعتذر بنفس الصوت العالى ويطيب خاطرك مردداً: «خلاص يا بوى! خلاص يا بوى! حقك علينا!». وكان الظن عندى، أنه ربما يكون من عائلة صعيدية غنية ترسل له النقود بغير حساب، يلعب بها القمار، يشترى فاخر الثياب، يفنطز كل هذه الفنطزة. مخى أنا صعيدى أكثر منه يا بوى، ويقع فى المطبات بسرعة، لكننى أعرف كيف أخلع قدمى فى الحال يا بوى، قبل أن تنغرز فى الوحل أو أنكفئ على وجهى. قعدتان ثلاث جمعت فى دماغى بعض كلام مما يتبادلونه مع بعضهم بطريقة السيم المكشوف، فهمت منها أنه ولد مخربش هو الآخر. والمخربش يأتى بالنقود من جميع الأبواب. غير أننى لم أكن

عرفت بالضبط ما هى هذه الأبواب يا بوى، إنما عرفت أنها كثيرة أمام الولدان المخربشين الذين لا يتقون الله فى أنفسهم أو فى دينهم.

الدور والباقى على «بسبوسة»، ثالث واحد فى هذه الشلة إنه اسم على مسمى والله يا بوى، أقصرهم قامة، طوله مثل عرضه، مرغدد، ملظلظ، كبير الوجه، يمتلئ وجهه بالدم، إلى حد اختفاء الخدود بين الملامح، إذ تزحف خدوده على عينيه، ويضيع أنفه الدقيق فى حنك واسع، غليظ الشفتين، عارى الرأس، شعره قصير واقف، لكنه مصفف، مدهون بالزيت، ومعووج قليلا على الجنب اليمين. هو الوحيد فيهم الذى يلبس جلبابا، وجلبابه دائما نظيف وتطبيقة المكواة مرسومة عليه، تفوح منه رائحة خزائن الثياب، مزيج من الطيب والنفتالين، ياقة الجلباب كبيرة وواقفة حول رقبته التخينة الغليظة، للجلباب جيب على الصدر، فيه على الدوام نقود كثيرة مطبقة فوق بعضها، فوقها علبة سجائر هليود لارج، وفى بنصره الأيمن خاتم ذهبى كبير بفص فيروز أزرق، وفتحة الجلباب طويلة واصلة إلى مافوق الصرة بقليل، فانلته البيضاء ظاهرة من فتحة الجلباب، نظيفة، يظهر من قطنها الشفاف ثديان كبيران كثديى امرأة نتاية، لدرجة أن القناة الفاصلة بين الثديين كانت تتوهنى أحيانا فأظنه امرأة. وكان هو بطراوة صوته، ونعومة حركاته، وذبول نظراته، يؤكد لى من طرف خفى أنه بسكويتة، وأن هؤلاء الولد يأكلونه يا بوى. عن شغلته يقول، إنه «معلم»، معلم ماذا؟ فى سوق الخضار مثلا، صاحب محل؟ هو معلم والسلام، معلم معلم، كن عشرين معلما فى بعض، مالى أنا؟ المهم أن تدفع لى ما يصير من حقى طرفك. فى هذه الناحية لم يكن يعيبه

شيء، بصراحة يا بوى، هو الوحيد الذى لم يكن يجادلنى فى الحساب، إذا قلت إننى أطلب كذا. وكنت أستطيبه، لكننى كنت نافرا من طيبته هذه، وكان الشيطان يصور لى أن هذا الولد يقف فى صفى لغرض فى نفسه.

الوحيد فيهم الذى كنت أحبه بحق وأراه محترما بحق هو الولد «هندى» . كان أرجلهم يا بوى، وبوادر الرجولة تظهر فى صمته الدائم الذى بلا نهاية، حيث ينام شاربه الخنفساء على شفتين رفيعتين خلقتا للانطباق على بعضهما، كفتحة الكيس، ولولا الشارب الأسود الثقيل ما ظهر له فم، ومن كثرة انطباق الشفتين يتمدد ذقنه داخل الفكين. من فوق الشارب، يستقيم أنف رفيع مدبب، ملتحق بجبهة ضيقة، يكاد شعر رأسه يغطيها من أعلاها ومن جنبيها فلا تبقى منها إلا مساحة عارية، كقطعة الجبن السمبوكسة التى يسمونها الفلمنك، إن ضغطت عليها يغوص أصبعك فيها يملؤها بالتجاعيد. كانت هذه الجبهة تبقلل، تكاد ترسل بقابيق الرغوة الملونة حين يغضب، أو يتوتر من اللعب، أو من كثرة الكلام الفاضى معه، إذ تنزاح هذه الجبهة إلى الوراء مسطوحة، لتصعد من تحتها عينان ذكيتان، ليستا فى حاجة إلى لسان يتكلم، إذ هما تقولان كل شيء، بغير لتّ ولا عجن. كنت أعرف أنه ماء من تحت تبن يا بوى، وداهية من دواهى الزمن. هو أصغرهم سنا، لكن دماغى حكم حال رؤيته أول مرة بأنه أكبرهم عقلا، أشدهم نصاحة، أكثرهم فصاحة، لهذا يا بوى كنت أحترمه أكثر منهم جميعا وأراعى شعوره عند الكلام معه، وأراعى كذلك الحد والمصلحة، وقلبى يحدثنى أن هذا الولد ربما يكون لى معه شأن ذات يوم، وربما

اتخذته صاحبا وفيا لى فى هذه الغربة البعيدة، والذى يزيدنى احتراما له يا بوى أنه كان الوحيد بينهم صاحب عمل واضح، يمكن لك أن تزوره فيه، وتراه وهويعْرق مثل خلق الله العاملين. شغلته فحام، له فى الفسطاط ورشة يصنع فيها الفحم على يديه، لكى يبيعه للمقاهى ومحلات الكباب، بأسعار مريحة على قد فحمها الجيد، الذى يشيعون أنه يشتعل بعود الكبريت، وهو يكسب كثيرا من هذه الورشة، ويتحول طول النهار إلى عبد متفحم الوجه، لا يساوى خردلة، لكنه فى المساء يخرج من الحمام أفنديا معتبرا، تهفهف الثياب الثمينة على جسده، ليصرف كل ما كسبه طول النهار فى قعدة القمار.



الثالثة ـ التقاء الزبانية

علبة سجائر بلمونت كبيرة مبططة زغدتنى فى صدرى برفق، فانتبهت إليها، فرقص قلبى لمرآها، وسكرت رأسى من رائحتها المعطرة. كانت يد «بربش» ـ أو سعادة البيه ـ ممدودة بالعلبة، فلمحت فى أصابعه الخواتم الذهبية، فتفاءلت خيرا يا بوى، وقلت الحمد لله لن يورطنى فى أى نصبة، إذ إن حالته متيسرة. سحبت سيجارة ومددت يدى لإخراج علبة الكبريت، فأسرع هو مشعلا ولاعة ذهبية، خضنى صوتها، وسحرتنى تكتها واتساق شعلتها، كورقة ورد مستطيلة. أشعلت السيجارة، واستوعبت دخانها فى نخاشيشى بلذة كبيرة، وقد بدأ الخوف يتسرب مع الدخان. شىء إلهى فى نفسى يوعز لى أن مثل هذا الشخص كلما ازداد كرمه كان ذلك مؤشرا على أن يحكم حولك شباكه الخطيرة. لكن صوتا يشبه صوت أبى صاح فى دماغى ساخرا إيش تاخد الريح من البلاط؟! قلت فى نفسى صدقت والله يا من قلت هذا، فإن كان «بربش» ريحا كانسة فأنا البلاط ولن ينوبه منى شىء. ركنت إلى هذا الصوت، فوضعت ساقا على ساق، وصرت أدخن فى لذة، ثم تذكرت، فابتدرته: «قلت لى ما الذى جاء بك فى قطار الصعيد؟!». قال باسما: «لكى أجعلك تصدق أننى من الصعيد

الجوانى!» . قلت بلهجة ذات معنى غطيته بالطيبة : «كنت فى زيارة أم فى مهمة؟!» . لكزنى بكوعه فى جنبى لكزة موجعة وقال : «ذى! وذى» ، وكانت لهجته كأنه يقول لى : «اسكت ساكت!» .

سكت بالفعل يا بوى. فلما فات بائع السميط اشتريت سميطة وقطعة جبن رومى، وبيضة مسلوقة، وعزمت على صاحبى فقال إنه شبعان ولكن لا مانع من لقمة صغيرة يغير بها ريقه، ثم طوح بثلاثة أرباع السميطة فى فمه، وبقطعة الجبن الرومى كلها، فأطبقت بيدى على البيضة، حتى طويت اللقمة فى فمى، وطوحت بالبيضة كلها وراءها، وقلت الحمد لله على ذلك، وأشعلت سيجارة لف من علبتى، ومن شدة غيظى على الحركة التى فعلها لم أعزم عليه بسيجارة، فأخرج علبته وأشعل واحدة. وفجأة مر بائع سريح يبيع الخوخ فى سلة، فاستوقفه «بربش» واشترى منه ملء كيس من الخوخ، وضعه فى حجرى قائلا : «كل يا أبو على»، ثم حاسبَ البائع وصار ينتقى ويقضم بشراهة، ويستحثنى على القضم، فصرت أفعل مثله وأنا نادم على حركتى الناقصة تلك .

جاءت محطة فوقف ناس وذهبوا نحو الأبواب، فخلت معظم الكراسى من حولنا، فانتقل «بربش» إلى الكرسى المواجه لى، دقيقة واحدة مرت وفوجئت بالولد «غزولى» يجلس جوارى مطبقا على كتفى قائلا «إزيك يابو على! والله زمان!» . ماذا يقول يا خال، فرفرت فى الأرض من الدهشة : «غزولى» هو الآخر هنا فى قطار الصعيد؟ كيف يا بوى! هو صعيدى الماركة نعم لكن رؤيته هو الآخر الآن أمر لم يجئ على بالى أبدا . صرت أقول هذا ناظرا إلى «بربش» وإليه فأراهما

يبتسمان لبعضهما، لم يكن أحدهما قد سلم على الآخر يا بوى، فلا بد إذن أنهما مع بعضهما من الأول يا بوى. أنا مثلهما ولد مخربش ومتلطم وناصح. صوت فى رأسى قال: ولكن غزولى ركب من هذه المحطة! صوت آخر رد قائلا: هما معا فى مشوار واحد يلزم أن يركب كل واحد من محطة. نظرت فيهما من جديد وقلت: «عال، عال، الحالة رائجة كما يبين لى!». لطمنى الولد «غزولى» بكفه فوق قناعية رأسى بمزاح قائلا: «طول عمرها رائجة معنا يا صعيدى يا قفل!». تلقيت اللطمة ضاحكا وقلت: «على خيرة الله! ربنا يوفقكم». صارا يبتسمان، فأحسست أن وراء هذه البسمة شرًا لم ينكشف لى بعد من ولد الفرطوس هؤلاء.

محطة أخرى جاءت فغربلت القطار ممن فيه وألقت فيه بحفنة أخرى من الخلق. وإن هى إلا برهة، حتى فوجئت بكل من «بسبوسة» و«هندى» مقبلين نحونا. صائحين فى نفس واحد: أهلا أهلا أبو على، والله معقول؟!». وقفت على حيلى رافعا ذراعى صائحا وقد ركبنى فرح مفاجئ: «والله ما معقول صُح! والله صح ما معقول! إيه يا ولد الأبالسة! أين كنتم تفعلون فى بلاد الصعيد! ألا تعرفون أننى عمدة الصعيد؟! وكان الواجب أن تأخذوا الإذن منى قبل أن تفعلوا؟». أخذت الولدين بالحضن وأجلستهما جوارى، فصرنا جمعا، وصرت فى قلب «مصر عتيقة» فى الدكانة التى كنت، افتحها مقهى، وهؤلاء الولد يلعبون القمار عندى، وأنا أراقبهم لقبض الكرتة على كل دور يلعبونه. انمحى الزمن يابوى، واختفت اللحظة التى كنت فيها، وحضر الماضى كله، لكننى طويته بمسحة من يدى على رأسى، وبهرشة

عابرة فطنت إلى أن أربعتهم كانوا فى مشوار يسترزقون منه، وسرح خيالى بعيدا، صار يتخبط فى نواح كثيرة، وفى النهاية اغتظت من نفسى ومنهم يا بوى، قلت لنفسى هذه: نحن فى قلب الصعيد لا نعرف نكسب مليما! وسكان مصر القاهرة يجيئون للتكسب من الصعيد؟ ألا لعنة الله علىَّ وعلى حظى النتن، هؤلاء الولد لابد أنهم أشطر منى يا بوى، وأنا معترف بهذا، ولهذا تمنيت بينى وبين نفسى أن أكون فى رفقتهم علنى أعرف كيف أسرق من مصر القاهرة، فمن جاور السعيد يسعد.

جاءنى صوت الولد «هندى» من آخر الكرسى يقول: «إيشحالك يا بو على؟ ماذا تشتغل اليوم؟» . انشرح صدرى والله يا بوى من هذا السؤال وأجبت «هندى»، وقلت: «والله يا هندى يا خوى أنا الآن أمر والعياذ بالله بأيام نحوس كئيبة الخلقة! لا داعى لذكرها فالشكوى لغير الله مذلة!» . قال «بسبوسة» وهو يتحسس ثدييه الكبيرين برخاوة وطراوة صوت: «فإلى أين تسافر اليوم يا ترى! وراءك مشوار معين؟» . قلت: «لا والله يا بسبوسة! إننى قاصد وجه الكريم ومن يقصد وجه الكريم لا يضام!» . قال «غزولى»: «عندك مكان ستتوجه إليه؟» قلت: «ما عندى والله يا غزولى سوى الستر» . قال «بربش» : «عندك مكان تبيت فيه؟» . قلت: «من أين يا بربش يا خوى؟ لقد تركت الغرفة التى سكنتها فى اصطبل عنتر منذ بضع سنين! ظننت أن الله لن يكتب لى عيشا فى مصر القاهرة ثانية! لكن العبد فى تفكير والرب فى تدبير! وها أنذا عائد إليها رغم أنفى!» .

نظروا جميعا إلى بعضهم البعض وقال «بربش» فى ثقة حاسمة:

«خلاص! «خليك» معنا ورزقك ورزقنا على الله!» . قلت: «أنا معكم من شوشة رأسى لحد أظافرى!» . قال «بربش» وهو يلوح بيديه فى نزق كبير «يلزمنا أولا أن نعرفك على رجل مثل السكرة! يعجبك هو ويملأ دماغك!» . قلت مشوحا بيدى: «عرفنى على الجن الأحمر! الجن الأزرق لو أحببت!» . قال: «هو جن أى نعم ما فى ذلك شك! أحمر على أخضر! الأحمر له والأخضر لنا!» . ثم ضحك فضحكوا كأنهم فهموا، أما أنا فإن الكلمة لعبكت مخى يا بوى وعجزت عن فهم مقصده بالفهلوة، فقلت حانقا: «ما الأحمر وما الأخضر! وما الدنيا وما الدين؟!» . قال «بربش» اللعين «الأحمر هو هذا» ـ وأخرج من جيب صدره ورقة بعشرة جنيهات حمراء الوجه قانية ـ ثم أضاف: «والأخضر هو هذا» ـ ونزع من جيب البنطلون ورقة من فئة الجنيه خضراء مزرقة مبهجة يا بوى.

رقص قلبى ورفرف كالعصفور بجناحين كبيرين، فشوحت قائلا فى طرب ونشوة: «أنا مع الأحمر والأخضر والأزرق وكل الألوان الحلوة بالصلاة على حضرة النبى!» . . فضحكوا جميعا. وكان القطار يدخل بنا محطة الجيزة، والمدينة تتلبسنا شيئا فشيئا، فلما نزلنا على الرصيف سرت فى أثرهم لاهثا، أخشى أن يضيعوا منى فى الزحام فتضيع الفرصة من يدى. لم أكن قد صدقت بعد كل ما قالوه، وظننته فك مجالس فجعلت كعبى فى كعبهم حتى غادرنا الرصيف وصرنا فى الشارع الموازى له، فإذا هم يتجهون نحو عربة كبيرة كانت راكنة بجوار الرصيف، فتحوا أبوابها وركبوا فاندسست بجوارهم متوقعا أن يضحكوا فجأة من سذاجتى ويأمرونى بالنزول، بعد برهة جاء

سائق عجوز من مكان ما، فركب وأدار المحرك فنطقت العربة وسارت، وقال «بربش» بلهجة آمرة «مصر عتيقة يا أسطى» ، لكن شيئا إلهيا حدثنى بأن السائق يشتغل معهم وأنه كان فى انتظارهم حسب موعد هذا القطار، لكن «بربش» لايزال يعتبرنى غريبا عليهم فيلبسنى العمامة، يقرطسنى، لحظتها اعترفت لنفسى أن «بربش» ولد حويط بالفعل ويجب أن أحسب له حسابا، كى لا يوقعنى فى شر أعمالى.

صارت العربة الأجرة ذات اللونين الأسود والأبيض تخبط يمينا وشمالا، والسائق كالبهلوان يتلوى بها وبنا يتعوج، ينخطف، يخطف، ولا يستعمل زمارة التنبيه، كأنه يخشى من لفت النظر إلى العربة. شيء إلهى أرعشنى وقبض على قلبى بكلابات من حديد، وقد وقر فى ذهنى أن العربة لابد يكون فيها ممنوعات خطيرة، أى ممنوعات، وهذه الممنوعات لابد أن يكون هؤلاء الولد قد جاءوا بها معهم من بلاد الصعيد. ظنى يقول لى إنها مخدرات، ومخى الصعيدى يقول إنها أسلحة وذخيرة جاءوا بها أو بثمنها من بلاد الصعيد. الكذب خيبة يا بوى، فأنا لم أر معهم شيئا يمسك باليد، غير أننى لم أفتش ثيابهم يا بوى، ولم ألحظ فيها جعببة أو انتفاخا، فلما انتبهت إلى ذلك صرت أتحكك فيمن يلتصق بى، فأيقنت أن جنوبهم صلبة يا بوى وفيها دخائل كبيرة، قلت: ربنا يستر، ورميت عن نفسى كل قلق، نفخت صدرى وأشعلت سيجارة. وكانت «مصر عتيقة» تدخل فى خياشيمى وتزحف على صدرى بقراطيس من الضوء المغمض العينين، مراده بعث النكد فى روحى غير أنى لما نظرت من شباك العربة ورأيت الخلق يسيرون كالقرود مهانين متشعلقين فى أبواب الأتوبيسات قلت لنفسى: حظك

من السما يا ولد أبى ضب، مكتوب لك عيش فى «مصر عتيقة» رغم أنفك وأنفها، آه يا مصر عتيقة، دخلتك بالأمس مهيض الجناح أمشى على قدمين دائختين، واليوم أدخلك راكبا سيارة بعيدة عن شوارب عمدة بلدتنا، وفى عزوة من الصحاب، وغداً أحيكك فى مؤخرتك يا بلدة كلها قرع وطبيخ من كل لون.



الرابعة ـ الباب المنهوب

على مشارف الفسطاط، هدأت السيارة، ثم ركنت على الرصيف، بجوار شادر كبير يمتد على مساحة لا تقل عن ثلاثة أربعة أفدنة بالراحة يا بوى.

نزل السائق، ونزل الصحاب، فنزلت معهم ومضيت خلفهم بجوار تيل السرادق المفرود على عواميد من الخشب. فلما وصلنا إلى نهايته دخلنا، لأفاجأ بغابة هائلة، جدرانها وسقفها من قماش الخيم، ومملوءة لتمها بضروب من أنواع البراميل، بأشكالها وأحجامها، والحديد الخردة بأنواعه، وحديد التسليح بكميات كبيرة، ومراتب عالية، من رصات شكائر الأسمنت كهرم سقارة المدرج، ورصات أخرى من شكائر الدقيق، وغيرها من أجولة الأرز والسكر، ورصّات كالعمائر الشاهقة من صفائح السمن والزيت والجبنة والزيتون، وأشياء أخرى كثيرة ليس عندى دماغ لحصرها، يستغرب المرء كيف توجد كلها، مع كل هذه المنقولات، فى شادر كهذا يا بوى. وكل ذلك مغطى بأحمال القش والخيش والمشمع، لكنه نوع من التغطية يظهر المغطى أكثر مما يخفيه، حين ضاعت عيونى وضاع قلبى فى هذه الغابة المملوءة بكل

هذا الخير الوفير، رن فى صدرى صوت يقول إن صاحب هذا الشادر لابد أن يكون الحكومة نفسها، أو أحد مشايخ المنسر الكبار ولا غير ذلك يا بوى، إذ كيف يمكن لرجل بعينه أن يمتلك مخزنا شديد الوعورة كهذا المخزن يا بوى؟ ، وعلى عينك يا تاجر هكذا يا بوى؟

على أن الولد «هندى» ما أحلاه من رجل، غمزنى فى جنبى غمزة فهمت مقصدها ومشيت بجواره وقد لمت عينى عن البحلقة، ومضيت أعتقل الرعشة فى ساقى، إذ أيقنت يا بوى أننى موشك على مقابلة داهية من دواهى الزمن وآفة من أفاويه الكبرى : ظللنا ماضين مسافة داخل الشادر، ضعف المسافة التى مشيناها بجواره، فإذا بى أرى باب دار على غاية من الرشاقة والأبهة، مطرزا بالمشغولات والمعشقات والمقرنصات والدوائر والمثلثات. الباب يفتح على الشادر، وسقف الشادر ملتصق بسقف أول تراسينة فى الطابق الثانى. لما وصلنا إلى هذا الباب صفق «بربش» على يديه صائحا: «يا حاج!»، فجاءنا من الأعلى صوت رقيق، رفيع ناعم، ملىء بالورع، تعود على التسبيح والتهجد، قال: «خشوا يا أولاد» . نظرت إلى فوق، فإذا فى الترسينة رجل يتسربل بجلباب أبيض نظيف جدا، وطاقية بيضاء من نفس قماش الثوب، الذى بدا أنه من الحرير يهفهف، يتطاير حوله، ذقنه طويلة واصلة إلى آخر صدره، لونها ضارب إلى الصفرة والبياض والرمادى تشبه بقايا شاطئ من حلفاء محترقة، وجهه سُفَيّفٌ، ضئيل القسمات كرقعة من جلد غير مدبوغ، ملىء بالتجاعيد، والشعر المهوش، المتشعث، القادم من خلف صلعته وفوق حواجبه، ضيق العينين جدا، لكن شعاعا وامضا على الدوام ينطلق منهما، ليثقبنى فى كل بقعة فى

جسدى، أما فمه فلا يكف عن البسملة والبسبسة، من خلال ابتسامة ذابلة، تلمع تحتها أسنان ذهبية وبلاتينية، كرر فى سماحة، مع هزات من رأسه: «ادخلوا يا أولاد! ادخلوا» .

دخلنا يا بوى، فإذا نحن فى دهليز دار من الدور الأثرية العتيقة، كنت أرى مثلها فى مقابر الفراعنة، ملىء بالمصاطب الحجرية البازلتية، وينفتح فى قلبه منور مخروطى، يشدك للنظر إلى أعلى، فإذا طَيَّرت بصرك شاهدت شبابيك ومشربيات الطوابق العليا كلها. ولقد فعلت، فخيل لى أن عيونا من وراء هذه المشربيات ترقبنا. دخلنا بابا واطئا فى آخر الدهليز فإذا به باب سلم جميل غاية الجمال يا بوى، يهون عليك أن تفرش وتنام على درجاته الرخامية النظيفة اللامعة كأنهم يغسلونها كل يوم باللبن والعطور. ما هذا العز كله يا بوى؟ ما الذى يفعله ساكن هذه الجنان لله كى ينعم عليه بكل هذا النعيم يا بوى؟

صعدنا بضع درجات، حودنا على بسطة عريضة مربعة، يحفها درابزين من الخشب المشغول بالمخرطة على هيئة سيقان وخصور مبرومة، لكن بدون نساء. وقفنا على هذه البسطة قليلا، حتى انزاح باب قصير القامة عريض من الخشب الثقيل، عليه مستطيلات ومربعات تشبه شكل صفحة المصاحف بالضبط يا بوى، الخالق الناطق، حتى الذى يشبه الفوانيس على هوامش الصفحات كان مرسومًا أيضا على الباب، ونفس التكورات المرقومة، التى تفصل بين آيات المصحف. فلما دققت النظر يا بوى، وجدت أن سورة يس كلها مكتوبة على ضلفة الباب، من أوله إلى آخره، من أولها إلى آخرها، وعلى سلخ الهامش مكتوب ـ بالحفر كذلك ـ أسماء الله الحسنى.

أعمامى فقهاء يا بوى، وأنا مع ذلك تعلمت فك الخط من الولد وكيل النيابة الذى كان مسجونا معى فى زنزانة واحدة فى سجن مصر القلعة، وبينى وبين صفحات المصاحف سابق معرفة. ارتعش قلبى فى الحال، رقص، وقع فى حبائل شبكة من المشاعر الغامضة، لست والله أعرف إن كانت هذه الرعشة التى سربلتنى أساسها سورة يس والقرآن الحكيم وأسماء الله الحسنى، أم أساسها ذلك الرجل الذى انزاح عنه الباب فظهر مقبلا نحونا يغوص شبشبه الزنوبة فى وبر السجاجيد الكثيف الشعر، ويخطو حاملاً مسبحته اليسر الطويلة السوداء بين بوفيهات وشوفنيرات وبوريهات وترابيزات من كل شكل وكل جسم وكل لون، مبذور فوقها تماثيل صغيرة من الذهب والفضة والعاج والحجر والنحاس، لأشباه رمسيس ونفرتيتى وشيخ البلد، وأخرى لسباع وثعالب وذئاب ووطاويط ونسور وجعارين، وميداليات وأساور، وعلب صغيرة كالتحف، كل ذلك مفرود على الترابيزة والمسطحات. أما الحوائط كلها فمغلفة بالمرايا البلجيكية التى تعكس كل ذلك. ومن السقف تتدلى تعاليق كثيرة، بسلاسل رفيعة، فيها زخارف ولمبات على شكل بلحات، ومنجايات وكمثريات، وعناقيد عنب.

ركبنى الرعاش ثانية يا خال، فوقفت متسمرا فى مكانى، وصحابى يدخلون بجرأة قائلين: «ادخل يا راجل!». فبدون أن أشعر خلعت البلغة وطويتها تحت إبطى مثلما أفعل عند دخول المسجد، فضحك الصحاب وضحك الرجل حتى اهتز جسده وكاد ينكب على الأرض، ثم سحب من صدره نفسا وقال: «كويس، كويس، عملت الواجب!». استدار ومضى أمامنا ونحن من خلفه نتعثر فى وبر

السجاجيد الناعم ونخوض فى رسوماتها المزركشة، فوق ميادين ومآذن وإيوانات ودوائر، وقد عجبت والله يا خال كيف يهون على المرء منا أن يدوس فوق هذه النعمة بأقدامه!؟ وقلت لنفسى: ما الذى بقى من الجنة لم يستحضره هذا الرجل إلى هذا المنزل العامر؟! ماذا أبقى هذا الرجل للجنة يا ترى!؟ والجنة علام تكون إذن بعد كل هذا؟! هناك إذن خلق من عباد الله أمثالنا أولاد تسعة أشهر، يغتصبون الجنة من الله، ويركنونها على الأرض فى السر، مثل هذا الرجل العجيب الشأن.
هكذا قلت لنفسى وأنا ماض فى ذيلهم، ونظرى معلق على مصحف كبير جدا، مفتوح، ومركون فوق بوريه كبير بعرض الحائط فوقه مرآة، وفيها يمتد المصحف بمصحف شقيق وصفحاته ذات الهامش الوردى المشغول بالزخرفة ومتنه الكريمى اللون بأحرف سوداء منقوشة فوقه كالمصابيح، ما إن لامسته، تبركا به، حتى تكشفت أنه من الخشب المطعم بالأصداف والأحجار الكريمة يا بوى، تمثال من الخشب لمصحف مفتوح على آية الكرسى، وبجواره برواز كبير يلف صورة الرجل سمح الوجه بلحية طويلة، بيضاء متسقة، جميلة الشكل، وزبيبة الصلاة على جبينه تحت حافة الطربوش القصير الغامق تخطف البصر من لمعانها، والابتسامة على الشفتين تكاد تناديك لتكلمك، لدرجة أننى ظللت عاوجا رقبتى نحوها، فى انتظار أن تكلمنى حتى نبهنى الولد «هندى» إلى أننى لو كسرت شيئا هنا ولو صغيرا فعمرى كله لن يساوى ثمنها، فاعتدلت وجعلت عينى فى وسط رأسى ومشيت فى ذيلهم، نخرج من صالة إلى غرفة، ومن غرفة إلى ممر، ومن ممر إلى سلم ضيق نصعده إلى صالة أخرى، نقطعها إلى ممر، فسلم آخر، نهبطه إلى بهو طويل، نعبره إلى باب تحيط به الستائر، طبقات فوق

بعضها، يزيحها الرجل بحركة من أصبعه فتجرى للوراء: ز . . ز . . ز . . ى . . ز . . لنجد أنفسنا فى باحة مطلة على السماء المليئة بالمآذن والقباب والأبراج وأشباح الأشجار، وبسيف عريض النصل يلمع فى مدى البصر يترجرج لمعانه تكاد صفحة النصل تتدهور تحت هبوب الرياح لكنها ما تلبث حتى تستقيم حادة، كعلم من الحرير يتراقص بنشوة فوق وفود الرياح . . فتلذذت من هذا المنظر يا بوى، تمعنته منسحرا يا بوى، فعرفت أنه نهر النيل، فتلذذت أكثر يا بوى وقلت لنفسى: هذه هى الجنة من غير إحم أو دستور يا بوى، وما علينا الآن سوى انتظار بنات الحور والولدان المخلدين، وأباريق الخمر والعسل المصفى. وإذا نحن فى برج فوق سطح المنزل يا خال، مربع محندق كالعلبة، له سقف جملون، وحيطانه من الداخل من الخشب السميك، مزركشة بالزخارف بالألوان الساحرة، كل حائط نصفه شباك مفتوح، فأنت ترى أربعة أركان الدنيا، من هنا نخيل، ومن ها هنا مآذن، ومن هنا براح، ومن ها هنا موكب النهر، الآتى من الشلال البعيد، ذلك الذى تحدثنا به قوى الجن فى الحواديت، قلت لنفسى باسما: ماذا أنت ياولد أبى ضب يا آتى من الصعيد وعم تبكى على غربتك؟! ماذا يقول إذن هذا القادم من الشلال البعيد يسكب عرق جبينه على كل الأراضى لتنبت خيراً ينعم به الخلق، أمثال صاحبنا هذا الذى يحفر على جبينه زبيبة الصلاة، هذا الذى صلى من أجل أن يطبع السجود هذه الزبيبة على جبينه، حتى خفت أن يصيرنى هزأة أمام الرجل، فانكمشت على روحى، والضحك يزُرُّ علىَّ، لا يريد أن يتركنى فى حالى يا خال، لكنهم جميعا انفجروا ضاحكين فقلت: ضحك بضحك، فصرت أقذف الضحكات الصاعقة، وهم يرددونها خلفى كالمغناطيس، حتى

انهد حيلنا جميعا، وصرنا من فرط الجهد والانبساط نتمايل على بعضنا نتساند، بما فينا لحية الرجل، التى صارت فى متناول يدى عدة مرات، أعبث بها كيف أشاء لو أردت لولا أن جسمى كان يقشعر منها، إذ هى تذكرنى بفلقة عمى الفقيه وخيرزانته اللاسعة، كما تذكرنى بملمس الزواحف الخشنة.

دهورنا التعب يا بوى، فرمينا جثثنا فوق شلت منجدة بريش النعام مشغولة بالحرير المزركش بالزخرفة، شىء يتوّه العقل يا بوى، شىء لا ينسى العطار خرجه بل ينسى الخرج عطاره. الرجل تماسك نفسه، ومسح عينيه بمنديل حرير هفهاف، ونسى فجأة أنه منذ برهة كان ذلك الطفل العكروت الشقى، الذى لا أمان لمقالبه، فنظر فينا بجدية شيخ فى الثمانين من عمره، وقال: «تتعشوا يا أولاد؟» ثم نهض فى الحال كأنه لا ينتظر منا أى رد، كأنه سيغير رأيه، إذ التفت نحونا بعد أن لبس الشبشب الزنوبة وقال من جديد كأنه يقرر هذه المرة: «تتعشوا طبعا. . وجب!»، ومضى ظهره النحيل المحدودب قليلا عند القفا ـ من فرط الخشوع لله فقط! ـ وساقاه الرفيعان من خلل الجلباب يخطوان فى نزق متعقل، متوازن، وأساور الكلسون القطنى تحبك على رسغى القدمين الطويلين. . فلما غاب عن نظرنا سمعنا أبوابا تفتح وتنغلق، ووقع خطوات تهبط ثم تصعد، ثم تهبط على سلالم خشبية جعجاعة، يتداخل وافد طنينها فى أصداء سالفه. حينئذ قام كل واحد منا فانعطف على شباك ركن إليه، وبعثر نفسه فى الريح فى الخلاء الفسيح. زاحمنى الولد «هندى» على شباكى، لأنه فيما قال يحب نهر النيل مثلى ولا يمل من النظر إليه، ويتمنى لو يقضى عمره فيه ولو غريقا.

فلكزته بكوعى فى عشم وقلت فى حسد حقيقى: «نيل إيه وبتاع إيه يابو العم! أنتم فى جنة يا أبو العم عرضها عرض السموات والأرض! وهذا بفضل دعاء الوالدين وحده! هل أنتم على هذه الحال على الدوام يا بو العم!؟» . . قال «هندى» إن دوام الحال من المحال كما قال أهل زمان، فانزغد قلبى زغدا نفذ من صدرى إلى الخلاء، وسألته ما هذا الرجل يا هندى ياخوى؟ أمانة عليك والأمانة غالية أن تقول لى حكاية هذا الرجل النادر المثال فى هذا العصر والأوان من طقطق لسلامو عليكم.

فى فحيح يتخلله حروف واضحة كتكتكة التليغراف تفهمها فهامة مجهولة فى دماغى، قال لى إن هذا الرجل إن لم أكن أعرفه هو «الحاج أحمد نور الدين السنى» ، تاجر خردة فى الأصل والأساس، لكنه فى العُرْف ابن سوق بشكل عمومى، يتاجر فى المواد الغذائية لا بأس، فى العملة نفسها لا مانع، فى البنى آدم لا يضر، كله ماشى عنده، وربنا ــ يقول هندى ــ رضى عنه آخر رضا، إذ ملّكه ثروة لا حدود لها، من بينها هذا المنزل الأثرى، عن أبيه الذى كان من الأعيان الكبار، عن جده الذى كان قاضيا للقضاة، عن جده الأكبر الذى كان هو الآخر قاضيا للقضاة فى الفسطاط القديمة أيام لا أدرى مَنْ منَ السلاطين والملوك، على أن «الحاج أحمد نور الدين السنى» وهبه الله قبولا حسنا عند كافة الخلق، يمسك الحديد والصفيح بيديه، فيحوله إلى ذهب، قلبه جامد، يشترى خرج البيوت، ومخلفات الأسرة الكبيرة، التى أذلها الزمن النذل وأجلى عنها الحظ. بحكم أن «الحاج السنى» فى الأصل من هؤلاء القوم يابوى، فإنه يفهم قيمة هذه

المخلفات التى يتخلى عنها أهلها، لكنه يشتريها بتراب الفلوس، هو يعرف يا خال أن هذه الممتلكات الثمينة، الأبهة، إن لم يحمها رصيد كبير من البنكنوت الأحمر، تقل قيمتها، وتصبح كعدمها، فيسهل التخلى عنها أمام احتياجات الجسد والبطون، كما وأن «الحاج أحمد نور الدين السنى» ، رغم أنه من علية القوم قبل أن يصبح تاجر خردة وتاجر التجار، فإنه قد نزل عن حياة طبقته ظاهريا، ليعيش بين الرعاع والزعر والحرافيش والجعيدية من الصياع والجرابيع وأبناء السبيل، والمخربشين وحقيقة الأمر يا بو العم، أنه بات يعيش حياتين، يعرف أحلى ما فى علية القوم من النظام، والأخلاق وترتيب الحياة وتدبير أمورها، وأمور الفنطزة فيها، ويتعيَّل عليها، وعندما يدخل المزاد ليشترى مخلفاتهم الثمينة، فى حالة عوزهم، فإنه يدخل فى هيئة معلم جاهل خشن الطباع لا يفقه فى أمور التحف الثمينة شيئا ولا يعى من أمور الفن ولوحاته ومشغولاته أى شىء، لكى تريح نفسك من أى كلام تقوله بشأن قيمة هذه الأشياء وجوهر أصالتها، سيقول لك بصريح العبارة، إنه لا صالح له فى هذا الكلام، ولا قدرة له على فهمه، إنما هو يشترى منك الأشياء باعتبارها أشياء من المخلفات المستعملة، وكل مُخَلَّف مستعمل فهو خردة، بدون زيادة أو نقصان، وأنه فى الأصل طهقان ضيق النفس مما أنت فيه من عوز، ربنا يستر علينا وعلى ولايانا، خذ ما أنت فى حاجة إليه بدون بيع ولا شراء عندما يكرمك الله رد لى ما أخذت. وأنت تجد أنه قد شفع القول بالفعل، إذ دس يده فى سيَّالته الكبيرة وأخرجها برزمة كبيرة مطوية من ورق البنكنوت الأحمر القانى، يأخذ فى فرها بسرعة، ليتوقف عند عدد معين ينزعه من الرزمه هو على التحديد المبلغ الذى قدره ثمنا

لأشيـائك، يطويه على بعضـه، يخفيـه فى راحة يده، يقدم لك كـفـه مـقلوبة، قـائلا: «بركـة بالصـلاة على النبى!» . لا تحـاول أن تفـتح مـا أعطيت لتعده، وإلا جلبت على مظهرك المهانة، ثم إنك لن تفلح فى تعتعته عن هذا المبلغ شعرة واحدة، حتى لو مدحت بنت برى، سيقسم لك بالأيمان المغلظة وبحق صلاته وصومه وفجره وابنته الوحيدة التى يتمناها من الله أنه مكارمك ومعطيك فوق ما تستحقه البيعة بكثير، وإنها ليست بيعة ولا حاجة إنما هى بركة منك وهذا المبلغ بركـة منه، وهو ونصيبه، فقصده ـ وحق جلال الله ـ شريف، إذ هو يريد ـ فقط ـ! أن يفك عسـرا، جعلنا الله ممن يفكون عسر الناس، العسر عذر ومن فك عذر الناس فك الله عذره، قل يا رب، «روح» إلهى ربنا يفتـحها فى وجهك ويرزقك برزق أولادك، لا تغرنك الأزمة فهى مؤقتة، وهى امتحان من الله يا رجل، ضاقت فلما استحكمت حلقاتها، فرجت، وكنت أظنها لا تفرج. وهكذا يأخذك فى عشرة دروشة، أونطة، فى غنوة، فى حدوتة، فى كانى فى مانى، تكون عرباته قد حملت الأشياء وربطتها ووقف السائق فى انتظاره، زمارة والأخرى من السائق يكون هو قد مد يده مستدراً بها يدك غصبا عنك، ليسلم عليك ويشد على يدك بقوة صلبة كقوة فارس صنديد على المعاش، وبيده الأخرى يربت على ظهرك مطيبا خاطرك، متمنيا لك صحة وعافية راجيا أن يراك ليطمئن عليك، وعلى أحوالك، وما يهمكش، أى خدمة فى أى وقت أنت تأمر، ورقبتى سدادة، لا يغرنك تمسكى فى مسائل البيع والشراء فذى نِقرة وذى نقرة!

أفقت يابوى لبرهة، فانذعرت، إذ وجدت أن الصحاب كلهم

ملتمين فوقنا يتبادلون معنا الحديث فى نفس الشباك . . فما عرفت والله ياخال متى جاءوا ولا كيف عرفوا أننا نتكلم عن صاحبنا «السنى» ولا كيف اشتركوا فى الحديث، إذ كل ما أذكره لحظتها أننى و«هندى» كنّا نتهامس فى سيرة الرجل، فمتى صرنا نتكلم عنه كلنا هكذا بصوت عال؟ هذا ما يكاد يلحس مخى والله يابوى. «بربش» وزع علينا دورا من سجاير البلمونت وأشعلها لنا قائلا فى صوت خفيض: «على فكرة، الحاج السنى من الإخوان المسلمين، ولهذا فأهل المدينة كلهم يحبونه، إذ هو رجل يعطف على الغلابة والمساكين، يوزع الزكاة بالهَبَل، ويشاع أنه من زعماء الوفد الكبار، وهو لا ينفى ذلك بل يتفاخر به كثيرا إذا ما سأله أحد، أما الآن فهو عضو فى الاتحاد الاشتراكى على مستوى المحافظة، وعضو بمجلس المدينة ومجلس المحافظة والمجلس البلدى، وعضو كذلك فى مصائب ودواه كبيرة كثيرة، إنما هو محبوب يا أخى ومشهور كفريد شوقى والمليجى وزكى رستم، مشهور كالخط، كريا وسكينة، فى الصبح قد يجلس فى غرزة الحشيش بين السوابق من اللصوص والنشالين والهجامين يبادلهم بوصة الجوزة نَفَسا لنَفَس، لكنه مع ذلك لا يتحرج، فهو معروف لكل الناس، ولن يقبضَ عليه الضابط إذا هاجم الغرزة، وفى الظهر قد يجلس مع المحافظ على سفرة الغداء يتباحثون فى أمور البلد، وسلع تموينها وشوارعها ومجاريها ومساكن إيوائها ومستوطنى مساجدها والمعجونين فى أوتوبيساتها الخربة، وفى المساء قد تراه فى حفل أم كلثوم أو فى دارها وربما فى داره هو، إن عبد الحليم حافظ صديقه وقد زرناه كثيرا معه وزارنا هنا، وكنا نخدِّم عليه وقد غنى فى عيد ميلاد شيماء ابنة الحاج، أنا مرة رأيت عنده الكاتب الصحفى المرحوم كامل

الشناوى وكان يسهر عند الحاج كثيرا يلعب الكوتشينة ويقول الشعر ويمسخر فى خلق الله، مرة رأيت عنده ـ فى هذه القمرة التى تقف فيها الآن ـ مصطفى أمين وهند رستم وحسن الإمام وجليل البندارى، ومرة أخرى إحسان عبد القدوس ونادية لطفى، إنه رجل جامد، وكل هؤلاء يقصدونه فى خدمات يؤديها لهم، إذ إن اتصالاته كبيرة وجامدة، أنا مرة أرسلنى إلى المطار لإحضار هدية جاءت له من الملك فيصل، والملك الحسن ملك المغرب يبعث له السلام فى جوابات وكروت المعايدة، وله أصدقاء فى أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا وسفند القرود، والسياح يجيئون للسؤال عنه فيسألهم عن صحة أولادهم وأصهارهم وأهلهم، كنت أظنهم يجيئون للفرجة عليه وعلى شكله التحفة لكننى فهمت بعد ذلك أنه متكلم حريف يسحر السامعين، وهو عفريت يا جدع، أسمعه يتكلم فى التاريخ فأنسحر مثلهم من وفرة المعرفة إشى فرعونى وإشى قبطى وإشى رومانى وإشى إسلامى، ساعات يظهر أمامى كالمجنون المخرف حين يتكلم عن الحميرى والمسمارى والبابلى والأشورى والبلاء الأزرقى، ففهمت أن السياح يتعشقون كلامه خصوصا وهو يمشى بين الممرات التى مشيت فيها منذ قليل يا صعيدى يا قحف، لقد دست على سجاجيد يقول الحاج إن السلطان الغورى هو الذى اشتراها ولم يسعده الحظ بأن يعيش حتى يدوس عليها!» .

وهنا قاطعه «بسبوسة» قائلا بصوت طرى من خلل ضحكات متقطعة مصوصوة، لا نعرف إن كانت ضحكات أم تأوهات صارخة: «ألا تعلمون أنه من عائلة المشير؟!» . ضحكت رغما عنى قائلا فى انفعال: «كيف يابو العم؟ ما الذى جاء بعائلة عامر الصعيدية إلى عائلة السنى المصراوية» . قال «بسبوسة» مستدركا: «أقصد أنه صهر لعائلة

المشير، فابن بنت خالته متزوج من عائلة المشير، والله أعلم كلها إشاعات فى إذاعات ولكن الغريب أن الحاج لا يكذب ما يسمعه أبدًا». شوح «غزولى» فى وجوهنا بأصبعيه اللذين يسندان السيجارة وقال بثقة تامة: «وحق من جمعنا من غير ميعاد إنكم جميعا أقفال ترابيس، لا تفهمون شيئا، الحاج السنى يا هبل ليس اسمه السنى، إنما السنى هذه فوق اسمه تدارى لقب جده!». تقرفص «هندى» هامسا: «ليكن الجن الأزرق، إنها دنيا ملآنة بالعجب، المهم أننا أقل خلق الله عجبا، إننا بالنسبة لهم ملائكة أطهار!». وقال «بسبوسة» وهو يتحسس بطنه وثدييه: «سمعته مرة يقول إنه من أصل مغربى!». فقال «غزولى» متعجبا: «كان قبل ذلك من أصل يمنى!» شوح «هندى» قائلا بلهجة فلفوس كبير: «الحاج السنى لو سرح بك فى سرحة مزاج متجلية سيثبت لك أنه يمت بصلة قربى إلى ربنا شخصيا، ولو انشرح صدره قليلا فسيجيء لك بشجرة العائلة العتيقة المبروزة بإطار من الذهب المشغول، يريك صورة منها بحبر حديث مضافا إليها بخط يده خطوط تشبه أوراق الشجر فيها اسماء مكتوبة حديثا يعقبها لقب البيك والباشا والعالم العلامة والإمام، يريك كيف أن هذا الفرع تزوج من العائلة الفلانية، فَخَلَّفَ هذه الأوراق وهذه الأوراق كونت هذه الفروع، يسمعك أسماء فى الوريقات تسمعها فى الراديو وتقرؤها فى الجرانين، يوضح لك أن «فلان» هذا يقول لأبيه يا ابن عمتى، وأمه ـ أم الحاج السنى ـ تقول لأم عدلى يكن يا ابنة خالتى!».

تحلف اليمين يابوى أن دماغى صارت كالكرة التى كانت من قبل فارغة من الهواء فجاء من نفخ فيها بمنفاخ آلى حتى تحجرت وصارت على وشك أن تتفرتك من بعضها، أمسكته بيدى حتى لا ينفرط،

تنهدت من قعر بطني الدفين، قلت: «أهم من كل هذا يا أبو العم، ماذا يربطكم بهذا الرجل؟!».

تبسموا جميعا يابوى، ثم ضحكوا يابوى، وانتهى ضحكهم بشخر وغنج يابوى.. فكأن صفائح مياه ساقعة انهمرت فوق جسمى، قلت باسما كالأهبل فى الزفة: «علام تضحكون ياولد». قال «بربش» فى لهجة غير مريحة فيها غمز ولمز: «هذا الرجل صاحبنا، حبيبنا، يحب قعدتنا ونحب قعدته!». قلت: «عال، عال، كسبنا صلاة النبى». قال «بسبوسة» مقلدا لهجة الأفلام: «إنه أبونا الروحى يا جدع!»، ثم قطم ضحكته المائعة فصارت ترن فى صدره فيهتز وتتدفق أثداؤه، شعرت أن الشك يثقب كرة رأسى بسن الدبوس، ولم أفهم معنى غمزة «بسبوسة» فاغتظت من نفسى والله يابوى، لكننى قلت: «كسبنا صلاة النبى، نحن نهارنا فل بإذن الله!». وقال «غزولى» وهو يشعل سيجارة: «يقصد بسبوسة أن يقول لك إن الرجل أخ كبير لنا، يوجهنا، ويعاوننا، ويساعدنا على المعايش!». قلت «ربنا يساعدنا جميعا، من قدم خير بيديه التقاه». غير أن «هندى» تربع قائلا فى غمز كغمز السنانير فى المياه: «الله يكرمه، إنه يروق بالنا ويبل ريقنا، ولكن بعد أن يكفرنا من الشغل والتلطيم فى المشاوير!».

ضحك الصحاب وضحكت أنا الآخر يابوى، فعاودتنا كريزة الضحك من جديد يابوى، صرنا ننشال وننخبط كالمجانين السائبين والله يابوى، إلى أن سمعنا وقع أقدام، فكفكفنا دموع الضحك ورحنا نفرغ أصواتها فى صدورنا نهتز بعنف شديد، فلما اقترب وقع الخطى، جلسنا محترمين متزمتين، كلٌ فى مكانه فوق شلتته كما التماثيل،

وكانت الخطى كثيرة ومتواصلة، تنقطع برهة لتتصل من جديد فتتزايد وتتزايد. ثم انفتح الباب يابوى، ليدخل خادم يرتدى جلبابا أبيض كجلباب الحانوتى ويتلفع بحزام أحمر ويلبس طربوشا على رأسه ويحمل طبلية مهولة الحجم، لم أر مثلها فى حياتى عند أوسع العائلات. فوسعنا لها ما أمكن فلما وضعها صرنا كالفراخ حولها لا تظهر سوى رقابنا بأكتافنا، تبع الخادم خادم آخر يحمل صينية نحاسية أوسع من دائرة الطبلية فوقها نقوش ورسوم بالألوان مطعمة بالأحجار الكريمة كالعقيق والفيروز والمرجان وعين القط، وضعها فوق الطبلية. تبعه سيل من الخدم والولدان يحملون أطباقا وقوارب وسلطانيات وأكوابًا وأباريق وملاعق وشوكات مع سكاكين كثيرة لامعة بمقابض مطعمة بالعاج فعرفت أنها جميعا من الفضة وأن ملعقة واحدة من هذه تساوى الشيء الفلانى، منظرها تحفة يابوى تحب الفرجة عليها وهى طول الأصبع. طست وإبريق من النحاس استقرا عند العتبة. ثم توافدت الروائح يابوى، مشويات ومقليات وتخديعات ومحشيات. الولدان كالفرارير، فى لمح البصر زحموا الصينية بوليمة تاهت عقولنا فيها يا خال. فى أعقابهم وصل الحاج «أحمد نور الدين السنى»، فأقعى بجوار الباب برهة نزع فيها الأغطية عن بعض الأطباق هاتفا فينا: «بسم الله يا أولاد!»، فإذ بخيرات الله كلها مرمية أمامنا يابوى، ومتاحة، ما عليك إلا أن تمد يدك وتشيّع إلى فيك تحشر فى بطنك، وأين هى البطن التى ستتسع لكل هذا النعيم؟ حمام ودجاج وبط وكفتة وكباب وشرائح لحم محمرة، ومهرجانات من سلاطات الخضار والباذنجان والطحينة ناهيك عن الأرز والمعكرونة بأنواعها. كل ياولد أنت وهو بغير كسوف فالدار داركم كما تعلمون، هُبْ للنبى، نزلنا

على الأكل حتتك بتتك حشرنا البطون كالزنابيل كالتلاليس، والحاج «السنى» لا ينى ينتقى ويقتطع ويرمى أمام ملاعقنا وأيدينا وأحيانا فى فمنا، رغم ذلك لا ينقص الخير فى الأطباق، فيالها من بركة كبيرة. ثم أخذ ضرب الملاعق فى ترسانة الأكل يخفت، وقلاعه تسلم واحدة وراء أخرى، إلى أن سمعنا قولة الحمد لله تطن من حولنا فتذكرناها فرمينا الملاعق ورددناها متراجعين إلى الخلف بظهورنا، وأيدينا مكتفة بجنوبنا، لامعة الأصابع بإدام الطعام الدسم. نهض الحاج قائلا: تفضلوا فنهضنا جميعا ومضينا خلفه إلى خلاء السطح، فوجدنا حفنة من الولدان واقفين بالطست والإبريق، راحوا يصبون الماء على أيدينا ورحنا نغسلها، نمسحها نجففها بالفوط، نتكرع بصوت عال فنقول: الحمد لله.

فى لمح البصر كانت الأطباق قد رفعت والطبلية قد أجليت عن المكان، وتمددت الشلت على راحتها من جديد فتمددت سيقاننا لكن الباب انفتح من تلقاء نفسه، وزحفت ترابيزة زجاجية جميلة على عجل، يدفعها ولد حلو التقاطيع، بهرتنا وبهرنا، فنظرنا فيها فإذا عليها براريد الشاى والأكواب والسكريات. جعلها الولد فى وسطنا تماما وتركها وانصرف، ليدخل فى أعقابه ولد آخر يحمل قطعة مشمع مطوية، سرعان ما فرشها بجوار الباب وخرج، ليدخل ثانية بعد برهة حاملا طبلية صغيرة محندقة، يضعها فوق المشمع، يلحق به ولد ثالث فى يده وجاق نحاسى كبير فيه فحم مشتعل مصهلل، ووضعه فوق الطبلية وخرج، ليعود بجوزة عبارة عن جوزة هند كبيرة لها بخش وبوصة من أعواد الورد المجوفة من الداخل، وضعها مغموسة فى قلب دلو كبير ملىء بقطع الثلج. ثم دخل ولد آخر يحمل صينية صغيرة

عليها أكوام من الموز والبرتقال والتفاح والعنب، وضعها في الطابق الثاني من الترابيزة الفضية أم عجل، ووضع فوقها حزمة من الشوكات والسكاكين أغراني منظرها بإخفاء ثلاث منها، لولا الرقابة الشديدة عليّ من زملائي، ذلك أننا جميعا كنا نراقب بعضنا البعض بكثير من الشك والريبة، وكل منا يريد أن يدفع الشك عن نفسه بأي شكل. تعلقت نظراتي بالفاكهة برهة طويلة أخاير نفسي بأي تفاحة أبدأ تذوق النعيم، فلما انتبهت وجدت بجواري مباشرة دلوا آخر ملآنا بحجارة الجوزة المرصوصة بالدخان المعسل.

ما كدت أمسك بالتفاحة حتى كانت بوصة الجوزة قد أكملت دورتها لحد عندي. وكان «الحاج السني» قد رمى أمام «بربش» بقطعة حشيش في حجم كف اليد قائلا: «قطّع»، فصار «بربش» المفترى يقتطع إمضاءات كالملاليم الحمراء الكبيرة يفرشها على الحجر يغطيه، يرص حوله النار كالحمص، إن كان فيك حيل فاشفط وأرنا كيف تسفح هذا الحجر، إن فعلت فسيضيف لك «زمبة» كحبة الحمص فوق نار الحجر المشتعلة. إنه مفتر في الشرب كما أعرفه لكن اتضح لي الآن أن «الحاج السني» أكثر افتراءً، إنه ليس يشرب بحماسة شهوانية يابوى، بل إنه يغالط في الدور أيضا يابوى، ويزعم بشقاوة أن دوراً فاته لم يولع فيه حجرا كما ينبغي، ويتصادف أن يكون لحظتها قد أسلم البوصة لجاره لتوه، مع ذلك يثير جدلا كبيرا وربما يتعارك ولا يهدأ إلا إن ولع حجرا زيادة، ولربما زعم أن الحجر كان مكتوما، أو مخنفسا، أو مطفأ النيران، حتى يقول له الولد الساقي بسماحة نفس زائدة: «خذ غيره ياحاج»، فيربت على ظهر الولد في امتنان شديد ورقة زائدة قائلا وهو يتلقف البوصة باليد الأخرى: «أيوه يا ابني الله يكرمك ويعمر بيتك!

روح إلاهى يكفيك شر المرض!»، وينْفث الدخان من فمه ومنخاريه في تباطؤ ولذة مكملا: «روح إلاهى يفتحها فى وشك دنيا وآخرة!».

بعد حجارة لا حصر لها، وأصابع موز انسلخت بلا عدد وبرتقالات وتفاحات، وعنبات، ووريت فى البطون بغير وعى، وأكواب شاى اندلقت فى الحلوق الصادية.. بعد كل ذلك اعتدل «الحاج السنى» مرتكنا بظهره للحائط ممداً ساقيه مطرقعا عروقهما قائلا: «يعنى ما عرفتونيش بالرجل الطيب ده؟!»، وأشار بكفه نحوى، فهتف «بربش» مشيرا بكفه نحوى: «هذا هو حسن أبو ضب! صاحب المقهى التى كنا نلعب عليها القمار أيام كانت تمسكنا الحكومة عنده!». صاح «الحاج السنى» فى غبطة صبيانية طريفة كأنه يعرفنى معرفة الأخ لأخيه: «يه.. يه.. يه.. إزيك يا ولد يابو على! يا تلتميت ألف مرحبا! كنت فين يا ولد من زمان!».

حكيت له أمرى من طقطق لسلامو عليكم، فاستمع لى كما القاضى يستمع للأبوكاتو فى هدوء، ثم ابتسم قائلا: «على كل حال أنت حظك من السما! أنت الآن بين إخوتك! غدا تصير الأشيا معدن والحال عال!». ونزع من سيالته بضع ورقات من الأحمر القانى وقال: «خذ خل هذا المبلغ معك حتى تتيسر لك الأحوال!». تلكأت قليلا وانكمشت على نفسى كما العلق، صرت أقول: تشكر! تشكر يا حاج! ربنا ما يحرمناش منك!». فشخط فىّ بشدة: «خذ!»، ولكزنى الصحاب كلهم من كل ناحية: «خذ يابو على! اسمع كلام الحاج!». وقال الحاج: «صرنا الآن إخوة! ألم نأكل من طبق واحد؟! لابد أن نصون العيش والملح!». قلت: «طبعًا! طبعا!» ومددت يدى فأخذت

النقود، ودسستها فى المحفظة، فى جيب الصديرى، غير مصدق أن الدنيا ترمى بنفسها فى حجرى، هكذا مرة واحدة ياخال. غير أن صوت «الحاج السنى» زحف متلويا كالثعبان يقرصنى فى أذنى بكلمات تقول: «أكلنا عيشا وملحا معا يا حسن، فهل تعرف عقاب الله لمن يخون العيش والملح؟!» . قلت: «هو عقاب كبير يابو العم!». قال: «عودنى المولى الكريم أن يعجل بعقاب كل من يخون العيش والملح معى! فليس من أحد خان عيشى وملحى أو فكر أن يخون إلا وكان عقابه فوريا بفضل المولى العزيز الجبار عز وجل!» .

لعب الفأر فى عبى يا بوى، شىء إلهى فى نفسى قال لى إن الرجل العكروت يهددك من وراء ضلفة الباب، فماذا يا ترى ينوى أن يفعل بك، وكيف لى أن أخون عيشه وملحه؟ يعنى ماذا؟ كيف تكون هذه الخيانة يا ترى ومع من؟ . . ذهب الشتات بعقلى يا بوى، فشعرت أننى سأسقط من الجنة إلى النار مرة واحدة. . تحلف اليمين يا بوى أن بطنى كركبت وسمعت لها دويا كالرعد القاصف، وزغولةً تشبه سيفونَ دورة المياه حينما يشدون سلكه فيهدر الماء فى فتحة الكنيف، كما تهدر بطنى الآن. رَنَّ فى أذنى صوت أمى: «ما حلاوة بغير نار» ، فنظرت إلى «الحاج السنى» وقلت له: «اطمئن من جهتى يا حاج، فأنا ولد أعجبك، أصون العيش والملح، أحفظ السر، لا أنجس الماعون الذى آكل فيه ولا العتبة التى أطؤها، كما أنى لا أعض اليد التى تطعمنى!» . وكنت أراقب وجه «الحاج السنى» وهو يستمع إلى هذا الكلام، فأجده مرتخى الملامح مبتسم الفم والنظرات، والسرور باد عليه من كلامى، ثم إنه قال: «أنت على كل حال فى مقام ابنى! وأنا أحببتك وشعرت أنك أهل للثقة، أحب أن تعرض علىَّ كل مشكلة تصادفك، لأساعدك

بعون الله على حلها، وأوصيك بالصدق والصراحة معى قدر ما تستطيع، فبالصدق والصراحة تكسبنى غير أنك بدونها تخسر نفسك كلها!».

ارتعبت مرة أخرى يابوى وتمغمص بالى و قلت لنفسى ما الذى يريده هذا الرجل منك يا ولد أبى ضب؟ هل يشغلك عنده فى هذا الشادر؟ هل يرسلك فى تنفيذ مهمات؟ . . انتظرت أن يبوح الرجل بشىء يريح بالى فلم يفعل يا بوى، فكركبت بطنى من جديد وصار الطعام كحجر الرحى فوق صدرى، فخفت أن أتكلم حتى لا أخطرف، فسكت تاركا أدماغى يستريح على عنقى، وليس يدورفيه غير صورة أمى، وأخى الصغير، وأختى «سعدية» ، و«خرابة» و«هليّل» و«بهانة» ، يدخلون كلهم فى بعضهم كالعجينة، ويخرجون من بعضهم واحدا وراء الآخر. أفقت على الضحك من حولى و«هندى» يلكزنى فى جنبى صائحا: «ياجدع بطل شخر، الرجل يكلمك وأنت نازل فى الشخر! فضحتنا يا جدع!» ، فرفعت وجهى كالأبله محملقا فيهم، وهم يتقافزون فى الهواء من شدة الضحك، عندئذ نهض «الحاج السنى» واقفا يقول: «النوم وجب من بدرى!» . فقمنا جميعا ومضينا وراءه والولد «هندى» محدق بى يسندنى ويسند نفسه من الضحك الخفى، الذى يرجه رجا، فمازلنا فى خطو، وصعود فهبوط، وهبوط فصعود، ودخول وخروج، حتى وجدت أننا صرنا فى قلب الشادر، فبدأت أتذكر الطريق الذى جئنا منه. وبدأ وجهى من جديد، يصافح لفح الجحيم.

الخامسة ـ الباب المضمون

لما خرجنا من فتحة الشادر إلى الشارع العمومى الكبير لفحنى الهواء فانسطلت فوق انسطال، وتذكرت العربة الأجرة التى كانت قد جاءت بنا من المحطة فلم أجدها. تحلف اليمين يابوى اننى انخطف قلبى من صدرى من أول ما مشيت فى الشارع، وجاءنى هاتف يقول إننى خرجت لتوى من الجنة إلى جهنم خبط لزق، وجاءنى هاتف آخر بعده يقول إننى لم أكن منذ دقيقة فى قلب الجنة بنفسها كما وصفها الله فى كتابه العزيز وأن ما كنت فيه هو حلم الفرخة الجائعة بسوق الغلال، سألوا الأعمى بماذا تحلم؟ قال: بقفة عيون، وأنا قد حلمت الليلة بالجنة حتى دخلتها لكننى طردت منها بغير أسباب وصاحب الجنة لم يقل لى ما هى الشجرة المحرمة، وهاأنذا يا خال قد عدت أمشى شريدا فى شوارع «مصر عتيقة». سألت نفسى: أين تبيت بقية ليلك يا ولد أبى ضب؟ أتذهب إلى صاحبك «ميمى» ماسح الصرم؟ أم تذهب إلى المعلم «شندويلى» وتتركه يغلق عليك المقهى؟ لكن المعلم «شندويلى» زمانه الآن فى سابع نومة.

يدى كانت فى جيبى رغم أن الدنيا حر، وسألت نفسى لماذا وضعتها فى جيبى؟ ثم أخرجتها فإذا هى لا تزال قابضة على الأوراق الحمراء، تحسستها فاقشعر بدنى وتأكدت أن الجنة لم تضع من يدى بعد، وأننى

يمكن أن أرجع إليها وقتما أشاء إذا أنا دهنت نفسى عسلا أمام هذا الرجل وتركته يذوقنى بلسانه الأريب، إن كان هذا الرجل هو بواب الجنة فإنى إن لم آكل بعقله حلاوة أكون مغفلا كبيرا يابوى، إنه لن يكون فزورة أعصر دماغى فى فك عقدتها، سوف أعرف كل ما يرضيه لأفعله وكل ما يغضبه لأمنعه وأعرف مواضع الأكلان التى يستحلى الهرش فيها من جسده فأهرش له فيها بأظافر حنون رقيقة حتى يغيب من النشوة، ذلك لن يكلفنى شيئا يا خال، فليس على الكلام جمرك يدفعه المتكلم وإلا يولد الرجال خرسا من الأصل، وليس على أفعال الإنسان من رقيب سواه هو نفسه يفعل ما يشاء.

دهمنا صوت «بربش» صائحا فى خلاء الشارع العريض: «وحدو . . و . . و . . ه». هدرنا جميعا فى صوت واحد يهزه الخوف والخشوع: «لا إله إلا الله» . وضغط «بربش» على كتفى قائلا: «حتبات فين يابو على؟» . قلت «والله ما اعرف يا خال» . لطمنى على كتفى: «تعال معى» . فقال «هندى»: «خله لى فأنا أعزب وأقيم وحدى، أما أنت فأمك وإخوتك ليس ينقصهم من يزاحمهم فى الجحر الذى تسكنونه فى حى السيدة زينب!» . قال «بربش» «حين نصل يكونون قد أخذوا كفايتهم من النوم، فننام أنا وهو» . قال «هندى» : «دع الناس فى حالهم» قال «بربش»: «وبالمرة سأكلم حسن فى الأمر!». انشد قلبى نحوه بخطاف، وطار النوم من عينى، صرت ملهوفا على معرفة هذا الأمر واستحسنت فكرة الذهاب مع «هندى»، غير أن «هندى» قال مشيرا لى : «سأكلمه أنا فى كل شىء أحسن منك! غر فى داهية ومع السلامة!» ، وشوح للجميع وهو يضع يده على

كتفى: «مع السلامة يا أولاد! نتقابل فى الميعاد بكرة على القهوة!» وسحبنى ومضى بى نحو مجرى العيون، فدخلنا فى إحدى العيون بين أكوام متراكمة من الدور ذات الطابق الواحد والطابقين، يستطيع المرء أن يسلم ـ وهو فى الشارع ـ على من يقف فى شباك الطابق الثانى، أما الجدران فمائلة وغائصة فى الأرض الموحلة الرطبة المليئة بالحفر والمجارى الضاربة أبحرا وقنوات وبركا تلتحق بعتبات البيوت، أكوام الدور يقسمها شريط مترو حلوان إلى ضفتين من الهديم والركام تتضح فيها شبابيك وأبواب، من الصعب على العين أن تميز بين الجدران وأكوام الهديم، فكلها متشابهة متضافرة يتساند بعضها على بعض ويخفى بعضها البعض، ويختفى معظمها فى أكوام الزبالة المالئة المكان ريحا نجسة خبيثة.

مشينا كثيرا بجوار شريط المترو ودخلنا فى حارة من الحوارى الضيقة التى لا تتسع إلا لمرور شخص واحد فقط وربما شخصين. لحظتها كان لون الصباح يتسلق أكوام الزبالة ويختلط بألوانها وينشر فى الحوارى رائحة نفاذة تطغى على رائحة الزبالة: مزيج من رائحة مياه الحموم ورائحة الفول المدمس الطائب مع رائحة دخان مخزون فى هذه الكهوف، قلت لـ «هندى» مستغربا: «تسكن فى هذه البلدة ياهندى؟». قال: «ياريت!». انفرط قلبى، قلت: «ياريت!! تقول ياريت!!»، التفت نحوى مؤكدا: «طبعا يا جدع! من يسكن هنا يعتبر فى قلب مصر ويستغنى عن الانتحار فى الأوتوبيسات والقطارات يروح أى مشوار على رجليه، وكل الأسواق من حوله قريبة».

تصدع دماغى يا خال كأن «هندى» خبطه بدبشة. والذى غطى

ووطى أنه قال: «الخلوات جاءت إلى هنا يا حسن، فلا تستهزئ بهذه البيوت، لو كنت رجلا تعال اسكن هنا فى أى عشة بدون أن تدفع ألفا وألفين وثلاثة، أنا أجرت ورشتى فى الحارة الجائية بخلو رجل قدره ألفان، وكانت كبيرة وعالية فقسمتها نصفين بالطول جعلت نصفها للورشة والآخر للمعيشة والبيات، ومن يوم أن سكنتها فتح الله علىّ، بعد أن كنت أضيع النهار كله فى تنطيط من أتوبيس لآخر دون أن ألحق بشىء!» . ثم إنه توقف عند دار من طابقين خفيفة الدم يابوى كامرأة سمراء بنت بلد بغمازات فى خديها، واجهتها مدهونة بالجير ومكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولها بابان رفيعان أحدهما بضلفتين مقفولتين وفوقهما درفيل من الحديد بقفل كبير من الخشب والآخر بضلفة واحدة، وكلاهما مدهون بالزيت الأزرق. أشار «هندى» إلى هذه الدار وقال: «ما رأيك فى هذه العروسة؟» . قلت: «آخر تمام!» . أخرج مفتاحا طويلا من جيب بنطلونه ففتح به الباب ذا الضلفة الواحدة ودفعه، فظهر فى مواجهتنا سلم واقف مين من الأسمنت. مد يده فى صدغ الباب من الداخل وأضاء النور وقال: ادخل، فدخلت صاعدا الدرج، ودخل هو ورائى وأغلق الباب وراءه بترباس سميك متين، وصعد خلفى حتى لحق بى على البسطة، وأخرج مفتاحا آخر فتح به بابًا خشبيًا ودفعه، فإذا بنا فى حجرة كبيرة مدهونة بالجير السماوى ومزدانة حوائطها بصور نساء عاريات بالألوان وصور للراقصات والممثلات والمطربات وكل نجوم السينما.

فى الحجرة سرير سفرى نظيف فوقه ملاءة مربعات كالمنديل المحلاوى، بجواره دولاب طويل بضلفتين من دواليب اللوكاندات وترابيزة مستديرة من الجريد، وثلاثة كراسى من الخيزران. على الحائط

المواجه للسرير تسريحة كبيرة على شكل البيضة. على الأرض كليم مصنوع من بواقى قصاصات الخياطين مما يباع بثلاثين قرشا للواحد بالتقسيط المريح. فوقه وابور وبراد وبضعة أكواب وحلة من الألمونيوم وطبقان من الصاج ومعلقتان ومغرفة. وعلى درج التسريحة راديو من البلاستيك الأخضر ماركة صوت العرب. أول شىء فعله «هندى» حين دخولنا أن فتحه فصار يوش إلى أن وفدت من بلاد بعيدة جدا موسيقى تشبه موسيقانا، فتركها ومضى يترقص فى الغرفة على واحدة ونص وبدون مبرر، فصرت أصفق له وأضحك لكنه بعد برهة شهق وتوقف مستنكرا يقول «بس! بس! أحسن الجيران فى عز النوم» . ثم سحب كرسيا فجلس بجوارى وأشعل سيجارة ورمى العلبة نحوى فأشعلت أنا الآخر واحدة.

انجعص «هندى» ممددا ساقيه على كرسى آخر، ونفث الدخان بلذة الحرمان الكبير، وقال: «شوف يا حسن ياخوى، أنت وافقت على أن تشتغل معنا، ونحن رحبنا بك لتأكل عيشا معنا!» ثم صمت ليشد نفسا من السيجارة، فسحبت أنا الآخر نفسا وقلت: «طبعا يا هندى يا خوى، ربنا يوفقكم جزاء جميلكم فىّ، المهم أن يكون الحاج السنى قد انبسط منى!» . شوح بالسيجارة بجوار رأسه، وظهر عليه الاستغراب وهو يقول: «الحاج السنى ماله ومال شغلنا؟! أنت تشتغل معنا لا مع الحاج السنى!» . قلت منذهلا: «كيف يا بوى؟! أنتم قلتم لى من المبتدأ أنكم ستعرفوننى على هذا الرجل فى الأول قبل أن أشتغل أى شغل!» . شد «هندى» نفسا عميقا ضيَّق له ما بين حاجبيه فى خبث واعر، وقال: «نعرفك به لأنه رجل طيب وناصح! يعرف الناس من وجوههم، ولو

قال لنا إنك لست محل ثقة لما شغلناك معنا!» .

كلام موارب يابوى أليس كذلك؟ هذا ما شعرت به على كل حال، فأحسست أن الصقيع يطبق فى خناقى، صرت أطوح أصبعى يمينا وشمالا بحركة نفى واعتراض مع تأتأة متتالية، و«هندى» ينظر فىّ مندهشا يقول: «تقصد بهذا؟». قلت: «إن رباطكم بالحاج السنى أمتن من هذا يابو العم، إننى ولد لافف ودائر كما تعرف يا هندى، أفهمها وهى طائرة!» . قال هندى: «فعلا يا جدع، وهل تقول فيها؟! إن الحاج السنى بكل صراحة يعاوننا على المعايش، إن احتجنا نقودا يسلفنا ونردها له بعد ميسرة، وإن توفر معنا شىء يصعب التخلص منه باعه لنا بواسطته أو اشتراه، المهم أن يفرج عسرنا والسلام، هو كما قلت لك رجل طيب وجده كان قاضى قضاة أحد السلاطين، ومن هنا فإنه يفهم فى المنازعات وفضها وفى أمور المحاكم وقعدات الحساب والمصالحات، إنه خبير فى توقيع الجزاءات وإرضاء كافة الخصوم على الوجه الذى يريحهم جميعا، إنه يفصل بيننا فى كل نزاع يقوم بيننا وبين الناس وبيننا وبين بعضنا، باختصار هو يحمينا من أشياء كثيرة، ويسعى للإفراج عنا إذا حكم علينا بالمبيت فى الأقسام، ويضمننا عند الحاجة إلى الضمان» .

تحلف اليمين يابوى أننى أغمضت عينى وفتحتها فى دماغى فلم أر لهذا الكلام قدمين يمشى عليهما، إنه فى الظاهر كلام زين، لكنه يذكرنى بشرائح الخشب التى يلصقها النجار فى بعضها بالغراء صانعا منها لوحا عريضا لا يظهر موضع اللحام فيه، لكنك لو ضغطت عليه ينكسر. هذا كلام ملتصق فى بعضه بالغراء يابوى، لكننى مضطر

لتصديقه، وإنى لمتأكد من أنهم جميعا يعملون عند الحاج «أحمد نور الدين السنى» من الباب للباب، فقلت «خلاص يا هندى خلاص! هذا كلام مليح وإننى موافق على ما تقول!» . قال «هندى» وهو يطفئ السيجارة فى غطاء علبة ورنيش معدة لهذا الغرض: «ربنا يخبز لنا العيش جميعا، قم لننام حتى نقوى على العمل!» . تعجبت والله يا خال وتبرجل مخى وتلعبك، وظننت أنهم ينوون الذهاب بى إلى المورستان، شوحت قائلا: «ياهندى يا خوى، أنت للآن لم تقل لى ما العمل الذى سأشتغله معكم!» . قفز عن السرير منبها، مشوحا بيديه: «صدق من سماك صعيدى قفل، تظن أننا سوف نجلسك إلى مكتب بفنجان قهوة وجريدة صباحية وساع تتأمر عليه طول النهار! يا بنى آدم أنت الآن تعتبر فى الشغل، نحن الآن نشتغل، وأجرك محسوب، قالوا يا خبر بفلوس، قل غدا يصير بالمجان، فاصبر قليلا ترى نفسك فى قلب الشغل دون أن تدرى!» . قلت: «ها أنى صابر يا خوى!» . قال: «قم فنم لك ساعتين!» . قلت «سأنام على الأرض ها هنا!» . شوح متمددا: «نم والسلام فى أى جورة تعجبك!» .

لقيت صرة خلقاتى بجوارى، فتعجبت والله يابوى كيف افتكرتها وجئت بها معى رغم أننى كنت ناسيها، تبسمت راضيا عن نفسى ورميت صرة الخلقات فوق الكليم وهبطت وراءها فجعلتها مخدة ركنت فوقها رأسى وانبريت اقرأ الفاتحة طلبا للنوم ينجينى من ظلام الاعتكار الذى غير مزاجى مرة واحدة وصدع رأسى. ظل النوم يحاورنى وأحاوره ولو كنت أحفظ القرآن لتلوته كله عليه، لكننى ظللت ساعات طويلة أتقلب على جمر النار، حتى فتحت عينى فرأيت

«هندى» يحلق ذقنه أمام المرآة واقفا بالفانلة والسروال ـ سروال المنامة، فتكورت جالسا، فأشار لى خياله فى المرآة إلى كوعة فى آخر الغرفة لم أكن تنبهت لها ساعة دخولنا، فقمت ذاهبا إليها فإذا هى فتحة باب، يليها على الجنب باب قطوع، تطل منه فتحة الكنيف، ثمة حوض من الأسمنت مبنى فى الحائط تحت صنبور. دخلت الكنيف، فصفيت بطنى من ولائم الأمس واستعدلت ثم قمت فطسست وجهى بالماء من صنبور الحوض، فحينما لامسنى الماء وتفكرت فى أننى متوكل على الله خطر لى أن أتوضأ. شىء إلهى فى نفسى قال: توضأ يا ولد وصل ركعتين لله يوفقك فى طريقك ويرجعك مجبور الخاطر.

أنهيت الوضوء وعدت إلى «هندى» فوجدته قد ارتدى كامل ثيابه النظيفة وحذاءه فظهر أفنديا ولا البكوات. سألته: «ألا يوجد عندك حصيرة صلاة؟!». وضع كفه تحت أذنه صائحا فى اهتمام شديد: «ماذا قلت؟!».. كررت قولى: «حصيرة صلاة؟!». قال: «لمن؟!». قلت: «لى». قال فى استنكار بالغ: «أتصلى؟!» قلت: «لا! ولكننى أريد الآن أن أصلى!». قال بنغمة الشخر: «الآن فحسب؟!» قلت نعم، لعله تعالى يوفقنا!». انفجر «هندى» فى الضحك والشخر حتى صار كالمجنون وصار يغنى: «صلى وصام لأمر كان يطلبه، فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما!»، ثم سحبنى من ذراعى كالمقبوض علىّ قائلا: «ياجدع لا تكن عبيطا! أتظن أن الله تدخل عليه هذه الألاعيب! أتظن أنك تضحك عليه وتأكل بعقله حلاوة، يا لك من بارع! يا لك من ولد مفتح، امش يا جدع ولا تجعله يعاقبك بالعنية!»، ودفعنى من فتحة الباب، فنزلت أكر على السلم. بعد دقيقة كنا فى

الشارع. نظرت فى باب الورشة فوجدت أرضه نظيفة، فتيقنت أن بابها ذاك لم يفتح منذ شهور طويلة، وأنها مجرد مكان يستر به الولد نفسه أمام الخلق حين يقول إنه فحام صاحب ورشة. .

وكانت الشوارع الضيقة الملتوية مضاءة بمصابيح الجاز المعلقة على أصداغ الدور على النواصى والحودايات - حاذينا شريط المترو، خرجنا من العين، كسرنا الخطو ماشيين بحذاء مجرى العيون، ثم كسرنا إلى شارع الجيارة، ومضينا إلى مقهى المعلم «سحتوت»، لنشرب لنا حجرين لزوم الاصطباحة، وقال «هندى»: «الساعة الآن الثامنة بعد العشاء موعدنا مع الصحبة فى العاشرة!». قلت: «ألا نشق ريقنا بلقمة صغيرة نشرب عليها؟». قال إن مطعم الفول والطعمية مجاور للمقهى.

وصلنا إلى المقهى، فأوصى «هندى» صاحب المطعم بأن يرسل لنا صينية فول عليها طلبان. فما كدنا نستقر على الكراسى القش فى الحارة حتى جاءت الصينية وفوقها طبقان من الفول، وطبقان من الطعمية وأربعة أرغفة وطبق سلاطة خضار وطبق ريحة الطحينة. تاوينا كل ذلك فى دقائق، وطلبنا الشاى. وكان «بسبوسة» أول القادمين بجلبابه المكوى، ما إن جلس حتى طلب الدخان فجىء به وبالجوزة والنار والولد الذى سيسقينا. صار «بسبوسة» يرص الحشيش من قطعة فى راحة يده مخفيّة. وصرنا نشرب، إلى أن جاء «غزولى» من بعيد يأكل فى رغيف محشو بالكبدة ذات الرائحة النفاذة، ويتبادل الشتائم القبيحة مع كل من يصادفه فى الشارع من رجال يعرفهم ويعرفونه، حتى بعض النساء كن يدخلن معه فى قافية للتنكيت. . ثم جلس بجوارنا يلعن

صبيان المقهى وأمهاتهم البغايا، وهم يحتملونه فى الظاهر ثم ما يلبثون أن يردوا له الصا ـ ع صاعين. بعد ذلك مباشرة جاء «بربش» وقد تغير شكله من بيك محترم إلى مجرد رجل يلبس قميصا وبنطلونا. بمجيئه اتسعت القعدة. فنزلت حجارة المعسل ترف بالعشرات حتى نسفت رءوسنا نسفا. ونظر «بربش» فى ساعة يده القديمة الصدئة، وقال: «الساعة الآن منتصف الليل!». . فخيم على القعدة دخان القلق، وسمعنا صوت مزمار عربة تشبه زمارة الخطر. . فنهضوا كلهم ونهضت معهم، وقال «بربش»: «لقد وصل!» . وذهب «بسبوسة» يحاسب صاحب المقهى، ومضينا إلى الشارع العمومى فى اتجاه عربة «كميون» كبيرة واقفة تسد فتحة الحارة. نظرت فيها فرأيت على أبوابها وصندوقها من كل ناحية كتابة، ميزت فيها رقم العربة وحرفين هما: ق ع فلم أعرف ما معناهما يابوى لكن «بربش» قال: اركبوا، فركبنا، هو و «بسبوسة» بجوار السائق وأنا و «هندى» فى قلب الصندوق المستطيل.

انطلقت العربة يابوى، حودت واستوت على طريق الكورنيش، فملت على «هندى» وسألته إلى أين نذهب الآن يا هندى يا خوى؟ قال «نتوكل على الله لنشتغل!». قلت «أى شغل يا جدع؟» شوح قائلا فى فروغ بال: «ستعرف حالا» .

* * *

السادسة ـ ليلة قاف عين

خرمت العربة على بر الجيزة، وصارت تضرب فى طرق بعيدة حتى اقتربت من عواميد خرسانية تقف فى العراء وحولها أكوام كبيرة من حديد التسليح والطوب الأحمر. دخلت العربة بحذاء الحديد وحضنت عليه ثم توقفت. فنزل «بربش» و «بسبوسة» والسائق، فنزلنا معهم، فجأة هجم كل من «بربش» و «بسبوسة» على خفير عجوز ينام على شكائر الأسمنت وفى حضنه نبوت. كتفاه بالحبال ولثماه بلاسته، ونزع «بربش» من حزامه مسدسا رماه لى قائلا: «هذه مهمتك يا بلدينا! قف أمام هذا الخفير! إذا أظهر أى حركة أو كلمة أو صيحة اقتله فى الحال!».

ارتعت يا خال، لكننى نفذت يا خال. أمسكت المسدس بيدى فرحا به، وزأرت فى الخفير أن يكتم أنفاسه، بينما انصرف كل من «بربش» و «بسبوسة» و «هندى» والسائق يرفعون أسياخ الحديد حزمة حزمة، ويعبئون صندوق العربة الكميون حتى امتلأ عن آخره بحوالى عشرة أطنان، وركبوا. فلففت حول العربة وشبطت فى جدار الصندوق الخشبى فلحق بى «بربش» وشدنى من ثوبى قائلا ببساطة:

«ستبقى أنت هنا! فسوف نجىء مرة ثانية وثالثة ورابعة!». تطلسمت عيناى يابوى، وداست قدم غليظة فوق قلبى، فجاءنى إحساس بأنه سينقطع من عروقه فصحت من غيظ ومن وجع: «كيف يابوى أبقى هنا؟ أهو الملعوب إذن؟!». فلطشنى بظاهر كفه فى نرفزة وضيق هامسا: «هندى» سيبقى معك فى حراسة الخفير لحد عودتنا!». خففت القدم الثقيلة ثقلها على قلبى فاسترحت بعض الشىء إذ إنهم لن يضحوا بحبيبهم «هندى» من أجل ملعوب يلفقونه لى. مخى الصعيدى يابوى ولابد أن يتعبنى قبل أن يفتح لى أبوابه ومخازنه، هو يفتح لى أبوابه حسب مزاجه الخاص يابوى، وقسما بالله العلى العظيم يابوى إننى ما حاولت فتحه مرة وانفتح، بل إنه ليحيرنى ويتفنن فى تطليع دينى يهزؤنى بين الخلق، وحينما يتجمع خلق كثيرون لفتحه، لا تنفع طفاشات ولا مفاتيح كأنه شغل بره يابوى، لا يمكن فشه بسهولة بحيل اللصوص، لصوص المدائن، لكن المضروب ما يلبث حتى نفتح وحده ذات لحظة فيبين لى الحق من الباطل، وذلك عندما أكون رائق البال، ولا أكون رائق البال إلا عندما أكون رائق المزاج، بعد أن أشرب لى حجرين من حشيشة نظيفة طيبة الأصل.

شعرت أن مخى سينقفل مع «بربش» وهو إذا اتقفل يهدد بفضيحة قد نذهب كلنا فى رجليها.. فلحقت بشجاعتى قبل أن تهرب منى وصالحت نفسى عليها ووليت ظهرى للعربة عائدا إلى الخفير. فلما رأيت «هندى» مرابطا بجوار الخفير واثقا من نفسه يروح ويجىء حول الخفير، واضعا يديه فى جيبى بنطلونه ضاربا الدنيا صرمة كأنه يتنزه اقتربت منه وسحبته إلى بعيد وهمست فى أذنه: «بتاع مين الحديد ده

يابو العم؟». همس فى أذنى بهزة من كتفيه: «مش عارف والله يا حسن! لكن الظاهر إنه قاف عين!». قلت فى غيظ: «قاف عين يعنى إيه يابو العم؟ تتكلمون معى بالسيم والفوازير ينقفل مخى ويزرجن!» كتم الولد العكروت ضحكه وهمس فى أذنى: «يابنى آدم قاف عين بتاع الحكومة! بدال ما «يقولوا» قطاع عام اختصروا وسموها قاف عين!».

تلعبك مخى أكثر والله يابوى، صار مثل الكنافة يستحيل تسليك خيوطه من بعضها، لكن عجلة مخى أسرعت تدور وتدور مفكرة وتقول: «كيف يا بو العم! عربة قاف عين تسرق متاع قاف عين؟!». الولد العكروت أخذ يضحك ضحكا مكتوما ويشخر بصوت عال، وفى النهاية شوح بيده نحو رأسه مرسلا لى نظرة فيها نفاد صبر وتهديد وضيق: «شوف يا بلدينا! إذا كان مخك الصعيدى النير سينفتح على هذا النحو، فالأفضل أن تقفله قفلة مسوجرة، إن شغلنا يحب الستر يا صاحبى ويحب تفتيح المخ، والصعيدى حين يفتح مخه يجىء لأهله بمصيبة ثقيلة! إذا كنت تريد أن تشتغل معنا يا صاحبى فالواجب أن تقفل مخك وحنكك هذا تخيطه بالدوبارة! ولسانك تقطع منه ثلاثة أرباعه! ما يجرى علينا يجرى عليك! وحقك تأخذه بالرضا والتسليم دون أن تفتح فمك وإلا ضعت! اسمع كلامى فأنا أحب مصلحتك وأعرف طيبتك وسلامة نيتك! لكن الشغل معنا كالحمّام دخوله ليس كالخروج منه! إن بقيت معنا على الوضع الذى قلته لك الآن تخرج من الحمام مستحما نظيفا لابسا ثيابك النظيفة منتعشا! وإن فتحت مخك الصعيدى التخين على هذه الطريقة الصعيدية التخينة ستطرد من الحمام عاريا مسلوقا من جلدك تتمنى الموت فى كل لحظة! وعلى

كل حـال يا صـاحبى أنـت مـازلت علـى البـر لم تدخل فى الغـويط فـإن كنت غير واثق من أنك تفعل ما طلبته منك فإننى يمكننى أن أعاونك على أن يذهب كل منا إلى حال سبيله دون أن يصيبك أذى! وتستطيع أن ترد للحاج السنى فلوسه التى سلفها لك!» .

تلخبط غزلى يا خال، لم أعرف كيف أرد على الولد «هندى» وقد شـعـرت أن مـزيكة الصـدق فى صـوته، قلت له: «تشكر يا هندى يا خوى! والله عداك العيب وسافر حتى الشلال! أنت الآن نورتنى وأنا حر أبقى معكم أو انصرف لحال سبيلى» . ولحظتـها كنت أجـمع فى دمـاغى الكلام الذى سـأقـول له به إننى سـأختـار الانصـراف إلى حـال سبيلى وليـوفقكم الله ويوفقنى كل فى طريق. . لكن لا أعرف يابوى من الذى صحى صورة أختى «سعدية» لحظتئذ فى دماغى فصار قلبى ينتفض راقصا من الطرب أم من الاضطراب لا أدرى، لكن «سعدية» مشت فى دماغى لحظتها حاملة المدفع الرشاش تردى به الحكومة قتيلة فى لمح البصر تنط كالفارس على ظهر حصان «خرابة» لتنطلق مثله إلى الجبل طريدة تصبح مثلما كان شوكة فى جنب الحكومة دامية. . ففى الحال صحت فى الولد «هندى» وقد جـمد قلبى: «أنا معكم يا هندى يا خوى حتى نهـاية العـمـر بإذن الله! ولن أفـرط فى صـحـبتكم أبدا!» فسـحبنى الولد تحت إبطه وطبطب على كـتـفى وقـال: «ربنا مـعـاك ومعانا!» ، ثم حاصرنا الخفير من كل ناحية.

دقـائق وبرقت فى حلكة الليل أنوار مقبلة فـسحبنى الـولد «هندى» برفق وتسللنا على أطراف أصابع أقدامنا كى لا يشعر الخفير بانصرافنا فيصيح. دارينا أنفسنا خلف العواميد منبطحين بين شكائر الأسمنت

نستلقط الأخبار، ويدى على الزناد مستعدة للضرب فى المليان، فلما اشتد النور فجأة، انطفأ فجأة، وكف هدير العربة، وجاءنا صوت بابها وهو يفتح ويغلق، وصوت «بربش» يتنحنح. فنهضنا وجرينا إليهم، لأقف بجوار الخفير واضعا فوهة المسدس فى ظهره وينصرف «هندى» للمشاركة فى التحميل، حتى امتلأت العربة لتمها، وكان لابد أن أبقى ثانية، وفى هذه المرة كنت أكثر شجاعة. وفى المرة الثالثة كنت أتنزه رائحا غاديا كأننى الخفير الحقيقى. وفى المرة السادسة كنت أنا الذى يصبّر «هندى» ويهدئ أعصابه القلقة، إذ إن الفجر كان على وشك أن يشد خيوط النهار وكانت أعصاب «هندى» تنفرط كلما ابيض وجه الصباح. فى هذه المرة يا خال وسقت العربة آخر ما تبقى من أسياخ الحديد فى قعر صندوقها، وفوقه رصات من شكائر الأسمنت تعلو فوق كابينة السائق بأمتار. وكان علىّ أنا و «هندى» أن نتمدد فوق رصات الأسمنت، فأخذنا نترفق بالعربة من التسلق خوفا أن تميل وتسقط فى ناحية. وقف السائق ليفعل مثلما تفعل الناس بجوار الخفير المتمدد فوق بعض الشكائر الفارغة مكتفًا ملثما. سرت عدوى البول فينا جميعا، فتجمعنا بجواره صفا واحداً وأخذنا نبول فى ثقة واطمئنان، وقال «بربش» مشيرا برأسه إلى الخفير: «الراجل ده ما صَيَّحش ولا عمل أى حاجة؟!». قلت متذكرا: «تصور يابو العم أنه لم يفتح فمه!» . قال «هندى» مؤمنا على كلامى: «ولم يتحرك من الخوف!» قال السائق وهو ينفض قضيبه لينثر عنه آخر قطرات البول: رجل طيب ويستحق أن نعطيه حسنة وعلبة سجائر!» . قال «بربش» فى كرم ظاهر: «ياريت!»، ثم مد يده فتناول مسدسه منى فشعرت كأننى قد صرت فى الريح «عريان»، ونويت أن يكون معى واحد على طول

الخط إذ إن موضة المطاوى بطلت هذه الأيام.

انحنى «بربش» على الخفير وزغده ببوز المسدس فى كتفه قائلا: «إنت يا حاج؟»، فصار الخفير يهتز تحت زغد المسدس. فمد السائق يده وأمسك برسغ الخفير وتحسسها ثم أخذ يدمدم: «يا خبر أسود! الرجل مات!»..

انبرينا نتحسسه من كل ناحية، ونضع أيدينا على فمه وقلبه ونبضه وندعك فى قضيبه حتى ينكسف إن كان يمثل الموت ولكن لا حياة لمن تنادى، راح السائق يفك عنه الحبال شيئا فشيئا ويتوقف عند فك كل عقدة لينظر ما إذا كان الخفير يخدعنا، و«بربش» شاهر مسدسه فى وجه الجثة ليردعها به فى الحال إذا ما تخادعت. لكن الحبال كلها انفكت ورمى بها السائق على سطح العربة والخفير جثة هامدة لا حراك فيها. فنزعنا عنه اللاسة ومددناها وفردناها عليه كما كان فى وضع نومه قبل مجيئنا، ثم تسلقنا العربة. وفى أسرع من البرق كانت العربة تنطلق بنا فى الطريق. وأنا و«هندى» مسطحان كل منا غائب فى ملكوته. إلى أن توقفت العربة، ونزلوا، فنزلنا، ففوجئت بأننا أمام شادر الحاج «أحمد نور الدين السنى»، وثمة رجال من ولد عمومتنا يكتتفون بالخيش، قد هرعوا لتعتيق هذه الحمولة، وكان عرق تعتيق الحمولات السابقة يغمر أجسادهم ويتناثر مع الندى على أسفلت الطريق.

العملية طلعت آخر أنس يابوى، وآخر فرفشة، نظاكة ما بعدها نظاكة، ولم يكن قبلها بطبيعة الحال. الولْد ـ ربك والحق ـ عاملونى بالحد والمصلحة لم يطمعوا فى عرقى وشقاى. نادوا على أمام الحاج السنى ليرينى ـ مادمت أفك الخط ـ حسبة الموازين التى أجراها لهذه

«البضاعة» التى اشتراها منا. فلما قال كلمة «البضاعة» التى قيل إنه سيشتريها منا لحساب جمعية خيرية تبنى فى سبيل الله مساجد ومعاهد نظرت فى وجهه جاعلا من عينى مخرازين يخرمان عينيه، لعلنى أجد خلف هذه البسمة الشقية شيئا يدلنى على الحقيقة الكامنة وراء إنسان عينيه هاتين، وعيناه يابوى تقول بلورتين صغيرتين لا يمكن النفاذ منهما ولا يمكن سحقهما بل والله يا خال كنت أحس أن بصرى ينزلق على زلطتين صلبتين ولست أشك يابوى أنه قد شعر بتعبى من جراء وضعه فصرف عينيه عنى متعمدا ووضعهما فى الورقة التى أمامه، وخط بالقلم الكوبيا خطا تحت المجموع الناتج عن حمولات ست جاءت بها العربة، وتحتها مجموع وزن شكائر الأسمنت. ثم غرز القلم الكوبيا تحت طاقيته الشبيكة وطوى الورقة قائلا:

ـ «شوفوا يا أولاد! أنا ما عندى مانع فى التعامل معكم بسعر السوق السوداء! لكن ذا يبقى كثير عليكم! يجوز أن أظلمكم! ويجوز أن تظلمونى! السوق السوداء كما تعرفون مجنونة بطبيعتها! يفوز بجنونها قلة من التجار الجشعين! ويضار منها التجار الشرفاء! من أجل هذا يا أولادى لا أجد طريقة أتعامل بها معكم أنسب من طريقة الشراء بالعرق! يعنى نتعاهد بقراءة الفاتحة أن تقولوا لى عن السعر الحقيقى الذى اشتريتم به بضاعتكم، وفى المقابل أعطيكم عشرة جنيهات عن كل طن جزاء تعبكم وعرقكم فى تسويق البضاعة وجلبها! فماذا تقولون؟!».

تحلف اليمين يابوى أننى سابت ركبتاى كالواقف أمام ثعبان ساقط عليه من السقف. لم أكن أعرف أن الولد «غزولى» حويط يابوى لهذه

الدرجة، وفهلوى كبير يابوى، تقدم من «الحاج السنى» وعلى هيئته سمة التاجر الشريف الشقيان الأمين على بتاع الناس وقال:

ـ «وكيلك ربنا يا حاج! نحن والله واسطة خير بينك وبين صاحب البضاعة! نحن ناس غلابة على الله! لا نطلب أكثر من لقمة العيش الشريفة بعرق الجبين! أما أنت وصاحب البضاعة فناس «مقتدرين»! يزيدكم الله من نعيمه! ولكن ارفقوا بحالنا ولا تتشطروا علينا! وصاحب البضاعة قد ائتمننا على بضاعته ولم يقيد علينا أى ورقة سوى ورقة وزنها فقط ليحاسبنا بها! هو رجل طيب مايتخير عنك يا حاج! لذا فنحن لا نقدر أن نفرط فى مليم واحد من أمانته! أنت تقول إنك تعطينا عشرة جنيهات عن كل طن! وتعرف أننا خمسة رجال! وعربة لها مصاريف ضعف مصاريفنا وعرق أغزر من عرقنا! فلو قسمنا هذا المبلغ علينا فماذا يصيب كل واحد منا؟! لو بعنا الترمس والفول الحراتى نجمع فى ساعتين اثنتين أضعاف هذا المبلغ! وأنت تعرف أننا نعطيك بضاعة شحيحة نادرة فى السوق والطرناطة منها فى حنك سبع، وأنت أيضا تعرف أننا ضحينا بحياتنا من أجل لقمة لا من أجل سُفرة!».

«الحاج السنى» تابعه بنفس البسمة الشقية فى العينين وعلى الشفتين لا تنقص ولا تزيد. وتابعتهما كليهما وقد انفرط قلبى وانفرطت أعصابى ولم يعد فىّ حيل والله يا بوى، لم يبق فىّ مخ ينفتح، ولم أعد أصدق شيئا مما يحدث أمامى، فى الوقت نفسه يا بوى لم أعرف أن أكذب شيئًا مما يحدث أمامى، أفهل نكون فى مسرحية تمثيلية كل واحد فيها يمثل على مزاجه الدور الذى يعجبه؟ العجب العجاب يا خال أننى وقد شاركت «غزولى» وصحبه فى سلب هذه الحمولات بعربة قاف

عين من مخازن قاف عين، وشاركت فى تكتيف الخفير وإرعابه حتى الموت، رأيت أننى أصدقه كل التصديق وهو يحكى للحاج «السنى» ما حكى، كأن ما حكاه حقيقة واقعة، كأننى شاركته فى فعل كل ما حكاه مع أن ما حكاه لم يحدث، شىء يمخول العقل يابوى، حاجة تهوس والله.

لما رأى «بربش» لحظة الصمت قد طالت وأن خطبة «غزولى» ستفقد حرارتها، تدخل قائلا وهو يشوح بيديه ورأسه وكتفيه ورقبته:

ـ «على كل حال شوية عليك وشوية علينا يا حاج! أنت مهما كان خيرك علينا! ومصلحتك أولى عندنا من مصلحة صاحب البضاعة! ولكن «خلى» عليك قليلا وراع مصلحتنا والتعب الذى تعبناه يا حاج! لقد حملنا النار بأيدينا يا حاج! إنها أشد من حكم المخدرات يا حاج! وهى كلها خير وبركة يا حاج! وربنا يزيدها بركة يا حاج ويجعل سوقها أحلى منها! ولكن نحن أبناؤك وما عندنا لا يضيع يا حاج!».

البسمة الشقية ارتعشت على شفتى الحاج وترقرقت فى زلطتى عينيه العسليتين، وشوح قائلا لـ «بربش»:

ـ «خلاص يا بربش! عشان خاطرك جعلنا العرق اثنى عشر جنيها فى الطرناطة! يبقى لكل واحد منكم جنيهان بما فيكم العربة!».

«غزولى» رفع ذراعه الغليظة زامًا شفتيه وراح يهزها علامة «ماينفعش»، فتزحزح «بسبوسة» وتحسس ثدييه من فتحة الجلباب مجففا عرقه بمنديله وقال باسما بسمة أنثوية بغمازتين:

ـ «على كل حال يا حاج! خُذْ لك عظة من تمسكنا بالمبلغ الذى

سنأخذه عرقا لنا! فهذا التمسك دليل على أننا سنصدق معك فى قول السعر الحقيقى الذى حملنا البضاعة على أساسه من مكانها!».

شوح له الحاج بمسبحته فى فروغ بال قائلا:

ـ «على كل حال السعر معروف وليست هذه مشكلة! وعموما فأنا إكراما لكم ولأنكم أولاد حتتى وجيرانى! وقلبى دائما عليكم! فإننى لن أدفع أكثر من خمسة عشر جنيها للطن الواحد لو نطق الحديد! وإذا لم يعجبكم السعر فأنتم أحرار!».

كشر «غزولى» فى وجهه تكشيرة أظهر فيها ـ عن عمد ـ قليلا من قلة الأصل، لكنه أذابها فى كوب من السكر بالليمون حين قال:

ـ «إحنا أحرار يعنى إيه؟! يعنى نشيل البضاعة ونرجعها تانى؟! إذا كنت نويت الغدر بنا فذا شىء ثان! لكن يا حاج! ما أظن أنك تفعل هذا ونحن أبناؤك! عموما خذ البضاعة ووصل ثمنها يا حاج! طلاق بالثلاثة يا حاج إننى أتكلم الجد!».

هنا وقف «الحاج السنى» ونزع القلم الكوبيا من تحت طاقيته وشرع يحسب فى الحال قائلا:

ـ «يبقى الحساب على ثمانية عشر ولا أحد منكم يفتح فمه بعد الآن!».

ومضى يخط على الورق، فصمت «غزولى» وصمت الجميع، ومطوا بوزهم ولووا أعناقهم علامة على الرضا الاضطرارى، ونظر الحاج من فوق الورقة قائلا:

ـ «الأصل كذا طبعا!»..

صاحوا جميعا :

ـ «حرام عليك يا حاج! إنه يباع رسميا بكذا! فما بالك بالسوق السوداء؟!».

أضاف الحاج مبلغ جنيهين قائلا :

ـ «يعنى كذا؟».

فحدجه «غزولى» بنظرة جريئة حسدته عليها، ثم أضاف خمسة جنيهات قائلا :

ـ «بل يعنى كذا!».

رماه الحاج بنظرة حمراء وقال :

ـ «أنت سفاح! منك لله!».

وشرع يحسب بناقص جنيهين عما قال «غزولى» وهو واثق أن أحدا منا لن يعارضه. وبالفعل لم يعارضه أحد بمجرد رؤية الأوراق الحمراء القانية وهى تترادف على يدى «غزولى» واحدة وراء الأخرى، والدنيا كلها ترقص من حولنا طربا على حفيفها.

نابنى من هذه الغنيمة شىء كبير يا خال. أتدرى كم؟ أم أقول لك : لاداعى لإفشاء الرزق؟.. اسمح لى يا خال، فاللقمة التى تتفتش لا تؤكل.

السابعة - ليلة النتاية المحرقة

الغرزة التى كانت تلمنا هى غرزة صفصف، منها غرزة ومنها مقهى. حين يهفنا المزاج لشرب حجرين من الحشيش ندخل المقهى بجوار النصبة، نرقع مائة أو مائتى حجر على مصفاة واحدة، إذ ترف حجارة المعسل عشرة عشرة، وتوضع الجوزة البرطمان فى جردل الجوز، ليؤخذ غيرها نظيفة مغيرة بمياه ساقعة تجلجل تحت أنفاسنا الجاذبة، فإذ نفرغ من ذلك نخرج إلى الرصيف لنكمل السهرة فى قلب الحارة.

هى حارة عجيبة ليس فيها باب واحد، غير باب المقهى، كلها جدران متصلة، فيها بعض النوافذ الصغيرة. وهى - الحارة - مكسورة بعد المقهى بعدة أمتار نحو اليسار، مما يخيل للقادم أنها حارة سد، أما الذى يعرفها فإنه سينكسر مع الجدار ليستدير مع الحارة النافذة إلى خرطة «أبو السعود» وحدود الجيَّارة. لذا، فلا تمر إلاَّ سيارات أبناء المنطقة المدربين على القيادة، ويتوقف مرور السيارة فيها بعد العشاء مباشرة، فيباح للزبائن زحزحة الكراسى إلى منتصف الحارة والجلوس على الصفين طول الليل، خاصة فى ضوء القمر.

صاحب هذه المقهى ولد واعر يابوى، أقوى شخص فى الحارة، إذ هو بلطجى كبير، وخارج من عشر سنوات أشغال شاقة، ظل يرفع المطواة فى وجه كل من يدوس له على طرف، حتى ترك فى الجميع جروحا وقروحا، فتركوه فى حاله، وتركته الحكومة يطغى ويتجبر، ويقتنى عشرات الصبيان، يوقفهم على النواصى بأكياس الحشيش الفاخر يبيعونه بأغلى ثمن، عينى عينك، لكل عربة ملاكى تقف على ناصية الحارة، ولكل أفندى يجلس على المقهى. أما هو فبعيد عن الإمساك بالنار، مهمته شغل الحكومة والتفاهم معها، بالهدايا أو بالمحاكم، أو بالتهديد، أو بالبلطجة، أو بالسلاح كله ماشى، كل حالة حسب وضعها، وهو المنتصر دائما، ودائما لا يمكث صبيانه فى الحجز أكثر من سواد الليل. هو الباقى فى بلادنا والحكومة متغيرة، والقرش باق والنفوس أيضا متغيرة المهم أن «صفصف» يعيش فى هذه البلدة ولا كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان الذى يحكى عنهما شاعر الربابة لكنه ربك والحق ولد ذوق مع الذوق، فواحشى مع الفواحشى؛ إن أعطيته ريقا حلوا أعطاك نهرا من العسل، وأنت لابد أن تعطيه الريق الحلو غصبا عنك لأنه يبدأ دائما بتحلية ريقك إن جئت مقهاه شاريا فى الصباح؛ حيث ترى ولدا طويل القامة نوعا، نحيف الجسد صلبه، أبيض البشرة لكنها ملوحة بالشمس؛ شعر الذقن كفرشاة سمراء؛ خصلة شعر مهملة على جبهته الضيقة تختفى تحتها عينان ضيقتان معشيتان على الدوام؛ يرتدى قميصا وبنطلونا كالحين؛ وصوته غليظ خشن؛ يمر على الجالسين فى مقهاه واحداً واحداً، يوزع عليهم قطع الحشيش بالمجان، كل قطعة تساوى نصف ربع قرش على الأقل، يرصها الزبون خمسين حجرا أو أكثر، فإن طاب لك أن تشترى منه بعد

ذلك أهلا وسهلا، وإن اكتفيت بذلك أهلا وسهلا أيضا، لكنك إن اشتريت فلا تفتح حنكك بأى كلمة وإلا كان نهار الأبعد أسود من قرون الخروب ترى نفسك فى الشارع مضطجعا تحت عجلات السيارات وأقدام المارة وحينئذ لن يبين لك أصحاب.

نحن وكل الناس نحب الجلوس فى قهوة «صفصف» كما نحب الشراء منه ونثق فى حشيشه، فندفع فى القرش اثنى عشر جنيها فى حين يباع عند غيره بثلاثة جنيهات فقط، لكن الفرق بين حشيشه الغالى والحشيش الرخيص فرق السما عن الأرض، اسأل مجربا ولا تسأل طبيبا خاليا من التجربة. و«صفصف» يعرف أنه محبوب الحشيش من الناس فيتدلل عليهم ولا ينزل عن السعر مليما واحداً، ولا ينزل كذلك عن مستواه حتى لو توقف عن البيع بسبب تشاحح الصنف الجيد. أما القهوة فإنه يرفع سعر الطلب فيها ثلاثة أضعاف سعره فى المقاهى الأخرى، وكذلك سعر حجارة الدخان، إن كان يعجبك فاجلس، «ورينا» عرض أكتافك، بهذا نظفت المقهى واقتصرت خدمتها على مجموعة منتقاة من الزبائن يدفعون بدون فصال ولا يعلو حاجب واحد منهم على حاجب المعلم «صفصف» ولا كلمة على كلمته..

قد يخيل إليك من رؤيته لأول مرة أنك لو ضربته كفا على وجهه سترميه فى الأرض طريحا، لكن إياك وهذا الظن؛ فإن أجعص منك دفعوا ثمن هذا الظن غاليا مع أنهم كانوا أقوياء معتدين بأنفسهم؛ فإذا هم يلمون أشلاء نفوسهم من الأرض ويقفون فى بلاهة غير مصدقين أن هذا الولد السفروت فى جسمه كل هذه القوة الناشفة؛ وكلهم فى آخر المتمة يمنعون أنفسهم بعدها عن التلسين فى حقه أو التعرض له بأى شىء..

على حسه يدور دولاب العمل فى غير وجوده؛ إذ هو يختفى عن منطقة المقهى بعد صلاة العشاء؛ ويقول صبيانه إنه يقطع الليل كله فى مشاوير فى بلاد الشرقية والغربية والمنوفية يزور بيوتا على الطرق الصحراوية يلتقى بالمهربين يتفق معهم على البضاعة يعاينها؛ لا يعود إلا قرب الفجر يتطوح؛ إذ إن «صفصف» رغم أنه تاجر حشيش وأفيون وبرشام وهيروين وكوكايين وكل مسحوق ومكبسل، فإنه خمورجى من الدرجة الأولى؛ وهذا شيء يطقطق الرأس يابوى! فكل تجار المخدرات الذين عرفتهم يعشقون الخمر عشقا، ويشربون مع ذلك الحشيش فنطزية والأفيون لزوم مسك الدماغ وشد العصب، ولأن ألف امرأة وفتاة فى هذا الحى وهذه البلدة تتمناه وتخطب وده، إذ إنه ولد كسيب وشاطر؛ فإن له جحوراً كثيرة يسعى إليها فى سهراته بين الخمر والنسوان والدخان ولزوم ما يلزم، صبيانه يحكون لنا هذه الحكاوى ونحن مساطيل آخر الليل؛ ويقولون فى نهاية الكلام إنه متزوج من حورية سنيورة كالفل، كل أهل المنطقة يعرفون أن «صفصف» مليونير حافى القدمين يملك عتبات كثيرة فى مصر الجديدة والجيزة وحلوان، لكنه حويط لئيم لا يكتبها باسمه ولا يبيت فيها؛ بل إنه لم يغير سكنه القديم فى حجرة فى حارة من حارات هذه المنطقة لا يعرفها إلا صبيانه المقربون؛ وإذا داهمته الحكومة فى هذا المسكن ـ وهى كثيرا ما تداهمه ـ لا تجد فيه شيئا بطالاً، ولا أى شيء يزيد فى مظهره أو مخبره عن حالة رجل على باب الله صاحب قهوة بلدى.

ليال كثيرة ونحن نتلاقى على هذا الرصيف فى هذه الحارة دون أن نفعل شيئا يابوى؛ والهبرة الكبيرة التى هبرها كل واحد منا فى تلك

الليلة السابقة ضاعت ؛ أنا مثلا أرسلت هبرتى كلها إلى أمى فى البلد لعلها تتمكن من إعادة بناء دارنا، لم يبق معى إلا حفنة برايز وشلنات لا تودى ولا تجيب، ولولا أن الولد «هندى» رضى أن أسكن معه فى غرفته لكنت الآن بلا مكان أبيت فيه، فى كل ليلة نسفح قطعة حشيش كبيرة ونحرق حجارة معسل عدد الحصى، ونشرب شايات وحاجات ساقعة وننصرف آخر الليل صارفين من لحم الحى، وقد خشيت أن أتكلم فى هذا الأمر حتى لا أثير غضبهم على وتشاؤمهم منى، فقلت فى نفسى : ما يجرى عليهم يجرى على، ولم أكن أعرف أن الفلس قد أتعبهم أكثر منى يابوى ؛ إذ قال «هندى» وهو يفرق علينا ورق الكوتشينة فى هذه العشرة الجيبة التى نلعبها مرابعة :

«وبعدين يا اخوانا! عايزين نشتغل بقى! خلاص فلسنا!».

فهرشوا كلهم فى رءوسهم ؛ وظهر على وجوههم أن هذا الطابق هو آخر طابق فى هذه العشرة الكوتشينة سواء انتهت أو لم تنته، وقال «بربش» : «اهرش فى دماغك يا غزولى!». فقال «غزولى» وهو يعبث بأصابعه فى شاربه مفكرا : «الفرخة لم تبض بعد! فلى إخوان فى هيئة قاف عين يشتغلون الآن فى ترتيب عملية طيبة ستعم علينا بالخير إن شاء الله! وأنا كل يوم أتصل بهم أستعجلهم! وهم يقولون لى اصبر على الأرز حتى يستوى! فأستحسن كلامهم وأنصرف».

وهنا قال «بسبوسة» وهو يدلك فى ثدييه الكبيرين :

ـ «يظهر أنك تستحسن حالة فقرنا أيضا!».

وقال «هندى» وهو يزيح الورق من أمامه فى سأم :

ـ «نريد عملية تعدينا من الفقر!» . .

ألهمنى الله قولا :

ـ «ربنا يقول اسع يا عبد وأنا أسعى معك! فما يمنعنا من أن نقوم الآن لنسعى؟ ونحن ورزقنا!» . .

بحلق «غزولى» فى عينى بنظرة ثعلب داهية :

ـ «هذا شغل الحرامية الجربانين!» . .

جاراه «بسبوسة» قائلا :

ـ «جئنا لشغل التتانة! لم يبق إلا أن ننشل فى الأتوبيس!» . .

قلت :

«وما العجب يا بسبوسة؟ ربما تقع اليد على هبرة كبيرة!» . .

شوح «بسبوسة» بخبرة معلم كبير :

ـ الهبرة الكبيرة لا تركب الأتوبيس! فلا ينوب النشال غير اللعب فى الصغير! اللعب فى الصغير يقود إلى الحبس وخراب البيوت بلا ثمن! إن سرقت اسرق «جمل» يا بقف!» . .

نقر «بربش» بخاتمه على الترابيزة قائلا :

ـ «والله حسن كلامه معقول! ومخى يحدثنى الآن بأن نقوم ونبحث عن الرزق ونحن ونصيبنا!» . .

ثم وقف فى الحال يابوى. فوقفنا كلنا؛ وجمعنا من بعضنا أنصبتنا من مصاريف القهوة؛ وتولى «غزولى» دفع الحساب والبقشيش،

مضينا نحو كسرة الحارة حتى خرجنا إلى الخلاء وسرنا خلف «بربش» إلى مساكن الفسطاط القديمة .

هواء الفسطاط نعنشنا ؛ فانقلبنا ضاحكين بغير وعى . كنا فى بحر القمر غرقى ، والدور من حوالينا رابضة فى سفح الطريق وفوقه يعلم الله وحده ما يدور فيها مع أنها تبدو غارقة فى الصمت اللانهائى ، وكان الهواء يشاغب ويلاعب ستائر كالحة خلف بعض الترسينات والشبابيك ؛ فيجعل الدور تبدو كأنها تتنفس وصدرها يعلو ويهبط ، قلت فى نفسى إنها تدعونا للتعجيل بالفعل الذى سنترسمه ؛ فهذه هى اللحظة المناسبة ، وكنت أنوى التكلم فى هذا معهم ؛ لكن عينى وقعت على أكثر من حبل غسيل مزدان بالملابس المغسولة كحبال الباعة فصار قلبى يخفق بشدة وتمنيت لو أننى وحدى الآن لقطعت كل حبل بالمطواة من الناحيتين ولممته فى حضنى ثم انصرفت متعشيا ؛ إلا أننى قلت لنفسى : ياولد انظف واكبر على حبل الغسيل واللعب فى الصغير كما ينصح بسبوسة . .

انتبهت فإذا بنا جالسين على صخرة من الأسمنت فى سفح الطريق ؛ أمامنا «الجيارة» و«مصر عتيقة» على اليمين ، والفسطاط القديمة على الشمال ، فبحلقت فيهم وقلت إن ثعبان الليل آخذ الآن فى سحب ذيله الطويل ، ولابد أن نفعل ما سنفعل قبل أن يدخل الذيل فى جحره وينطبق عليه جدار النهار ، قال «بربش» :

ـ يا أخى طوّل بالك ! إننى أتذكر الآن دكان بقالة فى الفسطاط متريش وملآن بالخيرات ، وصاحبه ابن قحباء ذمته واسعة ! » .

قال «بسبوسة» :

ـ «مسلم هو أم مسيحى؟!»

قال «بربش»:

ـ «مسلم وموحد بالله! له ذقن طولها متر ومسبحة طولها متران!» . .

قال «هندى»:

ـ «أليس يزكى على ماله وبضاعته؟!» . .

قال «بربش» بعد أن أرسل شخرة سريعة خاطفة أضاف إليها:

ـ «أحه! أقول لك ذمته يجرى فيها القطار!» . .

قال «غزولى»:

ـ «ليس لنا شأن بذمته الآن! ليكن ما يكون! نحن لن نصاهره ولن يصاهرنا! نحن لسنا المختصين بحسابه! فالملكان ينتظرانه فى قبره فى الآخرة وهذا يكفيه! والذى يهمنا الآن هو خزنة النقود! هل يفرغها فى جيوبه قبل إغلاق الدكان؟» . .

قال «بربش»:

ـ «راقبته كثيرا عند إغلاق الدكان بنية أن أتتبعه فيما هو سائر إلى داره لأخلص معه، فما رأيته يأخذ معه نقوداً قط، لأنه يعتمد على أن باب دكانه يحميه درفيل من الحديد المضلع العريض وقفل مسوجر لا يمكن فشه بطفاشة!» . .

رفعت ذراعى صائحا فى وجه «بربش» قائلا:

ـ «يا عم بربش ياخــوى! هل هذا الرجل صــاحب الدكــان يبــيع بالشكك؟!»

قال «بربش» ضاغطا بأسنانه على لسانه المتكور فى غيظ:

ـ «ابن ميتين كلب! لومت أمامه على رغيف وقطعة جبن لا يرق قلبه عليك! إلا إذا هرشت له بالفكة! مع أنه يعطى الســجــائر «شكك» لأفندية خولات يعرفهم!». .

قال «هندى»:

ـ «سوف لن يجد فى قبره من يسقيه!». .

صحت قائلا بصوت عال ولهجة حاسمة:

ـ «يبقى لابد أن نحرق قلبه! فإنه يستحق الخسران الوبيل! صنف الذى يمنع عنك اللقمة وهو موسر وأنت معذور اقطع رقبته! «دوس» فوق رأسه فإنه ثعبان سام! فوالله لابد أن يكون الله بعثنا الآن نفكر فى أمره! لتكون كسرته على يدنا بإذن الله! وتوفيق منه!». .

قال «بربش»:

ـ «لابد أن تكون انقرصت منه يوما! فليس من واحد عاش فى هذه المنطقة إلا وتوسم فيه الخير فلجأ إليه فى طلب شكك! وارتد فى النهاية خائبا مكسور الخاطر!».

قلت مشوحا بذراعى صائحا:

ـ «أظنك تقصد البقال الذى على ناصيتى حارتين وعنده التموين وبراميل الزيت وأجولة السكر واسمه الحاج لولى؟!». .

هز رأسه قائلا:

ـ «هو بعينه! الوحيد بين دكاكين البيع والشراء كلها ليس عنده دفتر للشكك! حتى دفتر التموين لا يراه أحد! أهل حوارى الفسطاط كلهم لا يتوفر معهم ثمن التموين الذى يبلغ من ثلاثة جنيهات إلى عشرة، بعضهم يشترى جزءاً صغيرا منه ويوقع باستلام الكل، بعضهم لا يأخذ منه شيئا فيسقط حقه بمضى الشهر، وحاج «لولى» يبيعه لهم بعدها بالقطاعى بسعر السوق السوداء الحرة!»..

أنهى «غزولى» برم سيجارة حشيش أشعلها ليستدعى بها ما طار من دماغنا من سطل فى هبوب الرياح، وقال:

ـ «ما رأيكم أننى فعلا قارش ملحة هذا اللولى من زمان! وأود أن أغدره وأذيقه العذاب ألوانا! لقد فكرتنى يا بربش بحركة كنت نسيتها من سنين طويلة! كان هذا الخنزير قد فعلها معى، حين طلبت علبة سجائر هليود وفتحتها وأشعلت منها سيجارة وكلى عشم فى أننى لو قلت له أعطيك ثمنها غدا فسيقول لى لا عليك، لكنه أخذ منى العلبة مفتوحة وقال غدا تعال حاسبنى على هذه السيجارة التى أشعلتها! فوالله العظيم لأحاسبنه الليلة على حق! ابن ديك الكلب هذا يجب محاسبته! نريد الآن عتلة ومرزبة!»..

قال «بربش»:

ـ «باب الدكان خشب بضلفتين لا تنفع فى فتحه العتلة!»..

قال «غزولى»:

ـ «سأصدّر العتلة فيما بين مفصلات الباب والجدار، هى ضغطة

واحـدة بإذن الله أدفعها بصـدرى فى العتلة، تفصل المفصلات بحالها عن الجدار! فـيتسع المجـال أمام الضلفـة المعلقـة فيـها حلقة الـدرفيل، فينفصل الدرفيل وينفتح الباب على مصراعيه! ويمكن أن ندعه مقفولا كما هو ونتسلل من فتحة نوسعها بين صدغ البـاب والحائط، مكان الحصالة معروف! والسجائر والأشياء الثمينة كلها متجاورة!». .

قال «هندى»:

ـ «يلزمنا عربة نصف نقل!». .

قال «غزولى»:

ـ «هذه عليك يا حـدق! تسـرقهـا من الموقف أو من الجراح الكبيـر المتطرف! ثم تعيدها بعد أن تخلص من مهمتها! أو ترميها فى أى مكان قريب!». .

سحب «هندى» بقايا السيجارة المحشوة ليسلب بقايا نفس وهو يقول:

ـ «بسيطة! ما أكثر العربات! لو طلبتموها الآن حالا أجيئكم بواحدة محترمة!». .

قال «بربش»:

ـ «خلى ذلك للغـد! فـلابد لنا من عـتلة! وهـذه لا توجـد الآن فى مكان قريب!». .

صحت قائلا:

ـ «إذن فـدعونا بقيـة هذه الليلة نفـرفش ونهيص، كل واحـد يروح لحال سبيله!». .

وكان فى نيتى أن أفوز بغنيمتى الصغيرة وحدى يابوى، أن أجمع ثلاثة أو أربعة حبال من حبال الغسيل هذه التى يخفق من رفرفتها قلبى، وغدا يمكننى أن أبيع فى سوق العصر بعض ثياب تستحق البيع ولو بثمن الدخان، لكن «غزولى» شوح قائلا:

ـ «لا ياحدق! قم بنا الآن ندور حول الدكان نعرف دخلته من خرجته! صدغه من قفاه! فلربما يلهمنا الله طريقة سهلة لفتحه!» . .

استحسنا جميعا هذه القولة وتحمسنا لها، فما ندرى إلا ونحن نختبط فى حوارى الفسطاط الضيقة الملتوية، التى صارت أشبه بسراديب من الظلمة تحت خيمة القمر. وصلنا إلى ذلك التقاطع الذى يتملك دكان «الحاج لولى» ناصتيه. تحسسنا بأيدينا الباب والدرفيل والقفل والصدغ والمفصلات وكل شىء. إلى أن قال «غزولى» بثقة:

ـ «بالعتلة وحدها ينفتح الباب!».

ثم مشينا ندخن ونتهامس بالإشارة وهزة الرأس حتى صرنا فى شارع الخلاء البعيد المطل على اسطبل عنتر، على يميننا صف واحد من الدور الواطئة، وعلى شمالنا الخلاء. كلها دور من طابق واحد أو طابقين، بالكثير ثلاثة، لكن الرجل منا لو مد ذراعه عن آخرها يطول آخر الطابق الثالث. «بربش» و«غزولى» كانا سارحين ببعضهما فى الكلام يبعدان مسافة طويلة، و«بسبوسة» و«هندى» مشيا معا على مسافة طويلة منهما يتكلمان، وعلى مسافة طويلة منهما مشيت وحدى سارحًا بنفسى، مخى يوجهنى نحو حبال الغسيل. وقلبى يؤجل إخراج المطواة. فلما اختفى الصحاب فى حوداية بعيدة، خفق قلبى لشعورى بالوحدة المفاجئة، وكنت أحس أننى أريد أن أتخلص من

ضرورة، فصرت أتمسح بالحوائط بحثا عن حائط رطب ووسخ أرسل عليه ضرورتى، فاجتذبنى شباك قريب إلى الأرض مدهون باللون الأزرق دهانا جديدا، وضلفتاه منقسمتان من عرضهما إلى قسمين أحدهما سفلى وهو الأطول ومغلق من الداخل، والثانى علوى وهو الأقصر ومفتوح على مصراعيه والضوء يعبره إلى الخلاء فيرسم على التراب شبكة من ظلال أعواد الحديد المتجاورة.

هى العادة الذميمة ياخال، أبداً ما قدرت على الخلاص منها، إذ بى قد حاذيت الجدار وقربت رأسى من فتحة الشباك محاولا النظر فى داخل الغرفة، وإذ بى أرى الهول يابوى. وقعت عينى أول ما وقعت على سرير بعمدان نحاسية بدائر حريرى مكرنش، وبلا ناموسية، ومنظر الملاءة فوقه نظيف غاية النظافة يرسل رائحة معطرة، السرير كان خاليا، ونسمة هواء تراقص كورنيش دائره العلوى، فبدا لى ياخال كأنه يتأهب لتلقى موقعة سخنة يشيب لهولها الولدان، فما دريت إلا بنفسى أحاول لصق نفسى فى الحائط، وقد بدأت جيوش من النمل تنتشر فى كل عروقى تريد أن تخرج كلها من ذلك الخرطوم المنتفض بين ساقى يابوى. منظر السرير لخبط غزلى يابوى، قلب كل كيانى، ذكرنى أننى لم أكن رأيت سريرا بهذه النظافة من سنين طويلة، فلما رأيته طار النوم من عينى واشتد عزمى. وقفت على مشطى قدمى ورفعت عقبى وجمعت الغرفة كلها فى نظرة واحدة. رأيت دولابا بضلفتين فى مواجهة السرير، بجواره كنبة عربى، يتمدد عليها رجل سفروت نابت اللحية والشارب أشقر الشعر. بحلقت فيه، فإذا هو مستغرق فى النوم كالقتيل العدمان العافية، منطرح على ظهره فاتحا فمه عن آخره. فجأة

زادت رائحة العطر فى خياشيمى وأخذت تقترب أكثر وأكثر مع اقتراب خفيف بجوار باب الحجرة الذى يفتح على دهاليز شاحبة الضوء. أبعدت رأسى عن الشباك برهة، وقلبى أخذ ينتفض. عدت فسللت عينى من بين أعواد الحديد، فإذا بى أراها ياخال، اللهم عفوك ورضاك، يا أرض احفظى ما عليك: امرأة فاتنة، ترتدى قميصا من النايلون بحمالات رفيعة على الكتفين، كل جسمها بارز من خلل القميص الشفاف، طويلة فارعة، عريضة الكتفين، ينطرح شعرها الأسود على ظهرها شرائح فيصل على ضفتى قناة الظهر إلى هضبة عالية، تتحدر نحو ساقين مبرومتين، تنتهيان بسمانة كالشهد، وكعب كالريال الفضى. كانت تمسك بيديها الممدودتين بذراعين عاريتين كوبا من الشاى، فلما استدارت رأيت وجهها كأنه البدر فى يوم التمام، بعينين واسعتين كحيلتين، رموشها مستطيلة، وبجبهة كالبللور تميل من فوقها جدائل الشعر الغنى، أما خدودها فتفاح طايب، وأما صدرها الناهد ففحلا رمان، وأما بطنها فطيَّات طيّات، وأما خصرها فنحيل كجذع النخلة تحف به سوة كالعجين الخمران. ازداد التصاقى بالحائط وقد تصلب مسمارى يابوى وأوشك يخرق الحائط لينفذ إليها. انحنت هى على الكنبة، فارتفعت قبة المؤخرة وبان لى كل شىء، فكدت أصيح يا وعدى. وكان قلبى قد فارقنى وحط على هذه القبة وصار ينزلق فوق قناة الظهر واصلا إلى الرأس دافنا رأسى بين جدائل الشعر. وخرج صوتها ياخال تقول قطة تطلب الحلال منادية داوووود، غير أنها كانت تنادى: «صفصف! صفصف! الشاى أهه يا حبيبى» . .

لم يرض قلبى أن يصدق حكاية الشاى هذه، شاى؟! شاى ماذا

يابوى؟ وهل ينادى المرء لشرب الشاى بكل هذه الرقة وهذا الرجاء الأنثوى الحار؟! لا يابوى، إنها تقول له بصريح الفتنة والعبارة: قم وخذنى فى حضنك، وكلنى أكلا، حتى لا تترك منى فتفوتة واحدة. عادت فاعتدلت واقفة، فخيل إلىّ أن لحما صلبا يقبض على مسمارى. هى وضعت كوب الشاى على ترابيزة صغيرة، والتفتت، فمدت ذراعها تحت دماغ النائم ورفعته، فصار وجهه يرتفع نحوى، لأراه بكل خلقته. وا. . ه ياخال. . واه. . تزلزل كيانى ياخال وكركبت بطنى، وانعوج مسمارىَ من الرعب، إذ إننى تأكدت من أن الراقد على الكنبة جثة هامدة هو بذات نفسه المعلم «صفصف» صاحب القهوة الغرزة، الذى يلقى الرعب فى قلوب المدينة كلها. . فأيقنت أنه عائد لتوه من رحلة الليل اليومية مهدود الحيل من كثرة ما تكلم واتفق وتحاسب وسكر ونصب واحتال على نساء وبغايا ورجال من الحكومة وصبيان الباعة!

هل تقتنى هذه المهرة المتعة يا «صفصف» وتنظر إلى غيرها؟ إنك إذن لدنىء طفس، فارغ العين. أعرف أنك طول الليل تسكر وتعربد وتبرشم الكوكايين وتفعل فى نفسك البدع لكى تضاجع امرأة ساقطة أو راقصة من شارع محمد على، هاك الآن هذه المهرة يا بقف لاتكسر بخاطرها، كن قادرا عليها وحدها تدخل الجنة يا بقف، وحق سيدى عبد الرحيم القناوى لو أن عندى هذه ما نظرت إلى غيرها وبقيت طول العمر خادما مخلصا لهذه القبة الثمينة القائمة بين الفخذين تطلب الامتلاء فى الحلال إلى مالا نهاية، أما أنت يا «صفصف»، يا صاحب القهوة الغرزة، يا من تتشطر علينا جميعا وتذيقنا العذاب ألوانا وتظهر

علينا قوتك ورجولتك، فإنك الآن فى وضع لا تحسد عليه، آه لو رآك واحد من الزبائن وأنت كالخرقة البالية أمام هذه المهرة الوادعة، التى اخترقت سخونتها حائط الدار وسيحتنى . .

رأس «صفصف» ينعوج على ذراع المرأة متهدلا كالفرخ المذبوح، والمرأة الحورية تهزه من ذقنه بأصابعها قائلة فى حنان لا مثيل له ياخال: «صفصف! الشاى أهه، اشرب الشاى!» . . ولكن «صفصف» من يا بوى؟ إن «صفصف» ليس هنا وليس له ثمة من وجود . . والمرأة التعيسة تظل مسندة رأسه بذراعها لبرهة طويلة، تنظر فيها نحو السرير شاردة حزينة يتطاير الشرر من عينيها، لكنها لا تلبث حتى تعود فتهزه من ذقنه بأصابع كأصابع الموز البلدى قائلة بكثير من الرجاء وقليل من اليأس: «الشاى اهه يا صفصف! اشرب الشاى بقى أحسن دا برد خالص! اعدل نفسك بس!» . ثم إنها عدلته جالسا، وأسندت رأسه على المسند، واستدارت لتجىء بكوب الشاى بين أصابعها، فما كادت تتركه حتى تهاوى من جديد مستويا على الكنبة . .

استدارت إليه المرأة، تركت كوب الشاى، أنهضت الراقد، عدلته جالسا، ضاربة خديه بكفها فى مداعبة خشنة حتى يفيق، صائحة بعصبية: «صفصف! ما تصحى بقى تشرب الشاى! إنت مش طلبت الشاى؟ ما تصحى بقى يا أخى!» . وهو يهمهم مبربشا برمشيه قائلا: «آه! طيب!» ثم لا يلبث حتى يغلق عينيه ويكسر رقبته . الحورية المسكينة أسندته على صدرها جالسة بجواره، وتناوله كوب الشاى وقربته منه، فإذا هو قد هوى واستوى ممددا على الكنبة . . وإذا هى بكل غيظ، وبكل قوتها، تشيع كوب الشاى إلى الحائط المواجه:

طر . . ا . . ا . . خ . . فجاء الكوب إلى ستين حتة، وانحدر الشاى سائلا على الحائط، تتصاعد منه خيوط الدخان، ورمت بنفسها فوق السرير كالذبيحة الفطسى، فكاد السرير ينفرط من شدة الرجة، وإذا بى أصيح من شدة الغيظ دون أن أشعر بنفسى: «إتفوه عليك راجل مره!». وأما المرأة فقد أدارت وجهها بيديها وانخرطت فى البكاء والنحيب.

وصارت تشد فى شعرها وتخربش وجهها بأظافرها فى غيظ كبير، وتنتحب، كل ذلك وصاحبنا يغط فى النوم حتى هيج غيظى، ولو كان معى مسدس لأفرغت فى صدره كل رصاصه انتقاما لهذه الولية الغلبانة المحرومة من نسيم الدنيا يابوى.

ربك والحق صعبت الولية على، وتمزق قلبى من أجلها فحقدت عليها وعلى الناس كلها، وغرزت مسمارى فى الحائط حتى آلمنى، ولم أكن أدرى أننى أخذت أواسى الولية قائلا: «الله يكون فى عونك!»، فإذا هى تنتفض قاعدة على حيلها ناظرة نحوى ملقية عينيها فى عينى تشهق ضاربة صدرها بكفها، فلما رأتنى غير خائف ورأسى كاد ينحشر بين أعواد الحديد، نزلت عن السرير مقتربة نحوى والغضب يطق الشرار من عينيها. أول شىء فعلته كان بصقة شيعتها إلى وجهى، فلم أتحرك من مكانى. فمدت يديها بضلفتى الشباك لتغلقه، فمنعتها بأصابعى هامسا فى وجهها: «ما الداعى لكل هذا وليس يرانا الآن أحد سوى الله! وأنا شعرت نحوك بالحب وكلى أمل أن أروقك آخر روقان! تعالى وأنا أطفئ نارك المشتعلة! إن الله ساقنى الآن إليك لأطفئ لهيبك بدلا من هذه الجثة الهامدة!». .

كنت والله غير دار بنفسى، ولا كيف تفوهت بهذا الكلام، والذى كنت واثقا منه لحظتها أن خوفى من المعلم «صفصف» قد نزل إلى الصفر ولم يعد ذكر اسمه يرعبنى، ومع أنه لو سمعنى تلك اللحظة وأحس بوجودى، لقام ولحق بى وقطعنى إربا، فإننى كنت واثقا من أن الخمرة التى هو مغرم بشرب كل أنواعها كالسلاطة فى كأس واحد تكبس الآن على نافوخه كالجبل، ولن تحل عن صدره قبل ظهر اليوم التالى. وعموما فعلى سبيل الاحتياط فإن مطواتى قرن الغزال مبرومة فى دكة سروالى، ولا بأس من أن يكون السلاحان مشهرين معا أحدهما لك والآخر لهذه الجثة إذا تحركت.. هكذا قلت للحورية وهى تبحلق فى عينى المفنجلتين - بينى وبينك كان لى عينان ساحرتان فى شبابى - وكان من الواضح أنها بدأت تنسحر بعينى بعد كلامى، لكنها مدت ذراعيها فأمسكتا بضلفتى الشباك، فتلقفت يديها بيدى وقربتهما من فمى وصرت أنهال عليهما بالقبلات الساخنة حتى تراخت أعصاب المرأة وأشارت برأسها أن: لف من الباب، فانسحبت عن الشباك نحو الباب وقلبى فى مداسى، أكاد أفرمه ليفضنى من الخوف، إذ كنت على استعداد، لحظتها، لأن أطبق فى زمارة رقبة الأسد نفسه إذا حاول منعى من دخول الجنة هذه التى دعتنى الآن لولوجها بسماحة وهى على أحر من الجمر..

سمعت تكة خافتة خلف الباب انفتح بعدها ربع فتحة، فدفعت جسدى فى ظلام الفتحة وأغلقت الباب من ورائى فى رفق، وارتميت فى حضن المرأة شابطًا فى خصرها بكل قوة، صرت أعضها فى كل مكان من وجهها وأضغط عليها بكل عنفوان مجنون، إلى أن شبت

النار فى عروقى، فأدرت المرأة وكسرت ظهرها وسللت مسمارى ورفعت ذيل قميصها، ودككت الحصن المنيع دكًا حاميا، نزلت عزقا فى عزق، فما يكاد سن الفأس يرفع قبضة من اللحم حتى ينسد مكانها، فأعود للطعن، ثم الطعن، ثم الطعن، والدم هربان منى يا خال، حتى سخسخت المرأة بين يدى وتهاوت كعود القصب الممصوص، فما تركتها حتى نزفت روحى فوق صدرها، ثم استرحت ياخال، ولم أصدق أننى فعلت شيئا من هذا، بل كان مجرد حلم لذيذ. لكننى حين توجهت للباب خرج صوتى من تحت أكوام التراب يهمس للمرأة قائلا: «مبسوطة يا حُرمة؟». هزت رأسها بابتسامة قائلة: «أراك كل يوم هنا فى ساعة كهذه؟». قلت: «حصل لى البركة يا هانم»، وواربت الباب فاندفعت خارجا أجرر ساقى وألملم دماغى المبعثر النشوان. ولم يكن يدور برأسى أننى أبحث عن صحابى، لكننى فوجئت بأنى قد صرت قريبا من «قهوة صفصف» وبابها نازل، والنور ينبعث من تحته، فعرفت أن بعض الزبائن ساهرين، فنقرت على الباب بأصابعى، فنظر الولد من خرم الباب وتعرف علىّ فرفع الباب قليلا، فانحنيت داخلا، لأجد الصحاب كلهم جالسين يندفعون صائحين: «كنت فين يابو العم؟». جلست بينهم قائلا: «أحوجتنى الضرورة للقرفصة ورفع الثياب فى ظلام الخلاء». فضحكوا، وطلبت شايا وعشرة حجارة على حسابى.. وكان يخيل إلىّ أن أحدًا من صبيان «صفصف»، وربما «صفصف» نفسه، لن يستطيع فتح عينيه فى وجهى بعد الآن.

الثامنة ـ ليلة البلول السكر

البنى آدم منا ليس أجبن منه فى الدنيا والله يابوى، وإلا فمن كان يتخيل أننى أكف عن الذهاب إلى غرفة «صفصف» حيث تنتظرنى حورية سخنة شاربة من آبار العسل والسمن، فى الأول قلت إنه الشيطان الرجيم والواجب علىّ أن أفقأ عينيه وأطرده من دماغى إذا كنت أنوى الاستقامة والمشى فى الحياة بالحد والمصلحة، وحقيقة الأمر يابوى أننى كنت خائفا من جنون المعلم «صفصف»، الذى إن أمسكنى متلبسا فمصيرى الموت تمزيقا بالمطواة ويضيع دمى هدراً. وكلما فكرت فى ذلك الذى حدث منى ترتعب روحى، تنكمش فى صدرى ويرتجف بدنى، ويجيئنى اعتقاد بأن الذى فعل ذلك الفعل الجرىء شخص سواى لا أعرف عنه شيئا. لكننى يابوى لا أقدر على دفع هذا الفكر عنى، حتى تخيلت من شدة الخوف والارتعاش الدائمين أن «صفصف» قد بات يعرف كل شىء، وأنه يدبر لى تدبيرا حكيما ينهى به حياتى وحياة حرمته الفاجرة. فصرت والله أهرب من «قهوة صفصف»، ولو كان الود ودى ما عتبتها قط، صار الخوف والرعب يهيآن لى تصاوير عجيبة كلما نظرت وجهه ـ وجه صفصف ـ إذ يخيل إلى أنه قرفان منى لا يطيق رؤيتى. لهذا لم أكن أترك عينى تقع فى عينيه أبدا.

إلى أن سحبنى الولد «هندى» من ذراعى وانزوى بى فى ركن من الحارة وقال: «يظهر أن المعلم صفصف زعلان منك! زعل خفيف يعنى!». قلبى يابوى وقع بين ساقى ضئيلا كعود من الحطب والله يا خال. بصقت فى عبى من الرعدة، قلت: «خير يارب! اللهم اجعله خيرا!». ضحك الملعون «هندى» وهدنى بحركة من يده وقال: «المعلم صفصف كلمنا بالأمس عنك حينما ذهبت تفعل مثلما تفعل الناس!». جئت بصوتى من بين ساقى مهيضا وقلت: «ماذا قال ياترى؟». قال «هندى»: «يقول إنه مندهش من نظرة فى عينيك بدأت تظهر له وهى تشبه نظرة الاحتقار! كأنك من غير مؤاخذة لا تحترمه!». ثم ضحك «هندى» فضحكت أنا الآخر متنفسا الهواء، لكننى سمعت صوتا بصدرى يقول: آه يا حسن هذه هى العلة والبلوى فماذا تفعل فى عينيك؟! الأوفق لك ألاّ تجيء هذه القهوة وإن جئتها فلا تنظر فى عينى «صفصف» أبدا.

ليلتها كنا متواعدين على سرقة دكان «حاج لولى». وكانت العتلة المطلوبة موجودة تحت ثيابى تضايقنى تمنعنى من الجلوس والشرب براحتى. كنت اشتريتها اليوم من وكالة البلح كما نصحنى «غزولى». وكان طولها ذراعا. فلما انصرف «صفصف» إلى حال سبيله فى أول السهرة قلت: الحمد لله، وعرفت أنه هو الذى كان يضايقنى وليس العتلة الحديد. النعنشة ركبتنى فى الحال فصرت أضحك بصوت عال، على الفاضى والمليان، لكى أمنع دماغى من الوقوف عند الذى سنفعله الليلة بعد ساعة زمن، إذ كلما هوَّبَ دماغى نحوها ركبنى الرعب ياخال، وتحول عود الحديد من مكانه إلى مكان آخر فى جسدى لا

يطيق مسماراً بله يطيق عتلة كهذه. صرت أتمنى أن نقوم ونعجل بالفعل حتى نخلص أو أتخلص أنا من عود الحديد اللاهب. لكن صوتا يشبه صوت أبى قال لى: اعقل ياولد و«خليك» ثقيلا راسيا، إذا نزلت فى بحر كهذا فلا ترم بنفسك من الضيق فى قلب الماء حتى لو كنت عالما بالسباحة، بل انتظر حتى يرسو بك القارب على شط، حتى ولو كان هذا القارب قطعة صغيرة من الخشب، لا تنزل إلا على بر. وفى الحال وجعتنى نفس الزغدة التى كان يزغدها لى فى جنبى كلما اضطررته للخروج عن صبره والإدلاء بنصيحة كبيرة كهذه، فاقشعر بدنى، وانتفضت متوجعا، فضحك الأولاد كلهم من فزعتى هذه مع أننى غطيتها بـ: «وحد الله». قالوا ساخرين إننى - قد اتضح الآن - أركب الهواء. فلأكن ما يظنون وما يشتهون فليس على الكلام جمارك، وكل واحد يقول ما يعجبه. «غزولى» قال للحاج «السنى» ما يعجبه، والحاج «السنى» أيضا قال لنا ما يعجبه، ونحن كذلك نفعل ما يعجبنا و«السنى» يفعل ما يعجبه و «صفصف» كذلك يفعل ما يعجبه وحتى حوريته المصونة هى الأخرى تفعل ما يعجبها، فكيف لى يا بوى أن أحاسب أحداً على ما يقول أو يفعل؟! إذا كان أحد لا يحاسبنا على ما نفعل؟ أنا وهؤلاء الولد نفعل ما نفعل من شدة العوز، ومن غير حياء تفعل حورية صفصف المصونة، إذ ما أشد عوزها لشىء لا يستطيع المال أو الذهب أن يعطيه لها. أما الحاج «السنى» فلماذا يفعل ما يفعل ياخال؟ هذا هو الوحيد الذى يفعل ما يفعل لأنه لا يجد من يحاسبه، لأن الذين فى يدهم أمر الحساب لا يشغلون أنفسهم إلا بنا يا خال، نحن الغلابة الذين يحبسهم القانون بدلا من المجرمين العتاة. العدل فى بلدنا يضرب تعظيم سلام للحاج «السنى» وأمثاله، أما نحن فيضربوننا

بالصرم القديمة على دماغنا وبالشلوت فى مؤخراتنا يبصقون فى وجوهنا. ألا قاتلهم الله، اللهم اعم أبصارهم عنا وأنزل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة حتى نجهز على رأسمال ذلك الرجل الأريب الذى ينصب عليك سبحانك ويؤكلك الأونطة بذقن وزبيبة صلاة كورقة الدمغة يستغفل بها الناس ويستلبهم.

نهض «غزولى» قائلا: «بنا». نهضنا فى الحال ونحن نقول: «ع الظالم». حاسبنا القهوجى، وتسرسبنا خارجين واحدا وراء الآخر، حيث كانت العربة التى سرقها «هندى» من جراج بعيد فى مدينة نصر، واقفة فى حارة أخرى من حوارى الجيارة المظلمة. كانت تشبه عربة الشرطة المسماة بالبوكس فورد الزرقاء.

يخرب بيتك يا «هندى» يا ابن الكلب، كيف عثرت على عين المرام؟ قال: اركبوا، وجلس إلى عجلة القيادة وأدار المحرك فى الحال فإذا صوته هادئًا وناعمًا فاسترحنا لذلك وقلنا: كفاك هذا اليوم يا «هندى» لتقعد ناعم البال ونقوم نحن بكل شىء. ثم إن العربة خرّمت فى الحوارى المظلمة على مهل شديد، حودت من أضيق الحوادايات، بدربة وحكمة لا تتأتيان إلا من «هندى» شارب الحشيش البريمو والأفيون الصافى. ولقد تمكن من ركن العربة أمام الدكان مباشرة، فسد الشارع وصنع دروة للفاعلين.

نط «غزولى» على الأرض فلم نسمع له صوتا، فقفزت وراءه، وهبط إلى الأرض قاعدا على قرافيصه، سرب سن العتلة المبطط المدبب وحشره بين الجدار والضلع الخشبى للباب، وظل يحشر ويحشر ويفزز الخشب، إلى أن دخلت العتلة حتى ربعها، ثم عدل نفسه مثبتا مؤخرته

فى الأرض جاذبا العتلة نحو صدره بكل ما فيه من قوة، وصوت الخشب يطقطق، والضلع يسفسف ترابا كثيرا، حتى نجح «غزولى» فى فصل الضلع عن الجدار من هذه الناحية، فانتقل إلى الناحية الأخرى وفعل نفس الفعل وحقق نفس النجاح، فأعجبنى هذا الولد يابوى. ثم إنه صَدَّر العتلة بالطول فيما بين الجدار والضلع، فارتفع الباب كله بضلعه موسعا من الناحيتين حارة يزرق منها رجل بكل سهولة. وكنت قد خلعت خلقاتى وصرت بالفانلة والسروال، وكان «بربش» هو الآخر لابسا عفريتة زرقاء.

زرقت داخلا ياخال، وبعدها بسملت مستعيذا بالله من الظلمة لكننى كنت أعرف مكان زر النور، فزحفت متحسسا جسد الظلام حتى أدركته فلمسته فانبعث الضياء ووضح كل شيء. فسحب «غزولى» العتلة تاركا الباب يهبط على صدغه، صعد «بربش» فى الحال إلى سطح البنك فنزل أمام الحصالة فانتزع من جيب سحرى فى العفريتة مطواة أخذ يعركش بها فى درج الحصالة حتى فتحه ووقف يرقص وينظر متلصصا حتى خبلنى، فقفزت إلى جواره ونظرت، فهالنى منظر النقود يابوى، بسرعة أخرجت منديلى المحلاوى، فردته على البنك، صرت أغترف الرزم المؤستكة وأرص على المنديل أكواما أكواما، حتى عقدت أطرافه بصعوبة شديدة، وجعلت أحشر الباقى فى كل جيوبى، ثم إننى قفزت نحو الباب، فدفعته بيدى، وسربت المنديل إلى «غزولى» فجذبه بسرعة شديدة. أشار لى «بربش» على جوال فارغ، أمسكته، فتحته، صرنا نقذف فيه بكل علب السجائر والدخان والشاى والصابون الفاخر والسردين والسلمون والبولوبيف وكل ما على

الرفوف من علب وصناديق أفرغناه فى عدة أجولة، حتى خلت الرفوف تماما وظهرت الحائط كمنديل محلاوى لم يتوسخ إلا فى خطوط هذه المربعات الغامقة. صرت أعقد الأجولة وأسربها من تحت الباب فيتلقفها «غزولى» ويرصها فى صندوق العربة بدون صوت. استدرنا إلى صنف من العلب الكرتونية المبرشمة بورق لاصق سميك. . اخترقنا بعضها بسن المطواة فوجدناها تحوى قمر الدين والتين والزبيب. . فصار «بربش» يقذف لى بالواحدة فأسربها بحذر من عُقب الباب لـ «غزولى»، فيرمى بها لـ «هندى» الذى يرصها فى أرض العربة، وهكذا حتى أتينا على تلال كبيرة نقلت بكاملها إلى العربة. تعثرنا فى حارة من الصفائح الكبيرة مرتصة بجانب وفوق بعضها. كنت أعرف أنها سمن وجبن وزيتون، كانت أكثر من أربعين صفيحة حولناها كلها إلى العربة. ثم إننا استدرنا إلى صنف من الأجولة المفتوحة تمتلئ بسكر وعدس وأرز ومكرونة وفاصوليا وبازلاء، وأخرى تمتلئ بأصناف العطارة من فلفل وكمون وشيح وحناء، كل هذا صعب علينا أن نتركه، فصرنا نحزم الجوال ونعقده ونسربه، إلى أن فرغ الدكان إلا من براميل زيت كبيرة لا نستطيع حملها أو دحرجتها من الباب. بعد ذلك دفعت الباب وخرجت، ومن ورائى «بربش»، الذى حرص على أن يطفئ النور. كانت العربة دائرة، فتمددت فوق البضاعة وانطلقت العربة تشق طريقها كالثعبان إلى أن خرجت من الحوارى واتخذت الطريق الطوالى نحو شادر الحاج السنى.

حاجة تهوس يا بوى. الحاج السنى ثانية؟! الحديد وقلنا يقدر على

تسويقه، فكيف يقدر على تسويق هذه التشكيلة العجيبة من البضائع؟! فلما رأيت من حولى أشباها كثيرة لها قلت لنفسى : لا تستغرب ياولد، وانبريت أرفع البضاعة وأرصها على الأرض، يشاركنى «غزولى» و«هندى» و«بربش»، كلهم «ملهوجين»، عيونهم لائذة بجيوبى، وعيوننا كلنا لائذة بصرة المنديل البارزة فى عب «غزولى». فلما فرغنا نظرنا فى الحمولة فوجدناها سمينة يابوى، فابتسمت عيوننا لبعضها البعض. ونظر «غزولى» إلى «هندى»، وقال : «أنت وبربش تتخلصان من العربة، ورسم لهما طريقة التخلص منها : «هندى» يركب العربة ويمضى يتلكأ بها فى الطريق، حتى ينجح «بربش» فى إيقاف عربة أجرة خالية من الزبائن فيركبها قائلا للسائق : على طول يا أسطى، فيمضى السائق فى نفس الطريق، ويظل سائق الأجرة ماضيا طالما عربة «هندى» ماضية، إلى أن يجد «هندى» حارة مناسبة فى حى بعيد فيركن العربة فيها بكل عناية وينزل منها ويغلقها ثم يمضى لحال سبيله كأنه صاحبها سيعود ليركبها بعد قليل، فى هذه الأثناء تكون العربة الأجرة قد وصلت بالقرب من هذه الحارة، ويطلب «بربش» من السائق أن ينتظر برهة حتى يتأكد من عنوان ويستخرج من جيبه ورقة فيقرؤها وينزل فينظر فى أرقام بعض البيوت ويترقب أى شخص ليسأله عن أى عنوان وهمى، حتى يكون «هندى» قد خرج من الحارة ماشيا على قدميه فيتقدم منه «بربش» ليسأله عن العنوان الوهمى فيخبره «هندى» أن العنوان فيه خطأ، ثم يتركه ويسأل سائق الأجرة إن كان يوصله لمصر عتيقة، فيقول له «بربش» إن طريقه العودة إلى مصر عتيقة، ويرجعان معا.

تحلف اليـمـين يابوى أن هـذا كله تم فى ثلث سـاعـة، زمن مـادخنا سيجارتين، وكان «غزولى» صاحيا فلم يدعنى أفلت من بين يديه برهة واحدة. وكنت صاحيا للمنديل فى عبه فلم تفلت حركة يديه من عينى برهة واحـدة، وكنت لا أدعـه يضع يده فى جـيـبـه قط إلا وراقـبت حركـتها، فلما وصل كل من «هندى» و«بربش» اقتـربا منا قائلين فى نفس واحـد: ما الحال؟ تذكرنا أننا أرسلنا خفيـر الشادر ينادى الحاج السنى من لحظة وصولنا فذهب ولم يعد، فقـال «هندى» متفـاخرا: «ذهبنا إلى روض الفـرج وعـدنا وذهب المرسـال مـسافـة خطوتين فلم يعد!». . فإذا بصوت الخفير يداهمنا من خلف ظهورنا: «ومن أدراك أنى لم أعـد يابقف؟»»، مـا هذا يابوى؟ نظرنا خلفنا بعـد أن بصقنا فى عـبنا من الرعـب، صـحنـا: «كـيف هـذا يابو العـم؟ ذهبت تنادى الحـاج فعـدت فى السر ولم ترد علينا؟!» وكان حضرته جالسا على باب خصه فى الظلام يرقبنا ويرانا دون أن نراه، ثم إنه ما صدق أن كشف عن نفسه حتى أشعل سيجارة وقال وهو ينفث دخانها ببرود ساخر: «تظنون أننى طول هذا الوقت عند الحـاج؟! إن عـدوكم أهبل! إننى لا أعطى ظهرى لواحد يدخل هنا ولو كانت زبيبة الصلاة فى جبينه أطول من لحيته! هل يتـصـور عـدوكم الأهبل أننى أترككم أنتم بالذات كل هذا الوقت وحدكم! وأنا أعرف من أنتم؟!». .

ثم انفجر ضاحكا كقصف الرعود، ومسح على شواربه الطويلة آثار الضحك وقال: «لا تنتظروا الحـاج قبل صلاة الفـجر! فإنه وهو قائم يصلى يلاقيكم فى الطريق! وسوف يمهلكم بالطبع حتى يصلى فى جامع عمرو بن العاص ويعود!». وجدنا كلامه صحيحا فجلسنا فوق

الصفائح والأجولة نتسلى بأكل الزبيب وقمر الدين والتين المجفف حتى صاح الخفير: «أما تبعثوا شيئا مما تأكلون؟»، فقال «غزولى» ملوحا بيده: «ما خدمتنا خدمة تستحق عليها شيئا»، وقال «بربش» ليكسبه: «وأنت أما تستطيع المجىء لتأكل معنا؟»، فانبرى «هندى» يسأل الخفير: «الديك رغفان؟»، قال: «عندى». قلنا جميعا: «هاتها وتعال»، وزحزح «هندى» بعض الصفائح وانتقى واحدة مفتوحة وقال: «هات معك طبقا» أتى الخفير من داخل الخص بطبق كبير من الألومنيوم وأربعة أرغفة كبيرة بعرض المطرحة مما تخبزه زوجه الصعيدية فى فرن تقيمه لها خلف الشادر من ناحية المقابر، تخبزه لا لتأكله فحسب، بل لتبيعه للفواعلية الصعايدة والأفندية الذين يحششون فى غرز بين المقابر.

فتح «هندى» صفيحة ودب يده فيها، فأخرجها بخرطة جبن تزيد عن أقة، وضعها فى الطبق، وفتح صفيحة أخرى، فأخرج حفانا كبيرا من الزيتون الأسود، دلقه فى الطبق فوق قطعة الجبن قائلا: بسم الله. كان منظر الجبن لامعا براقا وطعمه سائغا، فأكلنا خرطتين كبيرتين وجعبة زيتون وستة أرغفة، وكافأنا الخفير على أرغفته ببقية صفيحة الجبن المفتوحة فكاد يجن من الفرح والدهشة، لم يصدقنا إلا بعد أن تاواها فى خصه وعاد.

أعوذ بالله من قولة أنا معجب بمنظر الفرحة إعجابى بالفرح نفسه، أى والله يابوى، إن الفرح عندى هو منظر الفرحة على وجه أحد من الناس، لا سيما إذا كنت أنا الذى تسبب فيها. فلما رأيت الفرحة بصفيحة الجبن كبيرة على وجه الخفير اللئيم وعرفت أنه سيبقى شهرا

بطوله لا يشترى جبنا من الدكان فرحت لفرحته وجئت بالعلب الكرتونية المفتوحة وجسستها فوجدت ما فيها قليلا، ففرطت كل ما كان فيها من زبيب وتين ومشمشية وقمر دين، فملأ علبة واحدة لتمها، فأعطيتها للخفير قائلا له على سبيل التفكه: «إملأ لنا سلطانية من بلولها!»، فاحتضنها الخفير، وبقفزة واحدة صار فى الخص، بعدها سمعنا عكرشة داخل الخص، أدركنا منها أنه يخفى هذه الغنيمة حتى يوزعها على أولاده بالعدل والقسطاس. وقال «غزولى» فى تريقة نواتها صدق حقيقى: «طول عمرك لم تذق الياميش يا سنطاوى! فادع للذين بلوا ريقك به!». .

ظهر «سنطاوى» الخفير ممسكا بحلة صغيرة، والبندقية معلقة فى كتفه، وهو محنى القامة، يقول: «ياميش يعنى إيه يابوالعم؟!» ضحكنا يابوى، شخرنا رغما عنا، فانزعج «سنطاوى» وسحب البندقية علينا صائحا: «الدار فيها حريم ياولد الفرطوس! فاحتشم أنت وهو!»، ثم أرجع البندقية إلى كتفه، وعاد يسأل: «ياميش إيه اللى كنت عمتقول عليه ده يا بوالعم؟!». فقال «هندى»: «يعنى الزبيب والقمر الدين والتين والخير اللى أنت رقعته دلوقت». رفع الخفير أنفه ومسح شاربه وصاح فى استكشاف: «ها. . آ. . ه. . بقى كده يا بوى. . اسمه ياميش طب عال. . آدى كلمة جديدة اتمقلت بيها على الولية إللى فاكرانى ما عفهمش!»، وصار يؤتى بحركات راقصة علامة على فرحه واغتباطه، فلما ترقص شعرنا أن الحلة ثقيلة فى يديه وهو يهزها ويبرمها فى الهواء، وصوت خشخشة ورقرقة ينبعث منها، ثم اقترب، فظهر أن الحلة ملآنة بالزبيب والقمر الدين لتمها، وهو

يفرك فيها بملعقة كبيرة، ثم يذوق شفطة صغيرة ويتلمظ مرقصا شاربه، وسلم الحلة والملعقة لى قائلا: «خذ نصيبك وكلك نظر!». فأمسكت بالحلة والملعقة وصرت أطوح فى فمى زبيبا وتينا، ورأيت الملعقة لا تسعفنى فى الشرب فرفعت الحلة إلى فمى وشفطت نفسين مضبوطين ثم سلمت الحلة لـ «غزولى»، ففعل مثلما فعلت، وسلمها لـ «هندى»، ففعل هو الآخر ثم سلمها لـ «بربش» فأتى على ما فيها فى شفطتين، وهنا صاح الخفير فى ذعر: «مانابى». شوح له: «ما تبقاش طماع!» فاختطف الخفير الحلة بغيظ، وغاب فى الخص يعكرش، فبان أنه يبل لنفسه كمية أخرى. وفعلا يا بوى، ظهر ممسكا بالحلة يديرها ليذيب سكرها وهو واقف على باب الخص علامة أنه سينفرد بالحلة وحده، وصار يشفط ويمضغ قائلا فى غبطة: «قبل ما العيال يصحوا وأروح بلاش». قال «بربش» للخفير وهو مستغرب من فجعته: «الحاج السنى لم يؤكلك حاجات من هذه أبدا؟!». قال الخفير وقد نضحت فى صوته فرشة صدق: «عمره ما فعلها رغم أننى اشتريتها له من الدكان كما أشترى خضار السلاطة فى رمضان! أخرطها وأضعها مع البلول فى المشربية لحين أذان المغرب! فلا يفكر المديوب فى أن يرسل لنا ما تبقى منه! تعرف يابوالعم؟ مرة أحببت أن أقلده فاشتريت خضار سلاطة وخرطتها وحضرتها لنفسى! وحين صلى هو المغرب فى عمرو بن العاص وجاء يجرى! فات من أمامى ونحن نفطر أمام الخص فاندهش يابوالعم من طبق السلاطة! وبعد أن مضى خطوة رجع ونظر فى طبق السلاطة وفى عينيه نار تقول لى: من أين لك بهذا الطبق؟ لابد أنك سرقته أو سمسرته من البضاعة وأنت تشتريها! المهم يابوالعم حرمت من يومها أن أشترى له شيئا أو أخرط شيئا! اكتفيت بالخفارة

وحدها!!». عَلّقَ «هندى» قائلا: «هو بصراحة رجل لا يستحق البل! ربما استحق التخريط!»، قال «غزولى» مشعلا سيجارة: «لأ وذقنه وشواربه مثل الجرجير تبقى حلوة تفتح النفس للأكل!». رمى الخفير بالحلة على طول ذراعه فى الخص وشوح بقرف: «يابوى هو رجل طعمه مزز يصد النفس!»، واقترب نحونا مهرولا: «هاتوا سيجارة». لا أعرف لماذا أسرعت يدى فأخرجت له علبة سجائر وينجز كبيرة أعطيتها له قائلا: «حلال عليك يا عم!». فاحتج «غزولى» صائحا ولكن بمزاح: «هذا ليس مال أبيك تفنجر منه!». وقال «بربش» مقلدا الصعايدة: «اللى يفندر يفندر من جيبه»، فصاح الخفير وهو يدس العلبة فى جيب البالطو المترهل كالجوال: ربنا يجعل جيوب المؤمنين عماراً»، ثم تدقلج حتى الخص، فتقرفص على بابه وصار يدخن فى استمتاع.

الفجر قال: الله أكبر، وسمعنا ترباس البوابة من الداخل يتك بشدة، وصوت باب صغير فى وسطها ينفتح ويدلف منه الحاج السنى كشبح أبيض فى أبيض، تتدلى من يده مسبحة طويلة، وهو يبسمل ويحوقل إلى أن حاذانا فلم تبد عليه الدهشة من وجود ناس غرباء فى شادره وأمام بوابة داره، بل اكتفى بأن فات رافعا كفه بحذاء أذنه قائلا: السلام عليكم، ومضى غير عابئ بردنا عليه..

دخل الصبح علينا من خلل مشمع السرادق عند كبسولات الحبال المربوطة، وظهرت من الباب عباءته الزرقاء الغامقة المبيضة قليلا، وظهرت من بعيد أصوات أقدام وهمهمة المصلين الخارجين من جامع عمرو بن العاص. سمعنا صوت الحاج السنى فى الخلاء يتكلم مع

بعض الناس فى أمور الدين والمواعظ وختام الصلاة وكيف تكون، فحسدته والله على طول باله، وخفت أن يجره الكلام فيأتى معه بأحد يرانا على هذا الوضع فتكون بداية الفضيحة. لكنه أخيرا دخل يبسمل، فلما اقترب منا قال: «صباح الخير يا أولاد!»، ثم أخذ يجس العلب الكرتونية والصفائح والأجولة. بسرعة أمسك «غزولى» بالجوال الكبير ودلق ما فيه فوق الأرض، ونقض علب السجائر كلها فكومها على جنب قائلا: «هذه لنا سنفرقها علينا!»، وأزاح بقية محتويات الجوال نحو الحاج السنى، الذى مال عليها وفحصها فحصا جيدا، ثم عاد ففتح كل الأجولة، وفحص ما فيها، ثم سمى بالله الرحمن الرحيم وأخرج من سيالته دفترا مطويا بالطول، نزع من قلبه القلم الكوبيا، واتجه نحو الميزان المتربع قرب بوابة الدار، تبعناه نجرجر الأجولة والصفائح والعلب ونضعها على طبلية الميزان، والحاج يزن ويدون فى الدفتر، ويضع أمام الأرقام أرقاما وعلامات، ويطرح ويجمع ويضرب ويقسم، وفى النهاية قال: «هذه البيعة كلها فى رقاب بعضها بثلاثمائة جنيه ولا مليم فوقها! وأنا ونصيبى فيها! فإنها بضاعة خاملة تمكث شهورا طويلة! يعنى أن الثلاثمائة جنيه فى جيبى أحسن من بضاعتكم هذه فى مكتبى! لكننى وحق صلاتى لا أريد أن أكسفكم لكن قولوا لى من أين جئتم بها؟!». فقال «غزولى» كلاما متناثرا معناه أن هذه البضاعة تخص جماعة من البمبوطية أصدقائه وقد قصدوه فى بيعها لحسابهم. وهنا قال الحاج: «طبعا هم يسرقونها من السفن العابرة أو الواقفة!». قال «غزولى»: «لأ وأنت الصادق هم يأخذونها على سبيل الهبات من أصحاب المراكب، فالمراكب المحملة بالتمر تعطى تمرا! والمحملة بالبصل تعطى بصلا! وكلها تعطى علب السجائر! وهم

يجمعون هذه الهبات إلى أن تصبح كميات صالحة للبيع فيكلفون واحداً مثلى ببيعها!»

كانت فى عينى الحاج السنى نظرة بعيدة الغور تقول بالفم المليان إن كلام «غزولى» المسوى هذا رغم معقوليته لم يدخل دماغه ولم يأكل منه بمليم، ومع ذلك قال: «على بركة الله! على بركة الله!». كذلك كانت عين «غزولى» تقول بالمفتشر إنه يعرف أن الحاج «السنى» لم يصدق كلامه حرفا، ومع ذلك رد عليه قائلا: «كله من فضل الله! كله من فضل الله!». كدنا ننفجر من الضحك يابوى، لأن «غزولى» لحظتها كان يتكلم بصوت وهيئة الناس الأتقياء الذين لابد أن تصدقهم، حتى أن الحاج «السنى» نظر إليه من تحت إلى تحت نظرة مذهولة متشككة، فسرها العبد لله بأن الحاج كاد يصدق «غزولى» فحدثت له هذه الهزة. إلا أن الحاج طوى نظرته وأخرج من سيالته رزمة النقود المطوية، فتحها بين أصابعه وصار يعد العشرات المجمدة حتى عد ثلاثين منها طواها وقدمها لـ «غزولى» وهو يتهيأ للانصراف مستأنفًا التسبيح على المسبحة قال «غزولى» وهو يتناول النقود: «كام دول؟»، فقال الحاج وهو يمضى خطوة ثم يتوقف: «أنا ما أبغى وجع الدماغ! هذا هو الجمل وهذا هو الجمال! لا تضيعوا النوم من عينى!». قال «بربش» وهو يشير إلينا بالنهوض للانصراف: «خلاص! نعوضها فى بيعة أخرى! ليلتك فل ياحاج!».

مضينا نترنح فى الطريق مثل السكارى. وكانت علب السجائر مصرورة فى خرقة قديمة استلفناها من «سنطاوى» الخفير. قال «هندى» فى حسم: «نذهب إلى بيتى». لم نرد، لكننا حودنا تلقائيا

نحو بيته، تلك الحجرة الكائنة فى حارة من الحوارى المزنوقة تحت بوابة من بوابات مجرى العيون. افترشنا الأرض ياخال، ونفض كل منا جيوبه ياخال: بربش وغزولى وأنا. . فإذا أمامنا كومة من النقود كأننا البنك الأهلى. أحصيناها فوجدنا ثلاثة آلاف جنيه ومائتين. نحينا المائتين جانبا ووزعنا الباقى علينا بالعدل والقسطاس، وكذا فعلنا بالسجائر، وبقينا مسندين ظهورنا للحائط كالملوك الأكاسرة، وقال «غزولى» وهو يطوى المائتى جنيه الباقية: «هذه لابد أن نفنطز بها اليوم فهيا نبدأ بالإفطار». قلنا: «وجب»، وقمنا، فنزلنا وقد نفى النوم من دماغنا وتفنجلت عيوننا بالفوقان. وكانت الشمس فى انتظارنا حمراء ذهبية وشكلها غاضب ونحن غير قادرين على النظر فيها، فمشينا حتى باب اللوق، أفطرنا فولا وطعمية عند الدمياطى، ثم عدنا إلى قهوة، «صفصف» حيث طرقعنا حوالى مائتى حجر، وكانت الظهيرة قد عمت الكون فقال «غزولى»: «ما رأيكم الآن فى الغداء كبابا عند أبى شقرة؟». قلنا: «مثل الناس الطيبين؟» . قال: «نعم!». قلنا: «إلى هناك نسير حالا!». كنا أول من دخل المحل يومها، فحالا جاءت السلاطات التى قلبك يحبها، وانزل ياولد حتتك بتتك، كل منا رقع كيلو كباب وكفتة وحمدنا الله على ذلك، وكل ذلك لم يتكلف أكثر من خمسين جنيها عشنا بها بكوات وباشوات لمدة خمس ساعات. .

قلت لـ «غزولى»: «كفانا هذا، ووزع بقية المبلغ علينا بالتساوى». فقال «بربش»: «يستحسن، إذ إننا لابد أن نختفى من المنطقة كلها شهرا على الأقل لا نظهر مجتمعين أبدا!». قال «بسبوسة» ملوحا بكفه المتختخة: «أنا مسافر إلى دمياط غدا لشراء جهاز عروسة!» قلنا

جميعا: «لمن يا بسبوسة؟!». قال باسما: «لى!». صحنا فيه باحتجاج «أنت متزوج منذ مدة يا ولد! تتزوج ثانية؟!». قال محتجا على احتجاجنا: «ما غلطت يا أسيادنا! العروس هى زوجتى بعينها! بنت الناس تزوجتها على حصيرة وكانت راضية! فيكرمنا الله ونقل أصلنا معها؟ حلفت ألا أجهز لها عفشها إلا من دمياط مثل بنات الناس الأكابر!». شوحنا قائلين: «حلال عليك ياعم!». وقال «بربش» كأنه يكلم نفسه: «سأسافر غدا إلى الإسكندرية يومين أو ثلاثة». قال «غزولى» كأنه يرد عليه وحده: «وأنا سأدخل زوجتى مستشفى الدمرداش لتجرى عملية من أجل الخلفة عسى أن يكرمنا الله بولد أو حتى بنت تحفظ نسلنا!». قلت: «معك الآن مبلغ ينفعك فى العملية آخر فل!». قال: «إنه من حسن حظ الولية الغلبانة، ربنا أكرمنا بهذه الشغلة، ولولاها ما حلمت الولية بإجراء هذه العملية أبدا!»، وكان صوته فى منتهى الطيبة والله يابوى. ثم إنه وزع المبلغ الباقى علينا وانصرف لا تسعه الدنيا من الفرح، فدعونا له بنجاح العملية. انصرف «بسبوسة» هو الآخر، فدعونا له بجهاز مستريح الثمن. ثم انصرف «بربش» فدعونا له ببحر معتدل الجو وسر هادئ المزاج. بقيت أنا و«هندى» واقفين. قال «هندى» إن النوم كابس عليه بشدة ولهذا سيذهب لينام. فقلت إننى ذاهب إلى مشوار بسيط وسوف ألحق به، ومضيت إلى مكتب البريد لأرسل لأمى أكبر حوالة بريدية تتلقاها فى حياتها. كنت أمشى منفوخ الصدر أطير طيرانا، فما وصلت مكتب البريد يابوى حتى رأيت رجلىّ تلفان على بعضهما من دوار الخوف، تحلف اليمين أننى عجزت عن مد القدم من الأرض إلى رصيف المكتب. بعيدا عنك وعن السامعين حصل لى ما يحصل للمشلول قبل

أن يصيبه المذكور والعياذ بالله بدقيقة واحدة . .

رَنَّ في دماغي صوت يائس حران يقول : «بس! وقعت في غضب الله يا حلو! وها هوذا يرزؤك في جسدك عقابا سريعا على ما فعلت!» . وسمعتني أرد على هذا الصوت بقولي : «لا إله إلا الله محمد رسول الله! نذرا عليّ والله يارب إن رأفت اللحظة بحالي ولطفت بي وبأمي لتكونن الفعلة الأخيرة في حياتي وبعدها يحق لي أن أطلب رضاك ومغفرتك باقي عمري!» .

سني وقتها لم يكن سن الشلل يابوي، ولكن السهر والتعب والحشيش والخوف وأقسام الشرطة وقلة النوم كل ذلك يعطل ماكينة الجسد، ولو كانت جديدة بشمعها وورق بياعها، كل شيء له حدود يابوي، وكل مرينة لها حمولتها. ركنت رأسي على شباك مكتب البريد حتى همدت الدوخة واضمحلت وعادت مكنة الجسد للشغل من جديد، ويظهر أن رايشا في معدتي أو في دماغي كان يسد منافذ الماكينة، ويعطل سيرها، وقد انزاح بعون الله وفضله. النفس أمارة بالسوء يابوي، فيدي التي تنقطع هذه، لم يهمها الدوخة التي كنت فيها منذ برهة، فامتدت وأشعلت سيجارة في فمي الشهوان، فإذا بي أدوخ ثانية، لكنها دوخة لذيذة، وسرعان ما تنبهت فتبين لي، بجوار رصيف المكتب، ولد يقيم نصبة شاي وقهوة، فملت عليه وركنت إليه مستظرفا مكانه الفسيح تحت ظل شجرة عتيقة. على كرسي من القش جلست واضعا رجلا على رجل وطلبت فنجان قهوة على الريحة. من رائحة القهوة والولد يدلقها من الكنكة في الفنجان بدأ الفوقان؛ فما أتممت شربه حتى صرت في الروقان الشديد؛ واستمعت لصوت يشبه صوت

أبى يرن فى دماغى قائلا : «حوالة ماذا يا عبيط يا أهطل هذه التى جئت ترسلها لأمك فى الغنايم فى كوم سعيد؟! ألا تعرف يا خائب يا صاحب النوائب أن مبلغا كهذا مع ولد شكله شكلك لابد أن يحلق فيه الناس! فتصير هدفا للبحلقة حتى تتعرى من ثيابك فتنكشف عوراتك؟! وكيف بأمك، هل تراها تقدر على استلام مبلغ كهذا من طواف البريد؟! سوف يتعين عليها أن تسافر لتقبض المبلغ! حقا إن الصعيدى إن تمدن يجىء لأهله ببلوى! وأنت الآن تسعى لوضع يديك فى الحديد!»

رددت عليه بسحائب من دخان السيجارة قائلا : «ولكننى لا أقدر أن أمضى بهذا المبلغ فى هذه المدينة يابوالعم! إننى أعرفها، إنها مدينة كافرة فاجرة! والدليل على ذلك كثرة الجوامع فى كل حارة وكثرة الحجاج وراء لافتات الدكاكين العامرة! لو ضبطوا المبلغ معى أساق أنا للشنق بتهم ارتكبها مئات الحجاج ومئات الأفندية ممن بيدهم مفاتيح المخازن وأدراج الأوراق وأبواب المصالح!»..

رَنَّ الصوت من جديد فى جدران دماغى، تحلف اليمين يابوى تقول إننى تصدعت من رنته، التى صدمتنى ضاحكة ساخرة : «ومن قال لك أن تمضى هنا يا ابن اللبؤة؟! ما الذى يقعدك هنا بالنقود وبينك وبين النجاة بها سبع ساعات سفر لا غير فى قطار الصعيد؟!»..

هنا يا خال، تمطعت نافضا عن نفسى الكسل؛ قلت : «معك حق والله ياهذا»؛ وحاسبت الولد على ثمن القهوة وفاصلته فى القرش والمليم؛ ليس بخلا والله ياخال، ولكن نكاية فى ولد بلدنا السابقين الأغبياء الذين ظهرت سرقاتهم الكبيرة من غباوتهم فى المصاريف

الكبيرة فى محلات اللهو واستصغار شأن النقود أمام الباعة وأهل الحرف، أما النقود الكبيرة فكانت مربوطة فى حزام حول وسطى، وليس فى جيبى سوى بضع ورقات بعشرات صاغ لزوم الصرف والمعيشة والفنطزة إلى أن يأذن الله برزق جديد؛ وحتى هذه الورقات مع بضعة جنيهات وأنصاف جنيهات وأرباعها كانت مخبأة، مصرورة فى منديل مربوط حول زندى تحت الثياب؛ وأبحت لنفسى حرية التصرف فى بضعة شلنات، وأنصاف فرنكات من الفضة المضلعة.

رميت نفسى للريح؛ جرجرتنى حتى أوصلتنى حجرة «هندى» فضربت زر جرس على الباب فى الشارع، فنظر «هندى» خلسة من وراء شيش الشباك: «أرمى لك المفتاح لتفتح وتدخل؟» صحت به قائلا: «لاتفعل! فأنا سأخطف رجلى إلى البلد! وسأعود بمشيئة الله بعد يومين بالكثير ثلاثة!» قال: «تعود بالسلامة»، ثم لوح بيده واختفى من الشباك؛ فاندفعت بين الحوارى الملتوية كالفأر فى شق طويل متعرج؛ فما صدقت بأننى قد امتلكت الشارع العمومى حتى شبطت فى سيارة توصلنى إلى محطة الجيزة؛ لأركب منها إلى محطة «صدفة» على خط أسيوط. لأكون مع طلعة الشمس فى كوم سعيد بالغنايم.

ورقة الناسك: تسعة

الأولة ـ ع الأصل دور

الناس أجناس يا خال؛ ومن كانت أمه داعية له في ليلة القدر، يكرمه الله بصحاب من جنس أصله طيب . .

وبفضل دعاء الوالدين يابوى عوضنى الله خيرا فى «هليل» صاحبى، وبالأكثر بعد أن تزوج أبوه «يوسف النجار» بشقيقتى «هندية»، تحلف اليمين يابوى أننى ما وجدت لى فى البلدة أهل سواه؛ فدارنا مهدودة من يوم ما حلت ببلدتنا غضبة عائلة المشير؛ ودور أعمامى قد باتت لا تستقبل إلا أولاد المدارس والمعهد والأزهر الذين هم أنداد وزملاء لأولادهم وهم فى الأصل ـ أعمامى وولدانهم ـ لا يسألون عنى ولا يتذكرون أننى من دمهم، أنا الآخر ألهتنى الحياة فلم أتعجب فلم أسأل. ولم أسأل فلم أتعجب. وأمى راكنة فى دار «خرابة» ضيفة معززة مكرمة . . فإلى من أذهب؟!

ذهبت بالطبع إلى أمى، ففرحت بحضورى كما فرحت زوجة «خرابة»، وأكدت لى أن أمى مستريحة فى دارهم، وأنها لن تبارحها حتى لو بنينا دارنا من جديد. وآه! كيف الكلام ذا يابوى؟ قالت الولية :

«مسكينة أمك يا حسن ياخوى! فمن يخدمها فى داركم وهى لوحدها؟!». قلت ضاحكا: «فهل يا ترى نترك الدار هديما ونستريح؟!». صاحت هى وأمى معا: «فال الله ولا فالك الدار مالها ولبقاء أمك هنا؟!». قلت: «هل أبنيها إذن!». قالت أمى بفرحة طاغية: «طبعا يا ولدى! إن أعطاك الله فابنها اليوم قبل الغد!». قلت باسما من النشوة: «حاضر يا أم! سوف أبنى فى الحال!». وقدموا لى لقمة سريعة طرية فأكلتها جبران خاطر، وشربت الشاى وقمت. «أين تروح ياولد؟!» قالت أمى: «تبيت فى غرفة الولاد معهم طالما أنت هنا» وقالت زوجة خرابة ذلك أيضا. قلت: «لا.. أنا سأبيت عند صاحبى هليّل حيث الوسع والراحة». قالت: «أنت وراحتك». وقالت أمى كالمعتذرة لها: «إنهما صحاب بحق وحقيق». قالت: «أعرف يا خالة». ثم إننى نثرت على الولاد كلهم عدداً كبيراً من البرايز والشلنات وأرباع الجنيهات بمنظر ذهلت منه الولية وبان فى عينيها قليل من الحسد، أما أمى فارتاعت وكادت تقع من طولها وتقطع شفتيها من العض عليهما، وعيناها تغمزان لعينى تنبيها واستغاثة بأن أكف عن هذا الجنون الذى، أفعله، وقد أعماها الذهول عن حصر ما فرقته على الولاد، ولو علمت أنه اقترب من الجنيهات الخمسة لوقعت ميتة بما يسمونه السكتة القلبية فى الحال... أمال يابوى. إنها ولية شقيانة طول عمرها من يوم أن خلقها الله ترفع أحمال الطين وراء مليم قابع تحتها، وقد علم فيها الفقر وعلمها كم للقرش الأبيض من نفع عظيم فى اليوم الأسود، قلبى يرق لها والله دائما ياخال، سلمت عليها وقرصت على يدها قرصة خفيفة أنبهها قائلا فى حبور وابتسام: «ولا يهمك يا أم! فخير الله كثير»، وعرجت على زوجة خرابة فسلمت

عليها واستكثرت لها الخير من الله ومضيت موليا نحو كوم سعيد . .

فى مدخل البلدة واجهنى فانوس مشتعل، يلقى على الأرض ظل صورته العتيقة بأضلاعها الشبيهة بشكل الكأس. توقعته، فإذا هو بالفعل: عم «صهيب» المتصوف، الذى يقضى نهاره عاكفا على العبادة فى خلوته، وليله متنقلا بين الأضرحة الأولياء فى كل البلدان، يزورهم بأكياس من فاكهة القرآن الكريم ينثرها على أعتابهم ثم ينصرف. ها هو ذا يقبل نحوى بشكله الأزلى الذى لا يتغير: رأسه الصغيرة المتعصبة بمنديل رفيع أخضر كالح، فوق بقايا طربوش مغربى أسود احمراره، وقامته المديدة المحنية قليلا إلى الأمام بفعل الكهولة والسجود والخشوع لله، يتسربل بخَلَق مرقع تفوح منه على الدوام رائحة السمك، يتأبط مخلاة من الشَمعٍ مجهولة المحتوى، يمسك الفانوس بيمناه، والعصا بيسراه، يجيل بصره الحائل فى الطريق، مغمغما بصلوات وتسبيحات غامضة . .

تذكرت ياخال أن عم «صهيب» هذا هو جد صديقى «هليل» يعنى «يوسف النجار» ابنه، إذ إن عم «صهيب» كان فى الأصل نجارا للسواقى منذ زمن بعيد مجهول. مسيت عليه فغمغم بالرد. . واتخذت طريقى إلى داره حيث يقطن صديقى «هليل»، وفى دماغى خاطر يقول لى أن «هليل» مصيره سيكون كجده هذا بإذن الله، ثم ضحكت عاليا . .

الثانية ـ قلب الراعى

يابو . . و . . و . . و . . ى على تلك الفرحة التى لقينى بها صاحبى «هليّل»، كادت والله تنسيه عقله، فصار يهذى بكلام الشوق والحب والغربة والوحدة، وصار من عناقه الطويل لى يحرم أختى ـ زوجة أبيه ـ من فرصتها فى عناقى، وصرت من عناقى له أحرم نفسى من فرحة عناق أبيه، لحظة من لحظات الجنة كانت والله ياخال، بعدها نحرت السكين فراخا وبطا وحماما، وامتلأ وسط الدار بدخان كبير له رائحة مسكرة، حتى إذا ما جاء المغرب توسطنا وسط الدار على مقربة من الكوانين المشتعلة، المحاطة بحلل كثيرة، نفترش حصائر من السمار الملون، تحتنا المساند، وإذا تحلقنا الطبلية وفوقها صينية العشاء حافلة بما لذ وطاب مما حرمته فى طول الغياب، صرنا نشفط فى تتابع صوتى ونتصبب عرقا، ونضرب بالملاعق فى أكوام الفريك المكومة فى الأطباق نهدها، نطوح بها فى الأفواه والجميع يفسخون الطيور المحمرة ويرمون شرائحها أمامى وفى يدى وفى فمى، وأنا لا أرد لأحد طلبا ولا أكسر له خاطرا، ومكنة الطحن شغالة على سنجة عشرة، وكلما ازدحم حلقى بوارد البلع سلكته بشفطات المرق الساخن فتنفذ التقلية فى

دماغي تعمره، وفى عينى تفنجلها، وفى عروق جسدى تزيده النصف. ولم يكن ذلك التوفيق إلا لأن نَفَس أختى ـ وهو مندوب عن نَفَس أمى ـ كان يعطر هذا الطعام . .

ثم إن «هليّل» دعانى لغسل يدى ولدخول الحمام بالمرة، فلم أكسفه بالطبع. وجدت فى انتظارى ثيابا نظيفة من ثياب «هليّل»، فى رائحتها نفس أختى كذلك، فلبستها على جسد نظيف، فشعرت والله كأن الروح قد ردت فىّ من هذه اللحظة فحسب. وكان الخلاء الرحب فى شوق إلينا، فطلعنا إليه نلتقيه ويلتقينا. عند هديم دارنا وقفنا، وشرعت أكلم «هليّل» فى موضوع بنائها، فقال: «على الأقل تقيم الجدران». شوحت بملء صدرى قائلا: «نبنيها على أحسن وضع! الخير كثير والحمد لله!». نظر فى عينى مستفهما عن آخر مدى لهذا الخير. قلت: «مستورة والحمد لله! كله من نعيمه يا هليل ياخوى!». هز يده ليستزيد التأكيد: «تبنى بناية! بناية!». قلت بنفس التأكيد: «طبعا بناية، بناية! ودورين لو أحببت!». قال بفرحة: «إه! على بركة الله! من غد نتوكل على الله!».

لم نكذب خبرا. الولد «هليل» ما أجدعه. مشوار بسيط لحد البناء فى آخر البلد، مشوار أبسط لحد بائع الطوب، فركة كعب لحد دار واحد يكرى لنا أنفارا تزيح الهديم وتفحت للحديد، بضع جنيهات كعربون. . فوالله ما أتى الصباح بنوره الوضاح إلا وفى دارنا أنفار تشتغل وطوب ينزل ومونة تصعد فى القصاع. بناء بالأسمنت ياولد. أربعة أيام والله يابوى صارت الدار بعدها واقفة على أساس متين ومستورة بسقف مسلح بالحديد والبتن. ثم بدأ شغل الخشب، فما

مضى أسبوع إلا وكانت مفاتيح الأبواب والشبابيك فى يدى. ولم يبق إلا الفرش الذى سأشتريه غدا من أسيوط. الناس فى بلدنا كثار يابوى وأجرة عرقهم أرخص شىء فى الدنيا، الواحد تشتريه طول اليوم بأكله وشربه وكسوته. لو مكث فى خدمتك حولا كاملا ما طالبك بشىء آخر. الأشياء هى الأخرى كثيرة لا تجد من يشتريها، ولكن لأن من هى عندهم يستغنون عن بيعها فهى مسجونة حتى يظهر من يبز بالقرش.

على أسيوط سافرنا أنا و«هليل»، فاشترينا عفشا من كنب وسرير ودولاب يصلح شوارا لعروس بنت العمدة؛ ولكننى نويت أن أجعل من دارنا دارا بحق وحقيق، ذات مندرة يجتمع فيها القوم بكل احترام ومعزة، كنت ألمح فى عيون «هليل» كلاما كبيرا يود لو ينفلت، ليلت ويعجن معى فيه، ليعرف من أين جاءتنى كل هذه الثروة فى زمن قليل؟! فلم أصرح له أبدا، غير أنه لم يتركنى؛ قال فيما نحن نشد نفسين من الحشيش فى غرزة فى مسطاح النيل: «المهم يابو على أن يكون ما صرفته على داركم فلوسا حلالا!».. فشوحت له بيدى قائلا: «دعك من مسألة الحلال والحرام هذه ياخوى! فوحق مخرج الصباح من الليل ومشرق الشمس أن البلدة كلها تعيش حراما فى حرام! وسحتا فى سحت! ونهبا فى نهب! وبلطجة فى بلطجة! وتهليبا فى تهليب! صدقنى ياخوى! حاميها حراميها ياخوى! صرت أعتقد أن الله لا يبارك إلا فى الحرام! ويحمى أهل الحرام ويرفع قدرهم فى الدنيا صحيح أن الله سيعذبهم فى الآخرة ولكن كيف أعيش أنا فى الدنيا طاهرا من الخطيئة معدما من القوت فى نفس الوقت؟! سأفوز بالآخرة؟! مت يا حمار حتى يجيئك العليق! عقلى الصعيدى لا يفهم

كيف يحرمنى الله فى الحياة من نسمة الدنيا ويمتع غيرى بالجنة؟! إنك يا هليل ياخوى لوشفت الحياة التى يعيشها ناس مصر المحروسة لوقعت من طولك ميتا! اسكت يا هليل ياخوى فقد أصبحت والله أكره الكلام فى شغلة الحرام والحلال هذه! أكره أيضا شغلة الثورة هذه! أتمنى زوالها من الوجود! حتى أبو عبد الناصر نفسه بلدينا نفسه صرت لا أحبه! صار قلبى ينزعج كلما سمعت اسمه! دعنا يا هليل نعيش يومين قبلما يأكلنا الذئاب! إذا كنت تعيش بين اللصوص والحرامية فلابد أن تكون أحرف منهم حتى تعيش بينهم! عمرك رأيت جديا صغيرا يعاشر الذئاب ويعيش بينهم فى سلام؟! حلال ماذا وحرام ماذا يا هليل ياخوى؟ لقد خربت الدنيا! أهل الثورة سرقوا أراضى الناس ورأسمالهم الذى لموه بعرق جبينهم ثم وزعوه على أهل لهم! وحرسوا عليه اللصوص والمغفلين ومن جاء فى ركبهم!».

الحق لله يابوى لم يراجعنى «هليّل» فيما قلته، ظل ينظر فى وجهى ويشرب بعمق، ويكتم نفس الدخان فى حلقه ليسربه من أنفه ويختزنه فى دماغه فبدا كأنه يحاول تسليك مخه ليفهم كلامى الكبير الذى قلته الآن، لكنه قال وهو يلقط بقايا النفس: «على كل حال! كن بصيرا على نفسك فى الغربة! ضع عينيك فى وسط رأسك!». قلت: «هذا ما أنا فيه بالفعل فلا تقلق». قال «كم صرفت حتى الآن؟». هززت يدى ورأسى مبتسما فى سعادة وقلت: «تصور يا هليّل أن كل ما فعلنا لم يتكلف أكثر من ثلاث مئات؟! بما فى ذلك مصاريفنا ومصاريفى من ساعة ما جئت!». قال: «بركة! بركة!». قلت: «كله من خيرك يا هليل ياخوى! لولا جملك وحمارك وصحاب أبيك ما فعلنا شيئا حتى

الآن». قال: «الفضل فضل الله! فهل بقى معك شىء من القرشين؟». قلت باسما: «كثير يا ولد! كان مع أمى الكثير مما أرسلته لها، وسآخذ منه معى عند عودتى لمصر!». أزاح الولد لبدته علامة الانبساط وقال: «وماذا ستفعل بها يا ولد؟!». قلت: «سأضعها فى دفتر التوفير» لكزنى فى جنبى قائلا: «توفير ماذا يا عبيط! هاتها أشترى لك بها ماشية نربيها ونبيع ولدها ونأكل سمنها ولبنها!»..

تحلف اليمين والله ياخال أننى من فرحتى نطرت نفسى واقفا وصرت أحضنه وأقبله لأنه افتكر هذه الفكرة، قلت فى فرحة: «والله لأفعلن!». بالمصادفة كان الغد يوم سوق فى «صدفة» وهى بلدة سوقها كبير، فذهبنا إليه من الفجر واشترينا خمسة رءوس صبية ورأسين وراءهما عجلين واشترينا حوالى عشرة رءوس من الغنم وحماراً ينتفع به «هليل» فى خدمة هذه الرءوس وأستخدمه عند وجودى فى البلد.

قلت: «يا هليل يا خوى أنت عليك التربية والتسمين وأنا علىّ أن أقتسم الربح معك بالنصف وتبقى البهيمة الأصلية ملكى أنا وحدى!». قال: «ياجدع فضك من هذا الكلام فلا فرق بيننا! وسأبعث لأمك بنصيبك من الألبان كل يوم بيومه وسأكون حارسا لك على هذه الأمانة حتى يأذن الله لك بالاستقرار النهائى!». لحظتها رن هذا الكلام فى دماغى فقلت لنفسى: صحيح يا ولد لماذا لا تستقر الآن فى البلد وتبعد عن وجع الدماغ مادام أن الله قد أكرمك بدار أبهة وبهائم وأغنام تعيش من وراءها؟! إنه لا ينقصك الآن سوى البنت «حنة» فأين هى الآن يا ترى؟! لكن هذا الكلام حين أدرته فى دماغى عصلج وأتعبنى ولم يدر بالمضبوط، فعرفت أننى غير مرحب بالبقاء فى البلدة على الأقل،

فالخفراء والعمدة هنا سيجعلوننى سلوتهم وكلما وقع فى البلدة حادث يجرونني إلى دوار العمدة، ولابد أنهم يطقسون حول بنائى للدار بالبتن، وحول رأسمالى من الماشية الذى لابد سيظهر، سيقول الجميع: من أين له هذا وهو كحيت لا هنا ولا هناك؟! . .

اقتنعت أن ابتعادى عن وجوههم سينسيهم أمرى وسيتركوننى فى حالى، وعرفت كذلك أن حياة المدينة قد سحرتنى وفتّحت مخى وفيها متسع كبير لأن يسرق الجميع الجميع، ولما كان من المستحيل أن تقبض الحكومة على الجميع فإن الجميع يعمى عينه عن الجميع «ويطرمخ» عليه، والأمور ماشية بالتكال. ثم إننى انقضضت على الحشيش كالشهوان يشرب فى آخر زاده، ونفسى تطلب الحلاوة الطحينية. ضحك «هليل» قائلا: «أنت الآن لست على بعضك فما الأمر؟». وبرقت فى عينيه نظرة خبيثة شقية، فتجاهلتها قائلا: «لا شيء! لا شيء». قال فى خبث: يعنى ليس وراءك أى مشاوير الليلة؟!». ضحكت رغما عنى وترددت، خفت إن قلت لا، أن يبقى معى ويعطلنى، إذ إننى ورائى مشوار بالفعل. نظرت فى عينى «هليل» ثانية فوجدت فيهما كلاما وحديثا، وقال: «ألم تشبع فى مصر من هذه الشغلة؟». انفجرت ضاحكا، وتذكرت أن «هليل» يعرف أننى الليلة على موعد مع «كاملة» حيث إنه شاهدنى وأنا أكلمها، وسمعها وهى تتواعد معى أثناء وقوفنا فى السوق على جنب.

«كاملة» هذه يابوى امرأة فاتنة تلهى الشيخ عن صلاته لو مرت صورتها فى دماغه أثناء الصلاة. هى مشهورة فى البلدة كلها بالجمال والدلال وحسن الوصال. وربما كان فى البلدة أجمل منها، ولكن الفقر

وحده هو الذى أبرز جمال «كاملة» للجميع، فليس عندها سوى جلباب واحد ممزق عند صدرها فيظهر نهداها مثل شهدتين من كوز العسل يتمنى المرء أن يقرمهما بأسنانه حتى يشبع. الجلباب ضيق من الوسط من كثرة ما خيطت رقعه، فظهر لها خصر نحيل وكفل مثل كثيب تحت قضيب، وقد قصر الجلباب من كثرة ما تآكل ذيله، فظهرت سمانة قدميها مثل سوة فتاة صبية، ومنديلها أبو أوية متآكل وهى مهملة، فشعرها دائما مطروح على ظهرها فاحما كظل صفصافة على قضيب القطار. أما وجهها ياخال فمثل رغيف الخبز العلامة الخارج لتوه من الفرن مورداً يبك الدم، فيه عينان واسعتان كعينى البقرة مكحولتان كحلا طبيعيا، لا ينظر فيهما مخلوق إلا ويتوه ويتأكد أنها بحر يطلب الرى من ماء الحياة بغير حدود..

هذا الجمال كله يابوى متزوج من رجل هلف مسن، لا شخصية له ولا وقار، اسمه «سعداوى» يعمل سقاء! بالسنوية، يحمل القربة على ظهره يملؤها من النيل يلف بها على البيوت يفرغها فى الأزيار حتى تمتلئ، فى مقابل حزمة قمح أو برسيم أو بضعة كيزان من الذرة أو حفنة قطن يأخذها عند الحصاد، أو لا يأخذها لا يهم. هو ضعيف مثل كلب جربان فى حى غريب. أنت وغيرك يشخط فيه ويضربه بكف اليد على وجهه فلا يرد ولا يفعل شيئا أكثر من الجعجعة والبرطمة، وينتهى الأمر عند هذا الحد.

ولا أحد يعرف كيف تزوج هذا الجرو العجوز من هذه الحورية الطرية الشهية، لكنها عجائب الزمن وما أكثرها فى بلادنا يا خال. غير أن الجميع يثق ثقة كبيرة فى أن هذه المرأة المسكينة غير شبعانة من ناحية

الجماع، وبعضهم يطمع فيها ويستغفر الله له ولولاياه، وبعضهم يأتيها فى السر، وكل مار من أمام دارهم ـ إن كانَ من حى آخر ـ لابد أن يكون قادما لـ «كاملة» أو من عندها. وهى تسكن مع زوجها «سعداوى» فى دار فى نهاية حارة ضيقة مستطيلة. ومن حسن الحظ أن الدار المجاورة لها مباشرة يسكن فيها رجل من عائلة طيبة اسمه «خربوش»، كان يسرح فى الليل لاصطياد رزقه وتلقيطه من غيطان الناس. وكنت كثيرا ما أضبطه فأساعده ولا أفتن عليه أبدًا، كنت أيضا أحب شرب الشاى معه فى داره كلما عزمنى لكى أتفرج ـ فقط ـ على هذه الحورية الضالة.

إلى أن مَنَّ الله علىّ بمقابلتها وحدى فى السوق تشترى حاجات لناس طيبين تخدم عندهم، فأخذتها على جنب وعرضت عليها الخدمات وقلت: «أنا طالب القرب!»، فقالت: «يا مرحبا!». قلت: «أين؟!». قالت: «أنا لا أخرج من دارى! ولا أعرف مكانا! فإن كنت تقدر على المجىء لى فى الدار فتعال!». قلت: «وزوجك؟!». قالت: «سيكون نائما بجوارى ولن يحس بشىء». قلت مشوحا: «فإن أحس أخذته بالبونية على بوزه أخمد لك أنفاسه!». فجلجلت ضحكتها ولكزتنى فى صدرى. قلت: «يعنى هل أجىء الليلة؟!». قالت فى دل: «تقدر؟!». قلت: «طبعًا». قالت: «خلاص! تنط من الجدار تجدنا فى حوش الدار نائمين على الحصيرة! فتنام بجوارى تحت الغطاء! وأنا أنام دائما فى الطرف اليمين والباب فى ظهرك!». قلت وأنا منتصب القامات: «والله لأجيئن الليلة فانتظرينى بعد نصف الليل!». فهزت رأسها موافقة ومضت، ومضيت، ولكنى أيقنت أن ولدانا

كثيرين من حارتها رأونا نتواعد، وواجهونى بنظرات مسمومة، بل وتحسسوا شواربهم متوعدين، علامة على أننى لن أنجح فى الوصول إليها طالما شواربهم هذه قائمة فى وجوههم، وعرفت أنهم سيرابطون لى طول الليل حتى يمنعونى، فصممت على أن أفعل مهما كان الأمر.

قلت لـ «هليّل» وأنا أشفط آخر نفس فى الحجر «الحوحو» ـ أى الأخير ـ: «يكفى هذا فقط صرت على سنجة عشرة!». زغدنى فى جنبى وقال بلهجة ذات معنى: «لماذا لا تخزى الشيطان وتمضى معى إلى الدار فتنام فى أمان الله؟!». قلت: «شوف» يا هليل ياخوى! لو لم يكن ولاد حارتها رأونى وتحسسوا شواربهم كنت سمعت كلامك الآن وجئت معك من سكات! أما وقد برموا لى فى شواربهم فإننى لابد لى الليلة أن أحيكهم جميعا! أعرف أنهم الآن ينتظروننى على رأس الحارة! وسأدعهم ينتظروننى هكذا حتى الصباح فيما أكون راكبًا أنهى مهمتى بسلام!». قال «هليل» وهو ينظر فى وجهى باستخفاف: «كيف يابوى؟ ولد فتوات أنت؟ أم لعلك ولد عفاريت؟!». قلت: «سترى فى الصبح!». قال وهو يدارى وجهه بكفيه من شدة الضحك: «مادمت قلت هذا فغالب ظنى أنك لن تجىء بها البر يا حسن! تظن نفسك خولى الجنينة لكى تظفر بالغنوة على كل لسان؟ اخز الشيطان يا حسن فالغنوة تقصد حسنا آخر غيرك هو خولى الجنينة بتاع زمان!»..

تغيظت منه والله يابوى، وصرت موشكا على الغلط فى حقه، لولا وثوقى من حبه لى، ووجدت أن خير الكلام ما قل ودل على رأى ذلك الصحافى المشهور الذى لا أعرف اسمه، فنهضت واقفا وقلت لهليل: «سأنام فى دارى هذه الليلة وفى الصبح أجىء لأفطر معك». قال

هليل : «مادمنا فى دارك فسأنتظرك هنا فوق هذه الكنبة حتى تخلص من مهمتك المجنونة وتعود!» . قلت : «أهكذا رأيت؟» . قال : «دعنى أكون أول من يفك بوش هذا الكنب لأجربه لك فى النوم!» . قلت : «يزيده شرف! ولكن احذر أن تفعل فوقه شيئا على حس المهمة التى أنا ذاهب لأدائها الآن!» . ضحك حتى استوى جالسا فوق الكنبة وقال : «وهل أنا متأكد أنك ستقوم بها حتى أبنى عليها؟» أوشك الغيظ يركبنى ركوبا تاما ، فلم أضحك معه ، إنما رأيتنى أقول له بضيق : «أنت إذن تشك فى رجوليتى يا هليل؟!» . فشوح قائلا وهو يعود للتمدد على الكنبة : «اذهب! اذهب! كان الله فى عونك!» . .

وذهبت ياخال .

ثالثة ـ خطبة الوداع

الحارة محتجبة وراء خرطة نخيل كبيرة. من يقف فى قلب النخيل ويرسل البصر بالطول يستطيع رؤية الحارة على طولها، ويرى كل من يدخل ويخرج منها أو يولى ناحيتها، يرى الحارة بابًا بابًا. وكنت قادراً على الوصول إلى الحارة من دارنا بفركة كعب، غير أننى فى هذه الحالة لابد أن أمر على الولاد الساهرين فى انتظارى، فيحصل الاحتكاك بينى وبينهم، فتجىء المسألة غير ظريفة من بدايتها ثم إن هدفى شىء آخر غير العراك. ولهذا لففت لفة كبيرة من وراء البلدة حتى سقطت داخل النخيل مباشرة وجعلت أترقب الولاد من بعيد فى جوف الظلام. النخيل كثير يابوى، وكثيف، يطرح فوقى ظلاما على ظلام، لكننى بعون الله رقدت فى مطرحى مداريا جسدى فى جذع نخلة كأننى مجرد انتفاخ فى الجذع، وأرسلت بريق عينى إلى مساحة من الشارع العمومى المحاذى للنخيل حيث تسقط منه الحارة إلى الداخل، فرأيت أربعة ولدان شداد يتملكون نواصى النخيل، واثنين من اليمين وآخرين من الشمال، يتوقعون قدومى من جوف النخيل لأسقط مباشرة على الحارة.

كان «مختار عريبى» الولد الصايع «ساكن» أول دار فى هذه الحارة قد فرش جوالا على مدخل الحارة بالعرض ونام متغطيا بجوال آخر كاشفا دماغه. وحين وصلت كان الأربعة يتكلمون مع «مختار عريبى» كلاما لا أتبينه، لبعد المسافة بينى وبينهم، فكان الكلام يضيع كله فى حفيف النخيل مكثت متقرفصا ألف السجائر وأشعلها من بعضها، مداريا شعلتها عند الجذب بكفى المضمومة. مضى حوالى نصف الساعة، كف بعدها صوت «مختار عريبى»، وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم إلا بشخير النوم. إننى أعرف أصواتهم جميعا، ومن أصواتهم أعرف أنهم الولد «صابر» والولد «زيدان» والولد «سماعين» والولد «شحتة»، وهم كلهم عيال تملية لكنهم أشداء، لو هاجموا فى بلدة لأخمدوها..

مضى نصف ساعة آخر، كف بعدها صوت الولد «صابر» وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم، فبقى الثلاثة يتكلمون ويضحكون ويتثاءبون، وبعد حوالى عشر دقائق كفوا عن الكلام تماما، فارتفع صوت نقيق الضفادع يقول يا أرض اشتدّى ما فوقك قدى، أما قلبى فصار يدق بصوت أعلى من صوت النقيق، إذ فكرت فى القيام، والاقتراب أكثر من الحارة. كنت مشمرا ذيل جلبابى، لكى لا يصدر عنه وشيش ينبههم إلى وجودى، ولم أكن أمشى، بل كنت أمد ساقى على وسعها، حتى تستقر قدمى على الأرض، فأنقل الساق الأخرى، وبعد برهة أمدها نفس المدة، حتى صرت على مرمى حجر من الحارة، فتقرفصت، فارشا عينى على الأرض، حتى ميزت أشباح الولاد، متمددة فى أماكنها المتباعدة، وكانت أنفاسهم قد راحت تنتظم، ويتصاعد شخير

مجلجل، ووضح أنهم قد استغرقوا فى النوم، ما عدا «شحتة» الذى كان فى آخر حدود النخيل، حيث نادى عليهم واحدًا واحدًا فلم يرد أحد، فتمدد وتقلب، معطيا وجهه للنخيل . .

زحفت متقرفصا، شيئا فشيئا، حتى صرت بين «زيدان» و«سماعين» الراقدين، لا يفصلنى عن كل منهما سوى بضعة أذرع من اليمين ومن الشمال. بقيت هكذا برهة، ثم خشيت ـ أى والله يا خال ـ أن يسمعوا دقات قلبى من شدة علو صوتها، فنهضت واقفا، وعلى أطراف أصابعى قفزت، وهى القفزة. كنت أقدر على أن أدوس بقدمى فوق صدر «مختار عريبى» الراقد يسد الحارة بجسده، لكننى تخطيته، فلما صرت فى الحارة خفت فجأة من فكرة الحصار، فارتددت مذعورا، وخطوت من فوق جسد «مختار عريبى» إلى الشارع العمومى، ووقفت مكانى أرتعش ناظرا هنا وهناك، فلم أر شيئا أو شبحًا، فعدت وخطوت فوق جسد «مختار عريبى» ثانية، ومشيت فى قلب الحارة على أطراف أصابعى، حتى داريت نفسى فى صدغ باب بارز مجاور لباب «كاملة»، أمسكت فى صدغه هذا، وشبطت فى طوب الجدار دافعا نفسى إلى أعلى، فتمكنت ساقى اليسرى من الاشتباك بطوب الجدار، حتى استويت بكلى فوقه، واعتدلت، ورميت بنفسى فى حوش الدار على أطراف أصابع قدمى.

هدأت دقات قلبى لما رأيت أننى قد نجحت فى الوصول. ولما لمحت الأجساد متمددة فوق الحصيرة مغطاة بالبطانية قلت لنفسى: صبرت ونلت يا حسن. تذكرت قول «كاملة» بأنها تنام فى الطرف الأيمن. هى إذن التى تنام على مقربة منى. وا . . ه . . يابوى واه . . خطوة واحدة

وأصير فى حضنها، لكن يجب أن أنتظر برهة، فربما يكون زوجها أو ابنها صاحيا. بقيت متقرفصا فى مكانى يابوى، كاتما أنفاسى، حتى تأكدت أنهم جميعا فى أحلى نومة يأكلون الأرز باللبن مع الملائكة. كل الأمور عال العال يا بوى، وآخر تمام، واه واه من وساخة النحس يابوى. الولية يابوى لم تكن تعرف أن عمتها أخت زوجها ستتعارك مع زوجها فى هذه الليلة بالذات، وستغضب وتجيء لتبيت عند أخيها «سعداوى» السقاء. والولية ـ كاملة يعنى ـ لم تقدر على أن تبعث لى مرسالا يبلغنى بما حصل، فسلمت أمرها لله، ورقدت بجوار زوجها كالعادة، وجاءت عمتها هذه فرقدت بجوارها فى الطرف الأيمن. وجئت أنا بسلامتى وتمددت بجوارها متسللا تحت البطانية، فلفحنى ريح غريب ليس هو ريح «كاملة» ولا عطرها. قلت لنفسى: لعله ريح النوم، ومددت ذراعى وجعلت أحتضنها، فإذا بالولية تنتفض مذعورة وتملأ الليل صراخا مجنونا، وإذا بالقيامة تقوم، صاحت الأصوات الغامضة فى كل مكان. ونبحت عشرات الكلاب الشرسة المربوطة خلف الأبواب، وملأت الدنيا رئيطا، وتيقظ كل الرجال فى كل الحوارى، وصارت الأصوات تتجمع أمام باب الدار والنبابيت تدق فوق الباب طالبة تسليمى لتقطيع جثتى، و«سعداوى» السقاء من شدة هوله وذهوله صار يشتم فيهم: «يا ناس حرام عليكم! يا أنجاس يا كفرة! أنتم تنطون علىَّ فى دارى! إنى سأشكوكم للعمدة الليلة قبل الغد!» أما أنا يابوى فقد صرت كالفأر فى المصيدة أبحث عن خرم إبرة أخرج منه، والكلاب جوار الباب تفزع، تريد نزع نفسها بالقوة من سلاسلها للانقضاض فوق رائحتى، إذ أنا متكور على نفسى فى ركن قصى مظلم، إلى أن لاح الخلاص كشمس الصباح بعد برهة قصيرة،

كأننى سقطت خلالها فى فوهة قبر وخرجت منه فى الحال. . ذلك أننى رأيت كـومـة من تراب هديم بجـوارى، فـأدركت فى الحـال أننى لو تسلقتها صرت بقفزة واحدة فى دار صاحبى «خربوش». .

واه يابوى على فرحتى لحظتذاك. من كثرة اللذة بالراحة تلكأت فى التنفيذ، حيث رقدت على بطنى، وصرت أزحف كالثعبان فوق كثيب التراب، حتى صرت على سن الجدار، فاعتدلت، وقفزت ساقطا فى قلب دار صـاحبى «خـربوش»، بجوار فـراشه بالضبط، إذ هو يفرش وينام فى الحوش بجوار هذا الجدار، تحسبا لفعل كهذا من أولاد الحرام الذين ينطون على «كـاملة» فى دارها. وقـد تعـود أن يربط السكين الكبيرة على زنده ملفوفة فى جراب وأربطة بحيث يسهل نزعها عند اللزوم، وإعادتها إلى وضعها فى لمح البصر. .

انتـفض «خـربوش» قـاعـدا، ويده على زنده تنزع السكين فيـمـا يصـيـح: «ليلتك أسـود من شـعـر رأسك يا بوديل نجس!»، وهم بالانقضاض علىّ، لولا أن صحت فيه بسرعة لاهثة: «أنا حسن ولد أبو ضب يا عم خربوش!». أعاد السكين وتلقانى بالحضن: «يخرب بيتك يا حسن! كنت عند كاملة؟!». قلت: «إن الله حليم ستار!». قال باسما: «طب اجلس! نم بجوارى ولا تفتح فمك!». .

تكرمشت بجواره مثل الكتكوت العريان تحت وابل من المطر، فصار يهدؤنى ويكتم ضحكه قائلا فى همس: «تعمل سبعا ثم تكتكت! يا لصغر الرجال!» فحاولت التمدد، والإيهام بأننى سأتهور بفعل مجنون. تحلف اليمين أنه كان يعرف أفكارى، فضغط على كتفى قائلا بسخرية: «اعقل يا مجنون! وإلا دشدشت النبابيت رأسك الناشف ذا!

هو لا يستحق الدشدشة أى نعم! ولكنه صالح لها من كثرة نشفانه هذا! ثانى مرة تبقى تسقيه شيئا من ماء العقل حتى يلين! والآن اسكت حتى نعرف ماذا يحصل فى الحارة . .

بقينا منصتين وقتا طويلا، وهياج الرجال يزداد حدة، ويتسع ثم يتلاشى قليلا ثم يعود أكثر حدة فيتسع كأن الكون كله يشارك فيه، واسمى يتردد من حين إلى حين، ولكن صوت العقل كان يبزغ وسط الضجيج قائلا: «ياجماعة لا تظلموا الجدع ولا تظلموا أحدًا مادام لم يخرج من الدار أحد!». فيجاوبه صوت التكبر قائلا: «إن الفاجرة تحتجزه بالداخل حتى الصباح خوفا من الفضيحة!»، وتعلو نتفة بعيدة من نفس الصوت: «الفضيحة حدثت وانتهى الأمر». . تعلو نتفة أخرى: «تحتجز عشيقها خوفا عليه من القتل!»، فيعلو الهياج من جديد وتنبرى النبابيت تدق فوق الباب طالبة ذلك النجس الذى بالداخل، فيجاوبهم صوت «سعداوى» باللعن والصراخ والبكاء والتهديد بالعمدة.

ثم سمعنا باب داره ينفتح على مصراعيه، وصوت «سعداوى» يصرخ، لأول مرة فى حياتى أراه يصرخ ويتنحرر كالرجال، بل إن صوته كان جهيرا مليئا بالرجولية والهيبة والوقار. فتعجبت والله ياخال غاية التعجب: كيف يخفى هذا الرجل هذا الكنز الذى فى صوته؟ وهو من قبيلة الباشوات والبكوات والعمد وملاك الدواير لكنه ضل طريقه، فبدلا من أن يضرب الناس بالكرباج ويمص دمهم، صارسقاء يزودهم بالماء صبح مساء، لقاء أجر مؤجل، والبلغة القديمة فوق رأسه. غير أن هذا كان من الأول يا «سعداوى»، وهيهات أن تستخدم صوتك وحده

فى صنع هيبتك، ثم إن اسمك «سعداوى» وليس هذا الصوت بالذى يليق على هذا الاسم، فأنت إذن هزأة مع احترامنا لصوتك المهيب هذا ولكلامك المنفعل هذا: «أيها الناس الجبناء دونكم دارى هذه فادخلوها وفتشوا فيها عن ذلك العشيق الذى تدعون وجوده! هاكم بابى مفتوح فادخلوا واهتكونى وانهشوا عرضى أكثر! قربوا أنيابكم من اللحم المسكين المستباح! يا كفرة يا من تدعون النخوة والشرف والدفاع عن العرض! قسما بالله ما أفعالكم هذه سوى الحصرم الذى تأكلونه فتضرسون! إنها الغيرة تأكل مؤخراتكم وأصرامك! كلكم تطمعون فى عرضى فتنطون علىّ فى قلب دارى! ولابد أن الله يصليكم بنار جهنم الحامية! فوضت فيكم أمرى إلى الله! حسبى الله ونعم الوكيل!». .

ثم سمعنا صوت الباب وهو يغلق، وصوت الكلاب يستلم الهواء. سكت الهياج شيئا فشيئا، وانسحب صوت العقل أسفا يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويستغفر عن سوء النوايا، وبقى صوت الحكمة واضحا، يبلغنا بلا حول ولا قوة إلا بالله، باكيا على فضح خلق الله، مبرراً الصراخ بأن الولية كبس عليها كابوس من كثرة ما تكلم الناس فى حقها ونهشوا فى عرضها، لقد باتت تحلم بأشباح تهجم عليها فى عز الليل. ثم إن هذا الصوت نفسه قد راح ينسحب هو الآخر مع امرأة عجوز كانت تصلى الفجر أمام دارها بين النخيل، وصار فى مقدورنا أن نعرف أن ما بقى من جمع الرجال قد صفصف على أبناء الحارة، وأن جمعهم قد اتجه زاحفا وهم يتكلون، بما يشبه الاعتذار مرة والتأكيد على وجودى مرات، حتى شحب صوتهم عند آخر دار فى الحارة، ثم اختفى تماما مرة واحدة، فعرفنا أنهم دخلوا دار «مختار عريبى» ليكملوا الكلام.

عندئذ نهض «خربوش» ومضى بخفة نحو الباب، فأزاح الضبة بهدوء من دون صوت، رغم أنها كبيرة وذات جرجرة، ثم وارب الباب قليلا ونظر فى الحارة، فتأكد من خلوها، فاندفع خارجا كالفهد العجوز بلا حفيف، بعد أن رد الباب خلفه وعاد بعد برهة قصيرة، فدفع الباب، وتسلل داخلا، وقال إنه خطف رجله لحد دار «مختار عريبى» وتأكد أنهم جميعا هناك، وأن «مختار عريبى» أشعل الوابور يصنع شايا. وسحبنى من يدى، فخرجنا وأغلقنا الباب. بخطوتين اثنتين صرنا فى الشارع العمومى، منه بقفزة واحدة صرنا فى قلب النخيل، نضرب بخطى سريعة، حتى لاح لنا الطريق الزراعى المحاذى للترعة فانسللنا من بين النخيل وامتطينا الطريق الزراعى، فانحرفنا مع المدخل الرئيسى للبلدة، فدخلناها فصرنا فى حكم القادمين من خارجها، من الحقول مثلا، أو من عند ماكينة المياه، التى كثيرا ما أخفرها أو يخفرها «خربوش» حتى لقد ارتبط اسم كل منا بها..

أخذنا نتلكأ فى السير، وندخن السجائر، ونتكلم، ونتبختر فى سيرنا، حتى وصلنا إلى الحارة بعد لفة طويلة، يتقدمنا ضوء الشروق الفتاح. «خربوش» رغم صياعته وشقاوته من عائلة كبيرة، وله أن يتحرك على راحته، ويفعل ما يحلو له، فلن يجد من يدوس له على طرف حتى لو ضبطه بسريقة. وهكذا أقبلنا على الحارة نتبختر، فوجدناهم جميعا قد خرجوا وتربعوا على مدخل الحارة، يتكلمون ويسعلون، وبعضهم يفلىّ نفسه وثيابه من القمل والبراغيث. وكان من الواضح أن حزنا شديدا وعميقا جدا يخيم

عليهم، والدموع لاتزال تنحدر من مآقيهم. وكانت دار «سعداوى» مفتوحة، وعلى بابها يقف ناس كثار، ، ومن داخلها يجيء صوت بكاء ونواح. صاح أحدهم لما رآنا، وبدا من صوته أنه يعمل حسابا لـ «خربوش» فحسب: «ياجماعة! يا جماعة! لقد ظلمنا حسن ولد أبى ضب! وها هو ذا قادم من عند ماكينة المياه! ياه! ياما فى السجون مظاليم!». .

فنظروا جميعا فينا، مبهوتين، وبدا عليهم الأسف الشديد، بل قل الخزى ياخال، مع ذلك كان فى عيونهم بريق خبيث، يحوم حولى بالشكوك، ويتحسسنى فى كل موضع، والأنوف تريد أن تقفز، وتسقط فى عبى، لتتشمم رائحة الخيانة تحت لباسى. وقال «خربوش»، كأنه لا يعرف شيئا مما حدث: ما الأمر يا رجال؟!». فحكوا له الأمر من طقطق لسلامو عليكم. حينئذ صاح «خربوش» مصفقا كفا على كف: «لا حول ولا قوة إلا بالله! الرجل معى من المغرب عند الماكينة وجاء يوصلنى فعزمت عليه بالشاى! أنتم والله ظلمة ولابد أن تستغفروا وتتأسفوا لحسن! هل هو وجه ذلك؟! إنه ابن ناس طيبين وأعمامه شيوخ سجادة فحرام عليكم، كل منكم يحمى نفسه وكفاه ذلك فضلا، بدلا من التعدى على حرمة الناس!». فصمتوا جميعا ولم يردوا، وعادت الدموع تنهمر من عيونهم، مع ارتفاع صوت النواح القادم من دار «سعداوى» السقاء زوج «كاملة»، فشوح «خربوش» نحو الدار قائلا: «ولكن ما هذا؟!»، فلم يردوا، وبعد برهة نطق أحدهم من خلال بكائه: «البقية فى حياتكم! سعداوى مات منذ ربع ساعة!!». .

مات؟!! وشهقنا معا كأن سهم الله نزل علينا. ولم أدر إلا وأنا أنفجر في البكاء وأستدير ماضيا نحو داري ومن خلفي «خربوش» يهدئ من بكائي تارة ويلعنني تارة أخرى. ولقد عزمت في هذه الصبحية المرخية أن أهج من البلدة قبل أن تصبح سيرتي على كل لسان تقابلني في كل مكان.

الرابعة ـ المساخيط إخوتى

وحق هـذه الليلة ومساها أن الـولد «بربش» كـاد يقع من طـوله لما أن فوجئ بى أهبط عليه كالقضاء المستعجل فى قطار الصعيد. مرتان يا«بربش» أضبطك فى قطار الصعيد صدفة؟! ألـم تقل إنك راحل إلى الإسكندرية لكى تتوه فيها من نفسك بعض الوقت؟ تكون الحكاية وردًا وفلاً إذا بان لى أنكم جميعا ستظهرون الآن فى قطار الصعيد كصدفة من غير تدبير، وفاتكم أن الصدفة نفسها تخلى بكم وتوقعكم فى المكشوف.

وصرت أضحك يابوى وأعزم عليه بالسجائر المكن وأشترى شيئا من كل مَنْ يمر حاملا شيئا يؤكل أو يشرب، وغرضى أن أخفف عن «بربش» هول المفاجأة، إذ راح ينظر لى فى بلادة طرية بعض الشىء عزوتها إلى كنكة حشيش يكون قد تجرعها ولن تشتغل بعد أو ربما كانت كاتمة عليه بعض الشىء، فأنا يابوى أعرف هذه الكتمة ومقروص منها كثيرا. وصرت أطلب له شايا ساخنا لزوم التسييح، وأرقبه وهو يأكل فى السيجارة أكلاً، فيما يرمقنى بشىء من الغباوة، فتفكرت قائلا لنفسى: لعل وراءه أمرًا يكدره هكذا، ولكن شيئا إلهيا ضرب فى

صدرى، قائلا إنه يتغابى علىّ، ظنا منه أننى كنت أتعقبه، فانبريت فى الحال شاكرا الله على هذا الفتح، ورحت أحكى لبربش حكايتى مع السفر من طقطق لسلامو عليكم، حتى إنه ابتسم هذه المرة عن حق، وجرع كوب الشاى فى لذة، وعزم علىّ بالسجائر المحشوة، وغمز لى بأن أجعل ذراعى بالسيجارة خارج شباك القطار، حتى تضيع رائحة الحشيش فى الغيطان، التى تجرى أمامنا وخلفنا. وقلت له: «ماذا يكدرك يا بربش؟ فمن واجبى أن أسأل عن أحوالك! وأنت قلت لنا إنك مسافر إلى الإسكندرية! فإن كانت فى الأمور أمور جدت على غير حساب فإن رقبتى سدادة كما تعرف! وإن لم تكن وثقت فىّ بعد فيمكنك أن تعرف الآن رجولية أخيك الجالس أمامك! ماذا وإلا فأنت تتكدر فى وجهى بالعنية! ومحسوبك ليس بالذى يتكدر فى وجهه أحد يابربش يا خوى! أنا لست تلقيحة بل إننى فى المحطة القادمة سأنزل تاركا لك القطار كله مضحيا بتذكرة جديدة فى قطار آخر!».

عليها وضحك العكروت، تحلف اليمين إنه فاق من سكرة غاشية إلى صحوة رائقة. حضننى وطلب لى شايا، ودعبس فى جيبه فأخرج منه شيئا مثل «الشكلاطة»، فقضم منه قطعة كبيرة غمزنى بها، فما إن قربتها من أنفى حتى زكمتنى كرفة الحشيش الزاعقة، فطوحت بها فى فمى متلمظا، حتى ذابت فى لمح البصر، وملأت فمى بنكهة الحشيش بالشكلاطة، لاذعة، تجلد الأنف وسقف الحلق، وصرت ألح فى طلب الشاى وإشعال السجائر؛ وصار الهواء يلفح «قناعية» رأسى بغزارة، كأنه دش المياه فى الحمام الذى لم أعرفه بعد، فإن هى إلا محطة أو محطتان، حتى انخلعت دماغى عن رأسى، وطارت؛

وصرت لا أستطيع اللحاق بها؛ فصرت أضحك على الفاضى والمليان؛ وأشقى فى استبيان بعض كلام يحكيه «بربش» عن مشواره المفاجئ للصعيد، حيث بعث له «الحاج السنى» مرسالا فى عز الليل «يقع فى عرضه» أن يذهب إلى هذا المشوار يستقضى فيه أمانة من طرف أحد أعيان الصعيد الجوانى، لكى يعود بها للحاج السنى، أهو مشوار فيه لقمة طرية، والخائب من يرد رزقا جاءه لحد عنده..

وكان دماغى يتعب من الرمح فى الريح، فيرد إلى ويلتبس مكانه من رأسى؛ فأفيق لبرهة، فاسأل «بربش» ما عساها تكون هذه الأمانة يا ترى؟ فيقول إنها مجرد قرشين، شىء إلهى قال إن هذا البربش يكذب على، ويسرح بى، يريد أن يأكل بعقلى حلاوة، لكننى نسيته، ومضيت أضحك، وأحكى حكايات مضحكة، وهو يضحك لضحكى، ويحكى هو الآخر حكايات مضحكة، لكننى لا أذكر شيئا مما دار غير الضحك، فلما فوجئت بالركاب كلهم وقوفا نهضت واقفا مثلهم؛ ورأيت المدينة تقذف بنفسها شيئا فشيئا، فى أحضاننا؛ إلى أن صرنا فى رحمها، بين رصيفين تحدهما البنايات من كل مكان، فصرنا ندفع بعضنا بعضا للوصول إلى باب القطار، وقد ارتفع الزئيط فجأة، وصرنا كما يوم القيامة بالضبط، ومع ذلك انتبهت، فإذا «بربش» يسحب عن الرف حقيبة كبيرة، بدت للأعمى، وهو يسحبها ثقيلة ثقلا ينوء بحمله حمار. قلت: «هات يا بربش أحملها لك» فأخر ذراعه بها فى تصميم أكيد قائلا: «لا! لا! إنها خفيفة فخل عنك أنت!» وكانت الحقيبة تأخذ كتفه وتنزل به إلى الأرض؛ فأقسمت يمينا أحاسب عليه فى نار جهنم، أن هذه الحقيبة مملوءة بالمساخيط والأحجار المنقوشة مما

يســمــونه بالأثريات، تلك التى تلدهـا بطن الأرض فى الصـعـيـد بلا حسـاب يا خـال، مـخى ناشف كـمـا تعلم؛ لهـذا تلكأت فى النزول، تحككت ساقى بجسم الحقيبة، وتأثرت بملمس الحجر، ورائحة بطن الأرض كرائحة بطن الأم، يحملها الوليد ولو كان حجرا أصم. .

الله وكـيل يابوى، لقـد شـعـرت والله بحـقـد شـديد على «الحـاج السنى» وعلى «بربش» معا؛ وحقدت على نفسى كذلك والله يابوى؛ كرهتها، لشدة خيبتها، وتحركت الدماء فى قلبى، وقلت لنفسى: كيف يتاجر أبناء الزوانى فى إخوتى وأنا واقف أتفرج؟! . . نعم! نعم! فإن هذه المسـاخـيط، وهـذه الأحـجـار المنقـوشـة بالذهـب، هى إخـوتى، ولدتهم بطن أرض الصـعـيـد، كـمـا ولدتنى، فكيف ينزعـهـا أولاد المخاريق ويبيعونها بالذهب، وأبقى أنا خادمًا لهم على طول الزمان؟! هذه الأرض والله لم تعرف العدل طول حياتها؛ لا تعرف إلا النصب والاحتيال به علينا فقط؛ مدارسها تعلم لنا العدل دروسا نسمعها ولا نرى منه شيئا فى الحيـاة، مخروقة أم كل من يتفحلس ويكلمنى عن العدل، والحق، والضمير والذمة، وكل هذا الكلام الفارغ، الذى نأكل به الأونطة، وغيرنا يأكل الشهد المصفى! .

لم أكن أدرك لحظتذاك والله ياخـال، أننى وضعت «الحـاج السنى» فى رأسى وقلت إننى لابد أن أجىء بداغه فى يوم قريب.

الخامسة ـ البساط الأحمدى

ما إن خرجنا من محطة الجيزة حتى بان لى أن «بربش» يريد أن ينسلت وحده؛ بل إنه وقف مادا يده قائلا: «أفوتك بعافية» قلت بلهجة ذات معنى: «وماله!» وعانقت يدى يده، تجاهل غمزتى وقال: «ربما أشوفك الليلة فى القهوة! وربما لا! حسب الظروف!» هززت رأسى قائلا فى عشم: «وماله برضه! ربنا معاك ياولد!» . . وتركته ومضيت.

وليت وجهى نحو دار «هندى» فى حوارى فم الخليج. فلما وصلت ضربت الجرس كثيرا، فلم يرد أحد؛ فأبقيت أصبعى فوق الزرار مدة كبيرة، وصوت الجرس يزعق ويجلجل فى قلب الحجرة، ويسمعه الرائح والجائى . . فعرفت أن «هندى» يشوف حاله فى الشوارع؛ فوليت نحو «قهوة صفصف» وقد شعرت أننى خرمان، ونفسى تطلب الشاى والدخان، الله وكيل يابوى؛ عينى ونيتى كانتا على «قهوة صفصف»؛ لكننى وجدت نفسى أمشى بحذاء شادر «الحاج السنى» دون أن أدرى؛ مع أننى والله يابوى ما فكرت فى الذهاب إليه ولا خطر فى بالى أن أمر من جواره؛ وحتى لم أكن أدرى أننى أمر بجوار الشادر أصلا؛ لكننى لحظتها وجدت نفسى واقفا فى الخلاء الفسيح بعد

انفلاتى من الحوارى الضيقة الملولبة؛ والنور الساطع كان يغمر الخلاء ويدهنه بلون صفار البيض، ودماغى غير موجودة على كتفى يابوى، تحلف اليمين أننى ما كنت أجد لها أثرا على كتفى، وإلا كنت تفطنت إلى أننى فى رحاب جامع عمرو بن العاص، الذى أعرفه ويعرفنى حق المعرفة، كان الظن لحظتها أننى نسيت دماغى تائها فى الهو الشديد، فى الحقول التى اخترقها القطار؛ وعجبت كيف استطعت الوصول إلى هذا المكان بدون دماغى! وسألت نفسى لبرهة سريعة: أين كنت قبل هذه اللحظة مباشرة؟ فما ظفرت بجواب؛ وبقيت حائرا لوقت طويل كأن طائرة «هالوكبتر» رمتنى من السماء على هذا المكان وولت! حتى قباب جامع عمرو كانت مزهزهة على غير العادة، مطلية بالغموض، تذكرنى بأننى رأيت مثلها ذات يوم، غير أننى لا أذكر أين ونظرت فوجدت أمامى طريقًا يمتد فيه النور إلى ما لانهاية، وبجوارى طريق يتقطع فيه النور بعد بضعة أمتار، حيث يختفى بصيص الفوانيس فى هضاب من الظلمة مدببة، تشبه سنام الجمل، سرعان ما فطنت إلى أنها القرافة، وأن هذا الرصيف هو نفسه الذى يقع عليه شادر «الحاج السنى»، ذلك الشادر الذى مررت بجواره عدة مرات، وفى كل مرة أتصور أن مأتما كان مقاما هاهنا وانفض؛ وتبعا لذلك فلابد أننا الآن فى منتصف الليل؛ إلا وصوت الأذان ينطلق من فوق مئذنة جامع عمرو، فاستهدت أذنى صوت المؤذن فتعرفت عليه ولكن كأنه الحلم، ورأيت الحركة تدب فجأة والناس يهرولون نحو الجامع، وولدان يجرون بطاولات العيش؛ فلما حاذيت الشادر، ونظرت الدور المجاورة له، ووجدتها صاحية وصوت الراديو والتلفزيون يعلو فيها على كل الأصوات، تفطنت إلى أن الأذان هو أذان العشاء؛ وتفطنت إلى أن

الذى يفعل لى كل هذه الأفاعيل هو قطعة «الشكلاطة» بالحشيش التى أعطاها لى «بربش»، فصرت أضحك وأتطوح كالسكران، وألعن أبا خاشة، وإذا بصوت ضحكات عالية تنطلق من وراء ظهرى، فتفزعنى فأتلفت حولى مرعوبا وكركرة الضحك مستمرة، بربشت بعينى فى الضاحكين، فوجدت أنهما «بربش» والخفير، وقال «بربش» وهو يخرج من ظلمة الشادر ليسندنى: «مالك يا متنيل على عينك! رايح فين؟» قلت: «منك لله يابربش يا مفترى! أنت الذى فعلت بى كل هذه اللخبطة!» قال: «كنت تمشى ورائى؟!» قلت: «أبدا والله! إنما كنت أسأل عن هندى فى داره فلم أجده! فقلت أذهب إلى القهوة أنتظرك حتى تجىء! فلم أدر إلا وأنا ماشى من هنا غصبا عنى! وها أنذا كما ترانى تلخبط غزلى والسبب أنت» . .

والعكروت يضحك ويتمايل ويتطوح من شدة الضحك، والخفير هو الآخر يحفر فى الأرض من الضحك؛ حتى تعبت من الوقفة ومن الضحك، فتقرفصت على الأرض، وأشعلت سيجارة، ثم تذكرت، فوزعت عليهم السجائر؛ وحلفت بالله أن الخفير يكون جدعا بحق وحقيق لو عمل كوب شاى ينوبه ثواب، الخفير ماصدق أن سمع الكلمة ونهض قائلا: «دانا حتى عايز أشرب شاى! وأنت كمان يابو على خيرك علينا لسه فيه منه عندنا!» ودخل يعمل الشاى وبقيت شارداً فى ملكوت الله وحدى، و«بربش» يضحك ويعاكسنى بحصو من الطوب يرميه بجوارى حتى أفزع وأخاف؛ إلى أن جاء الخفير بالشاى فقبضت على الكوب بيدى، وشفطت منه شفطات ساخنة وراء بعضها فى لذة كبيرة، حتى شعرت بأن عينى صحت من النوم ومن الغشلقة،

فصرت أتكلم بوعى، وفى انبساط لا مثيل له، فى أمور كثيرة نسيتها؛ لكن «بربش» والخفير كانا يصيحان بين وقت وآخر قائلين: «ياسلااام.. يا سلام على الحكم والكلام اللى زى العسل!»..

وفيما أنا مندمج فى الكلام الذى هو مثل العسل، مادريت إلا وأنا واقف أواصل الكلام والكوب فى يدى، وأنا أشوح وأمثل، وأهرج؛ وإذ بـ «بالحاج السنى» مقبلاً من الجامع بين جمع من الأفندية المحترمين يتكلمون فى حديث نبوى شريف يقول: «تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ونسبها» ولا أدرى لماذا أيضا، وكان بعض الأفندية يشير بأصبعه فى نفى وتصميم قائلا: إنه حديث مدخول، والحاج السنى يقسم أنه صحيح وأنه قرأه فى البخارى ومسلم عن عن، وصار يرص أسماء مثل قلاقيل الطوب كأنه ألفها من دماغه، والأفندية يصلون عليهم طالبين رضا الله عنهم وعنهم أجمعين، مما يؤكد أنهم يعرفون هذه الأسماء، مع أننى لم أسمع بهم قط فى دار عمى الفقيه الكبير؛ ولكن، ليس كل من يستحق الصلاة على النبى ينالها.

صرنا جميعا وقوفا فى استقبالهم، صامتين، إلى أن يفرغوا من الكلام، فتقدمهم «الحاج السنى» قائلا: «تفضلوا»، فمشوا وراءه فى صمت؛ وإذا هو يتأملنى برهة ويقول: «الواد حسن أبو على! إيه اللى جابك دلوقت يا عكروت؟ جئت فى وقتك والله! تعال! تعال!»، وسحبنى من أذنى قائلا: «تعال ورائى! فلك الليلة عوز!» واستدار قائلا: «مع السلامة أنت يا بربش وتعال قابلنى هنا بعد باكر بعد صلاة العصر!» فقال «بربش» بصوت غير منبسط: «حاضر يا حاج»، ثم أضاف: «أشوفك الليلة يا حسن؟» قلت «ما أعرف» قال الحاج: «لا

تنتظره الليلة!» قلت لنفسى: «بشرة خير ياولد! جاءك الفتح على الطبطاب!» ومشيت خلفهم مانعا دماغى من التفكير فى الأمر الذى يطلبنى من أجله الحاج حتى تكون المفاجأة طيبة.

قلب الإنسان دليله يابوى، خاصة إذا كان إنسانا طيبا مثلى وعلى نياته، وقد دلنى قلبى على أن هؤلاء الذين يمشون أمامى مع الحاج، هم من علية القوم ذوى المهابة؛ إذ هم يتحركون صيغة أمر ونهى، حتى ولو لم يفعلوا غير الابتسام وحنى الرأس فى تهذيب، ولما صار قلبى يرتعش فجأة، ويدق فى صدرى كالطبل البلدى، فهمت أن هذا الدق بالذات لا يدوى إلا لحظة مصادمة الخطر الحقيقى الذى أصير فجأة فى قبضته، آه من هذا الدق يابوى، أعرفه جيدا يا بوى، عمره ما خاب أبدا فى أى إنذار وجهه لى بهذا الطبل الذى يهزنى، إنه يشبه النفير النحاسى والذى يجعر كالجاموسة، علامة على مجىء المآمير والضباط والناس الأبهة، وأيقنت أن الملامح التى رأيتها على وجوههم فى ضوء الشارع الشاحب، سبق أن رأيتها بنفسها مرة، بل مرات فى مكان بل أماكن كثيرة لست أدريها الآن بالضبط يابوى، لكننى أدرى ـ وقلبى دليلى ـ أن هذه الأجسام المهيبة بنظراتها وملامحها وابتساماتها وانحناءة رءوسها المهذبة مربوطة فى قلبى بالغلب والرعب والضياع، ومربوطة فى نفس الوقت من طرف مقابل بالله فى سماه مستويا على عرشه يرانى ويرى كل شىء ولابد أن يعذرنى ويقف فى صفى، وإلا فهل رأيت عمرك أبا يقف فى صف أعداء ولده مهما كان عاقًّا؟ هكذا يا بوى كلما دقت طبول قلبى أرعدتنى وفتحت مخى على عرش السماء، فى الحال أتمنى رؤيته لتقبيل أعتابه.

توكلت على الله ومضيت فتخطيت البوابة الصغيرة التى تتوسط البوابة الكبيرة، وغاصت قدمى فى السجاجيد من أول خطوة؛ حتى السلم عليه سجاجيد محندقة. قطعنا نفس الرحلة السابقة صعوداً وهبوطا ومروراً فى ردهات وممرات حتى صرنا فى غرفة البرج، حيث الشلت والبفات والحمير الخشبية المنجدة، فتحها الحاج وقال: «تفضلوا»، ثم إنه أردف قائلا: «أحضر لكم جلاليب خفيفة؟ يستحسن طبعا!» فحلفوا جميعا فى نفس واحد ألا يتعب نفسه؛ وشرعوا فى خلع أحذيتهم والجلوس على الشلت المريحة، متأوهين من فرط التلذذ. حينئذ طوقت عينى وجوههم واحدا واحدا؛ ومن واحد إلى واحد تنتقل الرعشة من قلبى على نغم الطبول إلى ساقى. فصرت فى وقفتى المتخشبة أرقص رقصة الفزع؛ رقصة الدجاجة بعد ذبحها؛ بل إننى صرخت فعلا يابوى، ولكن من قرصة دامية فى كتفى تقول إنها كلابات من الحديد يابوى؟! إذا بها أصبعى الحاج السنى وإذا به يريد أن يغمزنى مجرد غمز. هكذا قال وهو ينتفض من الضحك كطفل عابث جرىء، والضيوف يضحكون لضحكه ولفزعتى. أفيك كل هذه القوة الجسدية الجبارة يا مديوب؟ لابد أن يقيم المرء حسابا لهذا. ثم إنه غمزنى ثانية غمزة أخف قائلا: «خلى بالك مع هؤلاء الرجال على قدر ما تستطيع! هم حبايبى وإذا لم ينبسطوا سأقطع رقبتك!». قلت ـ مع أننى لم أعرف بعد كيف سأبسطهم يابوى: «رقبتى للبهوات! إن شاء الله يكونوا مبسطوين آخر انبساط!». فقال: «أريد أن أرى شهامة الصعايدة! هم بلدياتك على العموم!». ثم سحبنى قائلا: «عن إذنكم»؛ فمضيت تحت إبطه كنعجة منجذبة بأعواد خضراء.

عند آخر السطح من خلف البرج وحواليه بنايات منفصلة، لم أكن رأيتها فى المرة الأولى، إذ هى فى أسفل البرج، مشينا قليلاً فى مربع كبير مسقوف بألواح الزجاج الجملون كالهرم. نزلنا حوالى أربع درجات سلم، وكأننا نهبط داخل البرج نفسه لنحود بعد ذلك يمينا أو شمالا حسبما نهوى، حودنا يمينًا فيمينا؛ فإذا بنا فيما يشبه المطبخ، كل جدرانه بالزليزلى والقيشانى وفيها رفوف كبيرة من الرخام، ودواليب بيضاء، وثلاجات ومواقد وأفران؛ وفيه من خيرات الله مالذ وطاب، تحلف اليمين ولا معرض من معارض عمر أفندى وشركة بيع المصنوعات، أربعة رجال يلبسون الطراطير والجلاليب البيضاء، منهمكون فى غرف وشوى وقلى وتخريط وتوضيب وتصفيف، ورائحة الأكل تضرب فى الحجرة تقلبها.

فتح «الحاج السنى» بابًا أسفل رف رخامى؛ فكأن الحائط انفتحت بضلفتين، حاجة تهوس يا بوى؛ وإذ الفتحة مليئة بعشرات الأحجام من الحلل. مد ذراعه ودعبس فى الداخل وأعاده بكيس كبير من أكياس الفاكهة منظره كالح وعليه بطش الهباب، وتطل منه البوصة الطويلة ورقبة البخش، أعطاه لى؛ فقلت لنفسى: «ليلتك فل يا ولد الحرام وأنت لا تستاهل لك هذا النعيم من الله ولابد أن تصلى له منذ الآن!» زحف الحاج نحو باب آخر تحت رف آخر، فتحه ونظر فى الفتحة، وشوح بالمسبحة فى وجهى قائلا: «اترك هذا! اترك هذا!»؛ فأعطيته له، فركنه، وسحب حقيبة من حقائب الخضروات من المشمع، بها جوزة هند كبيرة كاملة، وحزمة من البوص الاحتياطى الذى هو عبارة عن أعواد من شجر الورد مجوفة من الداخل كالبوصة، وحوالى

أربعين حجرا من النوع الجيد المزلط، ووجاق نحاسى مشغول بالنقوش الأثرية، وبضع ماشات من معدن مصقول بأحجام مختلفة. حاجة تهوس يابوى؛ مد ذراعه فانتزع الجوزة وقال: «طلع دول فوق وتعال!» قلت: «حاضر»، وفعلت؛ ونزلت؛ فأعطانى مشمعا مطويا أمرنى بفرشه فوق؛ وأمرنى بأن أسيخ الجوزة وأعمرها بالمياه المثلجة وأضبط إيقاعها جيدا، ففعلت، وفتح بابا من عشرات الأبواب فى الحوائط، أخرج «فيتة» معسل مزاج كامل كبيرة فيها عشرون باكو، سلمها لى قائلا: اطلع، فطلعت، لأجد السفرجية قد مدوا طبلية طويلة وسلموا كل واحد فوطة نظيفة فردها على ركبتيه؛ وشرعوا يجلبون الأطباق المحملة بالأطايب الساخنة. فتسللت عائدا إلى المطبخ، وقلت للواقفه فيه: «عشينى ياخوى قبلما ندخل فى شغل الغويط! وإلا حملونى من هنا على القرافة طوالى!». قال الطباخ: «نعشيك يابو العم! اتفضل اقعد!»، وسحب ضلفة من الحائط فإذا هى ترابيزة كاملة استوت واقفة على الأرض موصولة بالحائط، وسحب كرسيا مستديرا وقال: «اقعد»؛ فقعدت؛ فصار يغرف ويضع أمامى حتى امتلأت الترابيزة بالأطباق؛ وحرت بين الأصناف لكننى أكلت منها كلها كفايتى، وتركتها فارغة توحد الله لا تبغى غسيلا. ونهضت؛ فقال الطباخ باسمًا: «لسه! الحلو!». قعدت مصفقا بيدى فى طرب: «ما أحلى منك». فوضع أمامى مجموعة أخرى من الأطباق فيها مهلبية بالفستق واللوز والجوز والبندق وفيها كل ما ذكره لى الطباخ من الأصناف التى لم أكن سمعت بها من قبل أبدا، حاجة تهوس يابوى. أكلت من كل ذلك كفايتى وقد انفتحت نفسى، ونسيت أن بطنى لها وسع محدد. نهضت متلمظا فقال الطباخ: باسما: «لسه الفواكه!». قلت جالسا:

«لم يعد فى بطنى خرم إبرة!». قال: «مطها يا بو العم!»؛ وفى الحال رفع هذه الأطباق ووضع بدلا منها كبيرة، عليها برتقال مشقق وتفاح وخوخ ورمان وتين وعنب، وحديقة كاملة بأصناف لا نراها عند الباعة فى الأسواق. أكلت منها هى الأخرى كفايتى، حتى وصل الأكل إلى حلقى. وتذكرت أن عمى الفقيه قال ذات مرة: إن الجمل يختزن الطعام فى جوفه لوقت جوع لا يتوفر فيه الطعام فيجىء به من بطنه ويمضغه ثانية ليعيش عليه. فانبسطت على الآخر لما تذكرت هذا القول، وقلت: فلأكن جملا يخزن الطعام لوقت جوع قريب، وهو على كل حال مهما زحم معدتى وأتعبنى فإنه إلى زوال. عزمت على الطباخ بسيجارة فأبرز لى علبة أجنبية وقال: «ماباغيَّرش! خذ أنت واحدة نضف بها صدرك!». فأخذت يابوى، وبالفعل أحسست بنفسها الرطب ينفذ فى خياشيمى صدرى ناعما كالنسوان الخواجات، ثم مضيت إلى فوق أجرر ساقى. وكان الرجال يقابلوننى عائدين بالأطباق تلالا فوق بعضها.

الضيوف كانوا متقرفصين أمام البرج يغسلون أيديهم فى الطشت النحاسى، والولد يصب على أيديهم من بزبوز الإبريق النحاسى المشغول بالنقوش الأثرية. اتخذت طريقى إلى المشمع فرشته فى الركن، وفردت عليه العدة، وملأت الوجاق بالفحم، وجاءنى ولد بقطع من الفحم المشتعل وضعتها فى الوجاق وصرت أمروح عليها بذيل جلبابى حتى صهلل الوجاق بالنار. انعطفت على الحجارة فجعلت أنظفها وأضع فيها الحصو وأحشوها بالدخان المعسل وأرصها بجوار بعضها؛ وعينى لا تكف عن التأمل فى الضيوف وتفحص كل

ضيف، لكن واحدا منهم هو الذى كاد ينسف أبراج دماغى كلها من أساسها، إذ إننى أراه كثيرا ولكننى لا أذكر متى وأين أراه، ولولا أنه يرتدى الجلباب البلدى والطاقية ويمسك بالعصا الأبنوس ويقول له الحاج يا أسطى، لولا ذلك لقلت إنه أنور السادات بعينه الخالق الناطق حتى فى الصوت والكلام والنظرات، أخرج أحدهم من جيب صديريه علبة ذهبية كعلبة النشوق، فتحها ونفض منها قطعة حشيش مدملجة صار يرص منها تعامير فى حجم المليم الأصفر يضعها على ظهر علبة سجائر مارلبورو. بعد برهة فوجئت بالحاج السنى يرمى فى حجرى خلسة قطعة حشيش لا تقل عن أوقية، وأشار لى بغمزة أن أرص منها برحمة. ففعلت. ثم بدأت معمعة الشرب يابوى؛ أدور عليهم بالجوزة وأسحب البهريز من وراء شربهم وفوق ذلك آخذ دورى فى توليع حجر مثلهم. صهلل الجميع وتفككوا من ثيابهم، وخرجت أصواتهم المحتبسة منطلقة تتكلم بصوت عال، تروى النكت الإباحية والسياسية وينفجرون فى الضحك.

حجر وراء حجر ودور فى إثر دور، نجحت دماغى فى معرفة كل هؤلاء القوم واحداً واحداً ياخال، تيقنت من شخصياتهم يا خال؛ فيما عدا ذلك الرجل الأسمر الوجه الذى يقلد أنور السادات ويتلمظ بشفتيه مثله وعند الحديث يوأوئ مثله. أما بقية القوم يابوى فإنهم كلهم ممن حققوا معى يوم أمسكونى أهرب الأسلحة. هذا الذى يجلس بجوارى تخين الفخدين كبير المؤخرة ممدود الكرش قصير الرقبة تخينها ووجهه كالأوزة المحمرة، بشفتين غليظتين وعينين براقتين تلمع فيهما الشتائم على الدوام حتى ليظهر كأنه يشتمك وإن كان صامتا. هذا الرجل يا

بوى هو أول من تلقانى يوم أمسكوا بى. أما هذا الأفندى الجالس بجواره، المحبوك حتى وهو مشمر أكمامه موسع ربطة العنق فاكك زراير الصديرى، بشبابه الطالع نحو الخمسين من عمره، وجهه الأبيض المحمر الشبيه بفردة حمام زغاليل، بضيق عينيه وصغر رأسه، والشعر الخفيف المبيض المتناثر حولها، وشفتيه الرهيفتين المزمومتين حتى وهو يتكلم، وحتى ليحار مستمعه فى معرفة من أين يطلع هذا الكلام الواضح المرتب الممتلئ بعبارات مثل «حيث إنه» و«الأمر يتوقف» و«القانون لا يحمى المغفلين»، بصوت قوى رنان، ويغمره الوقار الشديد حتى وهو يقول نكتة على الرئيس أبو عبد الناصر. هذا الرجل الملعون يابوى هو الذى حقق معى تحت وابل الكرابيج. حاجة تهوس يابوى؛ سبحان الذى أجلسنى بجواره الآن حجرا لحجر، تخرج البوصة من فمه إلى فمى. يا للعز الذى أنا فيه الآن. أما هذا الرجل الثالث، النحيف، الذى تميز عن الجميع بأن أخذ راحته على الآخر، فمدد ساقا وعوج الأخرى دون أن يقول دستوركم، بل وانعوج متمدداً على فخذه الأيمن منشغلا فى العبث بمؤشر راديو صغير جدا فى كفه، حتى إذا جاءته بوصة الجوزة مد بوزه الرفيع الشبيه بـ «عقدة وشنيطة» وصار يشفط الأنفاس بهدوء وروية حتى يأتى على الحجر، ثم يضع كفه المستطيلة بأصابعها السرحة على فمه وأنفه تاركا الدخان يعود من جديد إلى فمه وأنفه، حيث تدمع لدى ذلك عيناه، فيمسح على جبهته الضيقة ورأسه الشبيهة بأصص الزرع، غزيرة الشعر قصيرته، قصير السوالف، وخط تصليح الحلاق لامع بوضوح شديد حول أذنيه وعلى قفاه المخطوط بالمسطرة. هذا الرجل يابوى آه منه؛ أعرفه ولا أعرفه، أرى صوره فى الجرانين المفرودة عند بائعى الطعمية

وماسحى الأحذية والحلاقين، يظهر والله أعلم أننى رأيت صورته ذات مرة بالبذلة العسكرية فى برواز على الحائط فى منزل لا أدرى من. إنما أدرى أنه منزل كبير، فهو إذن لابد أن يكون رجلا تخين المركز ياخال؛ والحاج السنى هذا الملعون لا يريد أن يبوح باسمه، ويكتفى أن يناديهم جميعا بـ «يا سعادة البيه»، ويا أفندم، ويا سعادة الباشا، وحين يكون الكلام عن نفسه يقول: خادمكم المطيع أحمد السنى يقول لكم بعد إذنكم كذا وكذا.

دماغى لفت يابوى، تحلف اليمين أن البرج الذى كنا نجلس فيه صار يطير فى الهواء. الفجر قال الله أكبر ونحن نطفئ النار فى الوجاق ونلم العدة والضيوف يلبسون أحذيتهم ويزررون ثيابهم ويشربون بعض المياه المثلجة قبل خروجهم للهواء. سبقهم الحاج السنى نحو الباب ملتفتا نحوى آمرا، بأن ألم العدة كلها وأكنس المكان جيدا وأطلب من الخادم أن يوصلنى إلى باب الخروج حينما أنتهى من مهمتى، وأننى لأكون جدعا بصحيح لو غسلت أرضية الغرفة بالماء والخيشة. وكنت أظنه قد رأى النوم معششا فى عينى، لكننى تأكدت أن النوم فى عينيه هو سيمنعه من صلاة الفجر على النحو الذى يهواه. لكنه مضى أمام الضيوف فهبطوا السلم، وابتعدت أصواتهم، ثم اختفت، ثم ظهرت من جديد، ثم ابتعدت، لتختفى نهائيا.

السادسة: الطريق الملكى

تسلقت الشباك ونظرت فى الشارع، فرأيتهم جميعا يمشون نحو جامع عمرو. فنزلت، وجعلت أمشى هنا وهناك. رأيت الولد الخادم متكورا خلف البرج فى الطراوة، مستغرقا فى نوم عميق يأكل الأرز باللبن مع الملائكة. أسرعت بتنفيض الفرشة والأرض بصنعة لطافة، حتى نظفتها جيدا فى دقائق معدودة، وحملت العدة إلى المطبخ، فوضعتها فى نفس الدولاب وخرجت. وبدلا من أن أستدير يمينا استدرت شمالا، ومشيت قاصدا الباب الذى منه أصعد إلى البرج لأوقظ الولد، كى يفتح لى باب الشارع لأخرج..

فإذا بى قد صرت فى ممر ضيق مضاء بلمبات سهارى صغيرة، ومفروش بالسجاد فوق أرض من الخشب، ترن فوقها الخطوات. حوائطه جميلة الشكل، مزدانة باللوحات الملونة، المبروزة، والأنتيكات، وبين كل بضع خطوات تبرز من أحد الجدارين حنية متكورة، أحود عندها يمينا، وأحيانا شمالا. وفى كل حنية عدة طاقات فوقها زهريات ورد يتضوع منها الضوء الوردى الخافت عبر مصابيح على شكل أيقونات ومساخيط..

السُّطَلُ يابوى هيأت لى أننى «ماشى» فى قصر من قصور الجنة لا يعترض طريقى أحد، فلابد إذن أن يكون رضوانها الخفير مسطولا هو الآخر حتى نام يأكل أرزا باللبن مع الملائكة. صوت إلهى جعل يرن فى صدرى قائلا: ارجع ياولد قبل أن تتوه ولا تعرف كيف تعود. وصوت آخر حاد لعله صوت أبى يزغد هذا الصوت الإلهى قائلا: امش ياولد ولا يهمك اضربها طبنجة فلن يحدث لك إلا ما هو مكتوب عليك، اتفرج على هذه الأبهات التى لم ترها فى حياتك من قبل، «شوف» كيف الأغنياء اللصوص يعيشون يتمتعون بجنات النعيم فوالله يابو العم لا يحظى بهذه الجنان سوى فجرة اللصوص أما نحن فتعال قابلنى يوم القيامة لوشفناها؛ إننا فى فقرنا وعجزنا نسب الدين، نسرق، نقتل، ولن نحظى بالجنة فى الآخرة مهما تبنا ـ وهل سنتوب؟..

انتبهت إلى أننى مع مغادرتى لكل حنية يتعين علىّ أن أنزل درجة سلم صغيرة، فأتبين على إثرها أن كل حنية فى الممر هى عبارة عن عامود من الأسمنت المسلح المدهون بألوان الزيت، لاحظت كذلك يابوى أن بعض الشبابيك فى أحد الجدارين قد تحولت إلى نوافذ دائرية صغيرة كنوافذ السجن فى أعلى الجدار، ثم إنها اختفت تماما بعد عدة سلمات هبطتها على امتداد ذلك الممر الدائرى العجيب. إنه يتسع لشخصين اثنين بجوار بعضهما لا غير وبالكثير ثلاثة، رفيعين مزنوقين..

على بعد قليل كانت ثمة حنية جديدة تقترب، فأخذت استعد لنزول درجة السلم التابعة لها حتى لا أتعثر. هى الأخرى محفور فيها طاقة مبطنة بالخشب من رفين منقوشين، على أحدهما زهرية ورد

مضيئة، وعلى الآخر مسخوط من الفضة اللامعة. وإذا بالهواء يكثر فجأة، كالمطر يتدفق من السماء، وسمعت أزيزا يشبه الأنين ويشبه زيق صدور المدخنين ويشبه كذلك الصريخ المكتوم. توقفت متجمدا من الرعب يا خال، باحثا عن مصدر هذا الهواء من أين جاء وهذه الأنات من أين طلعت. ثم إن الممر انفرش فجأة بالنور الربانى السماوى، فصرت أنظر فى السقف، فرأيت ناروزة فيه، عبارة عن فتحة مستديرة فى سقف مقبب يتساقط منها الضوء والهواء. جعلت دماغى تحت الفتحة مباشرة وتربعت فوق الأرض ناظرا فى عمق الفتحة فوجدتها غريبة مظلمة من الداخل، فنمت مسطوحا على الأرض ناظرا فى الفتحة محاولا رؤية السماء فلم أقدر، لأن الفتحة كانت تحتوى عينى، فكأننى أنظر فى جوف مئذنة منبعجة بعدة أدوار مقببة، تنتهى فى شاهق البصر بعمة تشبه عمة الجيلاتى فوق كأس البسكويت. قلت: لا إله إلا الله، واعتدلت جالسا ثم واقفا، وقد أحسست بدوخة كبيرة لا أعرف من السطل أم من الخوف أم من التعب؛ فتسمرت فى مكانى يابوى، وأخذ الهواء يشتد فجأة، ويسكت فجأة؛ لكنه كلما اشتد أو سكت، ارتفعت معه الأصوات التى تشبه الصريخ والأنين؛ فصرت أبحلق فى كل شيء فى الممر؛ فخيل لى أن الحنية التى تبعد عنى مقدار ثلاثة أمتار تهتز وتتحرك..

قلبى راح يزعق ـ أقصد يخفق بشدة: عامود من المسلح يتحرك؟ لابد أننى مسطول سطلة الجنون، فها هو ذا عامود الحنية يقف من جديد ثابتا فى مكانه.. ولكن، ها هو ذا يتحرك ثانية، بل إنه يقبل نحوى، يكاد ينخلع من الجدار، ينكسر، يقبل نحوى، وا..ه.. يابوى..

وقعت أنا فى قمقم العفاريت بدون شك. شىء إلٰهى نطق فى صدرى قائلا: اجمد ياولد وكن رجلا. فصرت أتحرك نحو الحنية فى شجاعة مرتعشة، وفى نيتى أن أمسك العامود بيدى؛ لكننى ما كدت أقترب من العامود خطوة واحدة، حتى رأيته ينفصل عن الجدار ويقبل نحوى مندفعا هذه المرة كالريح النافرة المباغتة، يهبد فى الحائط المقابل ثم يبقى مستكنا تماما. وبذلك انسد الممر تماما بعامود من الأسمنت المسلح ذى رفوف عليها زهرية ومساخيط ينبعث منها الضوء الملون. لحظتئذ ظهر لى بشكل قاطع كأن الممر لم يكن مفتوحا من قبل، وأنه مسدود بهذا العامود ذى الشفة العريضة من عهد بنائه. أى والله يا خال قادر ربنا يخرسنى لو كنت أكذب. اقتربت من العامود الذى صار فى هذه اللحظة مرادفا لعقلى. وضعت يدى عليه، فأحسست بنعومته وثقله. دفعته، فإذا هو ثابت ثبوت الجدار فى الجدار. دفعته بقوة، فإذا هو يهتز قليلا. فدفعته بقوة أشد، فإذا به ينزاح ببطء؛ ليرتد آخذا مكانه السابق؛ وإذا الممر ينفتح من جديد..

نزلت السلمة المعتادة عند كل حنية؛ وجعلت أنظر فى أمر هذا العامود أتحسس طرف شفته التى التحمت بالحائط فكادت معالمها تختفى. أدخلت أطراف أظافر أصابعى بينها وبين الجدار وشددت بقوة؛ فإذا بالعامود كله ينشد معى ببطء أول الأمر، ثم بسرعة ينجذب إلى الناحية الأخرى قافلا الممر من جديد. رأيت وراءه فراغ فتحة باب، فإذا هو عامود وباب فى نفس الوقت، إذا التحم بالحائط لا يستطيع الغريب عن هذه الدار اكتشاف أنه باب. ونظرته من ظهره فإذا فيه «شنكل» سحرى، فى مكان غامض، يمكن فتحه بمد اليد من الطاقة

تحت الزهرية مباشرة، حيث تدفع اليد رقعة صغيرة من الخشب دفعة تلقائية، لتنزاح، فيصطدم كف اليد بالشنكل، فيفتحه أو يغلقه . .

رأيت هذا الباب السحرى يفضى إلى سلم غائص فى الأرض؛ فصار قلبى يزعق من جديد فى ضرباته، يهزنى كأنى سأقع فى بئر غويط. مع ذلك شمرت ذيل جلبابى، ونزلت . . أمال يا با . . الرب واحد والعمر واحد.

السابعة: الإمبراطور

الفتحة من أساسها فتحة بئر، ومن حقى أن أخاف يابوى، فالعمر ليس بعزقة بصرف النظر عن الجراءة. أما السلم الهابط فيه فمثل الزنبرك، يدور حول نفسه. حاجة تهوس يابوى. ما هذه الدماغ الرائقة، التى حفرت هذا البئر الصخرى فى هذه الأرض وحفرت هذا السلم فيه، وجعلت له ـ شف الفجر ـ درابزينا من حديد ناعم، عبارة عن مثلثات كالأهرامات، واحد معدول، يجاوره آخر مقلوب؛ مشدودة بين قضيبين، أحدهما ثابت فى الدرج والآخر مطلق السراح يتلوى ويتعوج هابطا فى حوض البئر إلى عمق غويط جدا. .

رجلى تخشبت على أول درجة، وقبضتى استماتت على حديد الدرابزين، وقلبى جعل يرقص كأوزة ذبيحة. العجب ياخال أن صدرى كان منتفخا كأننى فرعون بذات نفسه. يظهر والله أعلم أن درجات السلم معمولة بالعنية كى تجعل من راكبها هكذا. قلت فما بالى أرتعش هكذا وكأننى مجبر على نزول القبر حيا؟ قلت: لأننى لست بفرعون. صعيدى أنا وأعرف مقابر الفراعين معرفة ديارى، كما أعرف أصالة المساخيط من زيفها معرفة الأخ لأخيه ولو بعد غياب مائة عام؛ وأعرف منها ما لو عرفته الحكومة لاحتلت الصعيد كله ولكن

هيهات، ولرحّلت عنه سكانه ووضعت بدلا منهم خفراء بنبابيت وأفندية من هيئة الاثار. كذلك أعرف المقبرة من المغارة من السرداب من المتاهة من الشرخ الجبلى الواسع. ليس هذا فقط يابوى؛ بل إننى لأعرف مقبرة الأمير من مقبرة الفقير، مثلما أعرف جحر السحالى من جحر الثعابين. لست فى ذلك فارسا، خل بالك من هذا؛ إنما هى خبرة توارثتها عن أهلى، وتأكدتها من سعيى على ظهرها؛ أقصد الأرض، بل أقصد هى، المقابر؛ فالأرض هى المقابر والمقابر هى الأرض؛ والواحد منا ياخال مذ يفتح عينيه يرى الأرض مباشرة، وتظل عينه قريبة منها مهما استطالت قامته؛ لا وسيط، لا عازل بينه وبينها؛ يده فى أحشائها، كما أن أحشاءها فى جوفه على الدوام. ولذا فالواحد منا ياخال - أقصد الجنوبيين - قد رزقه المولى الكريم عينا نطاطة، تحط على هامات الجبال، وفى سفوح الأرض. ومحسوبك بالذات - بفضل هذه العين اللعيبة عاش حياة الطيور وحياة الحشرات معًا تحلف اليمين - لا كذب ولا مَيْس - إننى أحمل فى صدرى وقعر دماغى ذكريات الحشرات وذكريات الطيور معا، وأقدر على أن أفكر كأننى حشرة، وأفكر كأننى طير.. لأن حياتى الفائتة كلها لم تكن غير يومين اثنين، يوم كحشرة، ويوم كطير..

إن كان على المقابر فياما نزلتها فى أنصاف الليالى؛ لأخفى بداخلها مسروقاتى، بجوار هشيم عظام الموتى؛ بل إننى أيام شعورى بغلظ الصوت وطلوع العانة ورمى النعمة فى الحلم، شعللنى الجنون، فاستدرجت امرأة عبيطة ضالة؛ ونيمتها بجوار الهشيم، وشرعت أتأكد من رجولتى. فما دريت إلا والميت يزغدنى بكف متخشبة فى جنبى

زغدة مؤلمة ويقول بصوت مسلوخ كصوت النار المكتومة : «يا أخى اختشى وخلى عندك رباية! بقى أنت راجل أنت؟!» . أما العبيطة الضالة فانفجرت ضاحكة بصوت هائج مخيف؛ وأما أنا فقد اندفعت خارجا أعوى، والشرر الأحمر يتطاير من عينى، بعد إذ اصطدمت جبهتى بسقف باب الفسقية . وما كان صراخى وعوائى خوفا من الميت الذى نطق، بل خوفا من «زقلط» قاطع الطريق، الذى نعرف جميعا أنه يخاوى جنية تؤويه فى دار لها تحت الأرض؛ ولم يكن يخطر لى فى بال أنه يستوطن هذه الفسقية بالذات .

حضرتنى هذه الواقعة وأنا فى وقفتى على أول درج من سلم البئر فصرت أضحك بشدة، أى والله يابوى؛ وهتف بى هاتف : اخز الشيطان وارجع ياحسن فهذه المقبرة الفرعونية مقبرة ملوكية مائة فى المائة، وهذا البئر ليس محفورا بل مبنيا بالصخر حول هذا السلم اللولبى، الذى لو تكسرت أصابع الأمريكان والألمان والبريطان وكل المتفرعنين علينا هذه الأيام، لا يخرج من يدها سلمة واحدة منه . المقابر الملوكية خطر ياخال، كلها خطر، هى الخطر بذات نفسه، هى مخزن لعطر الموت ياخال؛ رشه الفرعون قبل دفنه فيه بغاز يبقى أبد الدهر مكانه، من يستنشقه يموت حتما . أهلنا القدامى كانوا فى غاية النصاحة، يعرفون أن لصوصهم مهما عبدوهم لا يصدقونهم، ولا يخافون من أبيهم الله، الذى يقول فرعون إنه ابنه، ولسوف يتسللون لسرقة ما تحويه المقبرة من جواهر وأموال؛ ومن هنا ياخال، لجأ أهلنا الملوك إلى حيل جهنمية، منها تسميم الهواء . لا أقول هذا من دماغى يابوى؛ ولكنه شىء جربناه، ودفنا موتانا فى الكتم، ومع ذلك لم

نتوقف عن نزول المقابر والإتيان بكنوزها، لكى يغتنى بها ضلالية كبار مثل الحاج السنى وغيره من لصوص البر العظماء. لكن قولوا لى بالله عليكم كيف جاءت هذه المقبرة إلى دار الحاج السنى؟ المؤكد أن دار الحاج السنى هى التى بنيت حولها منذ زمن سلطانى بعيد. .

حلو! حلو! مادامت هذه المقبرة فى دار مقصوف الرقبة هذا، فلابد أن النزول إليها شغال على الدوام؛ وها هى ذى بقايا وساخات الأقدام، وليس من المعقول أن أعقاب السجائر هذه منذ أيام الفراعنة، أم تراهم كانوا يعرفون السجائر أيضا؟ ربما يابوى، محتمل، فقد عرفوا كل شىء فى الدنيا والآخرة. والدليل على أن النزول هنا شغال هو وصولى إلى هنا فى حد ذاته يابوى، إذ يوجد طريق معلوم وباب مرسوم، ومن حسن حظى أنه كان مفتوحا مما يؤكد أن أحداً كان هاهنا منذ وقت قريب، ومن لهوجته نسى أن يغلق باب الممر. النكتة لو أنه قد ترك الباب اعتمادا على أنه قريب من هنا وسيعود بعد برهة، أو لعله موجود الآن داخل المقبرة وسيطلع منها بعد قليل. .

حاجة تهوس يابوى؛ الرعشة فككت تيبس قدمىّ، فلانتا، وتحركت يمناى نحو الهبوط؛ فقلت: والله لأنزلن. فى البئر شفاط قوى، مادريت إلا وجسدى كريشة تهبط فوق الدرج مسحوبة بالشفط. برهة طويلة مرت كسياحة فى حلق الثور حامل الأرض على قرنه. وإذا بى فوق أرض مبلطة بالنقوش والرسوم والألوان الثقيلة اللامعة، كأرض حمام فى سراية مشغولة بالموزايكو. مضيت أنظر فى هذه الأرض، فإذا بإمكانى المشى فوقها تحت سقف تتدلى منه لمبة كهربية من أيامنا، وإذا مساحة الأرض عريضة توازى مساحة البيت

المقام فوقها. فى الأركان لمبات أخرى مضاءة كالبلح الأبيض. رأيت فى الركن البعيد بابًا كأبواب الأضرحة. خطفت رجلى إليه، دفعته، فانفتح، فإذا بسلم آخر أمامى وفمه مفتوح، كفم تمساح جوفه مظلم، لا يلمع فيه سوى أطراف الدرج كالأنياب المخيفة. جاءنى هاتف يقول إننى سأرمى بنفسى فى جوف التمساح لو نزلت هذه المرة. لكن الدماغ الناشف ناشف يابوى، صرت أتحسس الحيطان بيدى، فتلاقت بزر نور آخر لمسته فأضىء السلم كله، فإذا هو قصير لايزيد على خمس درجات فى مواجهتها باب. إه، العمر واحد والرب واحد. نزلت. مددت يدى متحسسا جدار الباب السفلى، فلمست زر نور، فأضيئت الدنيا كلها أمامى..

صدق أو لا تصدق ياخال؛ الدنيا كلها كانت أمامى. باحة من باحات الجنة، حيطانها حمراء وزرقاء وخضراء، وعلى كل لون، رسموم ونقوش لا مثيل لها. على الأرض قواعد رخامية، يقف ويقعد فوقها تماثيل عظيمة من الرخام والحجر الصوان؛ ومسلات صغيرة وكبيرة من الرخام عليها نقوش ورسوم. صادفنى باب على اليمين، فتحته، عبثت يدى فى الحائط بحثا عن الزر، فلما لمسته أضيئت الحجرة، فإذا بها تمتلىء بالصناديق المشغولة بالذهب والأحجار الكريمة؛ بعضها مغلق وبعضها مفتوح؛ والتماثيل الذهبية والفضية والبرونزية والنحاسية مرصوصة فى كل مكان. ارتعت يابوى؛ انسرعت؛ صرت أحشو جيوبى بالتماثيل الذهبية، وأحشر فى دكة السروال، حتى صنعت خصرا سمينا، ومؤخرة كبيرة؛ وقلت: والله ليكونن لى نصيب فى هذه البقية مهما كان الأمر..

طلعت أجرى على الباحة، دفعت بابا آخر، وأضأت النور، فإذا بى فى حجرة مليئة بالفتارين، والدواليب الزجاجية العتيقة، كلها ملآنة بالحلى وأدوات الزينة والغوايش والخواتم والأقراط والعصى والمنشآت ومراوح اليد والنياشين. حاجة تهوس يابوى، صرت أكبش وأضع فى عبى، بعد أن حزمت وسطى جيدا بدكة السروال، حتى انتفخ جسمى كله. طلعت أجرى كالمجنون. دفعت باب الحجرة الثالثة، فانفتح؛ فإذا بها تمتلئ بأنواع من الكراسى والأسرة الذهبية، لها أرجل كالحيوانات المفترسة بعيون تبرق بالأحجار الكريمة والذهب. ارتفعت دقات قلبى كدبدبة الخيول على الأرض، وهتف بى هاتف يضحك، ينبهنى أن الشخص الذى من المفروض أن يعود زمانه الآن قد عاد، وقد يغلق الباب الفوقانى بالقفل، فأنحبس هنا إلى أن يبين لى أصحاب. .

دورت على قلبى بين ضلوعى فلم أجده، حينما دلفت إلى الباحة الكبيرة، فإذا هى قد تغيرت؛ فالباحة التى دخلتها لحظة قدومى كانت حوضا من حيضان الجنة، على حيطانها كتاب النقوش الحاوى من كل نوع ولون، حتى لكأنك وسطها فى سراية جدرانها من الزهور: أين ذهبت التصاوير يابوى؟ تظل آلاف السنين عالقة بالحائط؛ الحائط نفسه مشكول بها، فما بالها قد اختفت فى لمح البصر مسافة ما دخلت الغرفة وخرجت؟ كيف يابوى؟ أنا مهما أنسطل من شرب الحشيش لا أغيب عن الوعى أبدًا، فالسطل هى مزاج المسامرة وليست بنج العمليات. هذه باحة أخرى غير التى دخلتها عند نزولى من السلم مباشرة! .

صار قلبى مثل الدلو يغوص فى بئر قدمى، وصرت أشده بحبال تتقطع لها أنفاسى؛ وصار الرعب ينشف قدمى من كل دم. تحلف

اليمين يا خال أننى شعرت ـ خل بالك من كلمة شعرت هذه ـ أن جثتى كلها آبت إلى عرق من الخشب اليابس، ليس فيه قطرة ماء توحد ربها. انشللت فيما يظهر! ولكن حد علمى أن المشلول لا يقدر على التحرك ومد اليد والقدم، والتنفس، وها أنذا قادر على هذا، وها هى ذى حبال النفس التى أشد بها قلبى من بئر قدمى تقوى، وبكرتها تكر فى سلامة، ومكنة الجسم شغالة أربعة وعشرين قيراطا. لكننى ـ فيما يخيل إلى أيضا أشعر كأننى لو أردت رفع يدى ما قدرت، أو مد قدمى ما تمكنت . .

الذى طرأ على دماغى لحظتها يا خال أننى وقفت مسمرا، وأضع ذراعى بجوار جنبى، وقد نسيت تماما كل ما تحت جلبابى من كنوز مخيفة؛ بل والله وبالله نسيت الدنيا وما فيها، تقول يا خال إننى شارب لتوى ألف حجر من الحشيش المعتبر مع سنّة جليلة القدر من الأفيون الخام؟ حاجة تهوس يابوى! وكنت أذكر فقط أننى جعلت أنظر كيف دخلت هنا ومن أى باب، وأحاول استذكار الخطوات التى اتبعتها منذ نزولى خطوة خطوة، فلا أزداد إلا تأكداً بأننى تهت، إذ ـ لابد ـ دخلت من باب سحرى موجود وليس موجودا فى نفس الوقت. ثم فوجئت بأننى ـ صدق أو لا تصدق يابوى ـ قاعداً القرفصاء على الأرض مثل تمثال شيخ البلد؛ الأكادة أننى لست أذكر كيف ولا متى جلست القرفصاء، مع أننى منذ برهة كنت واقفا مسمرا أنقل البصر فى الحيطان بحثا عن الباب الصحيح الذى دخلت منه لكى أخرج منه فى الحال. لكن، لم يكن ثمة من باب سوى الباب الذى خلف ظهرى، والذى من المفروض أنه يفتح على غرفة الأوسمة والنياشين والعصى والجعارين

والسبح الذهبية والخواتم والحلى على شكل صلبان وقباب وعقارب وحيَّات. هذا الباب الذى خلف ظهرى - إذن - يجب أن يفتح على هذه الغرفة وعلى الباحة، التى يطل عليها مجموع أبواب الغرف المطلة عليها. أين بالله ذهبت بقية الأبواب إذا ما اعتبرت أننى الآن فى الباحة العمومية؟! وأين الحوائط المنقوشة بالألوان؟! وأين السلم؟!..

ياربى، ما نهاية هذه القعدة المتقرفصة التى وجدتنى فيها كأننى صرت تمثالا حجريا. هكذا قلت لنفسى فجأة وقد بدأت أسمع دقات قلبى بعد غياب طويل. قلت لنفسى: متى أنهض لأرجع إلى هذا الباب خلف ظهرى؟ لعلى أكتشف أن دماغى هو الذى فى رأسى. إننى ما دمت وأنا قاعد الآن أتذكر نفسى واقفا فإننى أستطيع تبعا لذلك أن أقف ثانية؛ وأن أستدير خارجا من الباب أو داخلا منه إلى الغرفة التى كنت فيها؛ وأن هذا يجب أن يحدث الآن فورا، إذ إن خاطراً فى دماغى أنبأنى بأنى قد تهت فدخلت غرفة الدفن لابد، أو الغرفة الملاصقة لها، أو التى تفضى إليها بباب سرى لست أراه وليس يكشف نفسه لمثلى، إنما هو يستلبنى إليه فحسب!..

صدق أو لا تصدق ياخال أننى كنت لحظتها أشعر بغاية البهجة والراحة النفسية، لا يداخلنى أى ذرة من خوف أو رعب، بل تشوقت لرؤية الجثث التى هى مدفونة هاهنا، بل صرت أشعر بالحنين لأن ألتحم بها وأمضى فى عروقها وأتركها تمضى فى عروقى؛ أى والله ياخال ما هو بميس ولا فلحسة افتخار..

واضعا كفى على ركبتى ظللت متقرفصا أنظر فى فراغ الباحة، غير قادر وغير راغب فى تحريك أى عضو من أعضائى، حاجة تهوس

يابوى؛ دماغى ـ مع ذلك ـ لا يتوقف عن الشغل فى ملكوت أفكار تغوص تحت الأرض وتتطلع منسلتة من بين الفجوات، تتسلق الآبار، لا تريد أن تبارح هذا المكان أبدا، لا تريد طعاما ولا شرابا ولا نوما ولا هواء ولا غطاء ولا شمسا ولا قمرا؛ فكل ذلك موجود الآن بوفرة بين هذه الجدران الأربعة تحت هذا السقف الجيرى الأبيض، الذى اتضح لى الآن أنه مقبب كسقف الجبانة بعد أن كان مسطحا مستويا منذ برهة. ولكن أية برهة؟! إننى لم أعد أذكر متى جلست القرفصاء هكذا فى هذا المكان؛ فمن فرط ما مر على دماغى من الأفكار والمرئيات هاهنا لابد أن أكون مكثت فى قعدتى عشر سنوات على الأقل، ولابد أن أهل الكهف والرقيم الذين ناموا فى كهفهم مائة سنة عددا إنما كان نومهم من هذا القبيل الذى أنا فيه الآن نوما صاحيا وصحوا نائما.. حاجة تهوس يابوى!!..

الخيال الذى رأيته يزحف أمام عينى جائيا من خلفى كان خيال حيوان غليظ الحجم، تبينت فى شكله ثورا بقرنين نافرين. ولحظة انتبهت إلى شكله، كنت قد صرت فى قعدتى القرفصاء تحت بطن هذا الثور الضخم، وهى تضغط بكلكلها فوق دماغى؛ لكننى كنت ـ مع ذلك ـ قادرا على تحريك رأسى. الدليل على ذلك ياخال أننى التفت مذعورًا إلى اليمين وإلى اليسار. فلما رأيت ظل الفخذين الأخيرين للثور تمران بجوار أذنى شعرت أن.. أن.. أحليله قد تصدر كالمسمار فى قناعية رأسى؛ أى والله ياخال، فحنيت رأسى إلى الأمام بفعل ضغط الأحليل الحديد عليه، فشعرت بشعر ذيل يلفحنى، يلسعنى، تلاتة بالله العظيم ياخال تحلف اليمين، أن قفاى كله أخذ يلتهب

ويوجعنى. هنالك شعرت بغاية الرعب ياخال. فلما فطنت إلى أننى أشعر بالرعب أيقنت بأننى مازلت حيا، وحينئذ جاءنى الفرح يابوى؛ نفضت نفسى قائما فى الحال واقفا، وصرت أنكت جثتى نكتا وأهزها هزا. وحينئذ انتبهت إلى الأشياء التى أخذت تتساقط من بين خلقاتى؛ فأيقنت بأننى قد أفقت تماما، وعدت إلى الصواب؛ فصرت أجمع ما تساقط منى وأعيده إلى خفائه. وكان ثمة باب وحيد أمامى، انتبهت إلى أن شكله ليس كشكل الأبواب، إنما هو إلى الممر أقرب، مجرد فراغ بين حائطين محكومين بأرض وسقف. دلفت منه. واجهنى حائط، كسر وجهتى، فوليت يسارا بين حائطين، فى ممر طويل كالسرداب لكن أرضه مرصوفة بالزلط والحصباء، وسقفه كذلك، واللون البرتقالى يلعب فى السقف والأرض والحائطين بكل درجاته..

بعد سير طويل فى هذا الممر البرتقالى، فطنت إلى أنه ضوء الشمس قد شرف قادما من نهاية هذا السرداب على مبعدة خطوات قليلة. هممت بالجرى؛ ولكن جثتى كانت ثقيلة كالرصاص ياخال،. تحلف اليمين أننى كنت أحتاج لمن يحملها عنى. عافانى الله فرأيت الضوء البرتقالى يتسع شيئا فشيئا ويعمل بحرا كبيرا. سبحان الله يابوى كلما أوشكت على نهاية الممر واقترب الضوء شعرت بالبرود والارتجاف؛ وأخيرا فوجئت بأننى صرت فى منور كبير دائرى الشكل وجدرانه الاسطوانية أطول من قامة ثلاثة رجال يقفون فوق بعضهم، ورابعهم هو الذى إن تساند فوقهم يتمكن من حافة الجدار، ليروعه عمق الهاوية السحيقة خلف الجدار..

أخذت ألف فى فراغ هذا النور يابوى كلعبة الحلقة البلقة، أكاد

يصيبنى لطف والعياذ بالله من حائط المنور الدائرى يعتقل قبسا دائما من مراسيل الشمس والقمر والهواء والمساء والمطر . . يالك من فرعون ابن فراعين يا من بنيت هذا هكذا . دورية الجدار فيها فجوات عديدة على شكل مربعات ومستطيلات ومثلثات، لا تتمكن العين من حصر عددها، صغيرة وكبيرة ومتجاورة ومتباعدة، ولكها فجوات فارغة يفح منها الظلام . إلى يسارى كانت فجوة، على شكل فتحة باب لا تعترها قامة الإنسان إلا محنية . .

قلت : لأعبرنها . مخى ناشف يابوى؟ طب ماذا أفعل غير هذا يابوى؟ «خليها» توهة بتوهة، حتى نصل إلى منفس رحمته . ما إن أحنيت قامتى ودلفت على عتبة من الحجر الأملس كحجر الجدار التخين المزوق بخطوط دقيقة، هى المسافات الفاصلة بين حجر وحجر؛ انجذبت لسلم حلزونى من الحجر، يدعونى للصعود . إه، يادار ما دخلك شر . درجة فدرجة، بسطة وراء بسطة، حودة إثر حودة، انحناءة قامة عقب استقامة خاطفة، يعقبها رفع صدر تواتيه وفرة من الهواء . وكنت أرى على يمينى وعلى يسارى كثيرا من هذه الفتحات المختلفة الأشكال التى رأيتها فى دورية الجدار قبل أن أدخل البرج . بعضها يجلب عواميد من الشمس؛ وبعضها يسرب كتلا من السحاب فحسب . بصصت من فتحة واجهتى، فوقعت بصتى على أرض المنور وقد غاصت فى قرار مكين . بصصت مرة أخرى، فرأيت سماء مشمسة شاسعة تنكفئ على أرض خضراء، تتاخمها ـ على البعد ـ أبنية كثيفة؛ كما رأيت شريطا يلمع كرقبة نوبى متطاولة متلوية، سرعان ما فطنت إلى أنه نهر النيل الحبيب يجثم فوق جناحه جامع

عمرو بن العاص بجلالة قدره كفيلق من طائر أبى قردان يحط على شطه لبرهة وجيزة ولن يلبث حتى يحلق فى الهواء. حاجة تهوس يابوى..

واصلت صعود الدرج؛ وكم صادفنى فى الصعود من فتحات كبيرة تفضى إلى ممرات وأبهاء يجرى الخيل فيها لفرط براحها؛ كيف يابوى؟ من أين جاء كل هذا الوسع وكل هذا التأسيس؟ وقد خامرنى والله خاطر للدخول فى كل فتحة على حدة؛ ولكن شيئا إلهيا كان يدفعنى إلى تسلق الدرج فى سمت السحاب، الذى بدأ يظهر متكررا على الدرج الحجرى. ثم ما لبثت السماء كلها حتى بانت شبكة حديدية مستلقية فوق فتحة دائرية، تظللنى طاولتها؛ وصار بإمكانى أن أتبين أنها مثبتة فى السقف بعاشق ومعشوق؛ عاشق ثابت فى السقف ومعشوق فيها، يتثبت فيه العاشق..

صدَّرت فيها رأسى ياخال، وكفى وكتفى، حتى نزعتها، وكانت ثقيلة جدا يا خال، وسبحان من يخلعها ياخال، لولا حدوث ذوبان وتهتك وتشعث فى حجر السقف. انخلعت ياخال؛ إذ إن معاشيق كثيرة خرجت بمعشوقاتها عن ثبت السقف؛ مما أتاح لى أن أدفع جسدى كله فيها؛ لأقلبها على ظهرها، وأخرج إلى السقف ياخال. واه واه واه..وا..ه.. يا بوى، مما رأيت: السقف كان ملتحقا بسقف الدار، بل ها هى ذى الحجرة القمرة التى كنا نحشش فيها مع ضيوف الحاج وعدت فنظرت فى فتحة البرج الذى صعدت من جوفه، فعصف بى الخوف والرعب من العمق السحيق الذى خيل لى أنه يشدنى إلى القاع. فما كان منى إلا أن غطيت الفتحة بكل قوتى حتى رجع الغطاء

كما كان . .

رجع لى قلبى ياخال، وسمعت وقع خطواته فى صدرى، لكننى وقفت مطرحى ، أفكر فى كيفية الخروج من هذه الدار وحدى بدون أن أتعرض للتوهان مرة أخرى . درت حول الحجرة القمرة مرتين، ثلاثا، وبدنى كان يرتجف . أسندت مرفقى على حافة جدار سور السطح المرسوم على شكل تاج ملكى . ورأيتها ياخال؛ نعم رأيتها، فرقص قلبى من الفرح . إنها ماسورة المجارى التحتية الصاعدة حتى أعلى السطح ملتحقة بدورة مياة الحجرة القمرة . عافرت فى جدار السور حتى تملكت الماسورة وحضنتها فى صدرى . محوطا عليها بذراعى، وتركت جثتى تهوى إلى الأرض بكل سهولة . .

استقرت قدمى على الأرض، فأخذت أمشى فى هدوء وترو خلف دار الحاج السنى، متجها نحو عشش الجيارة . وكان بعض الأطفال قد رأونى وصاحوا صاخبين، لكننى سرعان ما اختبأت منهم فى إحدى الحوارى الغويطة، لأرى نفسى متجها نحو بوابة الحديد بغير إبطاء، وفى عزمى الرحيل إلى البلد، لأتاوى هذه الثروة فى أرض دارى .

الثامنة: خطبة على قبر أبى

ما أحلاها يا خال حين تكون مواتية وجائية على الكيف، أقصد الظروف الحلوة، ظروف الإنسان الشقيان يتخبط فى بحر من التعاسة. ألا قاتل الله أيام النحوس يا خال، إن خسيسة خبيثة هذه النحوس، لا تستضعف إلا طيبى القلوب الأبرار الأبرياء، ذوى النفوس الحسنة والصدور الطاهرة والأيدى العفيفة؛ تستكردهم ياخال، تضربهم على أقفيتهم بالصرمة القديمة، لعلمها أنهم بلا خرابيش ينشبونها فى وجوه حاسديهم وعزالهم. ووالله إنها لنحوس وأى نحوس، تلك التى تتحكم فى رقاب البشر الضعفاء؛ تخلقهم على مزاجها ياخال من قبل أن يولدوا. طبعا يابوى؛ وإلا فما معنى أن يكون رجلا شرموطا كالحاج السنى يفعل كل الموبقات من وراء لحية ممدودة ومسبحة مطرودة ومائدة منضودة وحدائق مورودة وسيرة محمودة وفى باطنها مندودة.. أليس ذلك يدل على ظروف فى الأصل مجدودة وخيراتها غير محدودة؟!..

ردَّنى ياخال إن كنت ترانى جمحت، فلست والله براكب فرسا غير فرسى فما أنا الآن بجامح أبدًا خصوصا بعد أن رأيت ما رأيت وفهمت

مـا فـهـمت وعـرفت مـا عـرفـت من أسرار فى هذا البلد يشيب لهـولهـا الولدان. حقا حقا هذه مصر أم العجائب ياخال ولن أمل من تكرارها. هذا والله ليس مـثـلا يقـصـد به التندر، ولا هو من قـبـيل الهـتـافـات والعصبية، فلو قدر لك أن ترى ما رآه العبد لله وتشقى شقاءه وتعرف ما عرف، لأيقنت أنه قرينة صدق لا يجيئها الباطل من أى مكان فيها. والحاج السنى أحد هذه العجائب ياخال، إذا قدر لك نزول هذه البلدة لا تنسى أن تمر عليـه وتتـفـرج؛ دعك من الأهرامـات وأبى الهـول وسقارة، بل دعك من البطلمى والقبطى والإسلامى والمملوكى وكل ما تلوكـه ألسنة المرشـدين السـيـاحـيين؛ وانظر فى عـجـيـبـة الحـاج السنى وحدها، ففيها - أقصد فيه - كل الأزمنة والأنتيكات؛ عافاه الله وأعطاه طول العـمـر حـتى يتمكن من مص كل مـا فى العروق من دم، ومـا فى الأرض من رحـيق، ومـا فى السـمـاء من ماء، ومـا فى الجـو من هواء، يقـتل الفـجـر فى كل يوم ويمـشى فى جنازته مـحنى الرأس من فـرط الخشـوع والتقـوى، وتباركـه الشـمس صبـاح كل يوم، تبرم فى عـوده وتصلب كعود الخيزران..

«شوقى» ياخال؛ خذها من العبـد الفـقير إلى ربه تعـالى «حسن أبو على» ولد أبى ضب: هناك مـصـران ياولد العم لا مـصر واحـدة: مـصـر الصعيد والوجه البحرى، ومصر القاهرة وحـدها، عليها اللعنة إلى يوم القـيـامة. «شوف» ياخـال؛ لست متعلما وإن كـان أعـمـامى من الفقهاء النبهاء؛ إنما أستطيع أن أقول لك بالفم المليان: إن مصر كنانة الله، التى ورد ذكـرها فى كـتـابه العـزيز هـى الصـعـيـد والوجـه البـحـرى؛ هى مـصـر ذلك الزمـان، التى تعـهـد الله بحـمـايتـهـا من كل شر وخـراب ومن كل

معتد أثيم؛ أما مصر القاهرة هذه، استعنت عليها بالله أن تجيئها شوطة تأخذها إلى غير رجعة بكل ما ومن فيها، وأن يجرى الزمان بقيام عاصمة جديدة فيها عالم نظيف طاهر اليد. .

مصر القاهرة هذه يابوى هى التى ابتناها علية القوم من الفاتحين الأجلاء - «شوف» الأكادة - فمن الفسطاط إلى العسكر إلى القطائع إلى القاهرة المعزية - الحسينية والجمالية - إلى قاهرة الإفرنج من تخوم الأزبكية حتى ميت عقبة. . هذه كلها كانت مجرد سكن للحاكم الجديد ولأسرته وعلية القوم وأتباعه وعائلات خدمه وحشمه. هذا ما تعلمته من أولاد الحلال القارئين، ومن وكيل النيابة الذى كان مسجونا معى، حتى بربش وهندى وغزولى وبسبوسة يعرفون هذا من غير قراءة فى الكتب. وحيث يسكن الأمراء والحكام والمرفهون لابد أن يعف على مساكنهم ذباب كثير، حشرات من كل نوع تتغذى على حسابهم. الكل عبيد ولا أخلاق للعبيد وإن لبسوا فاخر الثياب من خلع أسيادهم وأكلوا شهى الطعام من فضلاتهم. ومهما تقلد العبد خطير المناصب أو جليلها، يظل العبد الذى فى داخله يسبح بحمد سيده، يوجه كل همته فى تقوية سلطانه وتعلية جبروته وتثبيت طغيانه، حتى ألفوا مثلا وسخا يقول: من أكل خبز اليهودى يضرب بسيفه. اسمع كلامى يابوى وصدقنى أن اللص فى مصر القاهرة هو السيد الحقيقى مهما تفه شأنه وقل نفعه، والكل يسرق على قد حجمه ومركزه يابوى، هو وشطارته، ولربما يقع فى قبضة الحكومة فى كل يوم، ويمثل أمام المحاكم كل أسبوع، وكل ذلك يصبح مجرد رياضة ونزهة يقوم بها، فهو واثق أن الدينار سيد الأخلاق. افعل ما بدا لك فى هذه البلاد

يابوى، فأنت لن تستطيع رؤية الدينار وهو يغادر يد الفاعل داخلا فى ذمة الحارس. أنت يابوى فى هذه البلد لا تستطيع أن تحكم بالقانون؛ ووالله لو وضعت على رأس كل فرد قدمى شرطىّ مدجج، بل وحتى لو وضعت فوق رأس كل شرطى قدمى شرطىّ آخر، إن الفساد ضارب فى كل النفوس يابوى، البذرة نفسها مسمومة من الأساس فكيف يتم إصلاحها يابوى؟ إنهم قوم لا ينفع معهم وعظ ولا إرشاد ولا ردع، لأن الوعظ والإرشاد والردع عندهم فى حاجة إلى وعظ وإرشاد وردع فكيف يتم ذلك يابوى؟ كيف يابوى حفظك الله؟ تحلف اليمين ياخال أنهم قوم يشجعون اللص وينفخونه ويمكنونه من كل المنافذ حتى يتمكن منهم أنفسهم، ويمص دمهم بصنعة لطافة أو بخشونة العافية؛ ويا حلاوة اللص فى نظرهم لو كان ظريفا؛ إنه والله ليوشك أن يكون نبيا بينهم..

أنا لم أقرأ الكتب يابوى؛ ولكننى عن خبرة وتجربة مريرة أقول لك أن بلد الألف مئذنة هذه تحوى من دود الأزَقه والخنازير الوضيعة والخنافيش العتيقة ما لا يمكن أن تسمع به فى مكان آخر. واه يابوى واه، تحلف اليمين أنها مخزن للدعارة والإفك والزور والبهتان رغم مظهرها الوديع ولحيتها الطويلة الساجية ورغم رائحة بخورها وحلاوة نسوانها وطراوة رجالها. هؤلاء الذين يعيشون يابوى ويطالبون بكل شىء فيحصلون عليه بالطيبة أو بالغصيبة، ألم أقل لك إن الدينار سيد الأخلاق وأنه مفتاح مخك؛ الذى يجب أن ينفتح لأى تفاهم حول أى شىء عن أى شىء؛ ستدفع كم؟ والكل يدفع بأريحية وعن طيب خاطر، لأن الجميع يشفطون ويهبرون ويبيعون كل شىء يخطر على

بالك؛ ومادام قد أصبح للذمم أسعار فقل على الدنيا يارحمن يا رحيم. الأكادة أنهم يفعلون كل ذلك يابوى، فى سهولة تامة يابوى؛ وتمضى مع ذلك الحياة هادرة كأن شيئا لم يكن: الذى تعرف ديته اقتله؛ هكذا يقول المثل عندهم يابوى!!..

أفتعرف يابوى من هو الذى يقتل كل يوم وكم عدد القتلى؟ بالطبع لا تعرف يابوى. أما أنا فأعرف؛ وجوابى أنك تستطيع أن تعرف بسهولة كم يزداد عدد القتلى كلما رأيت شخصا يضحى بالمال أو بالكرامة فى سبيل مغنم شخصى؛ ولا تنسَ أن تضيف نفسك فى عداد القتلى يوم تضبط نفسك متلبسا بفعلٍ كهذا مما تضطر لفعله كل يوم كى تبقى - فقط - على قيد الحياة يابوى!!..

أفتنتظر منى يابوى أن أعيش بين هؤلاء القوم دون أن أكون مثلهم؟ كيف يابوى؟ أتلقينى بين الثعابين السامة وتطلب منى أن أكفيها شر أذيتى لها والأذية ليست متوقعة إلا منها؟ كيف يابوى؟ ألست أنت يابوى القائل دائما فى كل وقت: إن لم تتذأب أكلتك الذئاب؟ وأن هذا مثل وارد فى الكتب مثل الآيات القرآنية؟ ها أنذا أعمل بنصيحتك وأتأكد أن البركة فى هذا المثل، وعما قريب أغدو أذأب واحد فى البشر. ها أنذا يا بوى أتطبعا بشخصية الحاج السنى وأتخلق بأخلاقه، وأحوى بعض صفاته، حتى أكملت منها وجهها وبقى الوجه الآخر. أما وجه الحرفنة فى السرقة والنهب والتهليب والتهريب فإن لم أفعله كله فإنى مؤنس فى نفسى القدرة على أشنع منه منذ أن كشفت أساليب الحاج السنى وغيره. أما الوجه الآخر، وجه اللحية والمسبحة، والرفول فى ثياب سمعة جيدة تجتذب علية القوم والحكام وتوسع من العلاقات

وتقـوى من النفـوذ، أمـا هذا الـوجـه فـأنا بسـبيل تأسـيسـه وبحث سـبل الوصول إليه بكل هدوء واطمئنان بال. كل ما هنالك ـ وادع لى يابوى ـ أن يقـينى الله عـقـوبة السـجن إلى الأبد، فالسـجن ليس عـقـوبة اللص الكبير فى بلادنا يا بوى؛ إنه عقوبة اللص الصغير فحسب، كلما تفهت مسروقاته عظمت عقـوبته. لهذا أعدك يا بوى أننى لن أكون هذا اللص أبدًا؛ إنما سـأكـون ذلك الكبـيـر الذى يعلو بنفـوذه فـلا تطاوله هامـة القانون، ولا تعرف طريقه عربات العسكر.

التاسعة: حساب على تخوم الجحيم

ذلك ما حدث لى فى جوار قبر أبى وهذا كل ما دار فى خاطرى من حوار أمام شاهده. كيف يابوى مررت على هذا القبر وأنا ملغم بالممنوعات وليس من الصواب أن يرانى أحد أو يحتك بى أحد، فكيف جئت إلى هذا القبر لأقرأ على روحه الفاتحة؟ أنا الذى جئت من تلقاء ذاتى أم أنه نادانى فجئت مزدجرا؟ إذ بينما أدخل البلدة كانت الشمس خارجة ورقبتها دامية على أطراف سكاكين السحب البيضاء المرمدة الزاحفة نحوها كالغول يوشك أن يبتلع بقية الرأس الصغير لنغيب كلنا فى جوفه المظلم. مع المغارب تيقظت الليالى الفائتة التى تركتها على هذا الطريق بين هذه الحقول والجبل بشقيه، خيل لى والله يابوى أن أبى طالع من الخُص الذى يخفر فيه ماكينة المياه يستعجل قدومى فى قلق. شعرت والله بالحنين إليه، الدم يحن ياخال. قلت: لقد طلبنى إذن ولأكونن نذلا وابن حرام إن لم ألبه فاتحا أحضانى، هى تخريمة قصيرة عبرتها إلى سفح الجبل فصرت أمام المقبرة. وشعرت والله أننى كنت فى حاجة إليه ينصرنى فى هذه العملية الكبيرة التى عملتها، وعملتها فى من؟ فى سبع من سباع الكهن واللؤم واللصوصية، وله بين كبار

الحكام أرهاط من الأصدقاء والخلان والعشاق والمسامرين، وهو الباذل فى كل حال هدايا من الأنتيكات والأثريات وفلوسا رخيصة يذبح بها ذمما وضمائر لا حصر لها.

وبعد أن جالت كل هذه الخواطر برأسى ولعبت فى بطنى تذكرت أننى لم أقرأ الفاتحة بعد، فقرأتها على عجل. ثم تأبطنى الليل حتى وصلت إلى دارنا والناس كلهم مشغولون فى صلاة العشاء فلم يحفل بقدومى أحد. فلما فتحت الباب ودخلت وأغلقته من ورائى بسر هادئ؛ أيقنت أن روح أبى قد حضرت وباركتنى فعافانى الله إكراما لخاطرها؛ إذ هى منذ لحظة صعودها إلى بارئها ـ كما يقول عمى الفقيه دائما فى كل مأتم ـ صارت من جديد نفسًا بريئةً طاهرة فى رحاب الرحمة الواسعة. الفأل الحسن يمضى حسنا إلى النهاية، هكذا يبدو الجواب من عنوانه. على ضوء عود الكبريت رأيت لمبة الجاز نمرة عشرة متربعة فوق رفها الخشبى يغطيها التراب، ولكن الجاز فيها واضح حتى منتصفها. الحمد لله، خلعت خلقاتى كلها؛ نفضت جسدى من كل ما خبأته فيه من تحف ثمينة وكنوز نفيسة؛ غطيتها بحلة كفأتها فوقها. ثم جئت بكريك ومنقرة صغيرة، وجعلت أحفر فى الأرض بصبر وقوة حتى لا أصدر صوتا ينبه إلى وجودى؛ إلى أن وفقنى الله فاصطنعت بئرا صغيرا محندقا مربعا فى حجم صندوق جدتى. ياما أنت كريم يارب، هذه شيكارة أسمنت باقية من أيام البناء؛ عجنتها بالمونة؛ وليست البئر من جميع الجهات تلييسًا جيدا كأننى صنعت له حوائط بالبتن، تركته حتى يجف، ثم اختلقت لوحا كبيرا من الخشب سويته على قد حلقه. صار مؤكدا أننى فى الصباح سأدفن ثروتى فى هذه البئر

المربعة الكبير، وأغطيه بلوح الخشب هذا وأردم فوقه مسويا به الأرض وفى الآخر أضع السرير فوقه فى هذا الركن ليختفى البئر عن الأنظار تماما وينجو من تحسس الأقدام الفضولية. صار بإمكانى أن أرتمى فوق السرير متمنيا على الله ألا يحس بوجودى أحد حتى أتمم العملية فى أمان الله . .

مسيت على المصباح، فلمّ خيمة ضوئه وابتلعها، تاركا بصيصا يدل عليه. مادريت إلا وعمى الفقيه الكبير المتوفى قاعداً على تخوم الحائط المجاور للمصباح بكامل هيئته. ارتعت ياخال: يدى تكاد تمتد لتصافحه. غير أنه لم يكن ينظر لى أو يشعر بوجودى، بل كان كعادته مستغرقا فى حديث العشاء الذى يعظ به الناس كل يوم فى دارنا، عقب صلاة العشاء. كان يقول عن يوم القيامة كلاما عجيبا يابوى؛ ما سمعته منه إلا وشملتنى رعشة الخوف من يوم الحساب فى الآخرة: إنه يوم بشع ياخال والعياذ بالله، وسبحان المنجى من عذابه الأليم: يوم تكون كل الأجساد التى على ظهر الأرض قد فنيت، وباتت ترابا فى تراب ولم يبق من الجسد إلا فسفوسة كالسمسمة كامنة فى أسفل العمود الفقرى للبنى آدم فوق الذيل مباشرة واسمها عضمة الذراع؛ حينئذ ـ خلى بالك يابوى وافتح مخك ـ تبدأ هذه الفسفوسة تنبت فى جوف الأرض ولكن إلى الداخل، حيث ينمو عودها فى بطن الأرض قدر ما ينمو؛ وإذ ينادى المنادى لحظة المثول أمام الخالق فى ذلك المشهد العظيم، تنفلت كل هذه العيدان النابتة الطائرة فى الهواء، ذاهبة فى سمت النداء. هذا إذا كانت فى الأصل لمخلوقات من ذوي الأصول الطيبة والأعمال الحسنة ممن هم بلا ذنوب يابوى. فأما المذنبون فى

الدنيا، فآه على محنتهم وما يجرى ليهم يا بوى؛ تظل العيدان المذنبة تحاول نزع نفسها من باطن الأرض الملتهبة دون جدوى، فتبقى هكذا يسفعها الريح واللهب إلى أجل غير معلوم . .

خفت يابوى؛ وسحقنى الخوف فى جوف الفراش فلم تقو على احتوائى، بل ضاعفت خوفى. دفنت رأسى فى ثنية المخدة، وألقيت بنفسى عنوة فى قلب الظلمة المدلهمة، لا أبغى رؤية شيء ولا التفكير فى شيء. صرت أقرأ الفاتحة مرة بعد مرة، وسورة يس، وآية الكرسى، حتى انقطع سياق الآيات فجأة وكف طنينه فى دماغى؛ وقد انجابت الظلمة فجأة، فظهرت السماوات، وظهر الضوء والدنيا أمامى سداح مداح، لا بناء لا زرع لا ماء لا شجر لا طير لا بشر لا حشرة، لا شيء سوى الضوء والفراغ والرمال والرعب الهائل العظيم. أنا ـ آنئذ ـ مربوط من مؤخرتى فى مرتفع من الأرض، كأن مسماراً بقلاووظ قد ثبت فى مؤخرتى أسفل الذيل وفى جوف الأرض ومربوط من الطرفين بصامولة حديدية قابضة. بكل ما فى من جهد وقوة جعلت أعافر وأعافر، أحاول نزع نفسى من الأرض بدون جدوى، وروحى متعثرة متحشرجة فى حلقى، لا هى تعود إلى صدرى ولاهى تطلع نهائيا وتريحنى؛ حتى الصراخ يرتفع داخل جمجمتى ولا أقوى على إطلاقه؛ ومن حوالى ومن كل ناحية أرى عشرات المئات من الأجساد كالأعواد تنخلع بسرعة هائلة عن الأرض؛ فتطير فى الهواء نشوانة فرحانة فى سمت النداء. وقد ظهر لى كأن الأرض كلها لم يعد فيها نبت معذب سواى ياخال، فصارت نفسى تتمزق، وصرت أحاول وأحاول حتى كففت عن المحاولة درءاً للوجع العظيم الذى يمزقنى من

المعافرة. كنت أزفر فى صيحات استغاثة ذليلة: رحمتك يا.. رب.. عفو.. ك ور.. ضاك يا.. ر.. ب. حتى استجاب سبحانه لدعائى؛ إذ ما كدت أشرع فى المعافرة من جديد حتى وجدتنى منتزعا من الأرض، غير أننى لم أطر، بل صرت أمشى على الرمال وحيدا، حيث لا شىء حوالى أو أمامى. كنت متيقنا بينى وبين نفسى أن لا مفر من الحساب، وأنه لم يبدأ بعد، وأننى ذاهب الآن إليه. وكنت أتعشم أن الله سبحانه لابد يدخر لى رحمة، إكراما لخاطر أعمامى الفقهاء مثلا، أو تقديرا لظروفى يابوى. فجأة وقع بصرى على بنايتين متجاورتين على طراز يشبه المساجد لكنه ليس بمسجد، البناء جديد ولامع ومهيب. إحدى البنايتين تمتد إلى الأمام بضعة أمتار عن الأخرى؛ ولهما بابان يفتحان فى اتجاه واحد. جعلتهما قبلتى ياخال؛ فلما اقتربت منهما تبينت أن البناية المتقدمة لها باب عتيد كأبواب السجون الحديدية العتيقة المقرحة بلون الصدأ والرطوبة؛ شكله والعياذ بالله مخيف مرعب. أمامه تبينت ناسا كثيرين لا حصر لهم يقفون فى ساحة قاحلة أمام البوابة فى حالة انتظار. أما البناية الثانية فقد ظهر لى أن شكلها فخيم، وليس لها باب يغلق؛ وحبال الورد الخضراء تتدلى بورودها على الحائط ظهر أنه سور عظيم ياخال. ولم يكن أمام هذه البناية ثمة من أحد، فتقدمت من بابها، وهممت بالدخول فإذا بجسد غليظ ضخم يظهر مائلا من وراء الجدار، فيعترضنى بعينين ماكرتين قائلا: رايح فين؟! قلت مرتجفا: تسمح لى أدخل؟! فأشار بيده نحو البناية الأخرى قائلا: شوف اسمك هناك. فأخذت أنفض نفسى فى الأرض ياخال، أصرخ صراخا لله ما يغيثنى، أصوات كالنساء كالحيوانات ياخال؛ وكلما اتجهت نحو طابور الحشر ارتددت مصوتا

فزعا ألطم وجهى وركبتى بكفى، والدموع والعرق يبللان جسدى كله، طار صوابى ياخال؛ فصرت أجرى مبتعدا وأنا متيقن من أنه لا مفر من الحساب، يعنى بالعربى لهم حقوق عندى لابد أن يأخذوها؛ وليس هناك مكان أهرب إليه. لكن البنايتين اختفتا وعادت الدنيا سداح مداح كما كانت: رمل وسماء ودخان قاتم، إلا ويظهر أمامى نهر عريض فيه قارب كبير. جريت نحو القارب أصيح مشوحا بكل عزمى. النوتى كان رجلا طيبا؛ حرف بوز القارب نحو الشاطئ واقترب منى؛ فإذا فوق القارب جمع كبير من الناس لكنهم منكمشون فى بعضهم من شدة الريح والنوتى رفيع ممصوص يوحوح قائلا وهو يمد لى سقالة اتشعبطت فيها: «تعالى دفينا يا بو العم. ورغم أننى لم ألمس الماء فقد شعرت بخلقاتى غرقانة فى المياه ثقيلة على كتفى. فلما ركبت واعتدل القارب وصار فى وسط النهر يضربه الموج والريح من كل مكان؛ كنت واثقا أننا ربما نكون ذاهبين بهذا القارب إلى المنطقة التى يتم فيها حسابنا وتسويتنا على الجنبين؛ إذ لابد أن يكون كل ما هاهنا يعمل لحساب الحساب، فنحن الآن فيما لاح لى فى منطقة الحساب وأينما توجهت تتلقفك أيد تجرك إلى الحساب.

اللهم اجعله خيرا، لم أدر أننى كنت ما أزال فى قلب سريرى إلا حين وقعت منتفضا فوق تراب الحفرة، وكان الضحى لحظتها يركب الحيطان. لقد أفزعنى منظر الحفرة يابوى؛ تخيلتها قبرى الذى انفتح لأطلع منه إلى الحساب؛ فنكت جسدى فى الحال ونزلت؛ دفنت الغنيمة كما رسمت لها؛ وضعت فوقها لوح الخشب؛ ردمت لوح الخشب بالتراب سويته بالأرض. بعدها غسلت وجهى وسويت الخلق

على كتفى، وطلعت أسأل عن صديقى «هليّل» وعلى أخواتى البنات وعلى أمى.

على أن قلبى ـ تحلف اليمين يابوى ـ كان يتلوى بين جنبى ويزعق فى صدرى من شدة الألم. ذلك أننى مررت بجوار غابة النخيل فى طريقى إلى دار «هليّل». ولدار «هليل» طريق آخر من وسط البلد عبر حوار ودروب ضيقة وخلال بيوت خربت من أيام الحريق ولم يقو أصحابها على إعادة بنائها لضيق ذات اليد، غير أننى لا أدرى لماذا نفرت من هذه الطريق نفرة شديدة ووليت نحو الغيطان ملتفا حول البلدة، لعلنى كنت مشتاقا للمرور حول البلدة ورؤية الناس، ولكن يبدو أننى كنت أضمر الفوت على دار «كاملة». بمجرد اقترابى من غابة النخيل تذكرتها، فانقبض قلبى وشعرت بالرجفة، وأسرعت خطواتى حتى لا أطاوع قلبى المجنون فى الذهاب إليها. مع خطواتى حاولت أن أنساها، وأنسى أننى كنت السبب فى موت زوجها ياخال. كرهت أن أراها أرملة، وكرهت أن ترانى هى، فندمت على الفوت من هذا المكان..

ولكن هيهات، لقد رمى بها الله فى طريقى غصبا عنى؛ بعد أن كنت قد جاوزت النخيل كله وصرت على مقربة من دار «هليل». مخى الصعيدى لم يكن يعرف أن «كاملة» موضوعة فى طريقى وليس فى مكنتى أن أزيحها..

كانت قادمة من بعيد حاملة زلعة المياه فوق رأسها، وفى ذيل جلبابها يتعلق طفلان صغيران. تحلف اليمين ياخال أننى عرفتها من خيالها يزحف على الأرض متميزا عن خيال النخيل، كظل نخلة آدمية

ممشوقة القد، على صدرها عرجون بلح يتهدل يبغى الوصول إلى فم الآكلين. سمعت قلبى يرتعش وأوصالى كلها ترتجف، تحلف اليمين ياخال أننى ليلة اقتحمتها فى عقر دارها ما كنت خائفا هكذا. .

وا. . ه ياخال، كيف بالله كانت هذه الغزالة الوديعة الحانية بظلها على الأرض تنام فى حضن سقاء محنى القامة طول عمره، قد رطبته مياه القربة حتى بات - يقولون - يحيض كالنساء؟ حظ أعمى بعيدا عنك. ولكن، لولا أن هذين الطفلين يشبهان أبيهما السقاء ما ظننت أنه اعتلاها مرة واحدة؛ إذ يقول جسدها ذلك ياخال، ويقول بكل طلة من عينيها أنها لاتزال عذراء لم يخترقها أحد وإن كانت قد حملت وولدت مرتين. حقدت والله على أبيها ذلك الحمار التخين المخ، كيف رضى أن يزوج ابنته هذه من السقاء المضعضع، الذى لا وراءه ولا قدامه؟! أكان يرمى ابنته رميا؟! أكان كافرا بنعمة الله هكذا فيتركها ليدوس فوقها الكافرون الشرهون وإن كنتُ منهم؟! واه ياخال؛ لقد مات عائلها وتشردت بسببى، دون أن أذوقها ولو بقبلة، بضمة واحدة، كل صياع البلد ركبوها فى أمان الله وأكلوا من العرجون حتى شبعوا فلم يشعر بهم أحد ولا غلت عليهم ظرف سخيف طارئ. أما أنا فلا، إننى أعرف حظى المهبب يابوى؛ ما أكاد أصل إلى قطوف الجنة حتى يطلق الله على كلبا يفزعنى أو ينهشنى فأرتد محروما أطلب السلامة مغنما. الكل يركبون وأنا أحزن وأتحمل الوزر، فلابد أن يكون للمولى الكريم حكمة فى ذلك ياخال؛ وكيف يكرمنى ولو بلحسة من هذا الطعام الجيد المستباح وأنا دائم الخناق معه ولا أفعل حتى الآن شيئا يرضيه؟ إن الله ليس مغفلا ياخال؛ وهو سبحانه أراد أن يكيد لى ليلة زرت

«كاملة»؛ ولسوف يكيد لى على الدوام كلما أردت ارتشاف العسل، قلبى يحدثنى الآن ياخال أن أعانده كما يعاندنى، أن أفعل مثلما فعل جدى البعيد آدم عليه اللعنة، أن آكل من هذه الشجرة المحرمة؛ وإلاّ ركبنى الجنون ومشى عقلى إلى غير رجعة ـ طيب يارب، أنت سبحانك حرمتنى منها، وفشختها لأصيع خلق الله وبعضهم أعرف أنه خنثى . .

يه . . يه . . يه . . الآن فقط فهمت قصدك يارب. صدقنى إننى فاهمك وفاهم ألاعيبك معى بالخصوص فى هذه الشغلة. أنت سبحانك تلف على لكى تجمعنى عليها فى الحلال، على سنة الله ورسوله؛ أليس هذا ما تقصده بذمتك يارب؟! «شوف» يارب، لف علىّ كما يحلو لك، ولكننى أعرف أن هذا ما تدبره لى؛ تظننى مادمت صعيديا يعنى مخى مقفول؛ تمشى وراء أولاد القحباء من أهل مصر القاهرة الذين يشيعون عنا سخيف النكت والشائعات، طب والله والله والله، يمين أحاسب عليه فى نار جهنم أنك دبرت لى هذه الشغلة فى ضربة معلم مضبوطة لا تخر منها المياه جعلتنى أقابلها فى سوق بلدة (صدفة)، ونطس فى بعضنا من غير أن يسعى أحدنا إلى الآخر؛ وجعلتنى أدخل عليها بجرأة فأكلمها فتواعدنى بكل بساطة مع أننى أسمع أنها تدوخ الرجال قبل أن تؤامن لهم وتواعدهم، وقد وضعت فى قلبى الشجاعة والمرجلية حتى قويتنى على نط جدار دارها والنزول إليها لأصير قاب قوسين أو أدنى من حضنها، لتفاجئنى بالفضيحة الكبرى وتوشك أن تقتلنى؛ لكنك برحمتك هزأتنى فحسب، ونجيتنى لحكمة تريدنى أن أعيها، وها أنذا الآن قد وعيتها ولن أنساها، ثم إنك سبحانك نفخت فى جسد السقاء فعاش رجلا لمدة عشر دقائق فى حياته

كلها ومات بعدها. أنت سبحانك تريد أن تميته فى الأصل، لأدخل أنا وأحل محله نهائيا من أجل هذه الولية الغلبانة المحرومة من نسمة الدنيا سنين طويلة مع السقاء. جعلتنى سببا لموته، حملتنى الوزر؛ ووضعت محبة الولية فى قلبى فوالله والله والله لأتزوجنها، حتى يعجبك يارب.. نعم سأتزوجها، هل أحد شريكى؟ هذا ما نويته وعزمت عليه ولن يردنى عنه مخلوق. لقد فهمتك يارب حق الفهم، وسوف أؤدى لك هذه الخدمة؛ فأنت وحدك الذى سيقدرها حق قدرها، هذا جميل أتعشم أن تذكره لى كلما رأيتنى واقعا فى ضيقة. أنا يارب سأتزوج هذه الولية الغلبانة لأمنعها من فعل الحرام، سأرويها أنا؛ دع هذه المهمة لى فأنا النهر الذى سيغرقها حتى لا تبص لأحد غيرى؛ سألمها من الشارع؛ وهذان الطفلان سأكون لهما أبا؛ فمن أجل الورد يسقى العليق..

مسحت على وجهى بيدى كأننى أوقع بصمتى على هذا العقد الذى أبرمته لتوى مع الله، وشعرت فى الحال أنه سوف يسامحنى على كل ما ارتكبته فى حقه من لبط، تهيأت للوقوف فى طريق «كاملة» ومفاتحتها فى هذا الموضوع من غير لف ولا دوران، لكننى حين رفعت كفى عن وجهى لم أجدها يابوى، كأن الأرض انشقت وابتلعتها، تمخولت، صرت كالطفل الذى تاه من أمه؛ ودخل فى روعى أننى لن أراها ثانية، فبقيت فى مكانى ألف وأدور وأرسل البصر أكاد أجعر باكيا، خطوت مسرعا حيث كانت من دقيقة؛ أطلقت عيونى بين صفوف النخيل، فرأيتها تدخل دار المعلم «جرجس غطاس»؛ فعرفت أنها تعمل فى شغلة زوجها؛ وتقرفصت بين جذوع النخيل أنتظرها، جعلت ألف سيجارة مخلوطة بالحشيش وجعل قلبى يستريح لما انتويته، وحين

سرى دخان الحشيش فى مخى تيقنت أن الله قد أكرمنى بالسريقة الأخيرة ونجانى من خطرها إكراما لهذه الولية، والمؤكد أنه سبحانه جر رجلى إلى البلدة لكى أكفر عن ذنوبى وأفعل ما سأفعل.

إلا وهى قادمة، والبلاص ممدد فوق رأسها، وكان واضحا أنها قد تخلصت من طفليها حتى تسرع فى جلب مزيد من المياه، ولابد أن الطفلين انشغلا بالحلوى الكثيرة فى دار المقدس «جرجس غطاس»، إذ إنه صاحب دكان بقالة كبير فى بلدة «صدفة»، وله دكان آخر فى قلب السوق، على مقربة منّى توقفتْ كالمذهولة، فنهضتُ واقفا: «إزيك يا كاملة» فظهر عليها الفرح رغم الحزن الكبير فى عينيها وكانت النضارة فى وجهها تؤكد للأعمى أنها بدأت تأكل الوجبات الثلاث كل يوم، وثمة شىء لا أقدر على وصفه كان فى وجهها وهيكلها يوحى لى أنه قد نظفت من شغلة اللبط التى كانت ماشية فيها، وجاءنى يقين بأنها التحقت نهائيا بخدمة المقدس «جرجس غطاس» وأنه اشترط عليها حسن السمعة؛ وأنها رخبت بذلك لعلها تجد عريسا يعوضها ما فات وتتوب على يديه، هزت يدى بحرارة وهى تقول: «إزيك يا حسن وإزى مصر!» ثم غالبت الدموع فى عينيها ببسمة أجارك الله من لسع نورها، وقالت: «من يوم المرحوم ماحدش شافك!» قلت وصوتى يرتعش وليس فى استطاعتى له: «أنا جئت اليوم من أجلك وحدك!» بدا كأنها توقعت منى شيئا يغضب الله حيث قالت: «كفاك ما حدث، أنا الآن واحدة أخرى غير التى كنت تعرفها اسأل عنى لو أحببت! وحل عنى الله لا يسيئك! أنا باشتغل عند ناس طيبين لا يبخلون على بخيرهم! فإن كنت تخشى الله فلا تسبب لى فضيحة جديدة! أنا ما

صدقت أن البلدة نسيت ما حصل» قلت وقد أوشكت على العياط : «حتى لو كنت أطلبك على سنة الله ورسوله؟!» شهقت الولية ياخال ؛ ارتاع وجهها ، فارتد البلاص للوراء وقالت كأن بصة نار لسعتها : «إيه! أنت صاحى لنفسك؟!» قلت بكل حرارة : وحق من جمعنا على غير ميعاد إننى نويت أن أتزوجك على سنة الله ورسوله! عندى هنا دار مبنية بالبتن كدار العمدة! وأقدر أن آخدك معى إلى مصر وأستأجر لك دارا!» . .

وا . . ا . . ه ياخال ؛ ما كل هذه الدموع التى انهمرت على وجه الولية؟ لقد وقفت مذهولة لا تنطق واستعجلتها الرد قائلا : «قلتى إيه يا بنت الناس؟ أنا أحبك وأريد أن أصلح غلطتى معك! وسوف أهنيك واستتك ؛ وشرطا سأنفذ كلامى فى الحال!» .

شوحت الولية بيديها فى يأس قائلة : «هل يوافق أهلك؟ وأمك؟!» قلت مشوحا : «أنا أزعق صوتى من دماغى! ليس لأحد كلمة على! وإذا وافقت أنت فإنى من الليلة سأصحب الرجال إلى أبيك لأخطبك منه» . .

فما نطقت بهذا إلا وانفجرت هى تبكى من كل عين حفان ، فتذكرت سبب ألمها يابوى . نعم فإن «كاملة» لم يعد لها أب ؛ فقد مات أبوها وهى طفلة ، فربتها جدتها لأمها ؛ ولما كان «سعداوى» السقاء يمت بصلة قربى لجدتها لأمها ؛ فإنه تقدم للزواج منها فوافقت جدتها وبعد زفافها على السقاء بشهور قليلة توفيت جدتها ، تذكرت هذا ، فبكيت أنا الآخر ، أى والله ياخال بكيت أشد منها ، وقلت لها : «أنا إذن أخطبك من نفسك!» قالت وهى غير واثقة : «إن كنت تريد أن

تتزوجنى حقا فإنك تقدر أن تخطبنى من المقدس جرجس! إنه الآن ولى أمرى! قلت بكل حماسة: «وماله! غدا أجىء بالرجال وأفعل!» قالت وهى تنصرف: «أفوتك بعافية!» ومضت.

بقيت فى مكانى، وحتى لا يرانى أحد أمشى وراءها، تقرفصت حتى تختفى هى، لففت سيجارة أخرى محشوة بالحشيش، ماكدت أشعلها وأستمخ من أنفاسها حتى طلعت الشمس تمشى على قدمين، قادمة وسط النخيل، حاملة على رأسها حزمة حطب، ارتعت ياخال فانتفضت واقفا، وبلا حياء وضعت نفسى فى طريقها، محاولا معرفة هذا القمر الذى لم أعرفه من قبل فى بلدتنا. .

شهقنا معا، بل صرخنا فى نفس واحد: «أهو أنت؟!» كيف هذا يابوى؟ من يصدق هذا؟ «حنة» بنفسها؟ بعد كل هذه السنين وكل هذا العذاب فى انتظارها، أفاجأ بها هكذا أمامى بكل هذه البساطة؟ لقد كنت مستعداً أن أسافر إليها فى الهند والسند لو قالوا لى إنها هناك، قلت «كيف حالك يا حنة؟!» قالت: «بخير! الحمد لله» قلت: «أين أراضيك؟!» قالت: «أشتغل فى دار المقدس ميخائيل إبراهيم» قلت: «تزوجت أم لا؟!» قالت: «مازلت أنتظر ابن الحلال ربنا يسوقه!» قلت فى الحال دون أن أدرى «لقد ساقه بالفعل يا حنة!». تلفتت حواليها ضاحكة فى خجل، قائلة: «أين هو؟!». قلت مشيرا بيدى إلى صدرى: «هاهو واقف أمامك! هو أنا»!، قالت غير مصدقة: «أنت؟!» قلت: «ومن غيرى؟ والله لن يقرب منك أحد سواى!». قالت باسمة كأنها غير مصدقة: «ربنا يعمل ما فيه النصيب!». قلت: «والعمدة؟!» قالت متنهدة: «أولاده افتروا علىّ! لمنّى المقدس

ميخائيل! أخدم نسوانه وداره! ويحوِّش لى الماهية كل شهر! ويطعمنى ويكسونى!» قلت: «هل أخطبك منه؟»، قالت: «لا أحد غيره!».
قلت «إذن! كلميه فى الأمر!». فهزت رأسها موافقة، ثم مضت. وبعد خطوات أدارت رأسها نحوى ونظرت، فابتسمنا، وقلت لها: «لا تنسى ما قلته لك يا حنة!» هزت رأسها تحت حزمة الحطب، ومضت تتلعبط كالبلطية فتقرفصت من جديد أدخن السيجارة وقد ذاب مخى فى الفراغ بين النخيل؛ وصرت لا أعرف ماذا أفعل؛ لكننى نهضت متوجها إلى دار صديقى «هليل» وكنت أجر دماغى كأنه مربوط بسلاسل فى قدمى، غير أننى حين تملكت الطريق، لم أدر إلا وأنا متوجه إلى محطة «صدفة» لأركب القطار عائدا إلى مصر القاهرة.

عجلة الحظ عشرة

الأولة ـ بركة دعاء الوالدين

ربنا سهل، وتم كل شيء على التمام كما رسمت له يابوى؛ وعدت إلى هذه الملعونة ـ أقصد مصر ـ أقصد مصر القاهرة ـ من جديد، لا من شاف ولا من درى. عينى كانت قوية يابوى؛ ويعلم الله إن كان ذلك من وحى مرآى للبنت «حنة» بعد طول سهر والتياع، وللمرأة السيالة «كاملة» بعد طول تمن واشتياق. . أم أن الأمر راجع إلى قرة عينى من الأصل؟ الله أعلم، لكننى كنت فى حالة فرح واغتباط لا مثيل لهما فى حياتى؛ فغدا أو بعد غد أنام على سرير ذى جناحين، على يمينى «حنة» وعلى يسارى «كاملة» ولقد حلفت برأس أبى لأجمعن بينهما فى سرير واحد. نعم ياخال، إذ لا مفر أمامى غير هذا الحل إنهاء لوجع الدماغ؛ وإلا فدبرنى ياخال؛ لو كنت مكانى على رأى ما يجىء فى الراديو، تقول إننى يجب أن أكبر مخى فأجعل لكل واحدة يوما معلوما أو جمعة معروفة، حتى يتجددنى الزمن ولا أقع تحت طائلة الملل؛ فبدلا من أن يكون لى بيت واحد يكون لى بيتان، أزور هذا وأعرج على ذاك عوداً على بدء؛ وأحيط كل واحدة بخميلة . . الخ . .

أنت ـ لابد ـ تقول فى نفسك هذا . وهذا ـ لو صدقتنى ـ صغر مخ يابوى عدم المؤاخذة، والناس إلى ذلك يقولون: من يتزوج اثنتين فهو إما قادر وإما فاجر، ومن يتزوج ثلاثة أو أكثر فهو قادر وفاجر معا، والأمر أبدا ليس هكذا يابوى، فى نظرى على الأقل يابوى، الأمر أبسط من ذلك بكثير؛ غير أنه الغشم وتخانة المخ يجعلاننا نفتح بيتين، لنخلق لأنفسنا جبهتين تتنازعننا تنهشاننا حتى النخاع وفى النهاية تتعاركان حول عظامنا النخرة، كل واحدة تتوهم أن وراء العظام النخرة سراً دفنته الأخرى. . تفتح بيتين يا بوى توزع نفسك بالعدل والقسطاس ولن تعجب مع ذلك هذه أو تلك؛ ستبقى الواحدة منهما طول عمرها تعتقد أنك تعطى الأخرى زيادة عنها فى الخفاء الذى لا تراه هى، وستبقى تبعا لذلك تضمر لك مؤامرة سرية غامضة تنوى بموجبها الاستيلاء على أكبر قدر من بقاياك، ومجنون أنا يابوى كى أفعل هذا؟! إن المرأة كائن عظيم الشأن ما نقول فى ذلك شيئا، لكنه يحتاج لمعلمنية فائقة الحد فى معاملته؛ إنه كالقط يألف الدفء يركن إليه يطلب المزيد وفوق ذلك يفرض حصارا على ركنه عشه؛ ويل لقط عابر يقتحم عشه؛ انظر إليه ياخال وهو وينقض عليه صارخا، ذعرا ما تعرف أو فروسية ما تعرف، لكنه ربما مزق لحمه إربا ورماه من النافذة . .

العبد الفقير ليس معلما ولا دياولو؛ إنما أنا شقيان، ومع ذلك شرقان، روحى من الحرمان متشققة طافحة بالرغبة؛ وليس فى مكنتى أن أفتح دارين فى البلدة، وفى نفس الوقت أقيم فى مصر القاهرة؛ كيف يابوى؟ لسوف تنتقلان معى إلى مكان رزقى؛ وتبقى الدار فى

البلدة نزورها كلما هفنا هواء الذكريات النقى، أى أننى مجبر على دار واحدة فى مصر، جبر بجبر فليكن للسرير الواحد جبران خاطر هو الآخر.

لأغرق أنا فى المعمعة كيفما اتفق؛ ليكن سباقا بينهما فى عدل مزاجى وتكييفى على الجنبين؛ ومن تستأثر بى منهما تكون جدارتها حافزا لإبداع الأخرى، أو كاسرا لعينيها، تلكما اللتان لن تريا سوى حصحصة الحق الصراح . .

أحلام يابوى، ولكنها وقود تغذَّيت به، طرت على جناحيه حتى أننى من فرط السعادة نسيت عملتى المهببة. فاتجهت إلى سرادق الحاج السنى مباشرة. كنت ناسيا كل شىء كأنه لم يقع؛ وكانت شهقتى المفاجئة بعمق النسيان حين انقض على نافوخى ذكر الحادث فجأة. زلزلنى التذكر المفاجئ فكدت أولى الأدبار، لولا أن عين خفيره كانت قد وقعت فى قلب عينى مباشرة، فيما هو جالس بجوار الباب من الداخل يرقب الطريق بعينى الصقر الواقف لابد على شاربيه . .

شىء إلهى قوى عزمى فى الحال، وألقيت بنفسى فى حالة السرور التى كنت فيها، ووسعت من بسمتى كبرقية تحية أرسلها للخفير الذى سبق وكنت جدعا معه؛ ثم عبرت عن اشتياقى فجعلت آخذ سمتى نحوه، فلمحت على وجهه شيئا من الترحيب استشعرت على البعد صدقه - ما أنا إلا ولد زوانى أيضا يابوى كما تعرف - فخطوت نحوه بلهفة أشد؛ فما إن شمله ظلى حتى هب واقفا: «أهلا! أهلا! فينك يابو العم؟!». وكانت الحرارة فى قبضة يده، فقلت له بهدوء شديد: «فى الدنيا!» ثم عزمت عليه بسيجارة فأخذها وسارع فأشعل لكلينا.

اقعد يابو العم، هكذا قال؛ فجلست في الحال يابوى بكل كلاحة، ودون أن أتردد، لكننى شعرت بخفقة قوية فى فؤادى إثر خاطر مفاجئ بأن الخفير يدبّر لى كمينا انحبس فيه حتى يجيء سيده فيقبض علىّ بكل سهولة. تحلف اليمين ياخال أننى لاحظت الرجل فشعرت أنه قد تورط من استجابتى الفورية للقعود، فصار يتلفت حواليه مرتبكا؛ فلما لاحظ أننى لاحظت ربكته خشى من ثبوت تورطه، فاستدار نحو خصه صائحا: «اعملى شاى يامرة! بس بسرعة واخلصى من اللى فى إيدك!»؛ ثم استدار نحوى: «شرفت يابو العم! قلت: «عال! عال كيف حال الحاج؟». قال: «بخير»، وأضاف: «جاى منين ورايح فين؟». قلت: «كنت فى مشوار بسيط! وذاهب إلى بلدياتى المعلم شندويلى!»، فأضاف: «فى مصر عتيقة؟». قلت: «نعم»، ثم هممت بالنهوض خوف اللت والعجن فيما قد لا تحمد عقباه؛ فإذا هو يقبض على ذراعى بقوة فيعيدنى إلى قعدتى فوق صفيحة مقلوبة فوقها جوال «مطوى». الرعب دوى فى مفصلى يابوى، فتشككت فى حلفان الخفير؛ والله ما تمشى قبلما تشرب الشاى، ثم عزز حلفانه صائحا: «الشاى.. ياولية!». فجاء صوت الولية واهنا من الداخل: «هو على النار!». ويظهر ياخال أنه فهم من لهجتها هذه شيئا؛ فدلى أذنيه فى الأرض، وما كاد يرانى أنهض ثانية حتى نهض هو الآخر قائلا: «طب مع السلامة! يظهر إن الولية ملخومة جوه!». فقلت باسما: «كان الله فى عونها!»، وعزمت عليه بسيجارة أخرى؛ فتلقفها بين أصبعيه قائلا: «كتر خيرك يابو العم!»..

الدماء جرت فى عروقى ياخال، وصرت أكاد أتنطط فى مشيتى من

السعادة والفوقان. صرت أضرب الخطوات كيفما اتفق؛ أو هكذا خيل إلىّ، لكنني وجدتني بعد قليل أمضى داخلا مقهى المعلم «شندويلى».

وكانت الأيام التى لا أذكر لها عدداً قد مرت دون أن أرى المعلم «شندويلى». وكنت أرانى بالفعل مشتاقا إليه والله يابوى؛ وصرت أؤنب نفسى على عدم السؤال عنه فى الزمن الفائت. المعلم «شندويلى» كان أكثر اشتياقا منى؛ طول عمره جدع يابوى. ما إن لمحنى من بعيد وهو خلف النصبة ماثلا لم يتغير ولم يتبدل، حتى خرج عن النصبة فاشخا حنكه المخرب فاردا ذراعيه المعروقتين صائحا: «وشك ولا القمر يابو العم! فينك وفين أراضيك؟!». لحظتها كنت فى حضنه أقبله فى قفاه ذات اليمين وذات اليسار؛ فلما انفلت قلت: «واحشنى قوى يابو العم! والله ما تعرف معزتك عندى!». جلست على أقرب كرسى مجاور للنصبة؛ أما هو فتركنى وجاس بين النصبة، فصب واحد شاى على مياه بيضاء، وجاء فجلس بجوارى متجاهلا نداء جرسونه، قال وهو يقلب لى الشاى: «غيبة طويلة قوى يابو العم! إيش أحوالك؟!». قلت: «بخير والحمد لله! الأشيا معدن!». ثم أخرجت علبة سجائرى البلمونت العشرين ـ التى اشتريتها خصيصا من أجل هذه الزيارة، وقدمتها له فأخذ واحدة وأشعلها من بقايا سيجارة كانت بين أصبعيه. قال وهو يشد النفس فى اشتياق وحرقة: «تأخذ لك سنة أفيون؟». هتفت: «أحب النبى!» من خلف أذنه جاءت أطراف أصابعه بورقة سلوفان صغيرة مطوية، فكّها ونزع بظفر إبهامه حمصة بنية اللون، قربها من فمى فتلقفتها بطرف لسان وقد تغير مزاجى فى الحال فصار أعلى مما كان درجات كثيرة. قال المعلم «شندويلى» وهو يلقى فى فمه بملحقة جديدة من الأفيون ويتلمظ فى تلذذ مرير:

«بتشتغل فين دلوقت يابو العم؟». قلت: «على باب الله! لكنها مستورة والحمد لله! ما نعوزه نلقاه!». قال: «فأين تسكن يابو العم؟» قلت: «مع صاحب لى! ولد عترة! يسكن فى شقة صغيرة محندقة فى كيمان مجرى العيون! هو يتركنى أبيت معه بدون مقابل!» قال فى جدية كبيرة بلهجة من لا يعجبه الحال المائل: «كيف يابو خاله! ذا كلام؟! إذا كانت مستورة معك كما تقول بعين قوية فلم لا تدور لنفسك على مطرح! الجدعنة ليست فى الشغل ولا فى المكسب يابو العم! الجدعنة أن يكون لك مطرح تبيت فيه! لا يتحكم فيه أحد غيرك! من ليس له مطرح فى هذه المدينة يلقى الهوان! لا تغرنك كثرة المآذن ولابراح المساجد ولا فخامة القباب فليس تحتها من شىء سوى الرميم المسحوق! ينتهك عرض الشريد وهو نائم حتى ولو كانت على رأسه ريشة ذهب! «شوف» لنفسك مطرحًا يابو العم! اطرد نفسك قبل أن يطردك الغير بنذالة! إن كنت تنوى الشغل هنا فالمطرح أهم من الشغل بكثير!»..

ثم قام فاتجه إلى النصبة، فأعد كمية من المشاريب المطلوبة؛ رصها على الصوانى، ضغط على زر الجرس مناديا للجرسون؛ كل ذلك فى ثوان قليلة، ثم عاد مقدما لى سيجارة مواصلا كلامه: «ميتك كام يابو العم؟! تقدر تدفع كام؟ أنا سوف أعاونك على حل هذه المشكلة! أحب أن أفعل الخير دائما مع بلدياتى بنوع خاص كما تعرف، إنهم عزوة لى فى غربتى فى هذه المدينة لولاهم مافلحت بين أولاد القحباء من دود الأزقة، ممن هم من سلالة الذين استعمرونا على الدوام!». الحقيقة أنت هكذا بالفعل يا معلم شندويلى، أشهد لك بذلك وأختم بالعشرة

وأنت لست محتاجا للقول . . هكذا قلت فى نفسى وأحسست ياخال كأن الدنيا تنفتح أمامى على وسعها . صحيح قول المثل : العبد فى التفكير والرب في التدبير ؛ والمعلم «شندويلى» هذا فيه شيء لله يابوى وأنا لم يكن يخطر ببالى أن أسأله عن مسكن ، رغم علمى أنه من النوع الذى يمكن أن تسأله عن أى شيء فيقضيه لك فى بساطة مذهلة . وإذا بى كنت قادما لآخذ نصيبى الذى جهزته لى المقادير وقادتنى إليه بدون أن أدرى . قلت : «والله يا معلم شندويلى ياخوى أنا وقعت من السماء وأنت تلقيتنى ! » . شوح لى كأنه يختصر الأمر قائلا : «معك ألف جنيه ؟ ! لو معك ألف جنيه فقط يابو العم تصبح من غد واحداً من البكوات ! » . قلت دهشا بعد أن فات أوان الشهقة من هول المبلغ المطلوب : «كيف يا معلم شندويلى»؟ ! » . قال : «تسكن فى شقة على النيل مباشرة فى الدور الرابع ! أربع غرف كبيرة وصالة يجرى فيها الحصان ، ولها بلكونات من ثلاث واجهات تطل كلها على النيل ولك بلكونة تتسع لقعدة عائلة كبيرة ! عز يابو العم ! آخر عز ! لو يملكها لص من لصوص المدينة يبيعها بالشيء الفلانى ! وإيجارها ستة جنيهات فقط ! » . .

مخى دار يابوى كالزنبلك ؛ ظننت أن المعلم «شندويلى» يقول ذلك من باب الخيال ؛ على أساس أن المبلغ المطلوب لا يقدر على دفعه سوى لص مقيم وراسخ القدم أو واحد من العائدين من بلاد المال ـ لكننى ـ من باب الخيال كذلك ـ قلت له : «وأين هذه الشقة يابوى؟ ! » . قال ببساطة : «عندى أنا ! فى عمارتى ! ألم تعرف يابو العم أننى هويت بناء العمارات فى الزمن الأخير ! وقد أصابنى الكار لحسن الحظ فاشتريت

عمارة على النيل! أشهر وأحلى عمارة على النيل! لو قابلتنى قبل اليوم بفترة لكنت سعدت! كنت أشطب فى عمارتين على قد حالهما فى بولاق الدكرور وأرض اللواء! أجرتهما لبلدياتى بملاليم! كل ما هنالك أنهم شطبوها على نفقتهم، أصلهم كلهم من العائدين المعاودين، وعلى العموم فأنا قد أحببت اللعبة! أشترى الأرض فى كل مكان وأنساها! طول عمرى فىّ هذه الخصلة! وحينما أرى العمار قد بدأ يتحوط أرضى أسرع فى بنائها، الأرض كانت بالتقسيط المريح وأما البناء فبالمجان لم أدفع فيه مليما من جيبى! العمارة تسكن بجميع شققها قبل أن أخط فيها طوبة واحدة، من يكتب عقدا يدفع خلوا أكبر من ثمنها لو بيعت له! البركة فى العائدين يابو العم!، وأنا رجل بتاع ربنا لا أحب الخلوّات! إننى أخصم ثمن تكاليف البناء والأرض فقط، والباقى يسكن به، كل العمارات سهل ربنا بها وأنا واقف خلف هذه النصبة، فالمقاولون كثار! والأنفار أكثر، كل بلدياتى أنفار! والمونة متوفرة طالما القرش صالب حيله! القرش هو الرئيس الأعلى فى هذه المدينة، نعود إلى هذه العمارة التى لو كانت أمك داعية لك فى ليلة القدر لسكنت فيها! لقد اشتريتها من أجل شقة أحببت أن أسكنها! تلك هى التى سأمنحها لك هدية! لكن الرياح دائما تأتى بما لا تشتهى السفن يابو العم، الدور الذى فيه هذه الشقة والذى تحته تسكنها طائفة من المومسات والقوادين والمشتغلين فى شارع الهرم مع أن أشكالهم آخر بكوية وآخر أناقة، غير أنهم جميعا من البلطجية واللصوص، إننى أقول لك الصراحة يابو العم، اشتغلوا لى فى الأزرق وفى أمور البلطجية، خفت أن يفسدوا لى أخلاق العيال، وخلفتى كلها بنات ما عدا ديك واحد صغير أعطاه لى الله مؤخرا! المهم يابو العم أننى أرحت

نفسى واستأجرت شقة فى مصر الجديدة بين جيران على مستوى كبير! دفعت فيها مبلغا جامداً! وأما هذه الشقة فقد حلفت لأجيئن لجيرانها الحوش هؤلاء بولد يكسر أنفسهم، وأنا مرادى أن تشكم لى هؤلاء الجيران وتذلهم أشد الذل، أنا أستطيع أن أبيع هذه الشقة بآلاف! لكننى لن آخذ منك سوى الألف الواحد إكراما للعشرة القديمة وأملا فى أن ترينى هؤلاء الوحوش مكسورة نفوسهم!» . .

قلت وأنا فى غاية النشوة: عرفت تختار يا معلم شندويلى! تلاتة بالله العظيم لأرينك مؤخراتهم عارية وأجعلك تبصق فيها على كيفك! لسوف أجعلهم يرحلون فى عز الليل تاركين الشقق فى سبيل النجاة بحياتهم، اتكل على الله يا معلم شندويلى! هذه الشقة لن يسكنها سواى! اكتب عقداً الآن وأنا أسدد لك المبلغ على ثلاث مرات بالكثير أربع! وإن شئت السرعة فإننا نكتب الآن جوابا لصاحبى هليّل فى البلدة وشريكى فى سبوبة تدر دخلا ويمكن أن يرسل لنا أى مبلغ نطلبه!» . .

شوح صائحا: اكتب ما تشاء! ولكن هاك مفتاح الشقة! اذهب ونم فيها وأقم كيف تشاء، وحين يجيئك المبلغ هاته وتعال نكتب العقد والذى منه، وعلى فكرة! فى الشقة عفش استغنينا عنه، تستطيع أن تشتريه وتضيف ثمنه للمبلغ، هو يساوى ألفا ولكنى أبيعه لك بثلاثمائة لا غير، أنت ياما خدمتنى!» . .

كدت والله أقبل يده وهى تقترب منى بالمفتاح. لكننى اكتفيت باحتضانها قائلا: «سأبقى طول عمرى خادمك يا معلم شندويلى!». ربت على كتفى بيده؛ وجعل يصف لى مكان العمارة وموقع الشقة

منها؛ وجعلت أدعو له بالستر، وشعورى يقول إن ما حدث الآن هو بركة دعاء الوالدين، وشعور آخر يقول: بل هو بركة البنت «حنة» التى ستنقذها من الوحلة، وبركة الولية «كاملة» التى ستقيها شر الترمل بين الوحوش الكاسرة. فأرحت نفسى وقلت: هى بركة الجميع، ومضيت أجرى إلى العمارة أقول: يا أرض اشتدى مافوقك قدى.

والثانية: العتبة العالية

هذا هو الجنون بعينه يا بوى. أنا حسن ولد أبى ضب الذى كان غاية ما يتمناه عشة يسكنها فى حارة، أو بالكثير شقة فى بيت هرم، أسكن فجأة فى هذا القصر المنيف؟ أنا أدخل هذه العمارة يا بوى كل يوم؟ ربما ارتاب سكانها فى أمرى، ربما منعنى البواب، وأن البوليس نفسه ـ لو استعان به البواب ـ لن يصدق أننى يمكن أن أسكن فى عمارة كهذه وأنا الكحيان الشقيان..

ما هذه الأبهة ياخال؟ بلكونات على الكورنيش؟ حلم أم علم هذا؟ وما هذا البراح يابوى؟ وهل هذه حيطان شقة أم حيطان مسجد أم حيطان من الجنة؟ كلها مدهونة بالرسوم الملونة بالمشجر والمزخرف؛ وفى الحمام «دش» يابوى، أخيرا سأستحم يابوى، سأفتح هذا الدش هكذا، لتندفع قذائف المطر الغزير هكذا. فلأجربن، خلعت ملابسى وزحفت تحت الدش، وتركت النشوة البالغة تنصب على رأسى من «الدش». ثم ما هذا ياخال؟ لابد أنه ما يسمونه بالبانيو؛ إنه حوض ينام فيه المستحم. فلأجربنه، ملأته بالماء ونمت فيه. كان فى الحمام بقايا صابون بريحة، وبقايا فوطة قديمة، وبعض شباشب متهرئة النعل.

لبست ثيابى وخرجت على غاية من الفوقان. نظرت فى الغرفة المجاورة، هذا مطبخ له صندرة يتصاعد منها بقايا روائح ثوم وبصل وأصناف عطارة. فعلا فعلا ياخال، هذا مطبخ يليق بـ «كاملة»، وهذا حمام يليق بـ «حنة»؛ وهذه دار تليق بهما معا. يرعاك الله يا معلم شندويلى؛ ولكن، الخوف أن يكون الملعوب مرسوما على قد المهمة: أضايق له السكان وأنتقم منهم وفى النهاية يقول لى مع السلامة. قلبى راح يقول لى إن المعلم شندويلى لن يفعل، وأننى يجب أن أعتبر الشقة شقتى. وأنا الآخر سأورطه، سأذهب لأقيم فرحى فى البلد وأجىء بالعروسين قبل أن يرجع فى كلامه، وبعون الله سأضىء له أصابعى العشرة كالشموع حتى يرضى؛ سأقتل نفسى فى خدمته مقابل أن يترك لى هذه الشقة؛ والله لن أتركها إلا على جثتى يابوى..

تجولت فى الصالة البرحة؛ جلست على كل كرسى واختبرته فتيقنت أن عمرة بسيطة عند النجار، وأخرى عند المنجد، تصبح هذه الصالة بعدها كصالة البكوات الذين كنت أبيع لهم السمك فى المعادى. ثم دخلت على حجرة مجاورة؛ فإذا فيها سرير قديم، لا ينقصه سوى دهن وتنجيد فرش. بجواره دولاب مفصص وبعض ضلفه مخلوعة ومركونة بجواره، تتصاعد منه روائح العطور العتيقة والصابون والنفتالين. وهذه مرآة ذات كومدينو على اليمين وآخر على الشمال، ولها كرسى تجلس عليه المرأة لتتزين. كسبنا صلاة النبى، بشرة خير يابوى؛ ضمنا شوار العروسين، فكل هذه الأثاثات يمكن علاجها وتجديدها بكل سهولة. دخلت الغرفة الثانية فوجدت بها ترابيزة وسط دائرية؛ حولها بعض الكراسى الجلدية. الترابيزة سليمة أما الكراسى

فكلها عاهات، بعضها منفجر البطن وبعضها مهيض الساق وبعضها قعيد وبعضها هشيم؛ هى الأخرى يمكن علاجها بتراب الفلوس. عافاك الله يامعلم شندويلى؛ لو تطلب الأمر قتل واحد من خصومك فسأفعل. دخلت الحجرة الثالثة، فإذا هى خالية تماما، إلا من بعض أوراق جرائد قديمة وهلاهيل لمسح الأرضية. دخلت الحجرة الرابعة، فإذا بعض الكراكيب والروبابيكيا. قلت: حلو، وإذا بالشبابيك المطلة على البلكونات تناديني؛ فجعلت أنظر من كل شباك نظرة، وأطل فى كل بلكونة طلة؛ وأتلكأ كلما رأيت جيرانا فى الشبابيك والبلكونات المقابلة ينظرون فىّ، فحينئذ أنتفخ كأنى أشعر بأننى البيك الجديد الذى سكن هذه الشقة . .

رحت وجئت عشرات المرات ياخال، فتحت أبواب الغرف وأغلقتها عشرات المرات، عقلى يكاد يشت. فى المطبخ وجدت رفوفا رخامية مثبتة فى الحوائط، وسبرتاية نحاسية قديمة. ووجدت تحت الرف وابور جاز محترمًا؛ قلت: طبعا لقد تقدم المعلم شندويلى وأصبح يشتغل بالبوتاجاز . .

خفت أن يصيبنى الجنون فى الشقة وحدى ياخال؛ فخرجت، وبكل لذة أغلقت بابها بالمفتاح، وصرت أتنحنح وأتلكأ فى مشيتى على السلم وأثير ضجيجا هائلا أتحدى به أى كلب من سكان الدورين تسول له نفسه الاعتراض. لكن أحدا لم يعرنى التفاتا. صادفنى على السلم كثير من الخلق صاعدين وهابطين؛ فإذا هم أشد منى ضجيجا وصخبا وجلبة . . رميت بنفسى فى الشارع. وأول خاطر داعب أعطافى هو أن أخفى أمر هذه الدار عن كل من أعرفهم من الخلق بلا استثناء. ثم طغى

على ذلك الخاطر خاطر أقوى؛ هو أننى لابد لى من الشروع فورا بالبحث عن المبلغ المطلوب للمعلم شندويلى؛ بل لابد أن يتوفر بين يدى ثلاثة آلاف جنيه على الأقل حتى أستطيع دخول هذه العمارة بعين قوية. وكان الشوق للولد «هندى» قد برح بى، فاتخذت طريقى إلى داره فى كيمان مجرى العيون. وكان الليل داخلا على البلدة كأحلى ما يكون، ونور القمر يخسف نور الكهرباء ويسحقها حتى فى الحوارى الضيقة. سبحان الله يابوى؛ عمرى ما أحببت هذه الحوارى فى الليل، فما بالى أحبها اليوم؟ مالى أحب البلدة كلها وتنتابنى الخشية عليها كأننى قد صرت من بين المسئولين عنها؟!

وصلت إلى دار «هندى»؛ مددت أصبعى لألمس زر الجرس فإذا بالباب ينفتح قبل أن ألمس الزر؛ وإذا بـ«هندى» لابس خلقاته النظيفة كأفندى معتبر من علية القوم؛ مصفف شعره على سنجة عشرة، ورائحة العطر تفوح منه؛ فعرفت فى الحال أنه ذاهب للشغل لا للفسحة ذلك أن «هندى» ولد مكار يابوى، حصيف وناصح؛ وهو صاحب النصيحة المشهورة التى زودنى بها ذات يوم ولم أستفد منها بعد ولكننى فخور بمعرفتها. وسبب النصيحة أن «هندى» انسطل ذات يوم وشعشع فلما أبديت إعجابى يومها بشعره قال «غزولى» بغمزة من عينيه: إن هندى له فلسفة من تسريح الشعر تعتبر من اختراعه؛ وطلبت من هندى أن يشرحها لى. فامتثل هندى يومها وقال فى جدية: «أعلمك وآكل من بيتنا! اعلم أن تنظيف الشعر وتسريحه وتلميعه كله فوائد، ولكننى لست أعتنى به من أجل هذه الفوائد! مع أنه ينير الوجه، ويروق المزاج ويمنع الحشرات، ويعجب الفتيات، إنما أنا أعتنى بشعرى فى مشاوير

الشغل! إذ إننى بتسريح شعرى أخطف الكاميرا من عين الحكومة والمباحث! فإنهم يعرفون المتشرد المشبوه من شكل شعره! وضابط المباحث ينظر أول ما ينظر فى رأس البنى آدم ليرى حال شعره! ربما يراه أشعث أكرت فيتجاوز عنه لأن شعره مشعث نظيف أو أكرت مصفف! أما الشعر الذى يتراكم عليه التراب والوسخ حتى يتجلد منظره كلحية المجذوب الفاقد العقل فإن ضابط المباحث يقفشه! يعرف أنه لا ينام فى مكان به ماء! فهو إذن أفاق! وليقفشه الضابط ليتحرى عنه! لن يخسر شيئا! لكنه قد يكسب قضية لم تكن على البال! ومعظم اكتشاف المجرمين الأذكياء وقع بهذه الطريقة! أما أنت يا صعيدى يا قحف فإن كنت تريد أن تصرف عنك عين الشرطة فنظف لبدتك هذه على الدوام! أو البس عمامة بشال أبيض تجعله نظيفا دائما حتى لو غسلته كل يوم!». .

دفعنى «هندى» بصدره وهو يقفز إلى الشارع ثم تلقانى فى حضنه وسلم على وقبلنى وقبلته، وسألنى عن غيبتى فقلت إننى ذهبت لزيارة عم لى يرقد مريضا فى مستشفى أسيوط وأننى مكثت بجواره حتى طاب قليلا . ولم أعرف إن كان قد صدق كلامى أم لا ، حيث إنه لم يعلق؛ وإنما قال لى «وراءك شيء الليلة؟»، قلت : «لا!» فأشار بيده أمامه أن اتبعنى ؛ فحاذيته ؛ مضينا عبر الحوارى والدروب، وكنت ألاحظ أنه يختال كالولد الشلبى ؛ فأتعجب من كلاحة اللص فى مصر القاهرة . لقد بت ياخال أعتقد أن الإنسان فى مصر القاهرة يستمد فخاره وكبرياءه وشرفه من لصوصيته؛ فكلما كان ولدا حريفا فى السرقة واللعب بالقانون وتضليل ذمم الموظفين الصغار وشراء ذمم الكبار

كلما انتفخ فى مشيته وأصبح له المقام الرفيع فى البلاد. قلت لنفسى: وأنا مالى ياعم، ثم تبسمت، ثم تذكرت نفختى أنا الآخر ومشيتى بروح أقوى من روح المحارب المنتصر؛ فضحكت بعمق حتى تمايلت على هندى؛ فدفعنى بكتفه قائلا: «اصطبحت مبكرا؟». قلت: «لم أذق حجرا واحد بعد!». قال: «فلماذا فشتك عائمة؟». قلت: «من الخرم!». قال: «معك حجرين؟». قلت: «جيب السبع ما يخلو!». قال: «سأسقيك حشيشة كتكت التى هى أعلى من حشيشة صفصف! ينوى أن يبيع القرش منها بأربعين جنيها! هبرت منه هبرة كبيرة! كله بثمنه! نقلت له أقتين فى حقيبة خضار من بلبيس إلى مصر القديمة أخذت حقى طبعا! جئت من بلبيس راكبا الأتوبيس وسط الناس وشنطة الخضار فيها برتقال وأوطة وجرجير وبطاطس! ستذوقها الآن!».

وكنا قد صرنا أمام قهوة «صفصف» والشلة كلها متجمعة: «غزولى»، و«بربش» و«بسبوسة» و«صفصف» هو الآخر جالس بينهم منجعصا كسبع البرنبة، والتحشيش شغال بينهم. سلام عليكم، عليكم السلام، فينك ياولد العم؟ وصلت بوصة الجوزة إلى يدى فأعفيت نفسى من الرد ومضيت أشعل الحجر، فالكلام ملحوق عليه أما الحجر فيحترق. بعد حجرين آخرين نهض صفصف يجرجر ساقيه متأوها، وصوت طقطقة ساقيه يتكسر خلف خطواته. لاحظت أن صفصف لم يكن على مايرام، فمزاجه غير معتدل، مع أن الحشيش عال العال. قلت هذا بصوت خفيض، فهمس بربش قائلا: إن البودرة التى يشمها صفصف قد تأخرت عليه، وأنه قد أرسل فى استعجال

طلبها مراسيل كثيرة، فقال بسبوسة وهو يتحسس ثدييه الكبيرين: «ماله حق يتعكنن! لو قال لى من البارحة لأنقذته الليلة بعشرة جرامات، بالأمس وقع تحت يدى ولد نيجيرى معه برطمان كامل ويود بيعه بسرعة جربت منه شدتين خفيفتين فتيقنت أنه كوكايين أصلى وارد بلاده! تركت الولد النيجيرى جالسا فى مقهى المالية وخطفت رجلى لحد الحاج على إبراهيم فأريته العينة وبعت له وقبضت ثم عدت للنيجيرى، فزعمت أن التجار كلهم لا يطلبون غير الهوريين والكودايين أما الكوكايين فليس له سعر عندنا! قل إننى ساومته على خمسمائة جنيه فرق سعر! وكنت أنوى أن أرسم عليه لعبة الحكومة لأهف منه البرطمان كله بلا شىء! لكنه ولد ملقط وابن جنية! المهم أننى فزت بنصيب الأسد! وعلى كل حال سأعمل الآن واجبا مع صفصف! إنه أخونا مهما كان! معى حقى الناشف الذى اختلسته من البرطمان قبل تسليمه، مضافا إليه ما أخذته من صاحبنا حلاوة المشوار!». .

ووضع يده على جيبه، وهم بأن يشير بالأخرى مناديا صفصف، لكن يد غزولى كانت أسرع منه، إذ أمسكت بيد بسبوسة لتمنعه وهو يقول بصوت أجش: «دعك منه! نحن أولى بشم هذه الصفقة! دماغنا محتاج لها! تروح تشتغل وحدك من ورائنا ولا ينوبنا من العسل لحسة؟!». فانتبه بربش وقال مشوحا فى وجه بسبوسة بعدوانية آمرة: «هات ما معك كله دون أن تفتح فمك!». وأيَّده هندى قائلا: «دعكم من الشم والبودرة! إنما نريد حقنا فيما قبضه من فلوس! نحن تعاهدنا أن نمضى فى الطريق سويًا!». هنا قال بسبوسة وهو يلوح بكفيه نحو

صدره: «أنا غلطان! أنا غلطان! كنت أمزح! لم يحدث شيء مما قلته لكم!». غير أن غزولى كان أسرع وأشرس مما ظننت؛ إذ هجم على بسبوسة فجأة، ودب يده فى جيبه كيفما اتفق. وبسبوسة يتلعبط بين يديه مصوصوا؛ إلى أن تمكنت يد غزولى من الجيب الذى فيه البودرة فامتثل بسبوسة: «سأخرجها! سأخرجها!». وبالفعل أخرجها، فإذا هى ورقة كراسة ملفوفة؛ فتحها؛ فإذا فيها ورقة مفضضة من ورق علب السجائر، تحوى حفنة صغيرة من مسحوق الكوكايين. طواها بربش فى قبضته ونهض قائلا: «تعالوا ورائى!». قمنا وراءه. مشى حتى دخل على صفصف فرآه انتحَى ركنا قصيا وسلم عينيه للفراغ كالغارق فى بحر الهموم حتى الذهول. جلس بربش إلى جواره، فجئنا بالكراسى القش وتحلقناهما. وأخرج بربش علبة السجائر البلمونت العريضة، ونشر على سطحها أسطر الكوكايين متجاورة كزرايق الأرض، وضعها على الترابيزة وأتى ببريزة ورقية جديدة، فبرمها جيدا، قدم كل ذلك نحو صفصف؛ الذى ملع الذهول فى عينيه حتى شله تماما عن الحركة. فلما تمعن فى الكمية وفدت على وجهه ملامح الطفولة الفرحانة فصاح باستهوال: «يا ابن ديك الكا. . ل. . . ب!» وخشى بسبوسة أن ينسب فضله لغيره فصاح: «فضلة خيرك يا معلم! إنت لو شاورت لى البارحة كان بقى مزاجك فل! لكن كل شىء نصيب!». .

تناول صفصف البريزة المبرومة ووضعها فى منخره الأيمن وشفط سطرا كاملا فى جذبة واحدة لم يترك منه شعرة؛ ثم نقل البريزة المبرومة إلى منخره الآخر وجذب سطرا آخر، فدمعت عيناه ونظر فى عينى

بسبوسة كأنه يعيد النظر فيه : «تعرف طريق حاجة يا بسبوسة؟» قال فاشخا حنكه عن أسنان لولية بيضاء منظومة : «بظروفها والله! ما كان قصدى وما كنت أبغى! لكن لقمة العيش المقسومة لك ترمى نفسها عليك حتى ولو كانت مع ولد نيجيرى يرطن بكلام غير مفهوم!». عند ذاك نظر إليه صفصف نظرة فيها الكثير من العتاب القاسى؛ وحوّل عينيه إلى العلبة فى يده؛ ثم جذب سطرين آخرين فدمعت عيناه أكثر واحمرت خدوده تقول تفاح يابوى؛ ووالله عادت إليه إنسانيته فجأة؛ وظهر يابوى كأنه أخيرا بدأ يجلس معنا، وقال لبسبوسة : «حاجة كهذه وقعت تحت يدك! هاتها وتعال! الأقرباء أولى بالمعروف! أتراك بعتها للحاج على إبراهيم! طبعا! قاعد هو للساقطة واللاقطة! على كل حال حصل خير! ثانى مرةلا تفعلها!»؛ وصاح مناديا : «هات دخان يابنى! دخان قص بتاع المعلم!»؛ ووزع علينا تمسية الأفيون كل واحد قطعة كبيرة؛ ورمى بربع أوقية حشيش أمام بربش وقال له : «رص!». .

مضينا نشرب يابوى كأننا نشرب فى آخر زادنا؛ وصورة صفصف وهو متهالك على الكنبة تحت قدمى زوجته كفأر الجبل لا تفارق دماغى؛ فيدخلنى يقين بأن صفصف المسكين ليلتذاك لم يكن شامًا، ولهذا كان مفكوك العصب ككومة من اللحم لا تنفع ولا تشفع. لسانى الذى يستحق القطع تسلق على هذا الخاطر الخبيث وصاح فى بهجة : «لو كنت متزوجا بعد كل هذا الانبساط لذهبت إلى الدار من فورى!»، ثم انتظرت برهة وأكملت : «. . لكى أنام كالقتيل!»؛ فإذا بصفصف أول الضاحكين؛ وإذا به يعلق قائلا : «صدقت يا صعيدى! إن الانبساط يكون أحلى من كل شىء فى الدنيا!». فرأيتنى أنصت جيدا

إلى قوله هذا ياخال؛ حيث قد عفقنى من جواتى كما يعفق عازف العود أوتاره؛ فإذا بى أصيح فى ألم: «أنا لن أصير كيفًا لهذا الملعون أبدا، حد الله بينى وبينه هو والأفيون! إلا فى لحظات أنس كهذه كل حين وحين!». لكن صفصف أتى بأصبعه حركة بذيئة فى الهواء قائلا: «كداب يا خيشة! بكرة نشوف!»؛ فأقسمت بالله العظيم بينى وبين نفسى ألا يصبح حالى كحاله أبدا.. وبقيت شاردًا طوال بقية السهرة حتى نسيت أننا سنطلع الليلة فى مشوار ندعو الله أن نعود منه مجبورى الخاطر. فلما تذكرت ذلك فجأة ميَّلت على هندى وسألته: متى نتوكل على الله؟ فقال هامسا: «بمجرد ما يجيء الدليل!»؛ ثم غمزنى أن أسكت فسكت..

وكانت ساعة الراديو تدق منتصف الليل حين دخل علينا شاب فى حوالى الثلاثين من عمره، نحيل القوام مستطيل الوجه أسمر محروق، قاسى الملامح رغم أن عينيه فيهما الكثير من تودد العسل. مساء الخير يا رجالة؛ هكذا قال بعد أن وقف. أهلا أهلاً زردية؛ هكذا قال بربش، ثم أضاف مشيرا إلى كرسى على مقربة: «اقعد يا زردية!». فجلس. فتبسم صفصف قائلا: «الأخ ميكانيكى!». فقال الشاب بسرعة: «أخوك سباك! اسمى فيصل وشهرتى زردية! أصل الشهرة أن أى صواميل قديمة لا تعصلج معى! أفكها بعون الله من أول هزة! تحت أمرك فى أى وقت يا معلم!». فقال صفصف وهو يرمقه من تحت إلى تحت بنظرة نفاذة شكاكة: «ربنا يكرمك يا أسطى! ربنا يكرمك!» غير أن لهجته كانت كأنها تقول: «ابعد عنى ربنا يكفينى شرك!». وقال له بربش كأنه يعتذر عن معرفته لهذا الشاب: «عندنا عمرة فى مواسير

البيت! قلت ما ينفع لها غير زردية! لكن لماذا تأخرت هكذا يا زردية؟!» قال الشاب: «كل تأخيرة وفيها خيرة! فالشغل الدِّقى يلزمه الهدوء! والآن يمكن أن نقطع المياه على راحتنا والناس نيام!». قال بربش: «ماشى كلامك!» ثم راح ينظر فى طاقم الحجارة مختبرا عددها؛ ثم صاح فى طلب خشبة جديدة تحوى طاقما من عشرين حجرا؛ لزوم تحية الأسطى زردية. حينئذ نهض صفصف قائلا: «ليلتكم فل!»؛ ومضى نحو النصبة صائحا فيمن يقف خلفها: «أنا فى البيت الفوقانى ياولد!» ثم اختفى. وبعد لحظات سمعنا وابور عربته المرسيدس يزأر قبل انطلاقها به. دقائق أخرى مضت أجهزنا خلالها على طاقم الحجارة الجديد؛ فنظر بربش فى زردية وقال: «جاهز؟!» فقال الشاب: «جاهز!». نهض بربش قائلا: بنا؟!» قلنا جميعا: «على الظالم!»؛ ومضينا خلفه نضرب فى حوارى مصر عتيقة.

والثالثة: صباحية مباركة

زردية إذن هو الدليل الذى كنا ننتظره. والصفقة كما حكاها لنا ثانية ونحن فى الطريق إليها؛ عبارة عن فيللا قائمة وحدها وسط المزارع والخضروات فى مدخل حى المعادى. صاحب هذه الفيللا دكتور، لكنه دكتور فى الجامعة وليس ممن يداوون الناس. يعرفه زردية منذ سنوات طويلة، وقام بشغل السباكة فى هذه الفيللا مرات عديدة؛ حتى عرف كل شبر فيها، وكل مداخلها ومخارجها؛ وفى آخر مرة اشتغل فيها فى الفيللا كان يعرف أن لديه النية فى اقتحامها ذات يوم؛ فقام بإفساد نافذة المطبخ، وإفساد قفل باب المطبخ، أى أنه حين يتمكن من تسلق المواسير، سيدفع باب النافذة بدماغه، فينفتح بسهولة؛ فيدخل هو؛ يجلس أولا على حافة النافذة حتى يأخذ وضعه المستريح وبعدها يسقط فى قلب المطبخ؛ ومنه إلى الصالة ومن الصالة إلى قاعة النوم؛ حيث يعرف أن الدكتور يضع كل مدخراته فى دولاب الملابس، وقد رآها بعينه كثيرا، فلوس بالبواكى مرصوصة كما خزينة البنك؛ ومجوهرات خاصة بزوجته الخواجاية المسافرة على الدوام. فإذا انتهى من جمع الفلوس والمجوهرات والملابس الفرو الثمينة استدار على أجهزة

التسجيل والتليفزيون وبعض السجاجيد الصغيرة، التى يقال إن المتر منها يزيد ثمنه على الألف جنيه؛ وعنده منها الكثير؛ ناهيك عن الفازات يابوى ـ والتماثيل والتحف والأنتيكات الموضوعة على الترابيزة والدواليب . .

الدكتور ـ كما يقول زردية ـ مسافر منذ ثلاثة أيام؛ راقبه زردية حتى تأكد من ركوبه الطائرة. ومنذ ليلتين وهو يمر على الفيللا فيجدها مطفأة تماما ولا تكاد تبين الأشجار والحشائش. وعندما اقتربنا منها أوصانا زردية بأن نجعل بالنا جيدا؛ وعين لنا أدوارنا على النحو التالى : هو سيدخل، ويفتح الباب من الداخل؛ لندخل نحن براحتنا. فإن لم يستطع فتح الباب فسيربط الأشياء الثقيلة بحبل ويدليها من أى شباك واسع؛ لنأخذها نحن، بحيث يكون بربش وغزولى فى كعبه مباشرة؛ أما هندى وبسبوسة فيتوليان تستيف الأشياء ولفها وربطها. وأما العبد لله فمهمته الوقوف على الشارع العمومى فى مكان خفى لمراقبة الطريق وإعطاء إشارة التنبيه . .

رضينا بهذا التقسيم يابوى، واتكلنا على الله. غطسنا فى غبشة الظلام المتكاثف حول الفيللا بفعل الأشجار والأعشاب التى تلفها. وشمر زردية عن ذراعيه وبنطلونه، وبصق فى كفيه مسميا باسم الله الرحمن الرحيم؛ وقبض بيديه على الماسورة، وتخلص من حذائه مسلما إياه لغزولى، منبها عليه أن يضعه فى جيبه، حتى لا تضطهرهم العجلة إلى نسيان فردة منه تقود إليهم. وضع قدمه على الماسورة ودفع نفسه بدربة هائلة يابوى كأنه القطة؛ صار يرتفع ويرتفع حتى صار مواجها لنافذة المطبخ؛ فمد يده ممسكا بإطار الشباك ليتمكن من نطحه

برأسه. لكن الفضاء انشق فجأة عن صرخة مهولة ياخال؛ كأن حيوانا بريا قويا يجأر. ثم إذا برعد الصرخة يتبعه هزة أرضية خطيرة.

وكان جسد زردية قد اندفع وارتمى بعيداً فى مكان خفى..

ركبنا الرعب ياخال؛ فصرنا نجرى هنا وهناك كالحيارى فى المصيدة، حتى اصطدمنا فى الظلام بجثة زردية ملقاة على الأرض بلا حراك. صرنا نتحسسها ونجس نبضها؛ فإذا بها قد فارقت الحياة يابوى. واتضح لنا أن الدكتور الخبيث قد كهرب شباك المطبخ وجميع الأبواب والنوافذ القريبة من الأرض..

وقعنا فى المحظور يابوى؛ لكننا لم نضع وقتا. حملنا جثة زردية وصرنا نجرى بها حتى غادرنا الفيللا؛ وصرنا على شاطئ ميناء أثر النبى فوضعنا الجثة وجلسنا فى مسطاح النهر نفكر فى الطلوع من هذه الورطة المهببة. كنا صامتين كالموتى لكن الرعشة فى أوصالنا تربطنا ببعضنا. أشعلنا السجائر التى راحت تنتفض بين أصابعنا. قال بسبوسة: «حنعمل إيه فى الليلة السودة دى؟». قال بربش وهو ينظر فى مياه النهر: «والله ما أنا بعارف!». قال غزولى: «نرميه فى النيل ونخلص!»؛ فقال هندى: «لا تنس أن صفصف شافه معنا الليلة! وبعض الزبائن كذلك! فنحن مسئولون عنه!». وهنا قال بربش فى حسم: «إذن فلنرجعه إلى مطرح ما وقع بالضبط! فى الصبح يعثرون عليه مرميا! ستحقق الشرطة فى أمره! وستعرف أنه كان يحاول سرقة الفيللا وأن الكهرباء صعقته!». قلنا جميعا: «والله فكرة!»؛ وحملناه من جديد، وأخذنا نجرى به، حتى وصلنا إلى حيث كان قد وقع؛ فمددناه فى مكانه وعدنا نجرى؛ حتى إذا ما وصلنا إلى شاطئ النيل

صـــرنا نمشى فى تؤدة . ووالله لا ندرى كـــيف حط علينا كل هذا الضـحك ، الذى راح يغـرقنا طول الطريق كأننا نتفـرج على مـسخـة . وأغلب الظن ياخال أننا كنا نتخيل أننا نضحك ، حتى لا نقع من طولنا ، وحتى لا يتشكك فى أمرنا أحد .

الفجر كان بعيدا عنا بحوالى ساعتين ؛ وقد صعب علينا أن نضيع الليلة هدراً يابوى . . ألا نجىء حتى بمصاريف الشاى والمعسل الذى طفحناه اليوم؟ هكذا كان يبدو علينا جميعا ونحن ندخل مصر عتيقة من جديد . . ولهذا رحنا نتشمم كل خطوة لعلنا نعثر على بقايا خير منسى فى الشارع . ورحنا ننظر فى كل شباك مفتوح على الشارع ، مجرد نظرة ثم نمضى . .

اقتربنا من شباك فى حارة ضيقة ، بينه وبين الأرض بضعة أشبار . وكان مقسوما إلى نصفين بالطول ؛ النصف الأسفل مغلق ؛ أما الأعلى فـمفتوح على مصراعيه . التصقت بالحائط وشببت على أطراف أصابعى ، ونظرت فى الحجرة ، وقع بصرى على سرير حديد بعمدان ، وبجواره دولاب قديم مجدد ، مفتوح على مصراعيه هو والسرير مدهونان بالبوية حديثا ومنظر الملاءة والفرش يؤكد أننا أمام عريس جديد ، هو على وجه التحديد ذلك الرجل الذى ينام وفى حضنه عروسه . الاثنان عاريان تماماً ومستغرقان فى نوم عميق فخذ الرجل فوق بطن المرأة ، وذراعها فوق رقبته . .

جاء الصحاب فنظروا ، فصرنا نضحك ضحكا مكتوما ، دون أن يدرى بنا أحد ، لدقائق طويلة ، قلت : «أكل العيش مر ، فلأجرب» ودفعت الباب المجاور للشباك فإذا به ينفتح ، فتسللت داخلا إلى دهليز

مستطيل مظلم. على اليمين كان باب الحجرة المطلة على الشارع، وكان مواربا دفعته ودخلت، والرجال من خلفى؛ بقيت واقفا لبرهة طويلة؛ وتنحنحت؛ فلم يتحرك أحد، فتقرفصت جالسا أمام الدولاب. وبجوارى تقرفص غزولى؛ وفى الدهليز وقف هندى؛ وعلى باب الشارع وقف بربش، وفى أعماق الحارة جعل بسبوسة يروح ويجىء على ضوء اللمبة نمرة خمسة المعلقة على الحائط مددت يدى فى قعر الدولاب؛ سحبت محفظة كبيرة؛ سلمتها لغزولى؛ فدسها فى جيبه. ثم سحبت راديو بلاستيك أخضر اللون ماركة صوت العرب؛ وسحبت علبة صغيرة فيها فرع وقرط وأسورة من الذهب؛ سلمت كل ذلك لغزولى فدسَّه فى جيبه، ثم جعلت أسحب الملابس قطعة قطعة وأسلم لغزولى؛ فيسلمها بدوره لهندى؛ الذى يسلمها لبربش. وكان على الأرض نصف زجاجة خمر رديئة؛ صعب على أن أتركها فأخذتها فى يدى وأنا خارج؛ وصرت طول الطريق أعب منها..

قال هندى: «اطلعوا بنا على بيتى!» قلنا: «وجب!»؛ ومضينا بالفعل إلى بيته والفجر يقول: الله أكبر..!

* * *

فتحنا المحفظة فإذا فيها ثمانية جنيهات وبضع برايز وشلنات وقال بسبوسة: إن الذهب يلزمه وأنه سوف يحاسبنا على ثمنه بالمليم. وأما الملابس فقد وزعناها وطلع الراديو من نصيب هندى. ما كاد النهار يطلع حتى استفتحنا الصائغ بعرقه المجزى فى مقابل أن يقدر لنا سعر الذهب؛ فقدره بثلاثمائة جنيه؛ دفعها بسبوسة محتجزا نصيبه منها،

وعندما شرعنا فى الانصراف استبقانى بربش قائلا: «أعوزك فى موضوع!»؛ فاستأذنت من الصحاب ومشيت معه نحو شوارع فم الخليج..

استنظف مقهى حود عليه. جلسنا طلبنا الشاى بالحليب وعندما قاربنا الانتهاء من شرب الشاى مال بربش نحوى قائلا: «الطلب الذى أريدك فيه بسيط! ستأحذ عليه يوميتك جنيها كاملا يعنى أكثر من ماهية لوزير فى اليوم! لكن المهم ليس الأجرة على كل حال! المهم جدعنتك فى عمل ما سأطلبه منك على أحسن ما يمكن! أتعرف الرجل الذى يؤجر عربات اليد فى هذه الناحية؟!»، قلت: «أعرفه طبعا!». قال: «قم الآن واستأجر منه عربة ليوم واحد! وهاك ثلاثة جنيهات تشترى بها شروة بصل أو شروة أى شىء من السوق، تضعها فى العربة! وتسرح بها فى الحارة التى سرقنا منها ليلة البارحة! وكن بائعا بحق وحقيق!»..

الدهشة لعبكت وجهى كله؛ قلت« كيف يابو العم؟! ماذا يفيدنى لو فعلت هذا؟!» قال: «تدخل بالعربة حتى البيت الذى سرقناه! تقف عنده مناديا على بضاعتك، عندئذ ستستمع إلى الناس وهم يتكلمون عن السرقة، فتعرف بذلك الأخبار! وتجىء بها لى!» لمعت الفكرة فى دماغى ياخال، فقلت معجبا: «يا ابن الجنية! ولكن ما فائدة كل ذلك يابو العم؟!» قال بربش: «من الذى أخرج المحفظة من الدولاب؟» قلت «أنا!» قال: «فتحتها قبل أن تسلمها لغزولى؟» قلت «لا!» قال: «راقبته وهو يضعها فى جيبه؟» قلت: «لم أجعل بالى!» قال: «أليس يحتمل أن غزولى خنصر الفلوس من المحفظة؟!» قلت فزعا: «أيفعل

ذلك؟!» قال: «ربما إنه صنف لا يؤتمن!» قلت: «أى صنف هو يا ترى؟!» قال مستدركا: «لا! لا! أقصد صنف الحرامية! كلنا يعنى!» ربك والحق أحسست أنه غير صادق يابوى، فلعب الفأر فى عبّى من جهتهما معا، هو وغزولى؛ بل جاءنى هاتف يقول لى احترس ياواد من الاثنين، وقلت لبربش: «ولكننى يابو العم منذ اشتغلت معكم والأمور تجرى بالبركة والصداقة! لو دخلت الشكوك بيننا يابو العم ستغير الصدور، فدعها لله!» وكان بربش يفتح ورقة سلوفان حمراء صغيرة ويمص أطرافها متلمظا، أزاح بظفر إبهامه سمسمة أفيون قربها من فمى قائلا: «ياصعيدى يا قحف! من قال لك إن الأمانة والصداقة والجدعنة معروفة بين الحرامية وبعضهم! إذا كانت هذه الأمور غير ماشية بين الناس العاديين! فكيف تكون ماشية بين الحرامية؟! تظنهم قرأوا القرآن وأحاديث الرسول وتزينوا بمكارم الأخلاق؟! هذه أمور لا يعرفونها! ونحن لسنا إلا حرامية! ليكن جدك شيخا وعمك قطبا! ولأكن أنا متعلما فى المدارس! ليكن غيرى ابن ناس أتقياء! لكن مادمنا صرنا حرامية فنحن إذن حرامية وكفى! ليس هناك حرامى طيب وحرامى شرير! حرامى ابن حلال وحرامى ابن حرام!، الحرامى حرامى! لا يشفع له أهل ولا طيبة قلب! أنت مثلا سرقتك السكين ولهذا تستعجب الآن من كلامى! أنت تسرق وفى ذهنك الله والرسول وشبح عمك الفقيه ولا تزال تتصور نفسك مميزا عن فئة الحرامية! تفعل أفعالهم وتتبرأ منهم! ولكنك لست وحدك هكذا! فأهل هذه البلدة جميعهم من كبيرهم لصغيرهم يسرقون بشكل أو بآخر كلهم يتبرأون من الحرامية فى سبيل أن يكونوا من كبار كبار الحرامية! فالحرامى البسيط يا صعيدى يا قحف هو نحن! أنت وأنا وغزولى وهندى

وبسبوسة! حرامى من يعرف أنه حرامى! ويسرق من وراء ستار حتى وإن كنا فى الليل! أما الحرامى المركب فأجارك الله منه لا يعرف أنه حرامى! لكن يعرف فقط كيف يتبرأ من الحرامية! كيف يرسم صورة الرجل الشريف! كيف يعلن على الناس حجة كلما فات على مكة تاجرا ناهبا! وكلما كثر عدد الشرفاء الذين هم من هذا النوع كلما كان ذلك دليلا على أن عدد الحرامية فى البر يتزايد والسرقات على ودنه! كل واحد فى هذه البلدة حرامى على طريقته الخاصة! وكل واحد يخدع الآخر ليسرقه على راحته! ولكن ميزة الحرامية البسطاء أمثالنا هى الوضوح! لست أقصد وضوح كل منا فى نظر الباقين! إنما أقصد بالوضوح أننا جميعا نعرف أننا حرامية ونتعامل مع بعضنا على هذا الأساس! والمشكلة أن الواحد منا ينسى أحيانا كثيرة أنه حرامى! ويتعامل مع الناس على أنه رجل شريف! حتى زملائه الحرامية يعاملهم هكذا أيضا! ولأنهم ينسون مثله، فإن الأمور تمضى فلا أحد يحاسب أحدا! والإنسان يجب أن يتعلم ويتنور بالتجربة ليجىء يوم يصبح فيه لصا مركبا يحترمه الناس ويسلمونه ذقونهم! وعلى كل حال يا صعيدى أنت لو قمت بالعملية التى رسمتها لك فإنك ستتعلم وستعرف أشياء تنفعك عند اللزوم! ستعرف إلى أين اتجهت أصابع الاتهام فتتعلم حكمة بالغة، ستعرف المساحة التى ستتحرك فيها المباحث والحكومة فتعرف كيف تتقيها! وعموما أنت حر إنس ما قلته لك كأنك لم تسمعه!».

ثم إنه أشعل سيجارة ووقف مصفقا للجرسون، الذى جاء مهرولا نحو ورقة ربع الجنيه المعلقة بين أصبعى بربش، ثم أخذها وصار يعبث

فى الفكة فى جيب المريلة؛ لكن بربش ـ مثل البيك الكبير ـ أشاح بذراعه نحوه علامة أن «خلى الباقى» ثم سلم على ومشى؛ فاستدرت أنا عائدا فى اتجاه فم الخليج، وليس فى نيتى العودة إلى بيت هندى أو إلى بيتى. قلت فلأذهب للمعلم شندويلى فى المقهى أعطيه ما تجمع معى من فلوس قبل أن تمتد عليها يدى أو يد الزمان، وهكذا شرعت أقف لأنتظر مسافة مناسبة بين سيارتين حتى أعبرها إلى الرصيف الآخر فى اتجاه مصر عتيقة لكن الخاطر تملكنى، ففوّت على فرصا كثيرة للعبور؛ وبقيت مسمرا فى مكانى وقتا طويلا وصوت الهاتف يهتف بى: والله إنها لفكرة! لماذا لا أجرب هذه الشغلة التى أشار بها بربش؟ إنها والله شىء طريف مثير للخيال..

وفجأة رأيتنى أستدير عائدا نحو ذلك الرجل الذى يؤجر عربات اليد، فأجرت عربة دفعت له رهنها، وذهبت فاشتريت شروة بصل كما أشار بربش، كومتها فوق العربة، وعبرت بها من فم الخليج إلى مصر عتيقة؛ وجعلت أمشى مناديا بصوت خافت، ولا أستجيب للبيع إلا قليلا حتى لا ينفد البصل قبل وصولى إلى الحارة المقصودة، فلما وصلت إليها بدأت أنتبه إلى أن الجو راكد وعلى غير ما يرام، وقفت بجوار مقهى على ناصية الحارة حينما لفت نظرى أن الجالسين عليها ليسوا فى حالهم كالعادة، بل إنهم متجمعون حول بعضهم يتكلمون فى حماسة وحمية وحدة، فيما يبدو عليهم الاهتمام الشديد؛ وقلت لنفسى: بس! لابد أنهم يتكلمون فى حادث السرقة.. فإذا بالناس كلهم على المقهى مندمجين فى قول العجب: يقولون إن المشير عبد الحكيم أبو عامر قد مات!! مات؟! المشير أبو عامر مات؟! كيف يابوى رجل فى كل هذه الأبهة والعز، ويموت؟!..

تركت العربة وبصلها، واندفعت أسأل الجالسين كأن المشير من بقية أهلي: كيف يابو العم؟! تقول المشير أبو عامر عبد الحكيم قد مات؟! كيف يابو العم؟!..

رد أحدهم مغمغما من مناخيره: «نعم!» قلت: «كلام جد يابو العم؟! كيف يابو العم؟!» فلم يرد على أحد. جلست فطلبت شايا من الولد الجرسون وسألته ثانية فلم يرد، فلحقته وعزمت عليه بسيجارة فأخذها وقال: «المشير هو الذى انتحر! ابتلع حبوبا مخدرة بقصد الانتحار فمات!» هتف على لسانى صوت قوى «الأمر فيه إنَّة»، وعدت إلى العربة فجعلت أدفعها داخل الحارة مناديا على البصل بصوت عال..

قرب دار العريس المسروق تلكأت ثم توقفت مواصلا النداء: «كيف التفاح يا بصل» خرجت من الدار المجاورة امرأة سوداء الوجه ضخمة كالمحمل، صارت تزحف نحوى ببطء قائلة: «بكام البصل يا عم؟!» مع أننى فى عمر أحفادها. قلت: «بتلاتة تعريفة!» قالت: الاثنان بخمسة تعريفة ينفع؟!» قلت: «ينفع»، فمضت تقلب فى البصل وتنقِّى طالبة كفة الميزان. قلت: «لا يهمك! زنى عند أى بائع وتعالى! أنا راض بذمتك!» بعد برهة فاتت امرأة بملاية لف وسألت عن السعر؛ فلما وجدته أقل من السوق توقفت وراحت تنتقى. ثم جاءت امرأة ثالثة من دار العريس نفسها ووقفت تنتقى وجاءت وقفتها بجوار المرأة السوداء فتكلمتا معا بصوت كالهمس لكنه مسموع؛ عن المصيبة التى حلت فجر اليوم بدار ابن اختها «زينهم»، حيث سرقه اللصوص فقشselect شوه، ونشلوا المحفظة وفيها ثمانمائة جنيه كان قد لمها فى الصباحية

وكان ينوى أن يدفعها لتاجر الموبيليا . . هكذا كتب العريس فى محضر الشرطة التى جاءت وعاينت منذ قليل ! . .

طب ما رأيك ياخال أننى صدقت أن المحفظة كان فيها ثمانمائة جنيه! الله وكيل يابوى . أنا الذى تلقفت المحفظة وكانت خفيفة جدا يابوى ، صدقت أن فيها هذا المبلغ الكبير ، ولو كان غزولى أمامى فى تلك اللحظة لطبقت فى زمارة رقبته وأكلتها ، مع يقينى أن الفرصة لم تسنح لغزولى أبدا فى أن يستخرج المبلغ من المحفظة خلسة قبل أن يدسها فى جيبه ، إنما بنى آدم يابوى ؛ طماع ؛ شكاك . وحين رأيت الشك ممسكا بتلابيبى أيقنت بصحة كلام بربش وآمنت بأننى صرت حراميا رسميا أشك حتى فى نفسى ، وكاد هذا الخاطر يعمينى عن سماع بقية كلام المرأة وهو مهم يا بوى ؛ وإذ راحت تقول إن العريس تعرف على الحرامى وأبلغ عنه ؛ إنه ولد صايع زميل للعريس فى شغلة تبع مقاول للبناء . .

وحينما شعرت أن البصل قد انتهى وأننى عرفت ما يهمنى معرفته ، دفعت العربة عائدا بها لكى أسترد الرهن فورا . وما كدت أصل إلى آخر الحارة من الناحية الأخرى حتى رأيت فلاحا غلبانا يحمل على كتفيه قفصا صغيرا من العنب ويمشى مناديا فى طلب الأكيلة . كان منظر العنب مشرقا ياخال ، حتى أسال لعابى ؛ فتوسمت أننى أستطيع أن أنفع هذا الرجل الغلبان بقرش زيادة ليعطينى أحلى عنقود فى القفص ، ولسوف أتسلى بقزقزته مع رغيفين وقطعة جبن أبيض . وهكذا اقتربت من الفلاح الغلبان : «أرنى عنبك ياعم!» . فحط القفص عن كتفيه وانتقى عنقودا عظيما لا يقل وزنه عن كيلو ونصف قلت :

«بكم الكيلو؟» قال «بالبركة» قلت «كيف يابوى؟!» قال باسما: «هات الشلن!» قدرت فى نظرى أن العنقود يساوى سبعة قروش؛ فدفعت إليه بالشلن قائلا: «معك ورق لف؟» قال بخشونة خفية: «طبعا يا صعيدى يا قحف! أنا المعلم وتفوتنى هفوة كهذه؟!» ثم انتزع من تحت إبطه فرخا من الورق لف فيه العنقود بحرص وعناية. وأعطاه لى قائلا: «اتكل على الله!»..

لحظتها كنت من الذهول أحاول انتقاء الكلمات المناسبة لكى أرد بها على هذا الفلاح القليل الأدب الذى يقول لى - من الباب للطاق - يا صعيدى يا قحف. وكان الشر يطلع من عينى حتى إننى بدلا من أن أمسك لفة العنب كورت قبضتى وشيعتها نحو وجه الفلاح بحنق شديد. لكن يده كانت أسرع منى يابوى؛ ابن مدينة مدرب على الخناق، أمسك رسغ يدى فلواه بقوة حتى كسرنى على ظهرى، فصرت أصرخ وهو يهزنى قائلا فى ابتسام مشفق ودود: «ماتعرف من أنا يا صعيدى يا قحف؟!» عرفته فى الحال من بسمته يابوى. من عوجة شفتيه، فهتفت: «بربش! يابن ديك الكلب! غلبتنى يا ابن المدينة!» وتركته ومضيت أدفع العربة بيد، وأوحوح من وجع فى الأخرى.

الرابعة: المفاجأة

قال المعلم شندويلى وهو يطوى الجنيهات فى قبضته بإهمال شديد لا يليق بالعرق الذى سفحته فى لمها قرشا قرشا: «باقى عليك خمسمائة جنيه يابو العم! «وخلى» بالك يابو العم - ابتسم فاشخا حنكه على الآخر - لن أكتب لك عقدا إلا بعد أن ترينى يوما فى السكان أولاد القحباء، مضى عليك حول وحول وأنا أمهلك فى الدفع وأضعك على كفوف الراحة وحتى الآن لم أسمع خناقة واحدة! أخشى أن تكون قد استحليت المرعى مع المومسات المجاورات لك فى نفس الدور! إنهن يبلفن أتخن شنب! أنت لا تحتمل منهن ضربة رمش، بعده تخر صريعا يابو العم! أنا نفسى كدت أقع! هل أكذب عليك يابو العم؟! النكد الذى عيشنى فيه أولادى من أجل البحث عن مطرح جديد لنا، إنما كان سببه خوفهم من أن أخر صريعا تحت شباشب القحباوات اللائى يشاركننا فى سكنى العلالى، ولو وقعت تكون قد طبِّلت! يصبح عليه العوض ومنه العوض فى مالى وصحتى وعيالى! ربنا والحمد لله نجانى يابو العم، حتى الإيجار يجىء به البواب لحد عندى غير أننى أتركه

على سبيل الصدقة حتى لا أتلوث به، وفى مقابل أن يجعل البواب باله منى فى غيبتى ولا يجىء فى صفهن على طول الخط! إن كنت قد وقعت فى حبائلهن يابو العم ـ وهذا منتظر ـ فسامحنى إن قلت دع لى شقتى وخذ نقودك! أنت لست نبيا يابو العم ولابد أنك قد لحست من طبق الحلواء لحسة أنستك أهلك! اسألنى أنا! أنا المقروص باللحسة من قبل أن يخلصنى الله من الوصول إلى لحس القدم بدلا من لثم الشفاه والخدود وعنب النهود! وما أوفرها وأيسرها على السلم أو على السرير لا فرق لا مشكلة، فكلاهما ميسور المسافة بين السلم والسرير بمقدار طرفة عين! قشطة مهلبية بالعسل الأبيض بالهبل الأسود هى ملعونة والحمد لله خلصت منها، وبقى أن أخلع جذورها من أملاكى مهما كلفنى ذلك من صبر! ثم إن لى معهن ثأرًا لابد من تصفيته! لقد أهن زوجتى وبناتى بالردح مرة وبالتلسين مرات، وبسوء سلوكهن على طول الخط! فلك أن تتصور حالى وشعورى حين أرى بنفسى فاجرا من زبائنهن قادما لهن يتمخطر على السلم كطاووس علق، ولا يكفيه ذلك تفويرا لدمى بل يصطدم بابنتى على السلم فيماجنها ويتجرأ عليها بالقول والفعل! صحيح أنه لحس تراب الأرض ونقلته الإسعاف جثة مرخية من الضرب الذى أكله! لكن ما حدث حدث ولا أستطيع أو يستطيع غيرى مسح الجرح عن نفس ابنتى. إياك تظن أننى أسخرك للأخذ بثأر ناس لم أقدر عليهم! إنما أنا يا ابن الحلال أتكلم لمصلحتك! نعم بالطبع ستتزوج وستنقل زوجك إلى هذه الشقة يا ابن الفقهاء الأئمة! كيف وهؤلاء جيرانك؟! إنك لابد أن تشكمهم يا بلدينا قبل أن يذوقوا لحمك، فلو ذاقوه فإنهم كلاب مسعورة ستنهش فيك وفى عرضك حتى تمرمش عظامك، ها أنا قد نبهتك يابو العم وذنبك على

جنبك!».

قال هذا وشوح بذراعه فى فروغ بال، ثم أشعل سيجارة كأنه يضع خطا ثقيلاً تحت كلامه. فجعلت أتأمل كلامه يابوى. فوجدت أنه عين العقل، ووالله لقد أفلح المعلم شندويلى فى أن يشعل النار فى بهذه العبارة الأخيرة يابوى؛ وتصورت زوجتىَّ الغلبانتين وهما ذليلتان تحت شباشب المومسات؛ وقلت فى عقل بالى: هذه الشغلة شغلتك يا ولد ولا يهنأ لك بال حتى تتمها وإن ضاع عمرك فيها. فشفطت آخر شفطة فى كوب الشاى ونهضت قائلا: «يساويها ربنا يا معلم شندويلى!». ومضيت أضرب فى الشوارع على غير هدى؛ إلى أن قادتنى قدماى ـ دون أن أدرى ـ إلى قهوة صفصف. كنا فى ساعة أم كلثوم يابوى، ساعة شمس الأصيل دهَّبت خوص النخيل يا نيل. وكان الجو رماديا فى لون النيل المخصى المتمدد ورائى على بعد أمتار معدودة، وثمة أشجار الزيتون متراصة على الجانبين من كل الشوارع يلمع خيالها فى صفحة الأسفلت؛ الذى انحرفت عنه قليلا بين السرايات والعمائر الفخيمة، لأدخل بعدها مباشرة، فى الحوارى ذات البيوت المتراكمة فوق بعضها كالهديم، عبرت الهديم إلى قهوة صفصف، التى احتلت حارة سداً مستطيلة عريضة ترتص على جانبيها أشجار الزيتون الفاردة فروعها بأوراق الثمرة الحمراء كمناديل بأوية معروضة للبيع فوق الشجر تلعلط بالأحمر والوردى والبرتقالى على أديم أخضر، الكراسى القش تحت الشجر متراصة، بعدها كراسى خيرزان، تفصل بينها التقاطيق النحاسية اللامعة والأرض مرشوشة بالماء حتى الغرق، ما أحلاه من منظر يابوى؛ منظر يشرح القلب والله ياخال..

غير أن الجو كان ساكنا سكونا مريبا، على غير العادة فى مثل هذا الوقت، فساعة شمس الأصيل هذه فى قهوة صفصف بالسهرة كلها فى مقاه أخرى، فليس فى الدنيا مكان ساحر كهذا فى هذه اللحظة يابوى، صدقنى أن هناك أماكن تشفى العليل وهذه الحارة من هذه الأماكن؛ والدليل على ذلك أن الخلق يجيئون من آخر الدنيا للقعود فيها ساعات بالشيء الفلانى، فما بالها اليوم ساكتة ساكنة كأن ميتا مدفونا لتوه فيها؟! أتكون الحكومة فاتت عليها وعملت اللازم حتى تركتها جثة هامدة؟! ولكن منظر الكراسى والأرض المرشوشة بعناية لا يدل على أن الحكومة مرت من هنا. قلت يا خبر بفلوس، فلأجلس لأعرفه بالمجان..

جلست يابوى، ووضعت ساقا على ساق، وصفقت فجاءنى الولد كمبر الصنايعى فى أدب مصطنع، ووقف أمامى فى هيئة إنصات، فجعلت أنظر فيه لعله يفهم طلبى كالعادة، فطلبى معروف دون أن أتكلم لكن الولد بقى منصتا صامتا؛ فصحت فيه قائلا: «ما تجيب يابو العم» فتساءل متجاهلا دهشتى: «أجيب إيه؟!» قلت فى استنكار: «هات حاجة ساقعة وهات دخان!» فقال فى كلاحة: «حاجة ساقعة آه! دخان لأ!» قلت: «فى الأمر شيء؟!» قال: «الجو ملبش» ثم تركنى ومضى وبعد برهة قصيرة أفقت على صوت الفتاحة يطرقع رافعا غطاء زجاجة الاسباتس الخضراء المغبشة بالثلج؛ وضعها على الطقطوقة جوارى وانصرف..

حمدت الله أن جيوبى نظيفة من الحشيش؛ فمكثت جالسا أرتشف الاسباتس على مهل، والهواء يتساقط فوقى من غرابيل الشجر، وليس

فى دماغى سوى شغلة المواسم اللائى سينغصن على عيشتى. فجأة لمحت عربة البوكس فورد الزرقاء تعبر الشارع العمومى فى بطء وتمهل؛ ثم غابت عن ناظرى، فانشغلت فى إشعال سيجارة، ولما رفعت رأسى رأيت ثلاثة أفندية شبان متجهمى الوجوه يقبلون نحو المقهى فى خطوات ذات وقع حاد، وكان غزولى يمشى وراءهم هو وشخص آخر لم أكن رأيته من قبل، فما كان منى إلا أن وقفت صائحا فى فرح وابتهاج: «غزولى! يا» لكن غزولى تجاهلنى يابوى، ومضى وراء الأفندية إلى داخل المقهى، فصحت ثانية بغيظ مادا ذراعى أكاد أجذبه: «إنت يا غزولى الكلب! ما سمعتش ولا إيه؟»» فإذا بغزولى يرتد نحوى فجأة والشرر يتطاير من عينيه الخبيثتين اللئيمتين؛ وبكل قوته يلسعنى براحة يده على وجهى شاخطا: «اقعد مطرحك». .

فجلست مطرحى والذهول يكاد يعمينى عن كل شىء ياخال. رأيت كبير الأفندية يتقدم داخل المقهى، فيفتش فى أركانه، ويعبث بالكراسى، ويتلصص خلف النصبة. فأيقنت أنها الحكومة يابوى، وأنها لابد قابضة ولكن مابال غزولى يتبرأ منى هكذا؟! إن أصابع يده صارت ترن على صدغى، إلا وأفندى منهم جعل يقبل نحوى مكشرا عن أنيابه، وغزولى يقف وراءه.

«بتشتغل إيه ياولد؟» هكذا سألنى الأفندى، فوقفت متلجلجا ياخال، وحرت فى النطق باسم شغلتى؛ وصرت من فرط الرعب والرعشة أنظر فى غزولى؛ الذى رأيته - ويا للعجب - يقف معتدلا منفوخ الصدر كأنه بنى آدم بحق وحقيق، كأنه هذا الأفندى الذى يسألنى الآن ويرعبنى، ثم إذا به - لا تتعجب ياخال - يقف بينى وبين

الأفندى قائلا فى استعطاف: «هذا ولد غلبان يا سعادة البيه! على الله! نفر من بتوع الفاعل!» قال الأفندي - واعجب هنا ياخال غاية العجب -: «فتشه يا غزولى!» فانبرى غزولى يتحسس جيوبى وتحت إبطى، ويرفع اللبدة عن دماغى، وأخيرا قال: «ما معه شيء يا سعادة البيه!» وكان الأفندى الذى وضح أنه كبيرهم قد جاء ووقف جوارنا، فقال فيمن حوله: «فين صاحب القهوة دى؟!» فقال الولد الصنايعى كالماكينة الدائرة: «مسافر يا سعادة البيه!»، ونظر إلى غزولى؛ فقال غزولى للأفندى: «أصله اليومين دول بيسافر كتير يدور على شغل فى الدول العربية! الحالة يظهر تعبانة معاه شوية!» فهز الأفندى رأسه وزام عدة مرات ثم استدار ومضى فمضوا جميعا خلفه وبقى الظلم فى عينى يابوى، وأصابع يد غزولى ترن فوق صدغى بألم شديد، وصوت واثق من نفسه يرن فى دماغى فوق رنين الوجع قائلا: إن غزولى ينصب نصبة جديدة محكمة الصنع، وأنه لابد أن يكون ولدا واعرا جدا يابوى، حتى إنه يستطيع أن يؤلف بوليسا يهاجم به الناس والأماكن طمعا فى صفقة كبيرة؛ إننى إذن بجواره مجرد ولد ينضرب على وجهه بالقلم. هنا صعبت على نفسى يابوى؛ فانهمرت الدموع من عينى كاللهب الكاوى، حتى اغتسلت عينى ونظرت الحارة قد خلت من جميع البشر، والريح تعبث بورقة جرنان زفرة فترمى بها هنا وهناك وتعلقها فى الفراغ، وثمة كلب مقع على الأرض يتابعها فى انبهار ويتثاءب فى ملل.

جاء الولد كمبر الصنايعى وجلس بجوارى واضعا فنجان قهوة على الطقطوقة؛ ثم نزع من فوق حلمة أذنه تحت شعره ورقة سلوفان فيها

قطعة أفيون فى حجم زرار البالطو، اقتطع ربعها وقدمها لى باسما: «روق! روق! ولا يهمك!» تناولت قطعة الأفيون وقد أحببت الولد ياخال. ولم يكن يخطر ببالى أن الولد كمبر فيه كل هذه الجدعنة رغم أننى منذ رأيته لم أهضم منظره، صحيح ياخال: الواحد لا يأخذ الناس بمناظرهم، طوحت بالقطعة فى فمى ومسحت دموعى قائلا: «تشكر يا كمبر» قال: «اشرب هذه القهوة على حسابى» قلت: «ما كل هذا الكرم يا كمبر؟» قال: «كله من خيرك!» فجعلت أرشف القهوة وأمصمص الأفيونة متمنيا أن تذاب بسرعة. وقال كمبر: «ما تأخذ على خاطرك من غزولى! إنه أخوك!» قلت: «عمره مافعلها! لا أعرف لماذا عاملنى هذه المعاملة؟! وعلى كل حال! حسابه معى طويل» ابتسم الولد كمبر قائلا: «خذ الأمر ببساطة! غزولى ضربك ونجاك! فلولا هو لكان الضابط قد أخذك. للتحرى عنك ولا تنس أنك غلطان ـ وضحك ـ أنت عدم المؤاخذة صعيدى مدب! كنت ستودى بالرجل فى داهية! هل عميت يا حسن؟! أنت تراه داخلا فى صحبة الحكومة تناديه؟! إنه فى حالة عمل وراسم نفسه أمام رؤسائه وحضرتك تقول له ياغزولى الكلب؟! لو كنت مفتحا لتجاهلته كأنك لا تعرفه! إنك اليوم ستجعلهم يشكون فى صدق عمله!»..

الأرض مادت بى ياخال، تحلف اليمين أننى رحت أثبت نفسى فى الكرسى خوف الوقوع؛ ودماغى كلها فى دوامة كالكرة تضربها قدم لتتلقفها أخرى: غزولى هو الذى نجانى؟! التحرى؟! عمله؟! رؤساؤه؟! ما كل هذا يابوى؟ لابد أننى من غير هذه البلدة من غير هؤلاء القوم ياخال. أيعقل أن أصاحب رجلا وأشتغل معه لسنوات طويلة، ويتضح لى فى برهة سريعة أننى لست أعرفه حق المعرفة بل

لست أعرفه أصلا؟!

قلت للولد كمبر: «ما كل هذا الذى قلته يا كمبر؟! إنك تقول العجب! أتقول الجد أم لعلك تهزل؟! ما دخل غزولى بالحكومة وعمل الحكومة؟!» وكدت أتسرع فأضيف قائلا: إنه حرامى رسمى ومعروف للدنيا كلها جربوعا حقيرا بلا مبدأ، لكن الحمد لله يابوى أننى لم أقلها؛ لأن الولد كمبر كان أسرع منى قائلا فى استنكار: «ما خوف إلا أن تكون لا تعرف صاحبك! أنت عبيط يا حسن أم أنك تستعبطنى؟! ألست تعرف شغلة غزولى الحقيقية يا حسن؟! غزولى شغلته مخبر سرى فى الحكومة! تبع مكتب مكافحة المخدرات!!».

نط قلبى، قافزا على لسانى: صائحا «ماذا قلت يا كمبر؟! يا جدع لا تقل هذا!». ثم خشيت أن يستعبطنى الولد ياخال؛ فتصنعت أننى أعرف هذا، وأننى أنفيه حرصا على سمعة الرجل وعمله وأخذت أغالى فى نفى الخبر، والإيحاء للولد بأن غزولى دماغه ملعلعة حبتين ومخه نظيف يستطيع أن يفعل كل هذا، غير أن الولد كمبر زغدنى فى جنبى بلطف وود، وأفهمنى كل شىء، قائلا: «إن غزولى ينفعهم كثيرا، فلولاه لأغلقت المقهى من زمن مضى؛ وذلك لأن غزولى يعرف مواعيد الحملات التى سيقوم بها مكتب مكافحة المخدرات بالساعة والدقيقة واليوم، فيلف على كل أحبابه من تجار المخدرات وأصحاب الغرز، فيبلغهم بمواعيد الحملة حتى يستعدوا لها؛ فتجىء الحملة فى النهاية تأخذ ما تأخذه الريح من البلاط. والمكتب لابد أن يطلع غزولى على مواعيد حملاته، لأنه لا حملة بدون غزولى، إنه هو الذى يعرف الحوارى والأوكار والمخابىء، وهو الذى يجمع التحريات عن المجرمين

والهاربين من الأحكام؛ وهو الذى يقود الضباط إلى المواقع؛ ولو كان المجرم الهارب واقفا بلحمه أمام الضابط وقال غزولى إنه ليس هو، أطلق الضابط سراحه في الحال، اصح يا حسن ياخوى! وافهم، غزولى هو الآخر يغطى نفسه جيدا! يجمع مرتبات تصل إلى آلاف كل شهر! والمعلم وغيره وغيره يساعدونه على تغطية موقفه! يجلبون له بعض القضايا فى حضور الضابط! يسلمونه بعض الزبائن يدا بيد، زبائن دعت عليهم أمهاتهم فقادهم سوء بختهم!»

تحلف اليمين ياخال أننى لم أعد قادرا على الزعم بأننى كنت أعرف أى شىء من هذا. على أن الضربة القاتلة عاجلتنى بعد برهة وجيزة ياخال، حين استطرد الولد كمبر قائلا فى ثقة هذه المرة: «أظنك لا تعرف أن بسبوسة هو الآخر مخبر سرى! انتفضت واقفا فى الحال ياخال، كمن يقف على سلك كهربى، وأخذت أصيح: «بسبوسة هو الآخر مخبر سرى؟! كيف يابوى؟! دفعنى الولد كمبر برفق، فجلست؛ فصار يبحث فى جيبه عن سجائر؛ فأسرعت لمد علبتى نحوه. فنزع واحدة بلها بشفتيه، ونزع عنها الشريحة المبلولة، ثم نزع ورقة بافرة من دفتر فى جيبه؛ ونزع قطعة حشيش من خلف حلمة أذنه، فركها على السيجارة وبرمها بسرعة، ثم أشعلها وجذب منها عدة أنفاس متلاحقة، وقدمها لى قائلا وهو يكتم الدخان فى منخريه: «بسبوسة مخبر سرى تبع بوليس الآداب! وهذه الشغلة تنغنغه! لو اقتصر عليها وحدها يأكل الشهد، يلبس الحرير فى حرير! وهو بالفعل هكذا! هناك عمائر بكاملها وسرايات فى مناطق نخاف نحن من المشى فيها! لبسبوسة مرتبات ثابتة فيها! العمارة أحيانا تكون كلها شقق دعارة

من أولها لآخرها! فكلها مؤجرة مفروشة! وإيجار المفروش هو الاسم الرسمى للدعارة! نعم! وهناك سرايات أصحابها كانوا باشوات ذات يوم وباتوا يتاجرون فى اللحم واللبن! الحكومة لا تعرف عنهم جميعا أى شيء إلا عن طريق بسبوسة! وهو كثيرا ما يضبط فى هذه الشقق بعض رؤسائه، ولكن فى زيارات ودية يقوم بها لقبض المعلوم ولتبليغ خبر حملة! وكان يجيء بعدها فيحكى لنا وللمعلم صفصف! بسبوسة هذا كان زمانه الآن مليونيرا كبيرا لولا مسماره! هو الذى يدوخه ويعذبه فى الدنيا! لا يشبع ولا يكتفى! يقول إن السبب ليس فى أنه ثور طلوقة وإنما لكثرة الجميلات السائبات اللائى يقعن تحت يديه مقهورات! منهن من تكون امرأة رجل كبير ذى مركز كبير أو بنت ناس طيبين ولكنها ظبطت متلبسة! ومادام قد صار لها ملف فى الآداب فإن مسماراً يرقعه بسبوسة فيها خير لها من المبيت كل يوم فى قسم الشرطة! الواحدة منهن تنام فى حضن زوجها متخشبة ولكنها فى حضن بسبوسة كالزنبرك! هكذا يقلن له وهكذا يقول لنا! ياما جاء هاهنا عقب خروجه من عند إحداهن سكرانا طينة! فيكشف عنه ويريه لنا متسلخا! وفى لحظات يختبئ فى زقر مظلم فى الحارة ويفعل العادة السرية ويعود قائلا: إنه ظل يرقع طول الليل دون أن ينزل منه شيء وقد أنزل الآن فاستراح! إنه ملعون فى الدارين، بسبوسة هذا لكنه جدع! أجدع واحد فى شلتكم كلها! خصوصا لمن يقصده فى خير! هن يحببنه - يقول - لأنه يفعل معهن مالا يفعله أزواجهن تحرجا أو غشومية! بعضهن حلفن له عند حدوث الشيء أنهن قبل الآن لم يكن يعرفن شيئا عن هذا الشيء، رغم أنهن متزوجات ومنجبات من سنين طويلة! كذلك يفعل معهن حركات الجدعنة! إنه محظوظ ابن كلب هذا البسبوسة! أتخن شنب فى البلد

وأحلى شاب فيها لو نظر لواحدة منهن تنقلع عينه قبل أن يطول منها نظرة لما هو معروف عنهن من العفة والهيبة وكثرة المال! أما عند بسبوسة المعفن هذا فإنها تخلع اللباس فى الحال وهى تقول سبحان الله والحمد لله! وعلى فكرة! كل نسوان الكورنيش عفيفات شريفات حتى يراهن بسبوسة! تنهار الواحدة منهن فى الحال وتنكسر عينها! أما عمارة الكورنيش فى مصر عتيقة! أكبر عمارة هناك! فإن بسبوسة يشتغل عليها آخر شغل! فيها خمس مومسات مقيمات لكل منهن ثلاث أو أربع صديقات! كل واحدة منهن تجىء بزبائنها الخصوصيين! وهم زبائن من أصحاب الرتب العالية والرأسمال الكبير! والجميع يقيمون السهرات الحمراء! ولعب القمار شغال طول الليل! الواحد منهم يشترى البنت ويلاعبك عليها «شوف» الفجر والعهر! «شوف» المزاج العجيب الغريب! ديك أم هذا المزاج المهبب! إن غلبته أنت فى اللعب تقوم فى الحال أو عندما يطيب لك، فتعتلى البنت فى الحجرة المجاورة حتى الصباح! يقول إن عنينا مرخيا يكسب باستمرار فى هذه اللعبة فيحتجز أحلى البنات على اسمه طول الليل، والمغلوبون يتحرقون شوقا من حوله ويتعذبون فلا يرحمهم! أما إن غلبته أنت فإنه يدفع لك تكاليف أى بنت تختارها! إذ إنهن جميعا أمامك بقمصان النوم شاربات منتشيات بهن يحمى اللعب فيجعلنك تذهب لتجىء بكل ما فى بيتك من مال تدفعه لهن! «شوف» العهر بتاع البلد يا سى حسن! وتقول لى نكسة؟! إنها بلد يلزمها الحرق يا بوعلى!». .

وكف عن الكلام كأن الحشيش المتكلم فى دماغه قد نفد فجأة كما تنفد البطارية؛ فبقى شاردا يحدق فى الفراغ وقتا طويلا يدخن سيجارة

عادية فى صمت كفيلسوف متهور؛ وموجات صوته لا تزال موجودة فى المكان. أما أنا فلا تسل عنى ياخال؛ تحلف اليمين أن يدا غليظة غسلتنى وعصرتنى. الأرض كروية يابوى، صدق من قالها، وبحر الأفكار واحد والخلق جميعهم يسبحون فيه، والواحد منا مهما شرق أو غرب فهو ماض تحت نفس الأمواج المتلاطمة؛ وها هوذا الولد كمبر يكلمنى فيما كان يشغلنى من أمر دون أن أسأله أو أرد عليه الأمر.. فيا له من أمر يابوى!..

فجأة نطق الولد كمبر من جديد، فلم أدر إن كان قد استأنف بعد توقف أم أنه لم يتوقف أصلا؛ لكننى أفقت على صوته يتجسد فى أذنى بحدة وحقد شديدين: «المشير أصله ضرب مخ الجميع بمرض الفنانات! وآخر المتمة جاء ينتحر لى! فتّك البلدة وانتحر! الله يكرمه عنده دم وانتحر! أما الآخر فقد نال أمنا وجاء يعتذر ويتنحى! بلد مسمومة يا جدع! الثورة تأكل عظمنا وباشوات زمان طفشوا بفلوسهم! والضباط صاروا باشوات أوسخ من الباشوات! وإسرائيل لابدة لنا فى حقول الذرة العالية! وحقول الذرة هذه هى أمريكا إن كنت لا تفهم! وخلى بالك إننى عجوز أكبر من شكلى!»..

ثم عاد إلى صمته؛ وقام بعد برهة فاتجه إلى النصبة وراح يقلب ويعكرش تحت خشب أرضيتها وجاء بربع قرش ملفوف فى ورقة سلوفان حمراء، وجلس فانبرى يلف سيجارة.

* * *

أولاد القحباء - إذن - يعيشون فى حماية بسبوسة. لقد اتضحت الأمور تماما ياخال، وباتت غير محتاجة لأى تفكير. فما الذى ترانى

سأفعله مع بسبوسة ياخال؟! هل يعقل أن بسبوسة يبيعهم ويشترينى؟ هل يبيع مصدر رزقه فى سبيلى؟ لا أظن ذلك أبدا ياخال، وبهذا تكون المسألة قد تعقدت، ولن أفلح فى محاربة أولئك الموامس طالما أن مندوب الحكومة يحميهن. إن الموظف الصغير فى بلادنا هو الحاكم الأصلى كما علمنى ونبهنى أهلى؛ وكل الرؤساء الكبار لا يعرفون شيئا غير أنهم رؤساء وكبار والسلام؛ خاصة هؤلاء الذين جاءوا مع الثورة وهدفهم المريسة فحسب. على كل حال ياخال، هكذا قلت لنفسى يابو العم ـ فإن الولد كمبر يقول إن بسبوسة جدع، خصوصا لمن يقصده فى خير؛ وأظن ياخال أن مقصدى من تأديب الموامس خير. الأمر يلزمه تفكير عميق يابوى؛ فأنا الآن فقط صرت أتأكد من أننى بالنسبة لهؤلاء الولدان قشة فى بحر قراره عميق..

ورأيتنى أقول للولد كمبر: «خدمتى عندك يا كمبر أن يظل مادار بيننا اليوم من كلام كأنه طوبة وقعت فى بئر مظلم!». فزغدنى كمبر بسيجارة ملفوفة وغمزنى بعينيه: «كم من السنين تعطينى عمرا يا حسن؟!. قلت: «شيئًا وعشرين على الأكثر!». فابتسم وأخرج ولاعة البوتاجاز البلاستيك وارد غزة، والتى من المفروض أن يرمى بها فور نفاد البوتاجاز منها، لولا أن المصريين اخترعوا لها طريقة لإعادة ملئها بالبوتاجاز. جعل يقرب شعلتها المستطيلة نحوى؛ فأشعلت السيجارة وجذبت نفسا عميقًا، تبعته بأنفاس متلاحقة، وهو ينبهنى فى حرج: «الرحمة!»، فناولته السيجارة. فبإبهامه نفض عنها الزهرة المحترقة وكانت أعماقها متصلة دليلاً على جودة نوع الحشيش الذى بدا كأنه العامود المسلح وسط الهديم المحترق. أبقى السيجارة بين أصبعيه حتى

تلتقط أنفاسها، ثم قال: «شيئًا وعشرين تقول؟! ربنا يجبر بخاطرك!»؛ وجذب نفسا عميقا كتمه فى منخريه وعينيه بالأحمر المرمد؛ جعل يقول وبقايا الدخان فى حلقه تبعثر حبال صوته وتغلظه: «فى رمضان القادم أكمل الأربعين من العمر!»؛ وجذب نفسا أعمق من سابقه يابوى، نفسا يليق بسن الأربعين وسط غرزة فيها الخير غير مقطوع ولا ممنوع. قلت: «ما شاء الله! ما شاء الله! لا يبين عليك والله يا عكروت!» سلمنى السيجارة قائلاً بصوت متكتم: «عندى عرائس ما زوجات! ولى ابن مجند فى الجيش الآن! وآخر مات بالنكسة! جاءته نكسة قلبية فى سيناء فمات ولم أر جثمانه حتى الآن ولم أعرف إن كان قد دفن فى مقابر الشهداء حقا أم أكلته الغربان والذئاب فى سيناء! أنا الآخر كنت سأصاب بالنكسة وأنا هنا! لكننى رأيت أمه على وشك الوقوع صريعة مشنوقة بالطرحة السوداء والكفن الأسود! فقلت ما يصح أن نسقط معا، فأجلت وقوعى حتى أقوى على سند أمه المسكينة! إنها أهم منى بكثير يا جدع! لو ماتت ألوص أنا بقبيلة من الأولاد لا نجد من يمسح خراءنا! لو مت أنا فالله يرزقهم عنى، أما هى فإن الله ـ عدم المؤاخذة ـ لم يرزق أما ثانية للبنى آدم أبدًا! عمرها ما حصلت يا جدع! عمرك شفت شخصا ماتت أمه وعوضه الله بأم غيرها على الحقيقة؟! إن قلت إنك شفت تبقى كذابا، حتى أم الأم نفسها رغم كثرة حنانها لا تكون هى الأم نفسها أبدا! اسألنى أنا فقد اكتويت ياجدع!»..

وتناول السيجارة منى ونظر فى عقبها محددًا عمق النفس الذى عليه أن يجذبه. فلما رآه لا يستاهل رمى بالعقب فى بالوعة الماء تحت

النصبة؛ ومضى يبرم سيجارة أخرى وقد تندَّت عينه بالدمع؛ وترطب: «إننى لابن قحباء، صحيح!»؛ وضحك بصوت عال فى مرح حقيقى: «الذى مات مات! فى كسحة! المشير نفسه مات! والبطل واللوطى كلاهما يموت فى النهاية ويتساويان فى القبر والكفن! ومصر كلها ماتت من الضرب فيها وكأن شيئا لم يحصل! الراديو يذيع شنبه فى المصيدة عشية النكسة يعزينا بها فى موت عيالنا! شنبه من؟ كلنا فى المصيدة وتجيء تسوق التريقة علينا؟ معك حق طبعاً! البلد فرحانة والكباريهات سهرانة والشقق المفروشة عمرانة، والغرز نارها والعة والحشيش للركب، ما يشرب الحسرة إلا نحن يا من فقدنا عيالنا! لكن لا داعى للنكد! معلهش يا حسن! أنا تصيبنى حالة النكد هذه كلما رأيت أحداً من الحكومة!»؛ ثم بلل الورقة البافرة ولصقها حول الدخان وكوَّر بوزها وسوى عقبها ثم أشعلها وتركها موهوجة ملعلعة بأنفاسه المتلاحقة؛ أخيرا سلمها لى قائلا: «قصدى من الكلام كله أننى فى غير حاجة لنصائحك! أنا ولد يعجبك، أصادق الصغار والكبار معا! ينخدعون فى شكلى يتصوروننى من سنهم! فأجد نفسى كبيراً عليهم! والكبار يتصوروننى صغير السن فأخذ نفسى مساويا لرءوسهم هل رأيت المعلم صفصف يهيننى فى أى يوم أو يقل أدبه علىّ كما يفعل مع الصنايعية؟! هكذا أنا مع كل الناس! أَحترمهم فأكيفهم فيحترموننى ويطلعوننى على أسرارهم! وأنا ـ على فكرة ـ أستطيع أن أميز السر الحقيقى من السر المصطنع! أعلمك وآكل من دارنا! السر الذى يقال لك ليس بسر، حتى ولو وصفه قائله لك بأنه سر، إنما السر هو الذى لم يكن صاحبه يود لك أن تراه أنت أو غيرك! تشرب شاى؟!». قلت: «ما أحلاك ياولد!». فحود على النصبة وصب كوبين من الشاى الثقيل

ذى الرائحة النفاذة؛ فأخذنا نشرب فى صمت عميق ياخال؛ كأننا تعبنا من الكلام ارتكن هو بمرفقيه على رخامة النصبة شاردا، وكوعت أنا على الكرسى، وقد شعرت أن السيجارة الأخيرة لطشتنى فى مقتل ياخال، فصار دماغى يتبخر فى الهواء. ومنذ صمتنا انبعث صوت تكتكة صار يقوى مع الريح المقتحمة من فازتين متواجهتين وكانت صورة جمال عبد الناصر المعلقة فى برواز مذهب على الحائط قد صارت نهبا للريح مشبوكة فى فتلة دوبارة دائبة فأخذت تصدر هذا النقرزان العنيف، فقلت فى عقل بالى: لعله دبور زن على خراب عشه.. فاقشعر بدنى حينئذ ثم انفرد مرة واحدة فى رعدة شديدة قلت على إثرها: حى على الفلاح! واستسلمت لصمت عميق مخيف.

الخامسة ـ طلوع الشعرة من العجين

كنت أوقن أن كل شيء مصيره ينكشف، فطالما أنت زمار وأنا طبال فلابد أن الليل يجمعنا. إلا أن مخي الصعيدى الناشف أمرنى أن أختفى عن هؤلاء الولد؛ أبعد عن الشر وأغنى له. ولقد مَنَّ الله على برجل طيب كان يعرفنى من قهوة المعلم. هو من بلدة الصف اسمها «الودى»؛ وكان معروفا للجميع؛ اسمه الحاج وهدان؛ شغلته فى الأصل تاجر خضار وفاكهة؛ يسوق المراكب من بلدته ويجيء ليعتقها فى مصر عتيقة بدلا من روض الفرج، الذى تكثر فى سوقه «المعلمين» ويضيع مكسب البضاعة بينهم. غير أننى عمرى ما رأيته فى حالة شغل أبدا؛ فدائما هو قاعد على المقهى يشرب الشاى مع الشيشة، ويستقبل الوفود التى لا ينقطع هلولها طول النهار. كلهم أشكالهم غريبة يابوي؛ ومثله يرتدون الجلباب الكثير والعمامة الصعيدية والعباءة الجوخ على اكتافهم؛ وكلهم عيونهم لائذة، لا تكف عن التلفت فى حذر وحيطة وخوف. رآنى ذات عصرية رقيقة النسمات أجلس على رصيف المقهي وحدى. فميَّل نحوى ونادانى بإشارة من يده؛ فقربت كرسيًّ منه مائلا بأذنى نحوه، وضع كفه الكبيرة فوق كتفى قائلا فى ود جميل: «بتشتغل فين يابو العم؟!». قلت: «صراحة لا أشتغل هذه الأيام!».

قـال: «مـا شـغلتك الأصليـة؟». قلت ـ ولا أدرى لم؟ : «بيـاع متجول!». لوح بالخواتم الذهبية فى يديه وقال: «أظنك تقرب للمعلم شندويلى؟!». قلت: بلديات! وأسكن عنده!» صاح رغـمـا عنه: «حلو!»؛ ثم عزم علىّ بسيجارة بلمونت؛ فقبلتها: «كتر خيرك»؛ فقال وهو يشعل لى بولاعة بوتاجاز ثمينة: «عندى طلب بسيط، لو نفذته لك عشرة جنيهات!». قلت: «رقبتى سدادة!». قال: «سأعطيك شيئا توصله إلى مكان قريب!». ففهمت فى الحال، وقلت بحرفنة: «عشرة جنيهات على الأقة تقصد؟» فتبسم فى حذر وخبث، ثم قال: «على النقلة كلها!». قلت: «يفتح الله! إذا كان على الأقة الواحدة أهلاً وسهلا!». فشخ حنكه وقال دون مواربة: شوف يابو العم! ستة جنيهات فقط على الأقة! موافق؟!». قلت «موافق!». قال: «قم معى!». فقمت معه؛ فإذا هو يركب المرسيدس الراكنة بجوار المقهى، ويفتح الباب لأقعد بجانبه. ثم إذا بالسيارة تنطلق بنا كالعروس المجلوة ما صدقت أن تملكت الطريق السريع حتى نفخت جناحيها وطارت، صرنا فى بلدته بعد دقائق. فى الطريق اختبرنى، وزودنى بكثير من النصائح الثمينة، ونبهنى إلى ركوب القطار بعين قوية حتى لا أثير الشبهة حول نفسى. . فإذا هو ياخال يكتشف أننى من أصيع خلق الله، أصيع منه ومن الضباط والمخبرين والكمسارية.

* * *

كانت أيامه فُلاًّ يابوى أنقل كل يوم نقلة وزنها خمس أقات بعشرين كيسا مبططا؛ أشترى لها جعبة من ورق الأسمنت وأغطى البضاعة بهلاهيل قديمة؛ وفى القطار أسندها على رف وأقف بعيداً عنها بمقدار

طول العربة، يكون بينى وبينها باب، وأصب عينى عليها خلسة كلما وقف القطار على محطة، حتى إذا جاءت محطة السيدة زينب تلقفت الجعبة بسرعة وقفزت هابطا، لأذوب فى سبيل النازلين منسلتا إلى الحوارى الجانبية فى لمح البصر كفص ملح ذاب. الرجل المقصود دائما فى انتظارى على ناصية أو مقهى أو فى دكان صغير للبقالة، للعطارة، للخياطة، لأى شيء. قبض العرق يتم قبل الحمام، يدفعه الممول على داير مليم لكى يكسف شيطان الهرب الوسواس؛ ولكن متلقى البضاعة ينكشح لحظة وصولها بسلام وإن توترت أعصابه وتغير منظره، فيغمزنى بما فيه النصيب، وأحيانا: فوت بالليل اشرب قهوة؛ فأفوت، وأشرب فوق القهوة ما يتْول الحيل من حشيشة المعلم المخصوصة، وأقفل راجعا إلى الدار بوهبةَ من فلوس وحشيش وأفيون وبرشام.

الحالة تمنجهت وباتت آخر نظاكة؛ وأصبحت أرمى بأكوام الفلوس عشرات عشرات فوق بعضها فى أى مكان بجوار السرير، وصرت أدفع للمعلم شندويلى فوق الإيجار إيجارات وفوق القسط أقساطًا؛ حتى فاض الحساب عن دفاتر ذاكرتى فصار شيئا كبيرا كبيرا، يصيبنى الدوار حين أشرع فى حسبه، فى جمعه. فوق ذلك صرت أبعث لهليل بالحوالات تلو الحوالات، ولأمى كذلك، والفلوس مع ذلك لا تبتعد ولا تختفى أكوامها من فوق ذلك المسمى بالكومدينو المجاور لرأسى. ولم يكن الشغل يستغرق منى سوى أربع أو خمس ساعات؛ وبقية النهار مفتوحة، والليل كله تحت الركاب. ولقد تعلمت أكل الكباب والكفتة مثل الأكابر، والجمبرى والكابوريا مثل أولاد الناس. كما تعلمت النوم فى القيالة للسهر طول الليل فى بارات وسط البلد وحى العتبة وغرز الدرب الأحمر والسيدة زينب.

وكنت جالسا على مقهى الكلوب المصرى مرتديا الجلباب الكشمير والمركوب الأصفر، وأتلفع بلاسة حريرية سمنية اللون، أضع رجلا على رجل، وأمامى فنجان القهوة كالناس الأكابر لا ينقصنى سوى الجرنان والعصا العوجاية والمنشة . . حين جلس بجوارى رجل يرتدى جلبابا فوق بالطو قديم كالح، وله شوارب متدلية. عرفت فى الحال أنه مخبر سرى فى الشرطة، فرجف قلبى. صرت أتفرس فى وجهه علنى أعرف سر هذا العشم الكبير الذى جعله يجلس بجوارى أنا بالذات من غير سلام أو كلام. كان هو الآخر يتفرس فى عينى ويقاوحني؛ فاغتظت منه؛ مع ذلك قلت له باسما: «أهلا وسهلا!». قال: «حسن ولد أبو ضب؟!». قال متحسبا: «خدامك ومحسوبك! تشرب إيه؟!»؛ وصفقت فى الحال مناديا الجرسون، الذى جاء يهرول؛ فقلت له: «هات قهوة هنا!». قلتها كما يقولها الحاج وهدان بالضبط؛ لأنه هو الآخر يقولها كما البكوات الكبار. وهنا ضحك الرجل، فضحكت أنا الآخر، وأسرعت فقلت: «أهلا وسهلا يابو العم! عدم المؤاخذة! العتب على النظر!»؛ وقربت علبة سجائرى البلمونت منه! انتزع منها واحدة بحركة سريعة، وعينه تبصبص للعلبة ولحركة يدى أينما اتجهت. وحين أشعلت له السيجارة بالكبريت كان الجرسون يضع أمامه فنجان القهوة؛ فانتظر هو حتى أعطانا الجرسون قفاه ومضي؛ ثم جذب من السيجارة نفسا يلمع من ورائه خبث شديد فى عينيه؛ وبعثر الدخان نحوى قائلا: «عدم المؤاخذة يابو على! عندى لك نصيحة!». قلت فى نفسي: «يافتاح يا عليم»؛ وأردف هو: «هما كلمتان: كفاك هذا!!».
دبت الرعشة فى ساقي: «ما قصدك يابو العم؟ ومن تكون حضرتك؟!». أخرج من جيب صديريه كارنيها قديما كالحا، قربه

نحوى فى حركة مدربة وهو يقول: «سيد الشفتورى! مخبر سرى!». فأشحت عن الكارنيه وعنه؛ فأعاد الكارنيه إلى جيبه وهو يقول فى لهجة انتصار: «أنت تشتغل مع الحاج وهدان بتاع مركز الصف، وأنا عارف كل حاجة، تركتك تأكل عيشا وليس بقلاوة! واليوم رأيتك فرأيت أن أعمل واجبا لوجه الله، الجو هذه الأيام مقلوب! ومصيرك الوقوع فى الفخ!».

نشف ريقى ياخال؛ صرت أبلل شفتى بلسانى كى أقدر على الكلام. قلت: «أنت تشكر على كل حال يا معلم سيد يا رجل يا أمير! ولكن أنا مالى أى دعوة بالشغل! ربما تكون رأيتنى معه أو عنده! والحقيقة أننى أعرفه من مقهى المعلم شندويلى، أما أنا فتاجر فاكهة! سمسار! ولست أعرف للحاج وهدان شغلة غير هذه أيضا! فإن كنت تقصد أنه يخالف القانون فى البيع والتسعيرة فأنا شخصيا لا ذنب لى!». وكانت عينه الشبيهة بعين الثعبان قد انغرست فى عينى وصارت تشرخ فيهما بمبارد من حديد مشتعل؛ فما كدت أنهى كلامى حتى شفط آخر شفطة من الفنجان ثم وقف خابطا يديه فى ركبتيه علامة اليأس مني؛ ومضى قفاه يبتعد حتى اختفى.

بينى وبينك لعب الفأر فى عبى. وكنت أتمنى لو أننى غمزته فى جنبه بجنيه أخضر؛ إذن لانحنى لى شكرا وتركنى فى حالى مثلما يفعل زملاؤه الذين أراهم يسلمون على الحاج وهدان كالخدم الأذلاء. لكننى خفت أن أفعل مثله حتى لا أثبت التهمة على نفسى. انقبض قلبى وحط عليّ نكد ثقيل؛ فحاسبت القهوجى ومضيت إلى الدار وقد خيل لى، أن الحياة بدأت تقلب لى وجهها من جديد، وأننى يجب أن أتوقع

أيامًا نحوسًا جديدة لست أقدر على دفعها إلا بالابتعاد عن خط الصف كله؛ ولكن كيف يابوى؟ . . فلأعد للولاد ثانية لنشتغل فى التشبيح ليلا كيفما نهوى. هكذا قالت نفسى لنفسى. وفى السرير تمدد الشيطان بجوارى يقنعنى أن «سيد الشفتورى» يسعى لورقة الجنيه، وأن أمره بسيط ويمكن أن أتحدث بشأنه مع الحاج وهدان ليصرفه عنى. وهكذا استطعت أن أغمض عينى قرب الفجر.

فى الصباح طسست وجهى بحفنة ماء ونزلت من فورى متوجها إلى بلدة «الودى» لمقابلة الحاج وهدان. وجدته يجلس فى حوش داره بين مجموعة من أولاد عمه وصحابه. داره منفصلة عن البلدة، تختفى وسط جنينة كبيرة وارفة الأشجار. ولما نبحتنى الكلاب طلع من يهشها ويدخلنى. ولحظة دخولى كان الحاج وهدان يفرجهم على بضاعة جديدة؛ يحاول فتح صفيحة كبيرة كصفائح السمن. فلما نجح السنبك والشاكوش فى فك شمعها رفع هو غطاءها الكبير. فاندفعت رائحة الحشيش زاعقة مكتسحة مبهجة. ومد يده فاغترف بكفه حفنة صغيرة من بودرة صفراء؛ عرضها على الأعين المشرئبة، ثم أطبق كفه عليها. فانعجنت؛ وفك عنها قبضته، فإذا هى كرة من الصلصال كالبيضة. سحب سيجارة من علبة أمامه، غطسها فى الصفيحة ثم أخرجها وأشعلها وجذب منها نفسا عميقا. مررها علينا. ثم تبعها بواحدة ثانية، فثالثة، فرابعة، فخامسة. فإذا نحن جميعا قد احمرَّت عيوننا واحلوت الدنيا فى أنظارنا، وصرنا نضحك على الفاضية والمليانة.

صفق الحاج وهدان فجاءت أمه الحاجة «أبهة» لتأخذ الصفيحة. فى دخلتها جاءت عينى فى عينها مباشرة. فإذا هى تغمز ابنها قائلة فى

تحذير بلهجة خطيرة وهى تشير إليّ: «الولد ده ما يشيل بضاعة اليوم!». وحملت الصفيحة ومضت كفتاة صغيرة. كل النظرات راحت تنصب على فى تشكك باسم، فصرت أحلف ستمائة يمين أننى طبيعى ما انسطلت بعد، كما أننى لست بالذى ينقلب من سيجارة واحدة حتى لو كانت محشوة بالبارود. ونظر لى الحاج وهدان نظرة تحذير أخيرة وقال: «إنت حر على كل حال! ذنبك على جنبك!». فضربت صدرى بقبضتى قائلا: «أنا تمام يا معلم! ما يهمك شيء!» فأشاح عنى كأنه استشف عدم قدرتى اليوم بالفعل؛ وقال مستدركا: «على كل حال يكفيك اليوم أقة واحدة! إن ضاعت فأمرها سهل!». قلت فى شيء من الانكسار: «اللى تشوفه يا معلم!». وبعد أن تغديت فطيرا مشلتتا مغمسا بالعسل النحل والجبن القديم وشربت شايا، ونفحنى الحاج وهدان عدساية أفيون؛ وكنت بالفعل أشعر أن الدنيا ليست هى الدنيا، إذ كل شيء قد زهزه فى عينى فجأة، واكتسى لونا جميلا وصارت كل ملامح الناس باعثة على خواطر الضحك.. تحلف اليمين يابوى كأننى مخلوق لتوى. غير أن رأسى يثاقل على ويخادعنى، يكاد يوقعنى، حتى لقد صارت أمنيتى الوحيدة فى الحياة أن أرقد على ظهرى وأنسلخ عن الوجود وأعيش وحدى هذه اللذة الكبيرة. إلا أن الأفيونة بنت الكلب سرها باتع يابوى. ما كدت أطوحها فى فمى بشفطة شاى ثقيل حتى انعدلت دماغى فى الحال، وصار بإمكانى أن أنهض فى طلب البضاعة والاتكال على الله..

ويظهر والله أعلم أن الحاج وهدان قد لمح الزعل فى عينى على نقص رزقى اليوم بتخفيض المشال إلى أقة واحدة، فإذا به بعد أن

سلمنى الأقة يخرج من سيالته أربعة أكياس يضيفها لى قائلا: «هاك أقة أخرى! خلى بالك من نفسك!». فحشرت الأكياس فى دكة اللباس وكسرت عليها الحزام ومضيت وأنا أقول: يا سابل الستر. لكن الخوف تصدر بين قدمى وبعث طائره السريع إلى دماغى فذكرنى بسيد الشفتورى وما حصل منه على مقهى الكلوب المصرى. انتحيت بالحاج جانبا وهمست له بما حصل بالأمس، فوجئت يابوى بأنه لم يطرف له جفن، بل أطبق على سمانة ذراعى قائلا فى بساطة: «لا يهمك منه! إنه كلب لا هنا ولا هناك! لو كلمك ثانية استغنى عن علبة سجائر تسد بها حلقه! وعلى كل حال أنت محمى هنا! فى حدود مركز الصف! إذا لا قدر الله قَلّت الحكومة عقلها وهاجمتك فإنك ستخرج من باب قسم الشرطة بعد ساعة واحدة! وتخرج البضاعة من الباب الآخر بعد ساعتين! أما خارج حدود المركز فاجعل عينيك فى وسط رأسك، إذ أنت مسئول عن نفسك!» فقلت: «تشكر ياحاج!»، واتكلت على الله ثابت الوطء.

قرب محطة حلوان سمعت صوتا مألوفا ينادينى. تلفت مذعورا أبحث عنه؛ فإذا هو عم زعتر بائع الشباشب الزنوبة والأحذية المصنوعة من البلاستيك. كان سارحا فى شوارع حلوان يبيع ويتسوق معا. وكان يحمل على ظهره جوالا ملآنا بالشباشب والأحذية: أهلا عم زعتر! ومشينا سويا حتى المحطة، فقلت له: «عنك، دعنى أشيل بدلا منك!». أنزل الجوال قائلا: «لا، بس ممكن تخلى بالك منه لحد ما أشترى «طلب» من الأجزاخانة!». قلت: «أشترى لك أنا؟!». قال: «لا! أريد أن أفك فلوسا كبيرة!»، ثم مضى..

وقفت بجوار الجوال أتلفت حولى، والخاطر الوافد يكبر فى دماغى ياخال. قلت فلأجرب. فانحنيت على الجوال، ونزعت الأكياس وسربتها إلى الجوال فى قلب الأحذية. عم زعتر نظره ضعيف، ويمكن أن أستغفله عند النزول. ساعدته فى حمل الجوال على ظهره، وتركته يمضى قائلا: إننى سأشترى سجائر وأحصله، فقال: إنه سيقطع لى تذكرة. جعلت أتلكأ حول أكشاك السجائر على باب المحطة مصطنعا أننى مشغول بشيء سأشتريه؛ وحقيقة الأمر أننى كنت شاعرا بالحرية بعد أن تخلصت من السجن فى جوال عم زعتر. أيقظنى صفير القطار من سرحتى فيممت نحو دكان اشتريت منه بضع قطع من الصابون صررتها فى منديل محلاوى ووليت إلى باب المحطة. ويالهول ما رأيت يا خال: سيد الشفتورى المخبر السرى واقف على باب الرصيف وحوله رهط من أهل مهنته، وثلاثة أفندية محترمون سمحو الوجوه. قلت: بس! رحت فى داهية! وصرت ألملم ركبى تحت الجلباب. من حسن الحظ أن أعطيتهم قفاى بسرعة قبل أن يرونى، وصرت أتحكك فى طابور التذاكر ممسكا بورقة الشلن حتى وصلت إلى عم زعتر قرب الشباك؛ فملت عليه وهمست فى أذنه بسرعة ألاّ يكلمنى ولا يعرفنى الآن، لأن المباحث واقفة بباب الرصيف تنتظرنى. عم زعتر سلمنى التذكرة ومضى بعيدا؛ فظللت واقفا لبرهة حتى رأيته قد عبر البوابة ودخل إلى الرصيف؛ ثم انضممت إلى آخر الطابور. ماكدت أصل إلى الحاجز الحديدى حتى تهلل وجه الضابط وانفرجت أساريره وصاح قائلا: «أهلا، أهلا، أهلا، إزيك يا حسن، معاك حاجة يا حسن؟ طلع اللى معاك طلع!». فوجمت. قلت: «ما معى أى شيء يا سعادة البيه! لا أفهم أى شيء تقصد؟». فنظر الضابط إلى سيد الشفتورى،

فانبرى يفتشنى تفتيشا قاسيا ومهينا للكرامة ياخال. وفى الآخر شوح للضابط فى مرارة وخيبة أمل قائلا: «ما معه شيء يا سعادة البيه» فأشاح الضابط وشوح علامة أن يفضه منى فيتركنى. وفعلا تركنى ياخال، فمضيت أجرجر ساقى نحو القطار المترو، ورميت بنفسى على سلم أول عربة، متشبثا بحديدة الباب. صعدت، جعلت أمضى من عربة إلى أخرى بحثا عن عم زعتر، الذى وجدته فى العربة الثالثة واقفا بجوار الباب مسندا الجوال فيما بين ساقيه وصدغ الباب لم يرنى بالطبع، فجاوزته إلى آخر العربة عند بابها الآخر. بعد برهة قصيرة رأيتهم مقبلين ياخال: سيد وحكومته فقلت: لابد أنهم يتتبعونى ويصرون على الإمساك بى متلبسا، فسابت ركبى، وجعلت أدفن نفسى فى ركن الباب وظهر الكرسى ولكن عينى تتلصص عليهم.

المصيبة ياخال أنهم ركبوا وسط الزحام وبقوا واقفين فى أماكنهم حول عم زعتر. فجاءنى صوت يشبه صوت أبى يقول: انزل فى المحطة القادمة! انزل فى المحطة القادمة! انزل فى المحطة القادمة!.. ومحطات كثيرة جاءت ومضت وأنا لا أفيق من شرودى إلا والقطار يهزنى لحظة استئنافه السير. وحقيقة الأمر يابوى أن البضاعة التى دفنتها فى جوال عم زعتر صعبانة على ولابد لى من استردادها بأى شكل. وعندما جاءت محطة الملك الصالح كنت فى فتحة الباب واقفا فى اطمئنان فى آخر عربة، وهكذا قفزت على آخر الرصيف مداريا نفسى فى زحام السائرين، وجعلت أتسقط عم زعتر فلما رق الزحام رأيته واقفا على الرصيف، وسيد الشفتورى يساعده على حمل جواله، فيما صارت أبواب القطار تنغلق ببطء والعربات تزحف فوق الرصيف،

أعطيتها ظهرى، ووليت نحو السلم، ثم أخذت أهرول شيئا فشيئا حتى لحقت بعم زعتر، فقلت له: عنك! وحملت الجوال ومضيت بجواره مفكرا فى طريقة أسترد بها بضاعتى دون أن يلحظ هو أننى كنت أضع له السجن فى جواله. إنه لحسن الحظ يعرف أننى شريب للحشيش، قابلنى عشرات المرات فى غرز مصر عتيقة والفسطاط وأثر النبي؛ فهو الآخر حشاش بريمو، ولو فتشته فى أى لحظة فلابد أن تجد معه حشيشا لشربه، ومن أعلى نوع. أنا نفسى كثيرا ما أرضى بشرب حشيش كالجلة تمشيا مع الظروف والأحوال، أما هو فإن لم يتوفر له الزيت أو الهبو ذو الثمن المرتفع فإنه يبطل الشرب حتى تتيسر الأحوال، لكنه دائما وأبدا يشيل فى لفائف عمامته المصراوية أكثر من قطعة جاءته من باب الله فركنها إلى أن يهديها لصاحب نصيبها.

وجدتنى أقول له: «معك حجران يا عم زعتر؟!». قال بشهامة: «معى لكن لن يعجبك!» قلت فى منتهى السعادة: «أما أنا فمعى أعلى حشيش بريمو! عمرك ما شربته!» وكان قد توقف وراح ينظر لى فى اندهاش رافعا حاجبيه، فأردفت: «اذهب فاشتر لنا ورقتين معسل قص! وسوف أعشيك لحما وفراخًا مشوية! فأنا تفاءلت بك اليوم!» تردد عم زعتر قليلا: «ولكن! بدى أستريح شيئا بعد مشوار اليوم!» دفعته بيدى قائلا بإغراء: «استرح عندى لو شئت!» الرجل لم يكذب خبرا، تركنى وانطلق يهرول نحو دكان على الرصيف المقابل. أما أنا فانزويت بجوار سور حديقة المستشفى وأنزلت الجوال وانتزعت منه بضاعتى فحشرتها فى ثيابى كما كانت، ووقفت أنتظر عم زعتر. وفيما كان مقبلا من بعيد يتطوح مع الريح ممسكا بباكو الدخان المعسل،

تذكرت أن ورائى موعدا ضروريا مع زعتر آخر، هو زعتر أبو كرش تاجر الحشيش فى حى فاطمة النبوية، وقلت: ما من المشوار من بد! فالبضاعة لابد أن تبيت فى بيت صاحبها.

الله وكيل يابوى، وهو معى على الدوام؛ إلا وعربة الأجرة قادمة تقف أمامى لتنزل منها راكبة عجوز، فهتفت بالسائق قائلا: «النبوية يا أسطى؟» قال فى تأفف: «اركب!» وكان عم زعتر قد اقترب، فصحت به وأنا أفتح الباب: «اركب يا عم زعتر!»، ثم قذفت بالجوال. قال زعتر فى دهشة كبيرة: «على فين يا جدع؟!» قلت «اركب بس!»، ودفعته برفق، فركب كالأهبل فى الزفة.

نزلنا على باب الحارة بالضبط، فأنزلت الجوال وحاسبت السائق واندفعت أهرول فى الحارة نحو ضريح النبوية، حيث كان التاجر الكبير ـ وهو بعد فى ريعان الشباب ـ ينتظرنى أما عمارتيه الكبيرتين المجاورتين للضريح مباشرة.

ما إن رآنى حتى تهلل وجهه الأحمر المستدير المورد، وفرد صدره متنفسا تحت القميص الأبيض المستورد المتسق على جسمه، سلم على فى حذر، وعيناه تمسحان المكان من كل ناحية، ثم إنه تقدمنى داخل الجراج فى بدروم بحجم العمارتين، حيث توجد حجرة مخفية فى الداخل، فتحها وأشار لى أن أفرغ البضاعة، فأفرغتها على كرسى، ولما اطمأن إلى عددها أمسك بعض الأكياس وفتقها وغرز أسنانه فى الحشيش ثم انتزع بظفره قطعة وداس بمشط قدمه على بلاطة تحت مكتب إيديال فى ركن الحجرة، فإذا ببلاطة بحجم أربع بلاطات ترتفع عن الأرض ليظهر من تحتها فراغ مظلم عميق، دلق الأكياس فيها وترك

البلاطة تهوى إلى وضعها من جديد، وأزاح المكتب فوقها. وحين استدار وفوجئ بى انزعج وكاد يفتح كرشى بسكين، لكنه افتعل ابتسامة وخبط جبهته بكفه فى مرح، وتقدمنى حتى باب الجراج المطل على الشارع. صفق بيديه، فجاء البواب يجرى، أمره أن يجيء بالكراسى ويشعل النار ويغير ماء الجوزة، ففعل البواب كل ذلك فيما لايزيد على خمس دقائق، كل ذلك وعم زعتر واقف ينتظر على باب ضريح النبوية، وجاء زعتر أبو كرش وهمس فى أذنى قائلا: «الراجل اللى هناك ده معاك؟!» قلت: «نعم!» إنه صديقى وقد نفعنى وجوده! وهو لا يعرف أى شيء عن أى شيء!» فهز رأسه وبعث البواب يناديه فلما جاء قال له زعتر أبو كرش: إننى بلدياته وقادم له برسالة من البلد ولابد أن يكرمنى.

جلس البواب أمامنا على الأرض يرص الحجارة، وزعتر أبو كرش يوقعها بالحشيش البريمو، فات ولد نظيف المظهر، فناداه زعتر وأمره أن يسوى لنا ثلاثة كيلو كباب صافى. كانت عصرية لا تنسى ياخال، جديرة بأن تكون احتفالا بآخر نقلة أحملها فى حياتى.

السادسة ـ الفخ الجهنمى

شهورا طويلة يابوى أمضيتها بدون عمل، لكن العين والحمد لله ملآنة بالخير، فما تبقى معى من مال يكفينى لشهور أخرى مقبلة، وهليل موجود فى الصعيد لو أرسلت إليه لن يتأخر فى الرد. غير أننى صممت على أن أترك هليل فى حاله كأن ليس لى عنده شيء. تركتها على جناب الله يفعل بى ما شاء.

كنت قد صرت رجلا محترما يتقمش بالقماش الثمين كأكبر المعلمين. لبدتى تحولت إلى عمامة بشال حريرى حول طاقية رقيقة غالية الثمن. ومن سيدنا الحسين اشتريت عصا بعوجاية عليها القيمة. بات شكلى يليق بدخول هذه العمارة وصعود سلمها مع سكانها من البكوات الموسات وأهل الزنب والنياشين.

صدقنى ياخال أن السكن المريح وما يتوفر فيه من وسائل الراحة كفيل بتغيير شكل الإنسان إلى الزين. ما أحلى الاستحمام تحت الدش راقدا فى الحوض الرخامى تسبح فى رغاوى الصابون الزكى الرائحة، وأن تقوم فترتدى الكشمير والجوخ واللاسات الحرير والحذاء الاستك،

وتنزل فائقا رائقا متكلا على الله . . لابد أن يفتحها الله فى وجهك ياخال، لقد أعطانى ـ سبحانه ـ مرآة فى الدولاب أنظر فيها فأرى شخصا آخر يكاد ينافس هليل فى النظاكة والوجاهة، وقد حلفت برأس أبى لأبقين على هذه الهيئة ما حييت، ولن أخلعها أبدا مهما كانت الظروف والأحوال . إن خلع الأبهة صعب ياخال على من ارتداها ولو بالصدفة، فى سبيل استمرارها شأشقى ولتنهد الدنيا بعد ذلك مثلما يعيش كل المعلمين سأعيش بهذه الهيئة والله لن يكسفنى .

وذات ليلة كنت نازلا على السلم مرتديا أبهتى على سنجة عشرة، فإذا برقبة بسبوسة تظهر من أسفل الدرج فى حنية السلم، ثم اتسعت رقبته بقفاه . ثم ما لبث أن واجهنى بكامله صاعدا، مرتديا جلبابا من السكروتة السمنى يهفهف حول جسده المرغدد، الذى بدا مجلوا كأنه صنفره بالصنفرة، والعطر يتضوع منه، حتى لقد حسدته وبيت النية فى السؤال عن اسم هذا العطر وشرائه . الملعون لم يعرفنى من أول نظرة، لكن الشك المروع أوقفه على البسطة فى مواجهتى، يحيطنى بنظراته من فوق لتحت ومن كل ناحية يكاد يفتشنى، لولا أننى لكزته فى كتفه صائحا : «شغل أم بحلقة؟!» فارتد بكتفه مقوسا ظهره كالأنثى اللعوب، ثم رمى بنفسه فى حضنى صائحا بصوته المسرسع : «إنت فين ياد يالوطى؟!» احتويته كأننى أحتوى حوتا مدكوكا باللحم العضلى، صرت أربت على ظهره قائلا «يابو العم! البعد عنكم غنيمة!» سحبنى من يدى قائلا : «تعال! أنت مقبوض عليك!» . .

انصعت وراءه بدافع خفى دون مقاومة، لكنه توقف ناظرا فى عينى بإمعان كأنه يتعرف على شخص جديد عمره ما رآه من قبل . فلكزته

ثانيا ليفيق، فإذا هو يرسم على وجهه تعبيراً لا مفر أمامه من الاعتراف بشخصيتى الجديدة، ويقول: «مبروك يا عم! شقة سقع!!»

قلت والبسمة ترتعش على شفتى، من التشاؤم أم من الراحة لأنه عرف لا أدري: «إيش عرفك يابو العم؟!» فتراجع بعنقه وفى عينيه نظرة خبيثة ماكرة وزام: «إى. . ى. . ى!!» ورنت فى أذنى أصداء عبارة: «على أنا الكلام ده؟!» ثم إنه سحبنى من جديد قائلا: «تعال فرجنى» انصعت وراءه قائلا لنفسي: لعلها فرصة للكلام فى الموضوع وسبقته لأفتح الباب.

بسم الله الرحمن الرحيم. . هكذا بسمل وهو يدلف داخلا، مشمرا ذراعيه كأنه سيذبح خروفا، تقدم نحو الكراسى التى تم تنجيدها وفرشها ودهنها تقول أنا طالعة بشوكى من عند البياع. صاح بلهجة ممطوطة ذات معنى خبيث: «ما شاء الله! ما شاء الله!»، ثم جلس وفى عينه بريق يكاد ينطق قائلا: «عاوزين حقاتنا! حلاوة هذه الصيدة السقع!» لكنه لم يقل هذا، بل قال: «يابن الكا. . ا. . الب!» ثم أردف قائلا: كأنه يعرف كل شيء عن الموضوع: دفعت فيها كام؟!» قلت: بالبركة! صاحبها أصله قريبى! وقد تساهل معى!» ظهر عليه أنه غير مصدق يابوى، قال: «المعلم شندويلى يبيع أباه لقاء قرش تعريفة! فبكم باعها لك؟!» قلت: «بالصلاة على النبى! هو يبيع أباه أى نعم! لكنه لا يبيعنى! أنا واثق!» هز رأسه ويديه فى حيرة: «لا تمكر على! فما قصدت سوى مصلحتك، صدقنى! لا تغتر فى البلديات والكلام الصعيدى الفاضى بتاعكم! المعلم شندويلى هنا شخص آخر!». .

أحسست أنه يتكلم بثقة شديدة، لكننى مع ذلك بقيت متحوطا

يابوى. إنه ولد عفريت يابوى، ومثلى لا يروح ولا يجيء معه، قلت بلهجة عائمة: «يجوز! يجوز!» ظهر ياخال كأنه انشغل فى موضوع عميق، وظهر عليه الهم والكدر مال نحوى فانفلتت منه نظرة إشفاق أحسست بصدقها ياخال. لبرهة خاطفة يابوى برقت عين بسبوسة وطلع منها الملاك الطاهر مجسدا على ملامح وجهه، ثم قال: كأب يستبصر ابنه فى هدوء وروية، وبصوت خافت كمن يخشى أن تسمعه أذن الجيران: «كتب لك عقدا؟!» ترددت برهة قصيرة ووجدتنى أقول: «الكدب خيبة! بصراحة لم يكتب لى عقدا!» شوح بيديه كالنسوان مولولا: «تأخذ منه إيصالا بالإيجار كل شهر؟!» قلت: ما حصل!» فإذا به يسحب شخرة رنانة فاجرة أرعبنى صوتها والله يا بوى، ثم جعل يأتى بحركة قبيحة فى الهواء المتاخم لأنفى قائلا فى حقد «خد دى! تعمل نفسك مفتحا وبرمجيا وأنت أغلب من الغلب!»، ثم إنه أشعل سيجارة ورمى بعلبته نحوى واعتدل نافثا الدخان فى لذة فائقة وقال:

ـ «شوف يا بقف، هذه العمارة لها قصة! إنها فى الأصل موضوعة تحت الحراسة! صاحبها رجل سيئ الحظ لعلك سمعت به وبأمره! الحاج إينال زلبطة صاحب أشهر ورش ومحلات الأحذية فى العتبة الخضراء ووسط البلد ومصر الجديدة وفروع الأقاليم مثل باتا! عمك إينال زلبطة كان متمعشقا فى الفن وأهله! فاشترى قطعة أرض فى الدراسة وابتنى فوقها دار سينما تعرض أفلام الدرجة الأولى!! وعشق راقصة فاتنة كالقمر، كالرغيف البلدى الصابح! وابتنى هذه العمارة التى نحن فيها الآن على نيل مصر عتيقة ليعطى الراقصة شقة فيها بالمجان، تكون جرسونيرة خاصة به، يكفيك الله شر النحس إذا احتال على رجل

سعيد الحظ من الأساس، أوسخ نحس فى الدنيا هو الذى يجيء لرجل سعيد الحظ من يومه! صاحبنا هجر أولاده القدامى وأقام نهائيا فى شقة الراقصة!! أولاده ثاروا ضده لكنهم كتموا فى نفوسهم! الراقصة فرحت به لكنها ـ به ـ ضاقت، إذ هى تريد أن تعيش على حريتها! من سوء حظه وربما حظها أيضا عشقها ضابط كبير! وظل يفتعل السفر له ولها ليلتقى بها منفردين فى أماكن بعيدة من الكرة الأرضية فى غابات إفريقيا وجبال سويسرا ولبنان! وفى النهاية جاء وأقام فى شقتها!! فى ليلة جاء صاحبنا ومد المفتاح فى ثقب الباب فطلع له من جوف الظلام أشباح عفية كتفته وكممته وألبسته قميص الأكتاف!! سيق إلى مستشفى المجانين لا من شاف ولا من درى!! انذهل أولاده وما أفاقوا من بعدها حتى اليوم ومعظم الظن أنهم لن يفيقوا!! فكلما هدأت الدوخة جاءتهم صدمة أخرى من حيث لا يتوقعون تفقدهم عقولهم! فوجئ المساكين! وياللعجب ـ أن المستشفى تدخر لهم أوراقا بإمضائهم تجأر بالشكوى من جنون أبيهم!! ملف كبير من الأوراق يحكى قصته وقصتهم معا من طقطق لسلامو عليكم! كل ورقة أنقح من أختها! هب، فوجئوا أن أموال أبيهم موضوعة تحت الحراسة! وقد تعين هذا الضابط نفسه حارسا عليها!! الحاج زلبطة رحمه الله مات فى المستشفى! وحل محله ـ فى نفس الحجرة فى المستشفى ـ ابنه الأكبر الذى كان زينة الرجال!! ومنذ سنين طويلة وهو مقيم فيها لاأمل فى شفائه! وأما الابن الثانى فقد شم رائحة الاعتقال فى البلاد فصفى كل علاقاته واتكل على الله هاربا إلى بلاد برة، وكان للرجل ابن ثالث غاية فى الصلاح قبضوا عليه ضمن الإخوان المسلمين فسجنوه وعذبوه حتى مات، وقال طبيب السجن: إنه كان مريضا بالقلب!! . .

«لم يبقَ من ذرية الرجل سوى بنتين متزوجتين من تاجرين كبيرين كانا من صبيان أبيهما فى الورشة! لا تفتح فمك هكذا كالعبيط فمسلسل الذهول لم يخلص بعد! لقد أبرزت الراقصة عقد زواج شرعيا مسجلاً وعليه شهود موثوق منهم! ثم أبرزت عقدا آخر عليه شهود كذلك ينص على أن الحاج إينال زلبطة قد باعها هذه العمارة فى تاريخ معاصر لعقد الزواج!! وظل محاميها يرمح شمالا ويمينا حتى فك العمارة وحدها من الحراسة وجاء لها السمسار بالمعلم شندويلى الذى لم يستغرق من عيونها الساحرة سوى نظرتين ومن جسمها الملهلب سوى هزتين وحكتين عفويتين، فاندب كالرطل واشترى العمارة بمبلغ كبير دفعه على داير مليم! وكان الضابط قد غضبت عليه الثورة وطردته من حمايتها وحرمته من نعيمها فأخذ الراقصة وسافر إلى بلاد برة!! وبعدها بشهور طويلة عثروا عليه مقتولا فى شقة فى بيروت مذبوحا ذبح النعاج وبجوار جثته مليونا جنيه استرلينى!! وأما الراقصة فقد اختفت من الوجود تماما!! وقيل إنها بيعت كجارية لمليونير سعودى له علاقات واسعة النطاق بجهات دولية عليا وكلها علاقات مشبوهة!! لحد هنا زين؟!..

يرجع مرجوعنا للمعلم شندويلى! لقد ذهب يسجل عقد بيع العمارة فى الشهر العقارى ففوجئ بأن العمارة لم ترفع عنها الحراسة تماما! كل ما هنالك أن المحكمة صرحت للمدعية بتحصيل إيجارات شقق العمارة كمصدر ترتزق منه! من تاريخ رفع الدعوى إلى أن يبت فى مسألة رفع الحراسة كلية عن أملاك المرحوم!! الراقصة إياها ـ ربنا يعطيها الصحة ـ باعت شقتها للماشطة التى كانت تشتغل عندها! وهى

الأخرى راقصة قديمة ولكن فى شارع الهرم! وهى الأخرى ـ أيضا ـ رفيقة ضابط آخر لكنه أصغر بكثير جدا ـ فى كل شيء ـ من سابقه! ليس فيه للنساء! إنما يحب الوظاويظ الصغيرة يلهو بهن حتى يستريح لدقائق ويصبح آخر فل!! وهى تعرف هذا وتملأ الشقة منهن، وعلى حسه تقيم فى الشقة أردغانة! لا أنت ولا أنا ولا أجعص جعيص هنا يقدر على فتح فمه بكلمة! إن الخوف كل الخوف دائما يأتى من صغار الضباط!! عمك شندويلى بسلامته أراد أن يأخذ بحقه حلفا! فكر أن ينوبه ـ على الأقل ـ من اليغمة لحسة! بصراحة طمع فى هذه الأرتيست الساكنة قصاده! ظن أن الشقة مفتوحة على البحرى لكل من هب ودب! وربما كان يستطيع أن يلهط القشطة كلها باعتباره صاحب العمارة لكنه أخطأ فى الدخلة الخشنة الغلسة! جاءها من باب التهديد! فنال جزاءه! انضرب علقة ساخنة لحس فيها تراب هذا السلم درجة درجة، وكان سينضرب فى كل يوم علقة مثلها لو لم يأخذها من قصيرها ويرحل تاركا العمارة بمن فيها! لكنه قبل أن يرحل بعث تهديدات فى السر خائبة! من قبيل أنه سيخرب بيتهم جميعا وسيقصف عمر كل من اعتدى عليه! وها هوذا يريد أن يوحلك فى هذه الوحلة يا صعيدى يا قحف!! اسمع كلامى يا صاحبى لو كنت جئت إلى هذه الشقة قاصدا كذا أو كذا فإن نقبك على شونة، ولن تخسر إلا نفسك! ويكون المعلم شندويلى قد نهب مالك وحياتك! ما بك دفعت أموالك التى شقيت بها فى النار! وما بك خسرت الجلد والسقط وطلعت من العملية كلها بلموطى!! صدقنى لولا العيش والملح الذى بيننا ما صرحت لك بشيء من هذا الكلام!!» . .

الدنيا لفت بى يا بوى، تحلف اليمين لو أننى رأيت المعلم شندويلى لحظتها لمزقت لحمه ورميته للكلاب. المعلم شندويلى يفعل بى هكذا؟! كيف يابوى؟! إننى أشعر الآن بصدق بسبوسة. فليس من المعقول أن المعلم شندويلى يتنازل لى عن شقة كهذه بهذه السهولة. خدعنى إذن يابوى، صور لى الحكاية على أنها مجرد مضايقة لبضع نسوان وضربهن علقة أو علقتين. أما أن تكون المسألة كما أوضح لى بسبوسة فإننى لا أستطيع الدخول فى حرب مع الدولة يابوى:

ويظهر أن بسبوسة رأى الغضب مضرما فى وجهى وعروقى، فجعل يهدئ من روعى قائلا:

ـ «اهدأ يا صاحبى! فالأمر محتاج لبعض الحكمة!! فأولا، احذر أن يعرف المعلم شندويلى أنك عرفت أى شيء مما قلته لك الآن!! كن عبيطا كما أنت وعلى نياتك!»..

قلت فى غضب: «وماذا يفيد الهدوء؟!». قال فى بسمة ساخرة: «ألم يعطك المعلم شندويلى أى ورقة؟!». قلت: «لا» قال: «إذن فهذه هى مهمتنا! علينا أن نأخذ منه ولو إيصال بإيجار آخر شهر!». قلت: «إنه لن يكتب لى أى ورقة! بكل صراحة يا بسبوسة! إلا إذا عملت له شغبا فى العمارة وعاركت ناسا وعورتهم!». لمعت فى عينيه براكين مخيفة، سرعان ما انفجرت فى ضحكة عالية لا أعرف إن كانت سخرية أم عطفا على محسوبك، ثم قال: «ألم أقل لك؟! عيب يا جدع! أنا بسبوسة والأجر على الله!»، ثم رمى لى بسيجارة وأشعل لنفسه واحدة: «سأساعدك وآكل من بيتنا! حتى لا تستندل معى بعد الآن!! وعلى كل حال الذى عندك أحسن من الذى عند شندويلى!

على الأقل أنت يمكن أن نقصدك أو نقصد شقتك فى طلب نطلبه!» . .

ثم انتظر برهة معلقا عينيه فى عينى كأنه ينتظر موافقتى على هذه الإشارة الأخيرة، لكنه أردف :

ـ «سوف أذهب من ورائك إلى المعلم شندويلى وأخبره أنك عملت مصيبة سوداء فى الشقة، وأنك عورت وبطحت وذهبت إلى قسم الشرطة مقبوضا عليك، وبعدها بأيام تذهب أنت إليه مبهدلا مخربشا وتكلمه فى أمر الورقة!!» . .

قلت : «والله رجل يا بسبوسة! ولكن هل الورقة التى تقول عليها تكفى؟!» . .

قال ضاحكا : «ستثبت أنه أجر لك الشقة، وأنت بحكم وضع اليد تظل مالكا للشقة لحين البت فيها! وسواء آلت ملكيتها لشندويلى أو عادت لوريثها المقيم الآن فى بلاد برة فإن أحدا لن يستطيع طردك منها! وعلى فكرة، جيرانك هؤلاء هم الأبقى لك! ولما تعيش معهم وتعاشرهم ستحبهم ويحبونك، مصيرك تعرف!» . .

ثم غمزنى بسيجارة غمزة فهمت منها أنها محشوة بالحشيش وأردف ضاحكا فى مرح كبير : «لكن قل لى! أكنت تتصور أنك فعلا تستطيع الانتقام له ممن يسميهن بالمومس؟!» . .

ضحكت رغما عنى، تحلف اليمين يابوى أننى سمعت فى ضحكتى صوت ضآلتى، وقلت : «أنا ضحكت عليه طبعا حتى آخذ الشقة!» . فقال برنة لم أسترح لها : «يالك من رجل طيب!» . ثم جذب نفسا عميقا من السيجارة، واختفى بريق عينيه لبرهة طويلة فى سحب من

ضباب الدخان الأزرق المتدفق من منخريه، وقال: ـ «تدفع كم لو أنا خلصت لك هذه الشقة تخليصا نهائيا؟! لو جئت لك بعقد إيجار وإيصال بآخر شهر! ولنصرف النظر عن المبلغ الذى دفعته له من قبل! ويكون العقد من أول وجديد من تاريخ كتابته؟!» . .

فتحت فمى مذهولا: «تقدر يا بسبوسة؟!». قال بكل بساطة: «هذه لعبتى! تدفع كم قلت لك؟! أنا شخصيا من مصلحتى أن تكون أنت بالذات ساكن هذه الشقة!». فكرت لبرهة طويلة فلم اهتد إلى تقدير المبلغ الذى ينفع، فقلت له: «رقبتى لك يا بسبوسة! تريد كم؟!». قال «يكفينى خمسمائة فقط! فى مقابلها أسلمك عقد إيجار قانونيًا سليمًا لا تخر منه المياه! وإيصالاً بآخر شهر!». قلت فى الحال: «والله ما أنزل عن كلامك يا بسبوسة! حلال عليك!». قال وهو يناولنى سيجارة أخرى محشوة ثم يشعلها لي: «عليك إذن أن تختفى عن هذه الناحية لمدة عشرين يوما على الأقل! تعود بعدها مبهدلا فتجدنى قد جعلت لك الأمور ألسطة!». قلت وأنا أعيد له السيجارة: «من غد أغلق شقتى وأختفى شهراً أو شهرين لو أحببت!». سلمنى السيجارة وهو ينهض قائلا: اتفقنا! والآن سأخلص منك رغما عنى! فورائى سهرة عند صحاب لى هنا! سوف أعرفك عليهم فى وقت قريب!». ولكزنى فى كتفى واتجه إلى الباب فاتجهت وراءه وخرجنا. فنزلت أنا واستدار هو نحو الشقة المقابلة لشقتى، والتى لم أكن حتى الآن قد احتككت بأحد من زوارها.

السابعة: مغامرة عرب الحصار

لما فكرت طويلا يابوى، تراءى لى أن مكانا وحيدا هو الذى يمكن أن يخفينى عن الأنظار، وفى نفس الوقت يمكن أن أرزق منه. ذلك هو منطقة عرب الحصار. وقلت لنفسى إن الحاج وهدان فيه البركة، وأنا خدمته بكل أمانة، ولم يحصل من جهتى أى شيء يجلب الشك فيّ. قل إننى أخذت بعضى واتكلت على الله على بلدة الودى ومنها إلى نجع صغير قائم فى قلب الصحراء.

مجموعة من الدور تجمعها دار واحدة على مساحة كبيرة تساوى عشرة أفدنة أو أكثر يابوى. دار يلف حولها المرء راكبا جواداً. لها باب واحد كبير ببوابة حديدية مثبتة فى حجرة كبيرة مربعة فيها مصاطب وكنب بلدى منجد. ولقد يظل المرء جالسا فى هذه الحجرة زمنا طويلا وهو يظن أن هذه هى الدار، لكنه حين يألفها سيبين له باب جانبى فى نهاية الجدار. إن دخله وجد نفسه فى حجرة أخرى لها باب مخفى على هيئة ممر بين جدارين متظاهرين يبدو من بعيد كأنه انكسار فى الجدار. لو مشى فى هذا الممر فبعد مشى طويل يبدأ الزهق يعتريه خوفا من ضيق القبر الذى ينتظرنا فى النهاية. ولو أن أحدا واجهك مقبلا فى هذا الممر

فلابد أن يستدير أحدكما عائدا ليواصل الآخر سيره. ولربما حاولت الاستدارة فيمنعك عرض أكتافك. طول بالك وامض، فإنك فى النهاية آيب إلى فضاء من الضوء، وسرعان ما يقبل عليك فناء شاسع جدا كأنه الجرن وهو كذلك، تطل عليه فراندات وشرفات بأعمدة: غرف وقاعات تشبه القصور الزاهرة التى يقولون عليها فى الكتب. يسكنها ولد الحاج وهدان وولد إخوته وإخوته. وإن مخك لابد أن يطق ياخال إذا تذكرت وأنت بين هذه القصور أن منظرها من الخارج نجع مبنى بالطين المخلوط بالتبن، إذ إن خلف هذه القصور والسرايات غرفًا مبنية بالطين المخلوط بالتبن، يسكنها الخفراء والحراس وعيالهم ودوابهم. وهم لابد أن يكونوا عبيدا لهذه العائلة منذ أزمنة بعيدة حتى يأمن لهم القوم مع أنهم مع ذلك لا يأمنون أحدًا مهما أظهروا الثقة فيه. ولولا أن الحاج وهدان عرفنى وعرف حدودى جيدا ما تركنى أجيء إلى النجع أبدا، ولاكتفى بمقابلتى فى دواره فى البلدة وهو الآخر دوار معزول مأمون الجوانب. من يرى الدوار يظن أن الحياة قائمة هاهنا ليل نهار، فى حين أن العائلة تعيش حياتها فى النجع ومصارينها كلها فى النجع، أما الدوار فلاستقبال الضيوف والزبائن والحكومة فحسب.

كان الله قد أكرمنى فلحقت بالحاج وهدان فى الدوار فى البلدة. أهلا يا بو على.. أهلا يا حاج.. فينك ياولد. حكيت له ما كان قد حدث لى فى محطة حلوان. فضحك حتى احمر وجهه مثل القوطاية، ومسح شواربه الكبيرة قائلا: «لا والله تصرفت زين! براوة عليك!»، ثم ميل رأسه نحو باب جانبى وصاح: «الغدا ياولد بسرعة!»، وعدل رأسه نحوى قائلا: «أنا فى الخدمة على كل حال!». قلت

«تشكر يا حاج أنا الذى فى الخدمة! ومن أجل ذلك جئت!». شوح بكفه المليئة بالشعر وقال: «نتغدى ويحلها الحلال!»..

استدارت الطبلية الكبيرة أمامنا، واستقرت فوقها الصينية النحاسية العريضة، عليها طبق من الصينى على هيئة قارب كبير، مملوء لتمه بالأرز المعمر بالضأن لرائحته مهرجان صاخب فاضح، وطبق آخر أكبر منه عليه الديك الرومى المكتف تحف به أفراخ الحمام المقلية فى السمن، ناهيك عن سلطانية الشوربة المفعمة بالتقلية، وأطباق السلاطة الخضراء ترتص فوقها أنصاف الليمون البنزهير المعتبر..

كل يابو العم، هكذا أوحى لى الحاج وهدان وهو يشمر كميه وينقض على اللحوم تفسيخا ورميا فى اتجاه معلقتى، التى راحت تنتهك جبال الأرز وهضاب اللحم، حتى تسمرت فى مطرحى من التخمة. تم رفع ذلك وجيء بالبرتقال والبلح الحيانى والجوافة البلدى، وكله من جناين الحاج التى تحف بالدوار إلى ما لا نهاية. ثم جيء ببراد الشاى الثقيل صارت معجنة يابوى. بعد ذلك دخنًّا السجائر المكن، ونظر الحاج وهدان فى ساعة جيبه الذهبية ذات الكتينة المربوطة فى عروة الصديرى ثم نهض واقفا وأقام الصلاة فعرفت أنه يصلى العصر، وأنه يستبطئ ويستخير الله ويستفتى قلبه فيما إذا كان وراء قدومى المفاجئ من أسرار خفية يدعو الله أن يكشفها له أو ينير بصيرته فى الخلاص منها. صلى على مهل شديد وفى تؤدة كأنه يقرأ القرآن كله فى ركعتين اثنتين وبعد التسليم أمضى وقتا طويلا فى تسبيح وتهجد، أخيراً صاح مناديا: «ياولد!»، ومسح على وجهه بكفيه كأن كلمة ياولد كانت من كلمات الختام.

دخل عبد صبى لونه كالفخار المحروق وليس له ملامح على الإطلاق سوى عينين ككرتين من الضوء تدوران فى كل اتجاه بسرعة مذهلة. وقف أمام سيده خاشعا أخرج الحاج وهدان ساعته ونظر فيها مرة أخرى وقال للعبد مشيرا نحوى بيده: «خذ هذا الرجل وديه النجع». ونظر نحوى رافعا كفه يستحثنى. فقمت واقفا فى الحال دون أن أسأل عما سأفعله أو سيفعل بى فى النجع. سلمت على الحاج وهدان وشكرته، ثم تبعت العبد كعبد له. فمضى بى فى دهليز طويل حتى وصلنا إلى الزريبة الكبيرة، فوجدنا على بابها عبدا آخر فى حوالى الخمسين من عمره لكن لوجهه ملامح وتجاعيد. قال له العبد الشاب: «هيك الرجل يروح النجع! عميقول سيدك!».

وجه العبد الكبير سمح يابوى، وباسم العينين، والطيبة تتدفق منهما وتسيل على خديه غير أنها طيبة شقية زاعقة الشقاوة، نظر فى وجهى قائلا: «تعرف تركب الخيل؟!» قلت: «نص! نص!»، مع أننى لم أكن من ركاب الخيل يابوى. قال بنفس الطيبة الشقية: «تتعلم غصبا عنك! حتى لو لم تكن ركبت ستركب! على كل حال سأعطيك مهرا هادئ الطبع، هاك هو!»، وأشار داخل الزريبة إلى مهر مهيب أبلق جميل الشكل، يقف بين عشرات من الجياد العربية الأصيلة منظرها مرعب ياخال. أول ما وقع بصرى عليها رأيت الحروب الصليبية فى فيلم صلاح الدين الذى رأيته مرة فى سينما الكواكب بصحبة هندى وبربش، وخيل لى أن الفرسان الذين احتلونا قد هجعوا الآن فى مكان ما، يستريحون بعدما ضمنوا الأمان. ولما عدلت وقفتى رأيت صف الجياد المربوطة أمام المذاود يمتد على مشارف البصر، ليبدأ صف طويل

من الحمير والأبقار والجاموس في مقابلها حظيرة موازية عرفت من منظرها ومن رائحتها أنها مراح للأغنام التي ترعى قطعانها الآن في الحقول.

قال العبد المسن الذي عرفت اسمه سعدون: «ادخل وحل المهر! واحذر أن يرفسك وإلا كنت أبغل منه! تعلم من الآن أن تفعل بنفسك ما تريده وما يطلب منك! كل إنسان هنا على ركبة جمله! يعني أنت مسئول عن نفسك! وعلى كل حال تعال ورائي وانظر كيف أفك الجواد من مربطه، وكيف أسوسه حتى يستكن ويدخل في طوعي!». وكنا قد صرنا بجوار البغل، فجعل هو يفك الجواد بصنعة وحرفنة، ويطبطب على ظهره كما يفعل المحب العاشق لمحبوبه، ثم إنه سحبه ومضى. فجعلت أفعل مثلما فعل، وأغدق على البغل من الحنان ما كنت في حاجة إليه من غيري. ولم أكن أعرف أن البغل غير الجواد لا تفت في عضده مثل هذه العواطف الكاذبة الجيشان. إلا أنه مضى ورائي في طواعية مدهشة.

تبعت العبد وجواده حتى خرجنا من الباب الخلفي للدوار، فإذا بنا على الطريق المتاخم للصحراء. وحينئذ توقف العبد برهة، ثم قفز معتليا ظهر الجواد. وكان لابد أن أفعل مثله. طب ما رأيك ياخال أنني فعلت مثله بالضبط كأنني من ركاب الخيل الأصلاء؟!..

كان جواد العبد يمضي متبخترا في سيره، وكنت بالبغل أدب خلفه. ولم يكن في الكون كله سوى الرمال على الجانبين، والشمس في السماء، ووقع الحوافر. وقد طال بنا المسير ياخال، حتى احمر وجه الشمس واحترق واسود الأفق شيئا فشيئا، صرنا نحن والرمال بقايا

زغب تحت صخرة هائلة من الفحم لا نهاية لمسيرنا فوقها وعند طلوع الفجر لاح النجع فى البعيد كوشم على ظاهر الأفق. ثم صار يتسع ويتسع حتى صرنا قطرة صغيرة فى بحره. كنا نقبل على جدران صماء، لا شبابيك فيها ولا أبواب. لكننا حين توقفنا عند جدار معين تبين لى فراغ غير مرئى على البعد، بين جدارين متظاهرين يبدوان على البعد متلاصقين، حودنا فى الفراغ بين الجدارين وسرنا مسافة أمتار، لنجد بابا خشبيا كبيرا مغلقا. ما اقترب وقع حوافر الجواد منه حتى ورب من تلقاء نفسه وأطل منه وجه عبد كالبطيخة النمس، وقال: «خيرا يا سعدون؟» فقال العبد: «خذ هذا الرجل ضمه إلى الجمال!»، وأشار لى مشوحا كأنه يدفعنى للدخول. فلما فتح الباب تماما ترجلت ساحبا البغل إلى الداخل، ومن ورائى العبد بجواده..

فناء الدار واسع تطل عليه بعض الغرف، وحيطان السرايات الملونة تبدو من خلفها متخفية تحت فروع الأشجار وأحمال القش والحطب. جاء صاحب الدار فاقتاد البغل والجواد إلى زريبة صغيرة قال العبد سعدون: «ضع لهما طعاما يا مهران!». قال صاحب الدار: «خير ربنا كثير!»، وأغلق عليهما باب الزريبة، واختفى قليلا من الوقت، فيما جلسنا على مصطبة فى الفناء. عاد مهران فجلس معنا مرحبا، وسرعان ما تصاعد الدخان من فرن الدار. بعدها بقليل امتدت الطبلية أمامنا وجيء بالفطير الذرة سايح ونايح، والقشدة الساخنة تطشطش فوق خدوده الوردية، ما كل هذا العز يابوى؟! كل يابو العم واغمس الفطير المدهون بالقشدة الساخنة بقشدة صابحة وعسل نحل وجبن قريش. وبعد شرب الشاى نهض سعدون واقفا فطلب الجواد والبغل.

سحبهما وخرج، فامتطى الجواد واحتفظ بمقود البغل فى يسراه وأمسك مقود الجواد بيمناه. ومضى ساحبا البغل خلفه، فلما اختفى منظره فى البعد مال مهران نحوى قائلا: «جئت فى وقتك! اتبعنى!».

فتبعته. فمضى مسافة كبيرة حول النجع، ثم دخل فى فراغ آخر كالذى دخلنا منه قبلا. دخلت وراءه ياخال، فإذا بنا فى مواجهة باب كبير مفتوح عن آخره، وقد وقف أمامه وداخله عشرات من الرجال الأشداء الصلاب، على رءوسهم العمامة الجيزاوية المنعكشة خفيفة الدم. إن هى إلا برهة قصيرة صار الرجال بعدها يخرجون راكبين الجمال. غاب مهران فى الداخل قليلا، وعاد ساحبا جملا، عالجه حتى برك على الأرض. قال: اركب. ركبت وأنهضت الجمل فنهض، ومهران يتأملنى جيدا ليرى ماذا سيحدث لى حين ينهض الجمل رافعا خلفيتيه. فلما اطمأن إلى أننى ركيب جمال طبطب على الجمل قائلا: بالسلامة. فتبعت الرجال.

صرنا كفلول ضالة فى قلب الصحراء، لا فرق بين لوننا جميعا ولون الصحراء المترامية بغير حدود يابوى. ما أوسع ملك الله حقا ياخال. يتقدمنا دليلان محترمان يركبان بغلين فارهين، وما على الجمال إلا أن تتسرب خلفهما خطوة بخطوة وإلا غاصت أقدامها فى الرمال. كانت الشمس كالبيضة المفقوسة يسيل صفارها من قرص عسلى متجمد فى جانب من السماء. أخذ الصفار يبيض ويبيض، والقرص يصير فى لون الرغيف الطالع من الفرن، يواجهنا تارة ويجانبنا تارة أخرى ويقف فوق رءوسنا تارة ثالثة ثم يسقط خلف ظهورنا، والعرق يتصبب منا غزيرا على أكتاف الجمال. إلى أن لاحت

لنا في الأفق البعيد كتل من الظل الرمادى كصخور نابتة في قلب الأرض. جعلنا نقترب منها، فإذا هي جمال باركة وحولها رجال باركون وواقفون وممددون. كان بينهم من يغنى يابوى، أى والله، يضرب بالموال الحزايني الفرايحى معا، فأينما تواجد الصعيدى، وجب الغناء، وحيثما غنى تجمهر الحزن والفرح معا.

إلى جوارهم توقف ركبنا، بركت الجمال فنزلنا وجلسنا مع الجالسين. وأنا كالأهبل في الزفة لا علم لى بما سيجرى بعد ذلك، هى سيجارة واحدة دخنتها يابوى، وفعلت مثلما يفعل الناس في خلاء بعيد، إلا وأزيز يقترب في السماء ويقترب ثم يزداد اقترابا، ومع اقترابه رأيت الجمع ينهضون واقفين وتحدث بينهم حركة استعداد وتأهب. نظرت في السماء فإذا بطائرة «هالوكوبتر» زعراء كسمكة موسى ذات بطن ضخمة هائلة وزعانف مشرعة وذيل دقيق، أخذت تهبط شيئا فشيئا حتى استقرت على الأرض، أى والله يابوى قادر ربنا يخرسنى لو كنت أكذب. فلما استقرت على الأرض الرملية الصلبة التى بان لى أنها معدة لها من زمن مضى، انفتح بابها ونزل منها أفندى هضيم الوجه غليظ الشفتين متهدل الشعر على الجبين العريض الشاهق البياض، مع حواجب ثقيلة وعينين سوداوين في وجه مستطيل يبدو مع ذلك جميلا. كان يبدو كالأجانب الخواجات لكن الصياغة الكبيرة تطل من عينيه وشفتيه، مالبث أن صاح بلهجة شامية فيها بلطجة مصرية كبيرة يابوي: «سا الخير يا جدعان!». فردوا جميعا كأنهم في الصلاة وراء الإمام: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته!».

برهة ونزل من الطائرة أفندى آخر أصغر منه لكنه أجمل بكثير ويبدو

أنه ابن ناس، نظر فى جمعنا نظرة متفحصة فيها كثير من الود وقليل من الشك والخوف والتشاؤم. وقف برهة فأشار له الأفندى الهضيم الوجه برأسه، فعاد الشاب إلى داخل الطائرة ثم ظهر ساحبا جوالا. وضعه على العتبة وغاب فى الداخل. قرأ عليه الأفندى الهضيم الوجه كلاما ثم صاح: «المعلم دياب مدكور!» وكرر الاسم بصوت أعلى. فانشق الزحام عن رجل جاء يهرول صائحا «أيوه». فلما صار أمام الطائرة تسلم الجوال، وسلم للأفندى مظروفا منتفخا بالأموال فتحه الأفندى وعد أوراقه بسرعة ثم دسه فى عبه، ووضع يده على جوال آخر وصاح مناديا: «المعلم فادى الحمادى!».

توالت نداءاته بين كل جوالين أو جوالين وربما ثلاثة، وهو يسلم ويقبض، والرجال تحمل على الجمال وتربط إلى أن جاء دور الحاج وهدان، فتقدم الاثنان اللذان كانا على الجوادين، وتسلمنا ـ لدهشتى ـ أربعين جوالا!! ولقد عجبت والله ياخال كيف اتسعت هذه الطائرة لكل هذه الجوالات، كما عجبت بغير حدود من الطائرة نفسها يابوي: من أين جاءت ومن هو صاحبها ولحساب من تعمل؟ ومن أى جنس أو ملة؟ غير أننى ـ تحلف اليمين ياخال ـ لم أعرف حتى الآن. وقد زعم بعض الولد ونحن قافلون أنها طائرة يهودية، وزعم آخر أنها لبنانية، وثالث أنها تبع الاستنزاف، ورابع أنها قادمة من السماء نفسها شخصيا. فضحكنا فى عبنا ومضينا إلى النجع، حيث سلمنا الجمال بحمولاتها لراكبى الجوادين ودخلنا دار مهران. ولم نعرف أين ذهب راكبا الجوادين بالجمال المحملة بعشرات الجوالات بصنوف من الماركات الغريبة، مثل ماركة: إنت عمرى وماركة: هذه ليلتى،

ومـاركـة المشيـر ومـاركـة الأطلال، وأشياء يطير لهـا المخ يابوى. تحلف اليـمين يابوى قـد أصابنى خبل، فلقـد لمحت وجـهى راكبى الجـوادين فراعنى أنهما نسخة طبق الأصل من وجه رجل رأيته كثيرا فى قعدات الحاج السنى، كأنهما هو، ولو لم يكونا اثنين لألقيت بنفسى فى حضنه متأكـدا أنه هو. ولما كنت متـأكدا أن الإنسـان لا يمكن أن يشطر نفسـه نسختين فإنى قد تمخولت فى الأمر بل فى صحة عقلى، وألقيت بثقلى على كتفى المثل القائل: يخلق من الشبه أربعين. . مع ثقتى التامة فى أن شبها من الأربعين لا يمكن أن يكون مطابقا إلى هذا الحد يابوى.

قل إننى طرمخت على الأمر كله. فأبى رحمـه الله كان دائم القـول لنفسـه وللناس: طرمخ تعيش. قول لم أفهم معناه على الحقيقة إلا بعد أن أعيتنى الحيل يابوى، وأيأستنى التجارب، حتى تأكد لى أن لسان المرء هو قـائده، فإذا لم يجد فى الأعمـاق حلوا يغترفه للسامعين فليبقه معلقا فى سقف حلقه. هذا أفضل شيء له ولك، وإلا فلسانك سـوف يغترف من جوفك مصـائب يرمى بها فوق رأسك أينمـا ذهبت فـاحذر لسانك ياخال، إنه حصانك إن صنته صانك وإن أهنته أهانك.

وهذا مـا فعلته يابوى. قضيت فى النجع بدلا من الشـهر شهـورا لا أذكر عـددها، بل قل دهورا، فيها الفلوس كـانت تجرى بين يدى كريق العسل لا تخلص أصابعى من آثاره بسهـولة، حتى وأنـنى والله ياخـال كنت أدخرها فى بلاليص من الفخار مما يعد لتخزين السـمن، مدهون جوفـها بصفـار البيض فكأنه الموزايكو الذى يقـولون عليه فى المدينة. زلعة لخمسـات الجنيهات وأخرى للعشرات وثالثة للخمسينات ورابعة للمئات، هكذا رأيتهـم جميعا يفعلون فى النجع. والواحد منهم يفعل

هذا أمامك وأمام الآخرين. كنت نازلا فى خن صغير، كان معدا للدجاج والأرانب فى حنية مخيفة فى مؤخرة النجع المطلة على الصحراء التى بلا نهاية، آثار خراء الدجاج والأرانب لاتزال باقية على طزاجتها كأن سكانه السابقين سيعودون بعد قليل لمشاركتى المبيت فيه. أخشى ما كنت أخشاه أن يلبد ثعبان من ثعابين الصحراء فى جنة هذه الرائحة الشهية. فرشت مسحوق الشيح فى كل بقعة فيه، ونظفته آخر نظافة. ولكننى لاحظت أن الجدار الذى تستند عليه هذه العشة الكبيرة جدار من الأسمنت المسلح.. ففهمت يابوى أننى لصق قصر من القصور مباشرة لاحظت كذلك يابوى وجود باب متين موجود فى الحائط الأيسر للداخل، وآخر مثله فى الحائط الأيمن. معنى الكلام أننى محاط بجدار من الأسمنت وبابين لا يتناسب منظرهما مع عشة للدجاج والأرانب، إنما هى إلى أبواب حجرات القصور أقرب، إذ هى من خشب زان متقن الصنع حابك ومغلق من الداخل. الذى جاء فى بالى أنهما يفضيان إلى مخازن لألبان الأبقار وسمنها وأجبانها، إذ إن رائحة كل ذلك كانت تتصاعد من تخوم هذين البابين بشكل حارق ومتواصل، مما يؤكد أن ثمة أبوابا أخرى فى الداخل يدخلون منها لتزويد الخزين.

فى مبتدأ نزولى فى هذا النزل رمى لى مهران بحصيرة قديمة وبطانية نصف قديمة ومخدة محشوة بقش الكراسى أظنها شلتة مقعد سيارة قديمة. استقضيت فوق ذلك قلة ماء وزيرا أملؤه من فناطيس المياه التى تجيء بها السيارت إلى النجع كل يوم إضافة إلى القرب والبلاليص التى تحملها البغال والحمير كل لحظة من أماكن مجهولة، وأغلب الظن أن

هذه السيارات والفناطيس وهذه القرب تقوم بغرض آخر غير المياه لأن العاملين عليها يرغدون فى العيش، عرفت هذا من منظر قربة يحملها أحدهم والمفروض أنها أفرغت من المياه وكان واضحا مع ذلك أنها ثقيلة والرجل ينعوج تحت ثقلها.

كنت مدبا حين حددت لنفسى مهلة شهرًا ياخال. كان يجب أن أعمل حساب هذه الورطة التى نزلتها بقدمى، وبات الخروج منها كخلع الضرس. فلو أردت الرحيل عن هنا فلابد أن أقابل الحاج وهدان شخصيا وأستسمحه فى الرحيل. غير أننى منذ جئت إلى هنا لم أر الحاج وهدان ولم يرنى، إذ إن كل شيء هاهنا يتم وحده، والريس مهران يسلمنى أربع أو خمس أقات من الحشيش أوصلها لناس فى نجوع بعيدة وأجيء بثمنها مربوطا فى حزام حول وسطى، أو لناس فى بلدان مجاورة كميت رهينة والبدرشين وغيرهما. أذهب على هيئة بائع سريح يحمل «جنبة» سمك أو قفص مانجو تحته قفص آخر مليء بالورق علامة على أننى بعت محتوياته، فى حين يقع الحشيش فى قعره.

كل بضع جمع نقوم بنفس الرحلة إلى حيث تهبط الطائرة لنعود بكميات من التموين تنتهى صلتنا بها بمجرد وصول القافلة إلى حدود النجع، ليتولى الرجلان الشبيهان دفنها فى مخازن لا يعرفها غيرهما. وكل مشوار له ثمنه، خلاف الكيف والمزاج، الذى يأتينا بغير حساب. فكل واحد فينا يطلب من أخيه حجرين يعطيه ربع أوقية. أما الأكل فقد يتم جماعة فى نزل مهران أو غيره، وقد يجيء الأكل لمن لم يحضر ولم يطلبه منا بتراب الفلوس. وكنت أخشى أن ألح فى طلب الحاج وهدان حتى لا يضيق أو يضيقوا بى ياخال. ولم أكن أجرؤ على الذهاب إليه

فى الدوار حتى لا يغضب منى أو يشك فى. وكانت الظروف قد خدمتنى مرتين ثلاثة فى مشاوير إلى الدوار. وفى المرات الثلاث لم أجد الحاج وهدان هناك. فلما نكش القلق فى دماغى حول موضوع الشقة والمعلم شندويلى دبرت للزيارة. فبعد أن أوصلت طلبا قريبا من بر الجيزة قلت ما من بد، وركبت الأتوبيس النهرى، فصرت بعد دقائق فى قهوة المعلم شندويلى فى مصر عتيقة.

* * *

كان المعلم شندويلى منحنيا على النصبة يصب الشاى فى الأكواب، حين زحف على الأكواب ظل أزعر خشن. فرفع رأسه فرأى أمامه شخصا شقيا بينه وبين المتسولين درجة قصيرة: القشف على قفاه كالصدأ، كصبغة الدخان على واجهات أفران الحمامات، يلبس جلبابا من الصوف المتهرئ أكل عليه الدهر وشرب، يبدو كأن أحدا أحسن به عليه، حافى القدمين وذلك الشقى لم يكن سواى.

وضع المعلم شندويلى كفه على عينية كالتندة. وأمعن النظر فى شخصى جيدا، وهو لا يصدق أننى ظهرت أخيرا على هذا المنظر، كان منظرى فعلا كالخارج لتوه من السجن. ثم إن المعلم شندويلى تذكرنى، فبان عليه الأسف الشديد وصاح فى جدعنة: «حسن أبو ضب؟! ما معقول!!» وطلع عن حدود النصبة وأخذنى بالحضن وصار يطبطب على ظهرى قائلا: «قلبى عندك يابو على! إيش أحوالك؟!». قلت: «كما ترى! لقد طلعت رجلا بحق كما طلبت منى! ولو قلت لى ارم نفسك فى البحر لفعلت!». تبسم فى فرح وهو يجلسني: «أعرف يابو على! أعرف! وعشمى فيك كبير!». قلت: «كسبنا صلاة النبى!».

وضع كفه على ركبتى قائلا فى نبرة اعتذار :

ـ «لا تؤاخذنى يابو العم! لم أعرف أين كنت وإلا جئت لزيارتك! سألت عنك فى الحجز فقيل لى إنك رحلت إلى المديرية! وأخيرا بلغنى أنك فى سجن القلعة! هذا الخبر وصلنى يادوبك من يومين اثنين! جاءنى به واحد أعرفه له يد كبيرة فى الحكومة! وكنت أدبر لزيارتك قبل دخولك الآن ببرهة قصيرة! ياه! القلوب عند بعضها حقا! إيش أحوالك؟!»

ونهض واقفا متجها إلى النصبة، فصب لى واحد شاى على بوستة ثقيل، ونزع من خلف أذنه ورقة أفيون تساوى عشرة جنيهات، ورمى بها فى حجرى قائلا : «روق مزاجك!». ثم مد يده تحت النصبة فسحب شيشة مخصوصة لها رنة عالية سالكة. قربها نحوى. سحب خشبة مرصوصًا عليها عشرون حجرا ملآنا بالمعسل. نزع قطعة حشيش هبو كان يلصقها فى حرف الرخامة من أسفل. جعل يوقع منها فوق الحجارة. وضع الخشبة كلها تحت النصبة. سحب من الوجاق قطعة نار صاحية، فقشها على الرخامة وعبأها فى المصفاة. ويازين صلى. منى له، صد رد، والروقان يزحف على بالى. لكن كلاكيع القلق واقفة خلف دماغى تريد أن تذوب وتنحل قبل أن أشوف مزاجى جيدا. ثم إننى لست الآن ملك نفسى، ولابد من رجوعى للنجع قبل حلول الظلام، بواسطة بغل سينتظرنى به سعدون عند نهاية الطريق الخارج من البلدة إلى مشارف الصحراء. هى خدمة يبلعها بمزاجه، إذ إن وظيفته توصيلى وتوصيل أى واحد كان فى مشوار ببضاعة خارج حدود البلدة. وهو يعرف أن حامل البضاعة ربما يقع فى ظروف غير مواتية

تؤخره قليلا أوكثيرا، لكنه يعرف كذلك أن الواحد منا لابد أن ينتهز الفرصة ويتلكع فى الطريق يشبع من الناس ويشترى ما يشاء من أشياء. إنى واثق أنه سوف ينتظرنى، ولكن الظلام إذا دخل قبل وصولى إليه ستحدث المصيبة، سيبلغ سيده فى الحال بعدم وصول القوات إلى قواعدها سالمة، أو قد يتهور فيبلغه أن العدو قد أصابنا فى المال والعتاد. إن عدت أنا بعد وصول خبر من ذلك إلى الحاج وهدان فإن الشك لابد أن يعصف بهدوئه وأنا لاقدرة لى على مناطحة السحاب ياخال.

لكن المعلم شندويلى صهلل، وغير الخشبة بخشبات وكان فى استمتاع كبير وقد راح يحكى كيف بلغه خبر الشكلة التى تشاكلتها مع غرمائه المواسس فى العمارة.

مبدأ أنه يعرف رجلا متصلا بالحكومة من سكان هذه المنطقة له أفضال كثيرة على أهل الحتة، يفرج عن مساجينهم ويثبت أقدام أبنائهم فى محاضر الشرطة. وهو ـ بينى وبينه ـ يحب هذا الرجل، لكنه ـ الرجل ـ لا يجلس فى مقهاه. إلا أن هذا الرجل مر عليه فى المقهى على غير انتظار، مما جعل المعلم شندويلى يتوجس ويلعب الفأر فى عبه. قابله بترحاب وقام معه بالواجب، فإذا به يهمس له: «هناك خبر لن يسرك!» ثم قال: «هناك ولد شمحطى! صعيدى بلطجى! دخل عمارتك واحتك بسيدتين من سكانها وانهال عليهما ضربا وتشليتا وتمزيقا حتى أحدث بهما عاهات مستديمة ونقلتهما عربة الإسعاف إلى المستشفى بين الحياة والموت! إذ إن الولد ضربهما بمطواة قرن غزال! واحدة فى بطنها والأخرى فى ثديها! وأما الولد قبضوا عليه وسيق إلى قسم الشرطة فقال فى المحضر إنه ضربهما انتقاما لرجولته المهانة حيث

شتمته إحداهما قائلة له: يا خول! وشتمته الأخرى قائلة له: يا علق! ولما ذهبت الشرطة للسيدتين في المستشفى ذكرتا في المحضر أن هذا الولد من طرفك! وأنك حرضته عليهما واكتريته لقتلهما لخلاف قديم بينك وبينهما! وعند الرجوع للولد وسؤاله ما الذى أدخله العمارة من الأصل؟! أدلى في أقواله أنه يسكن في العمارة وليس يمت إليك بصلة قربى! الحقيقة أنه ذكر في كلامه كثيرا في صفك يبعد عنك الشبهة! وأنا بالصدفة أعرف هذا الولد معرفة سطحية! ولكن لما رأيت اسمك واردا في المحضر - وأنت رجل يعز عليّ - قرأت المحضر وفليته حتى أطمئن على موقفك! فهل الولد يسكن عندك حقا؟!». .

وهنا غمزه شندويلى بالورقة أم عشرة جنيهات قائلا: «دبرنى أنت في هذه المصيبة! أنا لم أحرض أحدا!» فقال له الرجل - الذى هو بسبوسة كما أعرف: «نصيحتى أن تختفى بضعة أسابيع عن الأنظار لأن النيابة تطلبك للتحقيق! سيجيء المخبرون لاستدراجك لسراى النيابة! فإن كنت تحب أن أتفاهم لك معهم فإننى أمنعهم من المجيء إليك! وأما عن أمر هذا الولد فإن كان ساكنا عندك حقا فإنك يجب أن تكافئه على شهادته! وأما إن كان يكذب في مسألة السكن عندك هذه فإن موقفه وموقفك سيكونان في منتهى الصعوبة! ستعامله النيابة على أنه ولد بلطجى مأجور مدفوع للاحتكاك بالسكان! لو ظهر كذبه يصعب موقفك! ولو اتضح أنه يقيم في الشقة فقط مجرد إقامة فهو إذن من طرفك وهذا يجعل النيابة تصدق أنك حرضته!!». .

فقال شندويلى على الفور:

-«الحقيقة أن هذا الولد ساكن عندى بالفعل وليس لى أى فضل عليه

حتى يجاملنى! بالعكس لقد أخذت منه خلو رجل أضعاف ما كان سيدفعه غيره!»

فقال الرجل: «ولكن النيابة طالبته بتقديم عقد إيجار أو آخر إيصال فلم يجد معه أى ورقة تثبت شخصيته سوى بصمته! فأعطوه أربعين يوما استمرار حبس لأن تلك المضروبة فى بطنها على وشك الموت!». .

فعض المعلم شندويلى على شفتيه: «الحقيقة أننى لم أكن كتبت له عقدا، ولم أعطه وصلا، فالثقة بيننا متبادلة! لأنه من أسرة طيبة أعرفها!». .

سارع الرجل قائلا: «عليك إذن أن تنجيه من وحلته! على الأقل لتخفيف الحكم عنه! اكتب له العقد وإيصال الإيجار وارسله له! وإن كنت تستطيع مساعدته فى السر يكون لك الأجر والثواب! وأنا فى خدمتك إن أردت أن توصل له شيئا فى سجن الاستئناف». .

قال المعلم شندويلي: «غدا تشرفنى بشرب فنجان قهوة معى فى الصباح أو فى العصارى فأعطيك عقد الإيجار وإيصال آخر شهر! وسيكون العقد بتاريخ استلامه الشقة! ولو فيها رزالة سأعطيك المأكولات والمشروبات توصلها له! إنه ولد فى النهاية محتاج للعطف! وبخصوص المخبرين فهناك ثلاثون جنيها وزعها عليهم ولا تدع أحدهم يرينى وجهه أبدا لأن منظرهم عدم المؤاخذة شؤم ولست أحب الفضيحة! ضرب ما ضربت وانتقام ما انتقمت ولا ينوبنى سوى الفضيحة والبهدلة؟ هؤلاء سكان مع بعضهم لا شأن لى بعراكهم! فليحرقوا بعضهم بعضا!!».

قال الرجل مشيرا إلى عينيه: «من ذى! ومن ذى!». .

وفى عصر اليوم التالى مر عليه الرجل بالفعل، وأخذ منه عقد الإيجار والإيصال، وخرطوشتين من السجائر، وباكو شاى وخمسة كيلو سكر وثلاثة كيلو كباب ونصف أوقية حشيش.

وأنهى المعلم شندويلى حديثه قائلا: «لعلك تكون مبسوطا ياعم! وتكون هذه الأشياء قد وصلتك!».

قلت مفتعلا التذكر والأسف: «آ. . ه! هذا إذن هو الرجل الذى سأل عنى فى سجن الاستئناف! لقد أخبرنى زملائى المساجين! أصل الحكاية أننى قمت بأعمال شغب كثيرة فنقلونى إلى طرة! ومن طرة! إلى بنى سويف! وفى بنى سويف تعرفت على حارس من الحراس يقرب لوالدتى يحبنى ويثق فيّ! وطول الليل يبكى من أجلى ويوصى بى زملاءه فى الورديات! وقد علم أننى مساق إلى الجلسة غدا صباحا! فدبر خطة لتسريبى من السجن متنكرا! وجاء بى إلى هنا لكى أقابلك لآخذ العقد والوصل لأعرضهما على القاضى غدا!! والعسكرى يقف الآن بعيدا بلباسه المدنى حتى لا يلفت النظر! فى انتظار أن أعود إليه لنقفل عائدين إلى السجن قبل ساعة التتميم!». .

قال المعلم شندويلى والدموع تترقرق فى عينيه: «ادعه يشرب القهوة ونعطيه حسنة!» قلت وأنا أنهض واقفا: «لا: لابد من الانصراف الآن! ولكن ماذا سأفعل فى هذه الورطة وأنا لا أعرف أين مكان هذا الرجل؟!». .

ويبدو ياخال أننى أتقنت الدور، إذ بى أنفجر باكيا بحرقة، وإذا

بالمعلم شندويلى يتأثر جدا، ويشرد مفكرا لبرهة قصيرة ثم يصيح مبتهجا: «هو إذن لم يصلك ولم توقع عليه! تاهت ولقيناها!»، وصاح «ياولد يا عوف! اشتر لنا عقد إيجار ودفتر وصولات!»..

راح قلبى يرقص من الفرح والطرب حين جاء الولد بالعقد مطبوعا من الدكان. وراح شندويلى بالقلم الجاف يملأ البيانات، وأضاف إليه شاهدين من صبيانه، وحرر بتاريخ استلامى للشقة، وحرر إيصالا بآخر شهر، ووقع بإمضائه العاجز وبصم. فعلت مثله، وطويت الورق فى جيبى وحضنت المعلم شندويلى وبكيت مرة أخرى فبكى هو الآخر. ثم إننى تركته واندفعت نحو الخلاء مهرولا، ومنه إلى محطة الأتوبيس النهرى. ووقفت برهة نظرت فيها إلى العمارة كأننى فى شقاوة جهنمية. وكنت أبتسم فى جذل حقيقى وأقول لصورته: والله يابسبوسة إنك تستحق ألفا من الجنيهات، أنت رجل بحق ويجب أن أحبك، لتكن ما تكون فأنت اليوم أصدق أصدقائى وأجدعهم، «روح» إلهى ربنا يفتحها فى وجهك أيها الولد.

وقفزت إلى بر الجيزة لأدرك سعدون بعربة التاكسى والشمس لم تزل بعد حمراء الخدود من فرط الخجل قبل أن تحتويها نهائيا عباءة الفجر الرمادية.

* * *

نشوتى كانت فوق الوصف يابوى. تحلف اليمين تقول إننى شارب عشر زجاجات من ذلك المسمى بالويسكى، رغم أننى لم أشربه طول عمرى يا بوى. من فرط الشعور بالنشوة والفرح عرفت أن النوم سيخاصمنى. فالنوم لا يخاصمنا يابوى إلا عند الفرح أو قلق الحزن

استقضيت جوزة هند برفاص، وعشرة حجارة، وباكو معسل قص. وبعد أن رقعت العشوة المعتبرة مع رجال النجع أتينا فيها على خروفين مشويين مسروقين من راع ضال، أمسيتهم بالخير واتكلت على الله إلى حجرتي ـ عشتي. فأغلقتها على نفسي وتربعت في ضوء اللمبة نمرة خمسة. جعلت أشعل النار وأرص الحجارة، وصهد الأفيونة يسوى دماغي على نار هادئة. حجر فالثاني فالثالث شعللت ركية النار في دماغي وتحت كوز الشاي، فانبعثت موسيقى الغليان تسكرني.

فيما أنظف الحجارة للمرة الثالثة مع كوب الشاي بدأت عيني ترى الحجرة وتتجول بين جدرانها. كنت مرتكنا للحائط المسلح ووجهي في اتجاه باب العشة المطل على الصحراء. تلكأت عيني على الباب المجاور لي على اليمين وقد تصاعدت منه روائح اللبن الحليب الطازج والقشدة والسمن المقدوح بشكل زاعق. وكان ثمة حركة وكركبة تجيء من وراء الباب، الذي أذهلني أنه كان شبه موارب، وخط من الضوء واقف بين خشب الباب وحائطه. . فانذعر قلبي يابوي. خفت، بقيت أرتعش في قعدتي، وقد تشبث بصري بالباب مركزا على خط الضوء. راعني أن خيالا من الظل كان يحجبه لبرهة مصحوبة بحركة خلف الباب مباشرة، مع صوت اندلاق اللبن من طاجن إلى طاجن، وصوت أوان تتقارع. فإذا بي ـ رغما عني والله ياخال ـ أتنحنح. ففي الحال اتسعت وربة الباب وأطل منه وجه جنية تبارك الخلاق فيما خلق. عينان واسعتان ساحرتان، تتفرجان وسط جدائل شعر أسود منطرح. من فتحتي العينين ينزل خدان كحبتي المشمش الطايب يسيل عنهما خيالان على هيئة صدغين ينتهيان بذقن صغير عليه طابع الحسن، فكأن وجهها

رسم فى الهواء وكانت عليه ابتسامة كأنها اعتذار وفى عينيها نظرة تستهين بكل شيء، شالتنى وحطتنى فى قعدتى عدة مرات. أما أنا فظللت مسمرا فى مكانى ياخال. جعلت أقرأ الفاتحة فى سرى لعلها تصرف عنى هذه الجنية المخيفة أو تقوينى عليها. قلت لنفسي: لعلها تهيؤات السطل والأفيون وكبسة الضأن المسروق، لكن الجنية أبت إلا أن ترينى الفرق بين الحقيقة والخيال. إذ بيدها البيضاء العارية تخرج من الفتحة عن ذراع مملوءة لمنتصفها بالأساور الذهبية على المعصم. وإذا بهذه اليد تشير لى أن تعال، إشارة آمرة، تعال يعنى تعال. لكن من ذا الذى يجيء؟ عرص من يتحرك من مكانه يابوى؟! من أين لى بقوة تحركنى يابوى؟ وإذا بصوتها يطلع رنانا كشخللة الذهب: «قم! تعال لا تخف!». فقمت فى الحال منتفضا، أعض على شفتى وأقرص نفسى لأتأكد من صحوى. خطوة ونصف خطوة صرت واقفا أمامها خاشعا أنتفض. قبلتنى بنظرة باسمة: «يا عينى على الرجال!» ضحكت. نظرت فى فتحة الباب من ورائها. رأيت حاصلا لجمع الألبان يمتد إلى بعيد جدا، ويمتلئ بالطواجن والأناجر والبرنيات والبلاليص، قالت فيما يشبه الاحتقار: «إنت! بتعمل ايه هنا؟!». قلت: «الريس مهران أسكننى هنا!». هزت رأسها وزامت، ثم دفعتنى أمامها وخرجت ساحبة الباب خلفها..

الغزال الأعظم يقف الآن أمامى فى قلب حجرتى، ترتدى قميصا من النايلون رهيفا لا يستر أى شيء فى جسمها الوردى، معلقا بحمالتين كالحبلين فى كتفيها، ومن فوقه قميص مفتوح كالعباءة من نفس اللون. تحرك الفخذ السمهرى قليلا حتى الحصيرة. هوت عليها

متربعة رفعت بصرها الساحر نحوى آمرة: «اقعد!». فقعدت متربعا قبالتها. قالت: «رص لنا حجرين!!». قلت «حاضر!». وجعلت بكل حماس أصحى النار وأرص الحجارة. قدمت لها البوصة فشدت النفس فشر أجدع حشاش فى البر كله. سحب الدخان تندفع من منخريها. قلت: «ما شاء الله! واحد آخر!» ولحقتها بآخر، وثالث، ورابع، حتى شربت وحدها عشرة حجارة، وبشهية فائقة، وأنا أمخمخ لها الحجر بالماشة، وأضع زنبة إضافية فوق النار، وهى تشرب، حتى اتسعت عيونها أكثر ونشعت الحمرة فى بحيرة العينين، وقالت وهى تزيح البوصة: «احك لى حكايتك!»..

فبصوت هامس حكيت لها حكايتى، فحكيت لى حكايتها هى الأخري:

هى بنت أخت الحاج وهدان شخصيا، وزوجة ابن أخته أيضا - أى ابن خالتها. كانت عروسا طازجة لم يمض على زفافها سبعة أيام حين هاجم البوليس زوجها يقود مركبا قادما من أسوان، موسقة بالمخدرات وقطع الآثار النادرة. كان يزامله فى المركب كل من أبيها وأخيها، آخر ما تبقى لها فى الحياة بعد موت أمها وإخوتها الذين لم يكونوا معمرين. سيق زوجها وأبوها وأخوها إلى محكمة الجنايات التى طست كل واحد منهم بالمؤبد فى عين العدو. كان ذلك منذ عام مضى، ومنذ ذلك اليوم وهى حبيسة السرايا الصغيرة التى ابتناها خالها لها. كان زوجها هو ذراعه اليمنى وقد حزن عليه حزنا يفوق الوصف. وحزن عليه النجع كله. وكلما اشتد حزنهم عليه نقموا عليها كأنها المسئولة عن ضياعه، ووجهها الشؤم قد بات يلغى من العيون كلها جمالها. فكانت تهرب

منهم إلى العمل فى شغل الدار، ونسوان النجع كلهن عملنها حلوانة فى سلوانة فتركن لها كل شغل الدار المحتاج لمشقة وسهر. ومن جانبها كانت تعمل بلا كلل لعلها تنسى. ولقد فكرت فى الهرب، ولكنها لم تستطع نسيان أنها عروس، وأن عفشها وسريرها لاتزال فيها رائحة الفرح زاعقة باتت تتخيل كل ليلة ـ وهى وحدها فى السرير ـ أن الباب سينفتح لتراه داخلا عليها يكمل واجب العرس، يكمل تسليك الطريق الذى خرم فيه ثقبا، فباتت كل يوم بعد أذان المغرب تستحم وتلبس أحسن ما عندها من القمصان الشفتشى لعلها تفاجأ به داخلا.

ثم وضعت يدها على معصمى قائلة وهى تنهض:

ـ «ألست تحب أن ترى سرير الفرح؟! تعال أريه لك!! سوف تراه جديدا وورق المحل ملفوف عليه! أما المراتب والألحفة فمن الحرير الساتان! قم لأريك العفش الذى جئنا به من دمياط!!»..

لكننى تسمرت فى مكانى يابوى، بل تجرأت وشددتها بقليل من القوة فأقعدتها كما كانت. نظرت فى عينيها فوجدت تصميما أكيدا على طلبها، ممزوجا بدهشة واستغراب، وغيظ دفين. وفى الحال تفطنت، أيقنت أنها مجنونة أو على طريق الجنون، وقلت لنفسي: لابد من العقل والحكمة فى صرفها بصنعة لطافة وقلت لها وأنا أسرع برص حجرين:

ـ «ما تؤاخذينى يا أختاه! مجنون أنا حتى أدخل سرير معلمى الغائب فى السجن؟ أألقى بنفسى فى النار؟!»،،

زحفت نحوى ضارعة: «من أجلى! لا تخف! لا تظننى مجنونة!

ولست أنصب لك فخا لأختبرك! جميع رجال الدار ونسوانها ذهبوا لحفلة فرح فى صحارى سيتى! قالوا لى تعالى معنا! قالوها من مناخيرهم! وأنا لم أرض! عملت نفسى مريضة وتعبانة! وحمدت الله أن تركونى وحدى، البيوت كلها الآن خالية، حتى الغفر والحرس تسللوا إلى البلد ليقضوا مصالحهم! تعال «وشوف» بنفسك!!». .

وقربت وجهها منى. فرأيتنى أترك مافى يدى وأطوق رقبتها وأسحب رأسها نحوى، وأنقض على شفتيها لثما ومصمصة وعضا. صارت هى كالسمكة تنتفض فى شبكة الصياد. ثم لم أدر بنفسى بعد ذلك يابوى. ركبنى الجنون فلم أفق إلا وضوء الصبح يدخل من تحت عقب الباب، فإذا أنا عار تماما، وعلى الأرض حطام امرأة عارية متفسخة كل عضو منها فى ناحية، وقمصانها ملقاة هنا وهناك، وبطنها يعلو ويهبط، وهى غائبة فى ملكوت بعيد. .

أول شيء فعلته أن لبست ثيابى، وصرت أربت على وجه القتيلة وأدلكها فى كل ناحية حتى أفاقت، ونهضت جالسة فألبستها القمصان ومخى مشتعل يكاد يغرينى على إعادة الكرة من جديد. كانت شيئا لا يوصف ياخال. وكنت أستخسر أن أدعها تمضى، لكننى دفعتها دفعا للقيام. فقالت وهى تفتح باب الحاصل وتدلف داخله: «انتظرنى غدا!» قلت: «حاضر!». وساعدتها فى جذب الباب، ولما استدرت رأيت كل جدران العشة مخترقة بمواسير البنادق المصوبة على صدرى. كدت أصرخ. جعلت أدعك فى عينى، ثم فتحت باب العشة، لأفاجأ بالصحراء تنطرح أمامى بلا نهاية، وليس ثمة من أحد. ووجدتنى ألم فلوسى وأحشرها فى حزامى، وأتجه نحو الريس مهران مدعيا المرض

والإعياء، طالبا منه أن يستسمح لى الحاج وهدان فى إجازة أقضيها تحت رعاية أمى وأهلى. وكان عليّ أن أنتظر حتى الضحى لأرجع مع أحد البغال العائدة لجلب المياه. وحين وضعت قدمى على أول طريق القاهرة أيقنت أن الله قد نجانى من جنة فى قلبها نار الجحيم، لكننى كنت أنتفض وأنتفض من شدة الأسى كلما تخيلتها إذ تفتح باب الحاصل فلا تجدنى.



الثامنة ـ مفاجأة غرزة المطار

ليس فى هذه الدنيا خيال ياخال، لا ولا فيها ما يسمى بالمستحيل. مستحيل ماذا يابوى؟ البنى آدم منا فرعون ولا تقف أمامه سباع الدنيا ولا أسودها. أنا مثلا يابوى، هل كنت تصدق أننى يمكن أن أتعلم القراءة مثل أولاد المدارس؟! بعدما شاب راح الكتاب. المسألة كما اتضح لى كانت أهيف مما تصورت، أصل الحكاية أننى كنت تعلمت الهجاية من وكيل النيابة الذى رافقنى فى الزنزانة ذات يوم بعيد وكتب الله لى النجاة على يديه إلهى ربنا يعافيه بالعافية إن كان لايزال حيا ويطرح البركة فى خلفه فقد كنت واثقا من أنه مظلوم فلابد أن الله فك ضيقته من زمان. تعرف ياخال، لو كان به مس من النصب أو الاحتيال أو الزيف ما انعطف على حالتى ونسى حالته، علمنى حروف الهجاية ونطقها بعد تشكيلها وتسلى بمنظرى وأنا أنطقها شهورا طويلة؛ نقش أصوات الحروف فى قلب دماغى فباتت مسموعة على الدوام فى صدرى. ولما صرت الآن ولدا شلبيا أرتدى الكشمير والصوف والجوخ فى قفاطين وعباءات ومن تحتها الحرير والسكروتة، فضلا عن العمامة الكبيرة حول رأسى والمركوب النظيف فى قدمي؛ رأيت نفسى لا شغلة

لى ولا مشغلة سوى القعود على المقاهى ليل نهار. من حسن الحظ أنها لم تكن مقاهى كالتى يعرفها الناس وإلا انجرفت فيها إلى لعب الكوتشينة؛ إنما هى غرز لتدخين الحشيش وقد ولفت على واحدة منها فى حى فاطمة النبوية وراء جامع النبوية خبط لزق. مكان خفى غريب الشأن ياخال، لا سبيل إليه إلا بحيل متعرجة، لو أراد غريب أن يزورها أو يهجم عليها لاستحال عليه ذلك. دلنى عليها المعلم أبو كريشة حين اصطحبنى لشرب حجرين فى السر والكتمان؛ فدخلنا من باب بيت مفتوح ترتفع فى مدخله الواسع أدخنة الكوانين وترتع أسراب البط والأوز والدجاج، وأطفال صغار يزحفون فى الخراء يهرشون يجأرون بالصراخ، وطشوت غسيل متناثرة على الأرض فيها مياه غسل الهدوم مسودة ومزرقة، ونساء يجلسن أمام وابورات جاز مشتعلة تحت حلل الطبيخ. خرمت وراء المعلم أبو كريشة فى حرج شديد وسط هذا المدخل الواسع الذى تطل عليه غرف كثيرة؛ ثم حودنا شمالا حيث بدأت السماء تظهر؛ فإذا بنا بعد خطوتين فى حوش واسع، سرعان ما تبين لنا أنه بيت تهدم من سنين طويلة ولا تزال بقاياه أنقاضا مرصوصة ومجنبة: عروق خشب كالح مسوس وشبابيك متفصصة وطوب وهديم، وحبال ممدودة منشورة عليها هدوم مغسولة. ظننت أننا سنقعد فى هذا الحوش؛ لكن أبو كريشة ظل ماشيا نحو جدار مواجه هو جدار البيت الخلفى المجاور، وهو بيت من دور واحد؛ تحت الجدار أكوام من الهديم والقمامة المتجمدة؛ تسلقناها حتى صرنا فوق سطح هذا البيت ومشينا على حافة الجدار يمينا؛ ثم هبطنا منحدرا من هديم آخر لبيت آخر، ثم صعدنا على تل من هديم لنجد أنفسنا بعد قليل قد صرنا فوق ربوة عالية وأمامنا الأرض صحراء مترامية فى السفح لكنها مسورة

بالأسلاك الشائكة وقد تناثرت فوقها جرارات ولوريات على مسافات متباعدة بدت لنا كغربان باركة على الأرض؛ قيل لى إن هذه القطعة من الأرض من بين الأراضى الكثيرة التى يحتلها المقاول المشهور عثمان أحمد عثمان. مشينا فوق الربوة التى كانت عبارة عن أتربة تغطى مقلب قمامة اندكت فى بعضها وتصلبت. كانت تواجهنا، وتقترب منا، شرفة عظيمة المهابة مبنية بالحجارة على طريقة الهرم الأكبر؛ فلما اقتربنا منها ياخال وجدناها غرفة عالية جدا ومستديرة وذات عواميد وشرفات. دخلناها يابوى، فكأننا دخلنا شرفة قصر من قصور الفراعين أو الخلفاء القدامى. على مقاعد من الخيرزان النظيف جلسنا؛ أمامنا طقاطيق نحاسية لامعة، ومناضد من الفورمايكا. وعلى بعد كبير من الشرفة الجوانبية عشة صغيرة مبنية حديثا لتكملة الفائدة، فوضعت فيها نصبة الشاى والقهوة والبوتاجاز، وبرميل من الصاج ممتلئ بالتبغ المعسل المقصوص بحرفنة والمتخمر بطريقة مخصوصة ذات عطانة عطرية غريبة لكنها جذابة، وبرميل آخر مملوء بالحجارة الفخارية المحترقة، وزير كبير ينضح بالماء الرطب، وعدد من القلل النظيفة فوق صينية..

بمجرد قعودنا جاءنا براد الشاى مع الأكواب على صينية تفوح بعطر الشاى النفاذ، يحملها شاب سمهرى القوام حلو التقاطيع أحمر الوجه كابن ناس، خجول مؤدب؛ وضع الصينية بعد أن نظف الترابيزة بذيل قميصه الخارج من حزام البنطلون الكاكى، قال: «مساء الخير يا معلم»، ورفع وجهه؛ ففى الحال تيقنت أننى رأيته فى السجن من قبل وبقى أن أتذكر اسمه؛ قلت له: «استنى يا جدع!»، وأمسكت رسغه؛ فوقف يحدق فى وجهى باسما كأنه هو الآخر تذكر وجهى. قلت له:

«إنت اسمك إيه؟» . قال : «خدامك بلال!»؛ صحت جذلا : « بس!» وقبلت قبضة يدى ثم فردتها وصفقت بها فوق كفه فى حرارة : «إزيك يا بلبل! إنت طلعت امتى؟» فأعاد النظر فى وجهى بتدقيق وتركيز، قال : ««العنبره!»»؛ قلت : «أنا حسن بتاع السلاح!»؛ فارتمى فى حضنى؛ والمعلم أبو كريشة يرقبنا باسما كأنه قد وفق رأسين فى الحلال. يالها من عصرية هنيئة يابوي؛ تحلف اليمين ياخال ما حششت فى حياتى بكل هذه الحلاوة والصهللة. انجعصت كأننى السلطان برقوق، أرى الخلق يمشون على مسافات بعيدة جدا كأنهم الفئران، والسيارات تتدفق رائحة غادية، فخيل لى فى عز الصهللة أننى أعيش فى جنة عرضها السماوات والأرض فى مدينة لم أعرفها من قبل يابوى؛ وعجبت كيف أن فى هذه البلدة ناسًا لا يجدون لقمة خبز يتبلغون بها وتحت بصرهم وسمعهم ناس يرغدون فى النعيم بلا حساب دون أن ترتفع السيوف والخناجر لتطير الرقاب وتبقر بطون اللصوص الذين سرقوا خبزهم. خفت لبرهة وجيزة لكننى تذكرت أننى فى مصر أم العجايب التى تحمى كبار اللصوص بل تقدسهم وترفع مقامهم بقدر كراهيتها للجوعى والمساكين وأبناء السبيل الذين هم فى العادة أغبياء عاجزون قليلو الحيلة قلم الإسلام أظافرهم وعشمهم بالحياة الآخرة. تحلف اليمين يابوى أننى انذهلت حين نبهنى المعلم أبو كريشة إلى أن هذا الطريق الذى نراه من بعيد هو طريق صلاح سالم، وأن هذه البناية العتيقة المجاورة لنا على بعد قليل هى القلعة التى بناها صلاح الدين الأيوبي؛ ذلك أن المكان الذى نجلس فيه هو برج الظفر، أحد أبراج سور القاهرة القديمة الذى انهدم ولم يبق منه سليما سوى هذا البرج، ليخرج بلال من السجن فيحتله ويحيله إلى غرزة تدر

الذهب ليل نهار. ووالله لقد حسدته يابوى، لكنى حمدت له شجاعته وذكاءه فى الانتباه لهذا المواطن المجانى. قال أبو كريشة إن بلالا فعل ذلك بالاتفاق مع البوليس، ماذا وإلا عاد إلى نشاطه الإجرامى إذ إن قلبه ميت كما تعرف والقتل عنده كعمل واحد شاي؛ إنه باجس، يفوت فى النار والحديد، ليس يخشى على عمره أبداً، ما أبسط أن يطبق فى خناق أى ضابط، فكل الضباط يخشون على حياتهم منه، يمكن أن يكسر رقبة الواحد منهم كالخيارة؛ مع ذلك فهو لطيف جدا معهم، ومؤدب، وخدوم، وشهم، ولذلك فهم يحبونه وفى نفس الوقت يتقون بطشه، يفوّتون له بمزاجهم ثم إن أحدا منهم لا يستطيع الوصول إلى هنا بسهولة، وحتى يصل يكون كل شيء قد صار على التمام فلا يجد الضابط شيئا يضبطه؛ والضابط فى النهاية محتاج لصداقة بلال، لأنه يدله على ألاعيب اللصوص وخفايا المجرمين لكن جدعنته أنه لا يساعده فى القبض عليهم ولا يمكّنهم من ذلك، بل إنه حريف فى تعطيل الحكومة حتى يهرب صديقه اللص.. ولد جدع بحق وحقيق.

فى تلك العصرية الهنية رجع أبو كريشة إلى داره بعد صلاة العشاء وبقيت وحدى مع بلال؛ فلما جن الليل فوجئنا بطوائف من الأفندية المحترمين والمعلمين الكبار يهلون علينا بفاخر الحشيش والأفيون والكباب المشوى الساخن وعلب الكوكاكولا والبيرة، وحتى شروق الشمس كانت الطوائف لاتزال تنصرف، وقد عرفت أن البيت الذى اخترقناه لنصل إلى هنا هو بيت بلال، تسكنه عائلته، يعنى لا حرج علينا إن دخلنا وخرجنا فى أى وقت. فى عتبة هذا البيت عجوز ضامرة لم نرها عند دخولنا، تتكور خلف الباب تفرز بفطرتها السليمة كل

داخل فتعرف إن كان باحثا عن مزاجه أم يقصد شراً بابن ابنها بلال؛ هى بارعة فى إثارة الذعر إن تشككت فى الوافد الجديد، فبعد برهة قصيرة يكون بلال قد نط على صوتها فصار فى قلب البيت ليرى بنفسه جلية الأمر.

بلال مغرم بقراءة الصحف والمجلات والاستماع إلى الراديو إذ إنه من حملة الشهادة الابتدائية، ومغرم بقراءة الروايات البوليسية التى كان يدخرها فى السجن ويحدثنا عن المدعو أرسين لوبين والمدعو جيمس بوند. فى أصل المبتدأ كان يقرأ الجرائد بحثا عن الوظائف الخالية ثم بات يقرؤها ليقف على أخبار الحوادث واللصوص وكيف خططوا ودبروا وهربوا من ثبوت التهمة؛ أما الروايات فكانت غرامه الأكبر، يتعلم فنون الإجرام المتقن.

أصبحت أذهب إليه فى باكورة الصباح فلا أنصرف إلا إن كان ورائى مشوار معهم. عز شغله فى الليل؛ وفى النهار يذهب لشراء المونة؛ ويكون نسوان الدار قد نشطن فى تنظيف براميل الحجارة وتحصيتها وتعسيلها، فى مقابل أجر معلوم. وقت العصارى ووقت الليالى الخاملة نقضيه كله فى القراءة حيث قطع على نفسه عهدا بأن يعلمنى القراءة كما أنزلت؛ وقد فعلها يابوي؛ أيقظ فى صدرى أصوات الحروف وذكريات الفتحة والضمة والكسرة والسكون؛ وأضاف لى قواعد النحو والإعراب؛ وهذه الأخيرة لم أفهمها جيدا لكننى فى النهاية أصبحت أمسك بالجرنان وأقرأ فأعرف كل ما فيه، وأقرأ الرواية فأفهم كل شيء فيها. كل ذلك بفضل بلال فى وقت لا يزيد على عام. كنت من جانبى أساعده فى الشغل وأحشش وأنبسط

آخر انبساط بل وأقبض بقشيشا ثمينا من الزبائن المتريشين . . طب ما قولك يابوى أننى ولفت على بلال وبرج الظفر حتى صرت لا أرى شقتى إلا عند النوم؟! وكان عشمى أن يكون بلال سندا لى وعونا على إرهاب المومسات اللائى سكنت بجوارهن . وطوال هذه المدة الطويلة لم أر البوليس فى الغرزة أبدا ، لكننى رأيت بسبوسة مرتين ، مرة حين طرق الباب ذات ليلة ليبارك لى الشقة ويطلب حلاوتها ، ومرة فى الشارع وهو ذاهب لمشوار . قال لى وهو يسرع فى المشي : «شلة النحس تسأل عنك! حاول أن ترانا!» . غير أننى كنت ميالا لنسيان الشلة ووجع قلبها ، لكننى لم أكن أعرف أنى محاصر بها ياخال . ففى ذات عصرية رقيقة النسمات ، وفيما كنت وبلال نتبادل القراءة فى رواية اسمها الكابتن مورجان ، إذا بهم الموت يهبط علينا ، أى والله يابوي ؛ بربش وغزولى وهندى ، هكذا دفعة واحدة ؛ فجأة رأينا خيالهم يقترب منا . كيف دخلوا؟ كيف صعدوا ربوات الهديم؟ كيف لم نشعر بهم؟ هذا ما لم نعرفه يابوى . إنما أنا أول من رآهم ، فتسمرت فى قعدتى مبهوتا لا أقوى على النطق بل إن قلبى سقط فى بئر سحيق ؛ ظننتهم جاءوا للبحث عنى يابوي ؛ سرح خيالى بعيدا ، تخيلت الحاج السنى وقد اكتشف ضياع الآثار من مقبرته فحقق وتحرى وقال لهم : هاتوا لى حسن من تحت طقاطيق الأرض . أذهلنى أن الولد بلال ما إن رآهم حتى انتفض قائما فرمى بالكتاب وهات بالأحضان يا سلامات وتعالى يا قبلات وروحى وجيئى يا شتائم بذيئة يقشعر منها البدن ، فيما بينهم وبينه . عجايب ، أنتم تعرفون بلال؟ هكذا قلت وأنا أسلم عليهم . فنظروا لى ساخرين وعيونهم تقول : أتعرفه أنت؟ . .

تكفل بلال بالجواب : كنا زملاء فى المدرسة يا أبا على! بربش هذا

زاملنى فى قضية شيكات بدون رصيد وشركة وهمية لتشغيل المصريين فى الدول العربية! غزولى كان مكلفا بالقبض على فى قضية سرقة بالإكراه واعتداء على الشرطة! وكان غزولى يقابلنى كل يوم فيقتسم الغلة معى ويتركنى أنا فى بيتى! هذا المفترى كثيرا ما دلنى على الضحايا التى يجب أن نرزق سويا من ورائهم!! أما هندى فقد زاملنى سنتين فى قضية ترويج عملة مزيفة! إنها عشرة عمر يا أبا على! عيش وملح السجن أقوى من أى عيش وملح آخر وأنت أدرى طبعا!» . . ثم استدار نحوهم: «وكيف حال بسبوسة يا شلة النحس والخربشة؟!». أشار بربش نحوى بلهجة ذات معني: «اسأل أبا على! إنهما الآن حبايب سمن على عسل! يخدمان بعضهما خدمات كبيرة من وراء ظهورنا! هنيئا لهما على كل حال! نحن لا نكره! ولكن كنا نتعشم أن تكون لنا الحلاوة ولو بسهرة صغيرة على القد! لكن هذه حال الدنيا! من يعلو يعلو وعلى الباقى السلام!». قلت مبتسما فى زهو: «ملحوق عليها يا بربش! أنا يادوب سأفيق من وجع الدماغ! وعلى كل حال ها نحن التقينا وجاءت القعدة وحدها! أنتم الليلة ضيوفى!». كان الزهو يليق بى لحظتها، ليس لأننى تميزت عنهم بشقة ثمينة يحلم بها وكلاء الوزارات، بل لأننى صرت أعرف القراءة وإن كنت غير قادر على الكتابة إلا أننى أصبحت أفهم ماذا تقول الجرانين. قال غزولي: «إلعب غيرها يا حسن! الليلة نحن معزومون عند بلال منذ شهر مضى! لا تأكل بعقلنا حلاوة! عزومتك لابد أن تكون كبيرة! لا أقل من خروف يذبح وزجاجة ويسكى تفتح وأوقية حشيش تحرق فى شقتك ومعنا بلال!». خفق قلبى يابوي: «أنا تحت أمركم فى اليوم الذى يعجبكم ورقبتى بدلا من الخروف!». قال بربش: «نحن معزومون وأنت معنا

يوم الجمعة القادمة عند الحاج أحمد نور السنى بمناسبة عيد ميلاد ابنته! تصور أنه زعق لنا من أجلك؟ ظن أننا أسأنا معاملتك فابتعدت عنا وقال إنك أجدع واحد فينا فى نظره! قطيعة أنت وهو فى يوم واحد!».
ضحكت بغير اطمئنان؛ لكن صوتا فى رأسى قال: روح معهم ولا يهمك وضع أصبعك فى عين التخين مادام حاميها حراميها..

فى تلك الليلة سهرنا حتى شروق الشمس. ظهر لى بلال أجدع وأرجل مما توقعت؛ ذبح جديا صغيرا، واشترى زجاجتين من الكونياك، ونصف أوقية حشيش. جهز كل ذلك دون أن أعرف وجاء به فى وقته؛ فكانت ليلة ولا كل الليالى.

التاسعة ـ الولاعة المنسية

صرت أشترى الجرنان كل يوم؛ طبعا يابوى، بل صرت أحرص على شرائه وقراءته من الأفندية الذين يتأبطونه ولايقرأون فيه سوى اللافتات الكبيرة، أما أنا فأفليه صفحة صفحة ركنًا ركنًا سواء فهمت أو لم أفهم؛ فلعبة فك الخط نفسها لذيذة غاية اللذة يابوى. ومن قال إنى لم أفهم؟ لقد عرفت أشياء يكاد رأسى ينوء بحملها، وأسماء ما كان لى أن أعرفها فى عماء الأمية رغم أنها الكل فى الكل فى حياتنا وأمورنا، عرفت من يكون الوزير ومن يكون الخفير، وما الوزير وما الخفير؛ حتى الانتخابات التى كثيرا ما دوشوا بها دماغنا فى البلدة وتقاتل القوم بسببها عرفت حقيقة أمرها وعرفت الدار التى يجتمعون فيها ويتكلمون فى أمور الخلق ومشاكل البلاد لكى يحلوا فى النهاية مشاكلهم هم. عرفت ما معنى أمريكا وروسيا ومجلس الأمن والأمم المتحدة وجامعة الدول العربية. عرفت أننا والعرب أخوة فى الدم والعرق والأرض واللسان كما أننا نصلى لإله واحد ويهددنا عدو واحد قصير القامة لكننا لا نرى سوى ظله الشبحى مستطيلا إلى مالا نهاية. فلما عرفت ذلك اندهشت يابوي: كيف يكون لنا إخوة بكل هذا العدد ودار بكل هذا

الاتساع ويهددنا عدو جربان اسمه إسرائيل؟! تحلف اليمين ياخال أننى ما كنت سمعت عن إسرائيل هذه من قبل، أصلهم ما أدخلونا مدارس منهم لله؛ ووالله العظيم ثلاثة يابوى غير حانث ولا آثم إننى انقبض قلبى لما عرفت الآن أن خمسة من ولد أعمامى ماتوا فى حروب معها هذه المدعوقة بجاز دون أن يعرفوا من هو العدو أو لماذا هذه الحرب! . . ما كنت أعرف شيئا من هذا ياخال، فمحمدين مات فى السويس وهذه البلدة نعرفها ولنا فيها أقارب؛ وعريبى مات فى سينا وهذه منطقة عربان ما كنت أعرف أنها تبعنا لأنى كنت أسمع الفقيه يقول: إن الله كلم موسى فوق جبل الطور فى سينا وأن موسى هو نبى اليهود؛ وحسان مات فى الإسماعيلية التى كنت أعرف أنها بلدة البطيخ، وعوضين مات فى العريش ولم أكن أعرف أنها من ضمن سينا، وصابر مات فى بورسعيد. ما كان أحد يقول لنا إن التى قتلت ولد أعمامى هى إسرائيل، حتى أيام كنت أبيع المشاريب فى المعسكر لم أكن أعرف شيئا من هذا، كل ما عرفته أننا فى حرب، وأى حرب لنا لابد أن تكون مع الإنجليز، طول عمرنا لا نعرف لنا عدوا غير الإنجليز؛ الدور والباقى على هذه التى طلعت لنا فى البخت واسمها إسرائيل. سألت وأين يكون مكانها؟ قالوا فى فلسطين فى القدس الشريفة شخصيا. شوكة هى إذن وانغرست فى قلبنا. أول ما عرفت ذلك قلت من طيبتي: وإيه يعنى! ننزعها ونرميها؛ الآن رجع لى عقلى فأيقنت أن نزعها يفرتك مطرحها. . فما العمل إذن يابوى وأنا مرادى الآن أن آخذ بثأر ولد أعمامى؟ هذا ما يؤرقنى الآن يابوى، لكننى قلت لنفسي: هذا موضوع كبير عليك ياولد أبى ضب فدعك منه حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا . .

ـ «بنا يارجال؟»

ـ «على الظالم!»

ثم وقفنا. لحظتها انتبهت إلى أن الحشيش البريمو قد سرح بدماغي ونحن جلوس في قهوة صفصف نصطبح عصرا ونهيئ أدمغتنا قبل ذهابنا إلى حفلة عيد ميلاد ابنة الحاج أحمد نور الدين السني. طويت الجرنان ووضعته في سيالتي، ومضينا.. في الشارع العمومي لقيت ولدا ينادي على جريدة المساء فاشتريت واحدة وجعلت أتطلع في لافتاتها ونحن ماشون، وشلة النحس تتغامز عليّ وتضحك ملء الأشداق وأنا غير حافل بهم ولا بالسيارات المارقة من حوالي..

دهش الحاج أحمد نور الدين السني حين رآني، تحلف اليمين كأنه مشتاق وبه لوعة، بالحضن ياولد، فارتميت في حضنه شاعرا بالطمأنينة من ناحية خلقاتي النظيفة مثله وأكثر. صار العكروت يبعدني عن صدره بيديه ويحدق في وجهي وعيني بنظرات خبيثة ماكرة: «جبت الوجاهة دي كلها منين ياولد؟ ماشاء الله! ماشاء الله! ربنا فتح عليك! أنت على كل حال تستاهل كل خير يا مقصوف الرقبة!». كان واقفا على باب الشادر ليستقبل ضيوفه؛ وثمة من يصطحب القادمين إلى الداخل. وكان الشارع قد امتلأ بالسيارات المجنحة ذات المناظر الفاخرة اللامعة، بعضها بلوحات نمر زرقاء وخضراء وبعضها ترفرف على مقدمته الأعلام، ومنها ما يبدو أنه طالع لتوه من الفابريقة. وكان واضحا أن الحاج أحمد نور الدين السني مشغول بمقدم ناس مهمين؛ إذ كلما هدأت سيارة تقدم ناظرا في داخلها مستعدا للترحيب. طالت وقفتنا والحاج مبسوط بوقوفنا معه؛ إذ نشكل وفداً لا بأس به في

استقبال الوافدين. ثم إن سيارة مجنحة مهيبة رست على الضفة المقابلة للشارع انفتح بابها ونزل منه سائق يرتدى بذلة سوداء، تقدم نحو كشك للسجائر وتكلم مع صاحب الكشك ولاحظنا أن صاحب الكشك يشير له نحو الشادر؛ فركب السائق ولف بالسيارة حتى حاذانا. السيارة بنمر قليلة العدد ومكتوب عليها: «ملاكى أسيوط» هب الحاج للاستقبال صائحا: «يا مرحبا يا مرحبا!» فنزل السائق مسرعا وفتح الباب الثانى فنزلت منه سيدة ترتدى أفخر الثياب، وفرو الثعلب على كتفيها، رأسها ملفوف بطرحة بيضاء من الحرير الشفاف يشى بوجه كالقمر، سمهرية القوام ممشوقة القد منضبطة الهندام والخطو كضابط أنيق مهيب. مدت يدها للحاج السنى، فسلم عليها بحرارة شديدة، وانحنى فقبل يدها. كانت عيناها تخترقان قماش الطرحة وهى تحط علينا واحدا بعد الآخر مع ابتسامة تحية، لكن عينيها عندما وقعتا على وجهى تلكأتا قليلاً ثم بان فى نورها ما يشبه الدهشة أو المفاجأة، حتى إن العينين بعد أن تحولتا عن وجهى عادتا فنظرتا فيه من جديد بشيء من التأكد والاشتياق، ثم انصرفتا عنى نهائيا..

قلبى أكلنى يابوي؛ فهذه الساحرة المتنكرة فى ثياب الأبهة تخفى وراء هذه الطرحة الحريرية عهرا وصياعة أكثر منى ومن عشرين من أمثال بربش وغزولى وبلال. يبدو يابوى أن وحدة الصياعة والخربشة المطلة من عينيها هى التى جعلتنى أحن لها كأنها ممن يهمنى أمرهم. لست أعرف من نظرتها تلك أهى تختبر خربشتى أم هى تصطادنى؟! أم أن مثل هذه النظرة هى نظرة الولد المخربش تقع على مخربش حريف مثله فيتوقف دهشا لبرهة هى مزاج من الخوف وإرسال التحية. على أن الذى استقر فى قعر دماغى ياخال هو أن هذه الحسناء المتخفية تريد أن

تصطادنى. طبعا يابوى، فما الذى يجيء بواحدة كهذه من أسيوط إلى هنا بصحبة سائق خصوصى إلا إذا كانت دائرة على حل شعرها حاكمة بأمرها، ولابد أنها فى حوزة عنِّين مكسور العينين مهيض الجناح. أيًا ما كان أمرها يابوى فقد وجدتنى أهرول خلفها مشدودا إليها بمقود خفى، والحاج السنى يحاذينى ويمسك خلسة بأطراف أصابعى هامسا فى تحذير شقي: «بالراحة! بالراحة!»، فهدأت من خطوى، ولاح لى أن الحاج كان ينتظرها هى فلما وصلت عاد معها. كان واضحا أنه قد تأدب وحط عليه وقار متقن كأنه يمشى فى حضرة رئيس البلاد. ملت عليه هامسا فى انبهار: «من الأميرة هذه ياحاج؟». فمال على أذنى هامسا فى جدية شديدة: «ذى هى الشيخة سعادة! من أعيان محافظة أسيوط لكنها معروفة فى كل مكان! صديقة للملوك العرب! لو كانت امرأة غيرها فى مكانها لمشت فوق بساط من الذهب وما مشت على الأرض قط لكنها زاهدة! تكتفى من متاع الدنيا بستر مظهرها فقط!!»، وغمزنى لأسكت، فقلت فى لجاجة: «لكن ما شغلتها يابوى؟ أسألك عن شغلتها!». غمزنى مرة أخرى، قال فى حدة: «عرافة! لا مثيل لها فى العالم كله! تقرأ للإنسان كتاب حياته من طقطق لسلامو عليكو!»، ثم لكزنى وتقدم إلى البوابة الكبيرة ففتحها كى لا تنحنى الشيخة سعادة. فكأن بوابة الجنة قد انفتحت ياخال، بحر من الأضواء الملونة تسبح فى أعماقه ممرات وأبهاء ودرجات سلالم وحوائط مزدانة بلوحات جدارية، وتماثيل من كل الأحجام معلقة. ألوان البسط والسجاجيد حدائق من الورود والرياحين والقباب والأبهاء والإيوانات، والجوارى يقدمن الكئوس ويعزفن على الآلات الموسيقية لمشايخ بلهاء بلحى طويلة وطراطير؛ كل ذلك مرسوم على السجاجيد

المنبسطة على الأرض والجدران ودرجات السلم العريضة التى تئن تحت أقدامنا أنينا عاهرا لوعها طول العمر. لم أعد أعرف فى أى طابق من الطوابق صرنا ياخال؛ لكننى أذكر أننا صعدنا طويلا يتقدمنا الحاج السنى ومن خلفه الشيخة سعادة تخطر على الدرج كالفراشة كفرس النبى، ومن خلفى شلة النحس التى صارت تتكاتف وتترادف، ويقرصنى همسهم بأن الله قد نفخ فى صورتى؛ وأنا أكتم الضحك وقد وقر فى بالى أننى لابد أن أكون محترما فى حضرة الشيخة سعادة بأى شكل؛ لا أدرى يابوى كيف جاءنى الوحى بهذا؛ تحلف اليمين أن الوحى قد عرفته؛ فما بين بسطة سلم والأخرى، وبينما تستدير الشيخة سعادة لتحود مع انعطافة السلم كانت تدير رأسها ملقية بنظرة مشرقة ينجاب فى ضوئها عن وجهها قماش الطرحة البيضاء الحريرية فأرى على وجهها سعادة فائقة؛ حقا صدق من أسماها الشيخة سعادة..

صرنا فى مواجهة بهو كبير ممتد كسرادق عظيم فخم، يحتشد بالأضواء الملونة الخافتة ينبعث منها الهدوء والدفء كأنها شموع خفية؛ يحتشد كذلك بطنين خافت لكنه عميق تسمع فى أعماقه دوزنة آلات موسيقية حبيبة ودندنة أصوات سرحانة بنفسها.. و.. ما كل هذا البشر ياخال!؟ تحلف اليمين أنه قاعة السينما أو مسرح الريحاني؛ كلهم ينجعصون يتقلدون البكوية والبشوية؛ وثمة خدم يلبسون الطراطير والجبب المزركشة بالقصب يمرون بين الجلوس حاملين الصوانى الملآنة بالكئوس المترعة بجميع أنواع الخمر، ينعطفون نحو الجالسين فى حلقات حلقات جماعات جماعات أسر أسر؛ فإذا بكل واحد من الجالسين يأخذ من فوق الصينية صنفا معينا من المشروب الذى تحفل الصوانى بجميع أنواعه، ألوانه، ماركاته، نساء كجمار النخيل ياخال،

ورجال كنوار القطن تنعكس عيلهم الأضواء بألوان خلابة؛ والجميع في شرب ولغو هامس وضحك رنان؛ ضحك النساء هو الأوضح كنقرات الإيقاع كشخللة الدفوف فى معزوفة همجية بهيجة، تنبعث من كل خميلة شقشقة عصفور أو عصفورين. من الواضح ياخال أن محلا كبيرا من محلات الخمور والأطعمة والحلواء قد تكفل بإحياء هذا الحفل الكبير أما المقاعد والسجاجيد فكلها ملك الدار وهى راسخة فى مكانها مفصلة على أماكنها؛ فهذه خميلة من الكنب البلدى الفاخر؛ وأخرى من الكنب العباسى المطعم بالأصداف على شكل المشربيات؛ وثالثة من صالونات القصور المذهبة بمساند على شكل التاج الملكي؛ ورابعة من أسرة وأرائك فرعونية كالتى نراها فى صور توت عنخ آمون ولد بلدي؛ وخامسة من الشلت والبفات الجلدية والحمير الخشبية المنجدة كالتى نراها فى معروضات خان الخليلي؛ وسادسة وسابعة وعاشرة على امتداد بهو طويل عريض تتخلله حواجز رمزية من ستر وعمدان وقوائم خشبية مشغولة كالمشربيات متحركة . .

جعلنا نمشى كالبلهاء نتصادم فى الخدم والنوادل، والحاج ماض أمامنا بنفس مشيته التى يمشيها وهو ذاهب إلى المسجد، محنى القامة قليلا مبرزا من بين كتفيه ما يشبه القتب الخفيف، واضعا يديه خلف ظهره فوق مؤخرته تماما، والمسبحة تتدلى بينهما، وشفتاه تبسبسان كالعادة بكل ما غمض من التسابيح والأوراد، ظلال لحيته الطويلة ترتفع وتنخفض صاعدة هابطة فوق الأجساد والكئوس والأعمدة . واجهنا مربع محدد بسور من الخشب يرتفع عن الأرض بأرض خشبية ارتفاعا مقداره ثلاث درجات سلم، يجلس فوقه فريق من الآلاتية والفنانين. وفى المنطقة المجاورة لهذا المربع تجلس وجوه كثيرة مشهورة

كلهـا ممن تنشـر الصحف صورهم . وكنت أعرف أن وراء هذا المربع المسرحى غرفًا صغيرة كغرف الحرملك ، ومحلات أدب ، ووراءها فراغ السقف كشرفات بتندات وأفاريز عالية مخروطية .

اقتادنا الحاج إلى أكبر شرفة ، وهى خلف مربع المسرح مباشرة ويستطيع الجالس فى نهايتها قرب الخلاء أن يرى كل ما يدور على المسرح وفى بقية القاعة ، عبر ممر فى عرض المسرح ؛ فى حين أن الجالس فى القاعة قد لا يتمكن من رؤية الجالس فى هذه الشرفة . أما الشرفة فمفروشة بمقاعد وأسرة لا مثيل لها ، لا أحد يعرف إن كانت من الخشب أم من الذهب ، منجدة بالقطن أم بريش النعام . ثمة ناس كثار يجلسون متربعين كالعمد ومشايخ العرب ، أمامهم الكراسى العباسية فوقها الصوانى الفضية تعج بالكئوس والزجاجات من كل الأشكال والألوان . ما أن رأوا الشيخة سعادة مقبلة عليهم حتى انتفضوا جميعا واقفين كصبيان عابثين دخل عليهم أبوهم المرعب . توقفت الشيخة سعادة لبرهة طويلة ؛ ثم تقدمت لتسلم على أقرب واحد ؛ وصار الحاج من جوارها يبلغها اسم كل من تسلم عليه ووظيفته ؛ وعند الوظيفة العظمى يمسك عن ذكرها ويكتفى بتنغيم الاسم وتفخيمه . فلما جاء عند الرجل الشبيه بأنور السادات الخالق الناطق أشار إليه برعشة خجل مصطنع كهين ، قائلا : «محمد بك أبو شناف ! طبعا تعرفينه !» ؛ فهزت الشيخة سعادة رأسها وكررت السلام بحرارة : «أهلاً ! أهلا وهل يخفى القمر ؟ !» ؛ فاستدرج الحاج : « . . ولما علم أنك ستشرفيننا الليلة كاد يرقص من الفرح ! وقد شرفنا بالحضور وأمله أن تفتحى له الكتاب !» . قالت الشيخة سعادة «ربنا يوفقنا فى خدمته ! إن كتابه مفتوح وليس يحتاج إلا لمن يحسن قراءته !» . ابتسم محمد بك أبو شناف عن حنك

واسع وقال: «هذه إذن هى مهمتك!»، وبدا فى نبرة صوته كأنه يصدر أمرا بذلك؛ وكانت زبيبة الصلاة على جبينه المزرق تبدو كالمرسومة بهباب الفرن أو كحبة توت مشبوكة فى لحم جبهته المتثنية؛ أخذت تعلو وتهبط علامة المرح وهو يستدرك: «ولكن عفوا ست الشيخة! إن كتاب حياتى حافل وصعب ومكتوب بكل اللغات!». فقهقه الحاج السنى وبعض الحاشية، مما أغرى محمد بك أبو شناف بالقهقهة معهم كأنه قال درراً نادرة. قالت الشيخة سعادة: «كتاب المرء مقروء إلا لعينيه هو نفسه!! وندر من يستطيع قراءة نفسه». الغمزة ثقبت الزبيبة فى جبهة محمد بك أبو شناف فأخذت تنتفض فيما استدركت الشيخة سعادة بسرعة: «إنى على كل حال لست راجمة بالغيب! ولست عالمة به أو بأى شيء من أمره! إنما أملك مرآة ورثتها عن أجداد أجداد أجدادى! وقد وهبنى الله حاسة أرهف! ونظرة أعمق وأنفذ! وعقلا أقدر على ربط الأمور والأشياء ببعضها! قد أصيب وقد أخطئ! لكن الصواب والخطأ إنما يكونان على قدر ما فى نفس صاحب الكتاب المقروء من صفاء أوكدر! من روقان أو عبوس! من شفافية أو إعتام! وفقنا الله ووفقكم إلى فهم أنفسنا على خير ما يمكن!»..

قالت هذا وهى مطرقة برأسها فى قليل من الحياء وكثير من الأدب؛ فيما كانت الزبيبة على جبين محمد بك أبو شناف قد تجمدت تماما فى مكانها، وصار فكه الأسفل يتدلى فيما لا نعرف إن كان يبتسم أم يتلمظ؛ لكنه قال بشيء من الشهامة مشيرا إلى مقعد بجواره: «تفضلى بالجلوس!»، فاستوت الشيخة سعادة جالسة؛ وكانت قد خطفت قلبى بكلامها. ثم إننى تأهبت للانطلاق إلى الحفل، لكننى ما كدت أستدير فى الممر النازل إلى قاعة الاحتفالات حتى رفعت الشيخة سعادة ذراعها

مشيرة لي: «تعال ياولدى! ما اسمك؟!». انتفضت من الفرح: «خدامك حسن أبو ضب!». هزت رأسها كأنها تقول: «أعرف!» وأحسست أنها تعتقل ابتسامة شقية بين شفتيها الدقيقتين؛ وتبسم الحاج السنى قائلا فى شقاوة صبيانية مرحة: «تعرفينه يا ست؟ أنتما بلديات على كل حال!». قالت: «أبغى مساعدا لى فى مهمتى الليلة! وقد توسمت فيه الطهر والعفة!». الصياعة كلها لمعت فى عينى الحاج السنى، فاندفع صائحا بلهجة حادة ذات معنى وهو يهزأ فى وجهي: «هذا؟ آه من هذا!!». ألقيت إليه نظرة استرحام، لكن الشيخة سعادة ردت مسرعة: «أعرف! إنه ربما ارتكب بعض المعاصى تحت ضغط قاهر! لكن من المؤكد لى أن قلبه سليم ودمه نقى! وصدره خال من الشوائب والأحقاد! وضميره مهيأ للصحو فى كل لحظه لولا أن الحاجة أحيانا تكون أقوى منه! كفانا الله جميعا شر الحاجة والعوز، إن الله سبحانه وتعالى يغفر للمحتاج!». الولية تعرفنى إذن ياخال، تحلف اليمين كأنها نشأت معى، لكنها ياخال تبدو كما لو كانت تقول كلاما حفظته من قبل ودربت على نطقه. قال الحاج بنفس الشقاوة: «هات كرسيا ياولد واجلس بجوار الشيخة لا تبرحها! أو تعال فاجلس هاهنا مكانى!»، وتخلى عن حمار خشبى منجد كان يجلس عليه بالعرض، أما أنا فاستويت عليه راكبا بعد أن عدلته لأتمكن من رؤية الغرفة كلها؛ لكننى بعد أن جلست داخلنى الكثير من الكدر والضيق والندم؛ فمنذ هذه اللحظة قد حرمت على كل هذه الخيرات المبثوثة هاهنا بغير حساب، وقد كنت أمنى النفس ببضع كئوس أرطب بها جوفى الصادى، فكيف أشرب الآن يابوى بعد أن شهدت لى الشيخة سعادة بهذه الأوصاف؟! الحق لله أن حالة من الرضاء عن النفس رطبت

جـوفى يابوى. أهكذا أنا إذن وأنا لا أدرى؟ كـيف يـاخـال؟ لعن الـله الشـرب بعـد الآن، ولكن لا، فلتكن هذه الليلة هى آخـر الليـالى التى أعصى فيها الله عصيانا بسيطا . .

ثم ظهر الحاج السنى مقبلا من شرفة جانبية خلفه سنيورة كبنت من بنات الحـور اللاتى تحكى عنهن الحـواديت: فـرع من الزان السـرح، له بروزات شـيقة دقـيقة من الخلف والصـدر، وعنق من المرمـر، ورأس مدبب الذقن كرأس نفرتيتى، أى والله ياخال أميرة فرعونية من سلالة لم تنقرض بذراتها. تحلف اليمين يابوى أن الحاج السنى لابد أن يكون قد عثر عليها حية فى حفرية فاقتناها وألبسها فوق لباس العصر حليها القديمة. قلت لنفسي: لا يمكن أن تكون هذه هى ابنتـه صـاحبـة الحفل المهـيب البـهـيج؛ فى نفس الوقت لا يمكن أن تكون من بين الفنانات المشتركات فى الحفل؛ فمثل هذا الجلف الصدئ لا تخرج من صلبه هذه القشدة الطازجة؛ والفنانات عندنا ليس يعرف عنهن هذا الوقار الجميل وهذا الكبرياء الشامخ الذى لاشك ورثته كأميرة من ظهر أمير. يا . . لهو بالى عليها، وهى تتقدم مقبلة، ورائحة عطرها القروستوقراطى يغطى على كافة العطور المندلعة فى القـاعة. اقترب الحـاج السنى من الشيخة سعادة وانحنى مشيرا إلى السنيورة الفارعة: «قوت القلوب! ابنتى!». فنهضت الشيخة سعادة وعانقتها وقبلتها فى وجنتيها، والحاج السنى يواصل الكلام فى نبرة راعشـة شجـية: «ليس عندى فى الدنيـا سواها! لا ولد ولا زوجة ولا أحد! منذ أن افتكر الله والدتها حرمت على نفسى الزواج ووهبت كل وقتى وحبى لقوت القلوب! مناى كله أن يأخذ الله بيدها ويفتح لها أبواب السعادة على مصاريعها! تعال يا قوت القلوب وسلمى على عمك محـمـد بك أبو شناف!». فلمعت

الأسنان المعدنية المحدوبة فى حنك محمد بك أبو شناف وتراقصت الزبيبة على جبينه وهو ينتفض واقفا، ولولا الحياء من الشيخة سعادة لالتهم البنت فى أحضانه ومصمصها بشفتيه هاتين الغليظتين الشهوانيتين، يظهر ياخال أن البنت شعرت بالرعب لما واجهته، فتسمرت فى مكانها برهة ثم تقدمت خطوة واحدة على حذر، وانحنت قليلا لتختصر المسافة بينهما، مادة أطراف أصابعها وهى تضحك فى خفر؛ ثم اضطرت للسلام على بعض القريبين منه لأنهم تهيأوا للسلام عليها. قال الحاج السني: «تستأذن منك قوت القلوب ياستنا الشيخة لتحتفل بصاحباتها وفى آخر الليل تجيء لك لتنفردين بها على رواقة!». هزت الشيخة سعادة رأسها فى أريحية: «ليلة سعيدة ياقوت القلوب! إن شاء الله نحضر فى الليلة الأكبر! وإنها لقريبة بعون الله وفضله!»؛ فضحكت البنت فى خجل وتفاؤل، ثم هزت رأسها مستأذنة ومضت. تابعت مؤخرتها الساجية حتى اختفت فى ممر الشرفة الجانبية. أما الحاج فقد راح يتحكك فى الضيوف كالذئب العلق، ثم ما لبث حتى اختفى. إن هى إلا برهة حتى دعيت الشيخة للعشاء؛ فنهضت ومضت خلف الداعى فى ممر الشرفة الجانبية، فانتهزت أنا الفرصة وقمت أشوف حالى أبحث عن شلة النحس. مضيت فى نفس الممر، مررت بأكثر من شرفة، هبطت سلما إلى الدور الأسفل، فإذا أنا بقاعة تمتلئ بالموائد الحافلة، كلها مستديرة وكل مائدة يلتف حولها عشرة أشخاص، تقوم عليهم مجموعة خدم يرفعون الأطباق ويضعون غيرها حتى يجيء حلو الختام إيذانا لهم بمغادرة المائدة ليتم تنظيفها فى الحال ليحتلها عشرة آخرون. كانت شلة النحس منهمكة فى غسل أيديها؛ إلا بسبوسة، فقد كان قادما لتوه صاعدا من أسفل. احتضنته،

ثم جلسنا معا على مائدة واحدة. جيء بسلطانيات الشوربة، ثم أطباق الخضار باللحم، ثم أطباق المحشى على مختلف ألوانه، ثم الشعرية بالفراخ، ثم أطباق الأرز بالضلع، ثم أطباق الفاكهة من برتقال وموز وتفاح وتين وبلح وهلم، ثم أطباق خبز حلو اسمه الجلاش، ثم المهلبية والأرز باللبن. . مسك الختام فانهض يابوى. فى طريقى إلى دورة المياه لغسل يدى لمحت غزولى فى نهاية القاعة قرب السلم، فغمز لى بشفتيه وعينيه فى اتجاه الصعود؛ ولما رآنى تعثرت فى الفهم شوح بذراعه نحو غرفة البرج الفوقانية. هززت رأسى بالفهم والموافقة ومضيت فغسلت يدى بسرعة ثم اتجهت إلى السلم. لاحظت يابوى أن الرجل المديوب قد رفع كل التماثيل والتحف والأنتيكات التى كانت متناثرة فى كل مكان، لم يبق إلا على المحمية داخل دواليب زجاجية مغلقة بأقفال خفية. رجل كهين يابوى وليس سهلا أبدا أبدا أبدا. .

ظننت أن شلة النحس تريد أن تقيم لنفسها قعدة جانبية فى غرفة البرج تشوف مزاجها يابوى، حقها. صعدت السلم يابوى، مررت فى صعودى بضجة الفرح صاعدة من بئر السلم وقد بلغت الصهللة مداها يابوى، وثمة مغنية من مغنيات الراديو تغنى: «إيوه آه» وعشرات من الأكف البلهاء تصفق لها على الواحدة، وزغاريد. على السطح فوجئت بحفل آخر، نفس الأضواء، نفس التجهيزات ولكن بحصائر ملونة فوقها شلت، والجوز شغالة تبرق باللهب بين مجاميع متعددة؛ وكل من غزولى وبربش وهندى ممسكا بجوزة ومصفاة نار متوليا سقيا جماعة. كان بسبوسة قد لحق بى على البسطة الأخيرة للسلم وهمس فى أذنى قائلا فيما نتباطأ فى الصعود:

ـ «مثلنا لا يجلس مع العظم الثقيل يا حسن! إنما مبرر وجودنا معهم أن نكون خدما لهم! خدم خدم المهم أن نذوق طعم الحلاوة! الحشيش البريمو العالى! الشمبانيا والويسكى والكرفوازية! هؤلاء الذين تراهم أمامك الآن بين برق الحجارة ولهب الكيف هم صفوة من يملكون الأمر والنهى فى البلاد!! ليسوا أصحاب مناصب ولا يحزنون! الصحف لا تعرف صورهم ولا أسماءهم! كما أنهم لا يدخلون معارك انتخابية ولا دياولو! يتركون غيرهم يقوم نيابة عنهم بتدبير المكائد ودس الدسائس ولبس الخوازيق النهائية وهم ـ هؤلاء ـ جالسون يحششون يسكرون يرضعون فى أثداء الراقصات فى أحلك الليالى فى أشد الأزمات التى تمر بها البلاد! يقولون إن الثورة أممت الأراضى والشركات والمصانع وصادرت الباشوات والإقطاعيين! أما هؤلاء الذين يجلسون أمامك الآن فإنهم أمموا الثورة نفسها!! إنهم فتوات التنظيم! ترى أبناءهم وألاديشهم يكتبون افتتاحيات الجرانين ويتكلمون بالإرهاب فى الإذاعة ويخطبون بالحماس فى سرادقات المحافل ويعيشون نفس الحياة التى كان يحلم بها الباشوات فى عز ثرائهم! يلحقون أولادهم بالمدارس الأجنبية يستعيرون لهجة الميوعة والخشونة تقليدا لأبناء الباشوات! إنهم يملكون الأموال والنفوذ ويمولون كافة المعارك بجميع أنواعها ابتداء من معركة فى حارة درب عجور بين اثنين من متسلقى الاتحاد الاشتراكى إلى معركة بين عبد الناصر وعبد الحكيم! ومنهم من يلبس ثياب الثورة وهو من ألد أعدائها! وقد سمعت الحاج السنى ذات مرة يقول: إنه لا يستبعد أن يكون هؤلاء لهم دخل فى المعارك بين أمريكا وروسيا! وبين روسيا والصين! وهم وراء الموارنة والشيعة فى لبنان! والأكراد فى العراق! والبربر فى المغرب! والجنوب فى السودان! والإخوان المسلمين

والمسيحيين فى مصر! هكذا قال الرجل الكهين بعضمة لسانه عن هؤلاء!! رأيى يا حسن أن نبعد عن هذه المجموعة! فلو عرفوا أسماءنا وشخصياتنا فلن نفر منهم إلى الأبد! سنبقى مدى الحياة خدما لهم! يغروننا بالفتات الدسم لكن أحذيتهم فوق رءوسنا!! دعنا نكون أذكى منهم فنلتقط الفتات من بعيد لبعيد من وراء ظهورهم! إنهم لابد لهم من إلقاء الفتات فى صفائح القمامة مالم يكن هناك من يلتقطه من تحت أقدامهم مباشرة!! غزولى ويربش وهندى أرباب سوابق «فاقدين» جعلوا من أنفسهم صفائح زبالة تلقى فيها كل الفضلات النتنة!! تعرف؟ وسمعت الليلة أنك نلت الحظوة لدى الشيخة سعادة! قالوا إنها شهدت أنك ابن نسل طاهر طيب! وأنا أبشرك! من الليلة ستكون صاحب الحظوة عند الحاج السنى وكل أتباعه ومعارفه! هنيئا لك ياعم! فأنا إذن يحلو لى أن أنصحك نصيحة أخ غالية: ابعد عن شلتنا هذه نهائيا!! شلة النحس ما أقصد! أنت لست مثلى عدم المؤاخذة! أنا أعرف كيف أسلك معهم دون أن أتلوث بخرائهم!! ولكن تعال.. ففى غرفة البرج ناس أحلى من هؤلاء الذين يملأون السطح وأهم بالنسبة لنا ولا بأس أن نكون خدما لهم! إن الخدمة عندهم شرف لنا يعطينا هيبة وأبهة ومهابة! محمد بك أبو شناف الشهير «بسندرل» نظرا لإفراطه فى الأناقة ولبس الشباب رغم أنه عجوز كركوب! ويحب الفتيات الصغيرات! رجل متصل بالرياسة شخصيا! لا أحد يدرى ما شغلته فى البلاد بالضبط لكنه وارد فى كل مناسبة واسمه مدرج فى كل مصيبة! يقال إنه المضحك الخصوصى للرئيس وأن الرئيس يعتمد عليه فى كثير من المهمات والمشاوير، كما أنه سفير للرئيس فى كل مكان يتحرج الرئيس من ارتياده! هو رجل هزأة «خلى» بالك! لكنه خفيف

الدم مسخة! غير أن احترامه من احترام الرئيس مع الأسف! وهو وزوجه دائران على حل شعرهما فى كل مكان لا تقف أمامهما حواجز أو سدود، كل واحد من ناحية! ولهما صداقات عالية المستوى فى جميع أنحاء الكرة الأرضيه عقبال أملتك! تعال نقتحم مجلسهم لترى بنفسك!!» . .

كان الكلام قد سرح بنا إلى حافة سور بعيد وقفنا مستندين عليه، ومصر عتيقة من تحتنا سديم هديم ذات قباب ومآذن تسبح فى برك القمامة ومياه الصرف والكآبة؛ وعلى البعد تبدو القاهرة مثل جلابية أمي السوداء تبرقشها نقوش بيضاء وحمراء وخضراء وزرقاء. لحظتها جاءنى خاطر يقول لي: خيـــر لك ياولد أبى ضب أن تنسلخ عن هذه المدارات كلها وتبحث لك عن فلك جديد تربط نفسك فى مداره. وجاءنى خاطر آخر يقول: وهل تقدر على ذلك ياولد أبى ضب؟ ها أنت ترى أن جميع المدارات تؤدى كلها إلى فلك واحد كما أن جميع الأفلاك والمدارات زفت وقطران. شعرت يابوى بهذا الخاطر يقبض على ذراعى يكاد يقرصه، يوجعه؛ فإذا هى قبضة بسبوسة ممسكة بذراعى تسحبنى إلى غرفة البرج . .

رأينا محمد بك أبو شناف جالسا فى الصدارة متربعا وسط مجموعة من أتباعه كالعمدة يرتدى جلبابا واسعا من الصوف بأكمام واسعة ومن تحته الصديرى الشاهى المعتبر، وفوق رأسه طاقية من الصوف، كالزعبوط، وعصاه الأبنوس العوجاية مركونة خلف ظهره. أما بقية الأتباع فيرتدون فاخر البذلات ورباطات العنق المفكوكة قليلا كما أن أزرار الياقات الحريرية مفتوحة وفوقها الصديريات؛ أما السترات

فمعلقة على مشاجب أنيقة مزروعة فى الحوائط. أمامهم الصوانى الفضية عليها الكئوس مترعة بجميع أنواع المشروبات. وثمة أفندى أنيق غاية الأناقة من الواضح أنه غرزجى أصيل رغم الوجاهة والأبهة قد راح يقوم بالواجب خير قيام، تحلف اليمين لا أنا ولا أجدع منى ينشط هكذا. وثمة أفندى آخر لا يقل عنه شياكة ولا أبهة راح يوالى توليع النار وتكسيرها وتحضيرها فى المصفاة ليغترف منها بالملعقة ويضع على الحجر بحيث لا تتوقف الجوزة فى دورتها لحظة.

بدا أنه لا مكان لنا بسبوسة وأنا؛ شعرت أن وقفتنا على الباب سوف تبوِّخ، لكن بسبوسة بوجهه المكشوف دفعنى نحو الباب قائلا: سلام عليكم. فإذا بهم يردون السلام ويتبعونه بكلمة: تفضلوا.. فما إن دخلنا حتى تقدم بسبوسة دون إحم أو دستور نحو صينية النار، فتقرفص بجوار الأفندى ساحبا الصينية نحوه، ثم التقط الماشة مع المصفاة وورقة التهوية، ثم اندمج فى مباشرة العمل. فانزاح عنه الأفندى قائلا: «كنت فين من الصبح!». وكان عليّ أن أفعل مثل بسبوسة، فحاذيت الأفندى الممسك بالجوزة ومددت يدى فوضعتها على الجوزة قائلا: «بعد إذن سعادتك؛ فتركها لى فى الحال، فنزعت عنها الحجر المحترق ونفخت دخانها وسيَّختها بسرعة ثم أفرغتها فى جردل معد لذلك وملأتها من جردل آخر به ماء مثلج نظيف. كان الدور على محمد بك أبو شناف، فمددت له البوصة قائلا: مساء الخير؛ وأقعيت أمامه حتى يشرب براحته. فالتقط البوصة بأطراف أصابعه الطويلة السرحة، ووضعها بين شفتيه الغليظتين، وطقطق ثم شد نفسا واحدا كاد ينفلق منه الحجر؛ فعرفت أن أبخرة الويسكى وريق الأفيون يفتحان الشهية لدخان حامى الوطيس. أما الأفندیان اللذان

كانا يتوليان أمر النار والجوزة فقد توليا أمر الزجاجات والكئوس نيابة عن آخرين كانا يقومان بنفس العمل من نفس المجلس. الأفندى القريب منى تكفل بى، والأفندى القريب من بسبوسة تكفل به. كأس وراء كأس وحجر يتلوه حجر صرت كأننى مجرد سحابة من هذا الدخان.. آخر تمام يابوى. ورنت الساعة فى معصم أحدهم فنظر فيها قائلا: «ألن نرى الفرح؟!». قالوا جميعا: «وجب!»؛ وتأهبوا للنهوض..

كان علينا أن نبقى، بسبوسة وأنا، كى ننظف المطرح ونلم العدة. إننا يجب أن نعمل بأكلنا على الأقل يابوى. وهكذا نظفنا البرج ثم رتبنا حشاياه؛ وقد راعنى أن وجدت بين ثنيات المساند كنزا ثمينا، ولاعة ذهبية فى حجم علبة ثقاب ثقيلة، عليها رسوم ونقوش ملونة، مهيبة كأن رأس ملك الزمان شخصيا تطل من بينها، ومعها قطعة حشيش فى وزنها، مبرومة، بنية اللون كأصبع الملبن. قلت: أما هذه فمن نصيبى وأما الولاعة فلتعد لصاحبها. وضح لى فى الحال أنها تخص محمد بك أبو شناف ولابد أنه خبطها من أحد الملوك العرب، وهى لن تفيدنى، إذ إنها ستفضحنى لو استعملتها أو فكرت فى بيعها يا خال؛ المرء لابد أن يحسبها جيدا ياخال؛ وإن فرحة صاحبها بعودتها ألذ عندى من فرحتى بها يابوي؛ لأن فرحته هذه ستعلن فى الحفل تأكيدا جديدا على طهارة عنصرى الذى أعلنته عليهم الليلة الشيخة سعادة. وهكذا اندفعت لاهثا أجرى كى أحظى بشرف التبليغ قبل أن يبعث هو من يسأل عنها ويركب على أكتافى. قال بسبوسة فى فضول: «ما وجدت يا أبا على؟!». قلت: «تعال!»..

هبطت السلم جريا إلى قاعة الاحتفالات فى الطابق الثالث من الدار. كان الفرح حابكا، والجميع غائب عن الوعى، وراقصة لعلها سهير زكى، مدملجة مزلطة الجسد كالرخام الشفاف تتلوى على المسرح كعامود من الضوء يتصاعد من حله موسيقية تغلى بالإيقاعات الحادة الحراقة فى نشوة بالغة، فالجميع ثمل حتى سحب الدخان المتصاعدة من السجائر والغلايين. جنة هذه أم جنون ياخال؟ وصلت إلى قرب المسرح أتخبط كالدهل الأعمى من فرط السكر والسطل والهياج. صارت عينى تقع على وجوه الجالسين فلا تعرفهم إلا بعد تدقيق وفحص طويلين. تجاوزت المسرح إلى الشرفة الخلفية فما وجدت أحدا؛ فقفلت عائدا أبحلق فى وجوه الصفوف القريبة من معمعة الرقص. ميزت عينى عباءة تجلس فى الصدارة بيدين تستندان على مقبض العصا، وبرأس من غير زعبوط. خرمت عليه مباشرة، فلما ازددت قربا منه لاحظت وجود الشيخة سعادة بجواره. عجبت لأننى مررت عليهم من قبل وتوقفت أمامهم فلم أتعرفهم. تقدمت من محمد بك أبو شناف، شجعنى بابتسامة استهلال حذرة تشى بخوف غامض خفى من احتكاك أمثالى بمثل هؤلاء الأسياد خاصة إن كانوا أسيادا صياعا فى الأصل كمحمد بك أبو شناف؛ ولقد شممت رائحة خوفه تفوح من جوفه حين فوجئ بى أميل على أذنه، التى ـ مع ذلك ـ سلمها لى فى طواعية، فهمست فيها بكثير من الحرج: «سعادتك نسيت شيئا فوق؟!» نظر فى وجهى بارتياب شديد؛ طاشت من عينيه طلقات كثيرة متوالية ترمينى بالشك والاتهام. فأصابنى الرعب ياخال، وكنت منحنيا تجاهه فخفت أن تصطك ركبتاى ببعضهما فشددتهما وشددت لسانى ليتحرك فى حلقي؛ قلت على الفور وأنا أبرز الولاعة الذهبية

أمام عينيه : «قد وجدت هذه بين المساند!» . فزوى ما بين حاجبيه متمعنا فيها دون أن يلمسها أو يحفل بها، ولوى شفتيه قائلا : «لا! لا شأن لى بها!»؛ فوضعتها فى جيبى . وكانت الحاشية كلها قد لاحظت كل شيء . مع ذلك تلكأت فى مشيتى فى انتظار أن يستوقفنى أحدهم قائلا إن الأمانة تخصه؛ لكن شيئا من ذلك لم يحدث يابوى، فانسللت خارجا من إطار المجلس، أتعثر فى الأضواء والموسيقى المجنونة . و . . ا . . ه يابوى واه؛ لقد حانت منى التفاتة عابرة نحو الشيخة سعادة، فتلامست نظرتى بنظرتها عبر الطرحة الحريرية البيضاء فأصابنى منها لسع حارق ياخال، تحلف اليمين يابوى أنها بعينها نظرة أمى، ولسعة البرق هذه لم أعْرفها إلا فى عينى أمى لحظة تضيق بأخلاقى وتيأس من صلاحى . أرعبتنى يابوى وكدت أقع من طولي؛ وقد داهمنى شعور بالرهبة من أننى أتيت أمرا أغضب الشيخة سعادة . نعم يابوى، لقد خيبت ظنها بهذه العمايل التى عملتها فى روحى يابوى، شعرت أن الطريق مسدود وأن لا أمل فى عفو الشيخة سعادة إلا بعد لأى شديد . شعرت كذلك أن أيام نحوس قادمة سوف تعترضنى لا محالة . وحطت على كآبة ثقيلة ياخال، وباخ الحفل فى عينى، وتحولت الراقصة إلى حية رقطاء تتلوى تبخ السم حيثما ترنحت . لله در الخلق من نفوسهم الأمارة بالسوء . وهكذا ياخال رأيتنى أجلس فى الشرفة الخلفية وحدى على يمينى القاهرة وعلى شمالى الفسطاط وتحت قدمى مصر عتيقة وأمامى منيل الروضة والجيزة، قرط من الأضواء الملونة تتشابك أقواسه وتتنافر وتتناثر، معلق فى صدر معتمة، تلك العتمة التى تبرك على كيمان من القمامة والأسرار المنتنة . فما لى ضائق بذنبى البسيط يابوى؟! . .

إلا وخطوات تدب من حوالى تنتزعنى من وحدتى، كانت الشيخة سعادة مقبلة تعدل هندامها؛ ومن خلفها موكب جعلت أتبين فيه الحاج السنى ومحمد بك أبو شناف وبقية الحاشية. كان الحاج السنى قد شرع يعدل الوسائد ويهيئ للشيخة مجلسًا. أما هى فقد بدا أنها تتأهب للانصراف؛ فها هى ذى تتأبط حقيبتها الثمينة المحندقة، وتلفتت طالبة عم زهدى السائق، الذى كان أطوع لها من لفتتها. وقف الحاج السنى محتجا بشدة: «ما ينفع هذا ياستنا الشيخة! نحن لم نجلس مع بعضنا بعد!». قالت الشيخة: «ورائى سفر طويل كما تعرف! وعما قريب يكون لى الشرف بزيارة أخرى!». قال محمد بك أبو شناف: «وأنا ما مصيرى ياست الشيخة! على الأقل خمس دقائق معى! اقرأى لى حتى العناوين الكبيرة من كتابى!». قالت الشيخة بكبرياء ولباقة: «كل العناوين تؤكد أنك الليلة غير مؤهل لقراءة أى شيء فلست وحدى التى ستقرأ كتابك! بل إنك الذى سيقرأ ولست إلا معاونة لك أنا والورق! لكننى أعدك يا سيدى الفاضل أنك لو قابلتنى فى حالة أصح وقلب أخلص ونزعة أطهر فإننى أعدك بأنك تفهم كتاب حياتك سطرا سطرا! وتستوعبه معنى معنى! خذ رقم تليفونى من الحاج واتصل بى وقتما تشعر فنحدد لقاءً ها هنا!». ثم إنها شفعت بابتسامة مهذبة، ثم استدارت إلى كأنها فى غير حاجة لرد محمد بك أبو شناف وسلطت على نظرتها قائلة: «أما أنت أيها الشقى التعس فلى حساب معك فى وقت يحين عما قريب!!»..

شعرت والله ياخال كأن الأرض تميد بى، لكننى شعرت مع ذلك أن فى أعماق صوت الشيخة نبرة عطف وأنها سوف تحنو على مادامت وصفتنى بأننى التعس، لابد أنها ستشفق لتعاستى، قالت ذلك ثم

سلمت على الحاج وعلى محمد بك أبو شناف ثم الحاشية. وتوقعت أن تسلم عليّ أنا الآخر، وصدق توقعي يابوي؛ فانتشرت على الأرض بددا صرت أقبل يديها في طلب العفو والسماح؛ فربتت بيدها الأخرى على ظهري في حنان حقيقي قائلة بصدق حقيقي استشعرته: «ربنا يهديك ويطرح البركة فيك! آمين يارب العالمين!»، فشعرت والله ياخال أنه سوف يستجيب لابد لهذه الصيحة الجماعية. وقد أصر الجميع على توديع الشيخة سعادة حتى باب السيارة، حيث راح الحاج السني وأبو شناف يوصيانها بتبليغ سلامهما إلى السيد المحافظ وشكرهما العميق؛ وكان عم زهدي السائق يهز رأسه كأنه المعني بالشكر. كلمة من هنا وكلمة من هنا فهمت أن السيارة هي سيارة المحافظ، محافظ أسيوط والله ياخال، وأنه مجاملة منه للحاج ولأبي شناف تطوع باستدعاء الشيخة سعادة وتوصيلهما إليهما بسيارته الخاصة. . حاجة تهوس يابوي وحق الله. بعد أن تحركت السيارة شرعوا ينصرفون. وقبل أن أنصرف شدني الحاج من كم جلبابي في عشم ومودة: «خليك تحت عيني باستمرار ياولد يا عكروت! لقد أوصتني الشيخة بك كأنك منها بموضع الأخ الشقيق! فلا تجعلني أسأل عنك بعد الآن!». قلت في غبطة: «حاضر ياحاج!»، ومضيت أترنح لا أدري كيف الوصول إلى أي شيء في أي مكان.

* * *

العاشرة ـ طيف الخيال

العيال المفتحة ليست بالساهل يابوى. ولد مثل بسبوسة هذا ملقط ابن ملقطة؛ يجمع المعرفة والمعلومات بكل سهولة ودون أن يبذل أى مجهود. ولقد يسعى الواحد منا لمعرفة أشياء بعينها أو معلومة عن شيء معين فيقضى فى ذلك شهورا وربما سنوات، وقد لا تجيء هذه المعلومة صحيحة بعد التعب. أما بسبوسة، عينى عليه باردة، يجيء لك بالخبر اليقين من أيما مكان تريد. هو ولد ناعم، جذاب يابوى، يدخل فى الزوارق دون أن يسبب أى وجع لأحد، وينصت لكل شيء ويجعل باله من كل شيء. ولد واع بحق؛ مولود ليكون مخبرا، وعلى وجه الخصوص عن بيوت الدعارة؛ غير أنه يوسع دائرة عمله فيشمل بيوت الدعارة بجميع أنواعها؛ يجمع الأخبار لا ليبلغها للحكومة بل لينتفع بها عند اللزوم. هو خير من ينتفع بها؛ هو خبير بأمر إعلانها لا يكشف عنها إلا عند اللزوم، حيث يكون لإعلانها ثمن كبير. هو مع ذلك لا ينسى المعلومة حتى تتعفن وتصبح معروفة؛ فقبل أن تزمع الحكومة مهاجمة الجرسونيرة يكون هو أسرع ولو بدقائق تكفى لقبض المعلوم وتفويت الفرصة على الحكومة..

واه يابوي ؛ الكفت تعلمته من ولد الأبالسة هؤلاء. ليس المرء يكون ابن ليل لمجرد أنه يعاشر أولاد الليل أو يفعل أفاعيلهم. الشاهد يابوي ؛ قل إن الولد بسبوسة دخل على شقتى مبتسما ابتسامة ملونة يابوى. قلت : سترك يارب. سحبته ورائى إلى المطبخ قائلا : «تعال اعمل لنفسك شايا». وقف بجوارى يغسل الأكواب على رخامة الحوض وجسده كله يهتز ويترجرج من فوق لتحت ومن تحت لفوق ؛ وإذا به يضحك ضحكا مكتوما معلنا فى نفس الوقت. قلت معطيا إياه ظهرى فيما أشعل عين البوتاجاز وأضع البراد فوقها : «ما لفشتك عائمة ياولد الفرطوس؟!». فكأننى أعطيته الإذن الشرعى بالانفجار فى الضحك ياخال، فصار يترنح ويتمايل من فرط الانبساط والسخسخة، وكان يتكلم خلال ذلك، لكن تحلف اليمين ما فهمت منه كلمة واحدة توحد ربها ؛ إنما هو مندمج فى الهلفطة والفأفأة والبغبغة. كل ما فهمته من كلامه يابوى أسماء الحاج السنى ومحمد بك أبو شناف والملك فاروق ورجال الثورة والعائلة الخديوية والدنيا والدين وزيطة وزنبليطة. واه يابوى، ما الذى لمَّ الشامى على المغربي؟ وما الحكاية بالضبط ياولد الفرطوس؟!.

وكنت أظنها نكتة جاءنى الولد بسبوسة بها لنقضى على حسها عصرية ممتعة ؛ فإذا به جاءنى ببلوى كبيرة ياخال. صرت أجمع نفسى على كوبة الشاى وأنا جالس معه فى الصالة لعلنى أفهم جلية الأمر. فلما كف عن الضحك مسح دموعه وبدأ يلخص الأمر كأنه اضطر للكلام المباشر يأسا من غبائي : «يعنى بالمفتشر! الكنز الذى عثرت عليه أنت ليلة عيد ميلاد ابنة الحاج طلع على فاشوش! طلع له أصحاب! قل إنه بصريح العبارة لم يكن كنزا بل هو بلوى سوداء مسيَّحة!». قلبى

راح يرفرف كطير مذعور فى قفص من الجريد الخرع. من ريق ناشف كالعصا قلت: «كنز ماذا ياولد الفرطوس؟! تظننى لقيت كنزا؟!».
لكزنى صائحا: «لا تستعبط على نفسك! إننى ما قصدت إلا مصلحتك يا صعيدى، يا صعيدى يا قحف! أنت تتلاءم علىّ؟! أما أنا فما قدرنى الله على قوله فى حقك قلته وأجرى على الله!!». وكنت أفهم ما قد بدأ يرمى إليه الحديث، لكننى والحق يقال تمسكت بالاستهبال لعلنى أفهم أكثر دون أن أتورط فى اعترافات تضع يدى فى الحديد. ولد الفرطوس هؤلاء علمونى أن أكون حويطا معهم؛ بسبوسة نفسه حذرنى منهم. خفق قلبى حينما تذكرت نصيحة بسبوسة المخلصة لى، زريت بنفسى على التلاؤم عليه، لمتها، لكن صوتا فى نفسى رن قائلا إن تحذير بسبوسة لى من رفاقه لا يمنعُ من أن أستفيد به فى التعامل معه أيضا؛ فهو فى النهاية واحد منهم. ضوأ فى خاطرى إلهام بأننى مادمت قد فهمت ما يرمى إليه فخير لى أن تظهر صورتى بريئة كما قد أردتها فى ليلة قوت القلوب. رن الصوت فى صدري: لقد أظهرت براءتك أربعة وعشرين قيراطا؛ نزلت ومعك الولاعة وقطعة الحشيش وعرضتهما على الجالسين فلم يتعرف عليهما أحد، بل تجاهلوا الأمر من أساسه كأنه لا يخصهم، فلا عليك إذن. وعاد الصوت نفسه ليرن فى صدرى ثانية: ولكن الولد بسبوسة ورطك الآن ولا يصح أن تظهر أمامه فى صورة من يريد أن يضرب العوافى على اللقية التى التقيتها..

وضع الولد بسبوسة ساقا على ساق، عوج رقبته نحوى قائلاً فى لهجة ذات معني: «هات نلف سيجارتين من الحلويات التى معك! أم تراك تلهطها وحدك؟! إياك تقول إنها نفدت! تكون أكبر مفتر لو قلت ذلك!». وركز بصره فى عينى بشكل جعلنى كالقرد المقيد بالسلاسل.

حاولت الفلفصة فلم أقدر يابوى . ثم إنه أسرع فأخرج علبة سجائره ودفتر البافرة وشرع يفرط السجائر وينقيها من العيدان الخشنة ويشرشر ورق البافرة؛ فيما أتابعه أنا فى لا مبالاة. فلما انتهى من ذلك أبقى الدخان مكوما على ورقة البافرة ثم فرك أصابعه فى الهواء أمام عينى كأنما يقول: هات ما سنفركه. فلما أن تلكأت قليلا شخط فىّ مشوحا بذراع مبرومة لا شعر فيها كذراع الأنثى، قائلا: « ما تجيب يا لوطى!!». فبكل هدوء وبساطة قمت ذهبت إلى حجرة النوم فسحبت الحشيشة من بين الكراكيب فوق دولاب الثياب واقتطعت منها قضمة لا بأس بها، ولففت بقيتها فرميت بها مطرح ما كانت؛ وعدت إلى بسبوسة، رميت بالقطعة أمامه على الطقطوقة؛ فانقضت عيناه انقضاض النسر على فريسة، ثم أمسكها بأطراف أصابعه قائلا فى غبطة شديدة: «يا ابن الكا.. ل.. ل.. لب!! ذى حشيشة طيبة ما أنزل الله من مثلها فى الأرض!! «شوف» أولاد الكلب والحشيش الذى يشربونه من دوننا!! أى عدالة فى هذه الأرض بحق الله؟! عدالة الشيطان وحدها هى التى تجعل هؤلاء القوم وحدهم يشربون أجود حشيش فى الدنيا ويضاجعون أحلى نساء فى البلاد ويفترشون ريش النعام ويأكلون الدندى والجمبرى والكابوريا!! ونحن بعد ذلك نحملهم حتى لا تتلوث أقدامهم بالأرض!! ليتنا نحملهم إلى القبر! آه لو كنت أستطيع أن أصبح لصا محترفا! إذن لعرفت كيف أحكم هذا البلد!!»..

وصار يتحسس التعميرة ويفرك منها حبات سمسم ينثرها فوق الدخان، ويلف السيجارة بحذق ومهارة وأعصاب رائقة، كأنه يتعبد فى جامع الكيف. وإذْ انتهى من لف السيجارة التى صارت تشبه القرطاس وضعها بين شفتيه بعناية ونظر لى محركًا إبهامه فوق زناد

وهمي؛ ففهمت أنه يطلب الإشعال. سحبت علبة كبريت من جيبى وجعلت أفتحها؛ فصدنى بيده قائلا من بين شفتيه المضمومتين على السيجارة: «لا يا حدق! أشعل بالولاعة الذهب! خليها شبرقة فى شبرقة بالمرة! إن هذه التعميرة لا يليق بها الكبريت! مقامها الولاعة الذهب!»..

يا ولد الصايعة؟! هكذا قلت فى نفسى، ثم شوحت له قائلا: «ليس معى ولاعات!». شوح قائلا كأنه يعلن انسحابه من القضية كلها: «بلاش! الكبريت أحسن!»، واختطف العلبة ففتحها وطش عودا صار يلوح بشعلته فى مقدم السيجارة ويشرب بلذة فائقة، والسيجارة تنساب فى فيه منكمشة على نفسها شيئا فشيئا. فلما شعر أنه قضى وطره منها سلمها إليّ كاتما دخانها فى منخريه وشرع يبرم واحدة أخرى، وقد بدا أنه صهلل من نفس واحد صهللة كبيرة. قال وهو يشعل الثانية: «سأحكى لك حكاية بسيطة لكنها مضحكة ومسلية وفيها موعظة!». قلت بغيظ: «كلمنى أولا فيما جئت تكلمنى فيه!». قال: «لن أكلمك فى شيء إلا بعد أن أحكى لك هذه الحكاية البسيطة المضحكة!». قلت بضيق: «احك!». فاعتدل فى قعدته قائلا: «لما قامت ثورتنا المباركة وطردت الملك فاروق ووضعت يدها على العرش! وضعت يدها أيضا على كل مجوهرات العائلة المالكة! حلو؟!»..

قلت: «حلو!».

قال: «وكلفت لجنة بجرد هذه المجوهرات أعضاؤها كلهم من الضباط الأحرار ومن مجلس قيادة الثورة! حلو؟!»..

قلت: «حلو!».

قال: «مجوهرات العائلة المالكة هذه ليست لعبة! ففيها تحف وحلى وتماثيل وأشياء للاستعمال كالملاعق والأطباق والصوانى والساعات والولاعات كلها من الذهب والفضة بعضها مطعم بالأحجار الكريمة كالدر والياقوت والماس! وكل هذه المقتنيات تخص العائلة المالكة من عهد محمد على حتى الملك فاروق! منها ما صنع خصيصا بتكليف ومنها ما أهدى إلى أحد ملوك العائلة ومعظمها نادر لا مثيل له فى الدنيا! كلها أشياء سلطانية خطيرة! حلو؟!»..

قلت: «حلو!».

قال: «يتقوَّلون المتقوِّلون فى البلاد فى الغرف المغلقة والمنشورات السرية أن اللجنة التى جردت ووضعت اليد على المجوهرات لتنقلها إلى مكان يتحفظ عليها فيه حتى يحين الحين لوضعها فى المتاحف! هذه اللجنة قد تبجحت فى الجرد حبتين! كلهم بالطبع أبناء ناس فقراء فى الأصل! بعضهم طمع فى قرط ذهبى ثمين فسربه إلى جيبه لزوجه!! ومنهم من تحفظ على فرع من الألماظ بعدة أدوار فواراه فى حقيبة يده! ومنهم من طمع فى خواتم وساعات! ومنهم من لم يتمكن لخيبته أو حسن أخلاقه من هبر شيء فاسترضاه الآخرون بهدية تملأ العين! جملتهم أرادوا شراء ذمم بعضهم بعضا وذمم بعض كبار القوم ممن بأيديهم الحل والربط فأرسلوا لهم بعض الهدايا النادرة ذات التاريخ لكى يسكتوا عنهم إذا بدر بادر! ويقال إن بعض أبناء علية القوم ضبط فى أوروبا يبيع ماسة أهدتها ملكة إيران ذات يوم لملكة مصر! حلو؟!»..

قلت: «حلو!!»..

قال: «محمد بك أبو شناف كان من بين أعضاء اللجنة!

وقد اختلس لنفسه وكبار وجوه عائلته بعض التحف الثمينة ومن بينها ولاعة من الذهب الإبريز الخالص المطعمة بالدر والياقوت! وكان الملك فاروق قد تلقى هذه الولاعة من شاه إيران! وقيل إن الذى تلقاها أبوه الملك فؤاد! حلو؟!»..

قلت: «حلو!!!»..

قال: «الطريف يا جدع أن محمد بك أبو شناف هو الذى يتكلم اليوم كثيرا عن مجوهرات العائلة المالكة! وعن الذين نهبوها! يفرح غاية الفرح عندما تظهر شائعة عن أحد اكتشفوا عنده شيئا من مجوهرات العائلة المالكة! وبعض الناس الأكابر الذين كانوا جالسين على السطح ليلة قوت القلوب وقد حدثتك عنهم ليلتها يقولون إن شيوع الشائعات حول بعض الناس يبعد الشبهات والأنظار عن محمد بك أبو شناف وإنه لهذا يقف وراء بعض هذه الشائعات! حلو؟!»..

قلت: «حلو!!!».

قال: «محمد بك أبو شناف ينسى نفسه دائما ويضع الولاعة فى جيبه ليتباهى بها أمام بعض الناس الذين يحب أن يثبت لهم أن له صلات وثيقة بالملوك والرؤساء وكل الناس الأبهة! حلو؟!»..

قلت: «حلو!!!»

قال: «ومن شدة هبل محمد بك أبو شناف ومن شدة سطله على الدوام جاء بالولاعة معه إلى حفل عيد ميلاد قوت القلوب ولصق بها أوقية حشيش ليصنع بهما مصيبة فى قلب الحفل! شوف وساخة

الرجل! على فكرة كل الوسخين دمهم خفيف ولا أعرف السبب في هذا! البنت قوت القلوب مسكينة وقلبها أبيض ومحرومة من حنان الأم ولهذا ربنا ستر ليلتها فلم يشعر أحد بشيء سوى نفر قليل! الحاج السنى وأنا! أصلى على علاقة طيبة بالحاج دون شلة النحس كلها! أنا الذى عرفتهم به! إنه يحبنى جدا ولا يقدر يستغنى عنى! يحبنى أكثر من المرحومة زوجته! بصراحة إنه يتعشقنى!! ههأو أو! يظننى على جوّه! خير وبركة! أنا أيضا أتركه يتحسس أثدائى على سبيل المزاح! يطبطب على إليتى من باب العشم! يكلمنى بصوت متهدج! لكن على من؟ إنه يبوح لى بأخطر الأسرار! لو طلبت عينه لنزعها فى الحال وسلمها لى! لكنه إذا كان ولدا صايعا فأنا أصيع منه! إنه لم يجر عاريا وراء عربات الرش ولم يبت فى الخرابات مثلى ولم يتشعبط فى سلالم التروماى بحثا عن قوته! ولهذا فأنا أعرف كيف أستفيد منه! إنه سهل وصعب فى الوقت نفسه! إنه كالمال العام يسيل بين يديك لكنك تدخل السجن إن ضاعت منه قطرة واحدة! وأنا ألتصق بالحاج السنى لكنى لا أتركه يدخلنى! فلو دخلنى أو دخلته ضاعت حياتى! فى كل يوم أرى فيه موعظة! هل تتخيل أنه كان على علم بالمصيبة التى يدبرها محمد بك أبو شناف فى منزله فى حفل ابنته؟! أخشى أن لا تصدقنى إذا قلت لك إن الحماسة لإقامة الحفل لم يكن عيد ميلاد البنت فحسب بل من أجل إتمام المصيبة! تصور ياولد يا أبا على أن الشيخة سعادة هى التى شعرت بأن فى الحفل جوا غير طبيعى! الواضح أنها شقية من قطاع الطرق! أقطع ذراعى إن ما كانت من مطاريد الجبل! عندها خبرة وموهبة فى معرفة رجال الشرطة السريين تشم رائحتهم عن بعد فلما شعرت بذلك انصرفت قبل أن تقرأ بخت البنت وبخت محمد بك أبو شناف! إنها

موهوبة ولديها كتاب عتيق عجيب مليء بالصور الغريبة الملونة كأوراق اللعب، لكن كل واحد من بني آدم يجد نفسه بكل مشاكله وأوجاعه ملخصا فى صورة من صوره التى تقرأها الشيخة سعادة كاللبلب! ظهرت حديثا وقد سمع بها محمد بك أبو شناف والحاج عن طريق ناس من أعيان أسيوط فطلباها عن طريق المحافظ الذى تحرى عن مكانها فبعث فى طلبها وأرسلها مع سائقه الخصوصى!! المهم يا أبا على أن مصيبة محمد بك أبو شناف حين فشلت - ولابد أن تكون الشيخة سعادة قد قرأت عليها تعزيمة أفشلتها - عاد محمد بك أبو شناف إلى منزله وطلب الحاج السنى بالتليفون ليقول له إنه نسى ولاعته فى غرفة البرج! شوف العهر يا جدع!!». .

قلت فى غيظ: «اسمع يا بسبوسة! أنا أخرق عين التخين! فأنا الذى عثرت على هذه الأمانة وذهبت من فورى إلى حيث يقعد محمد بك أبو شناف وحاشيته وألاديشه! عرضت عليهم الولاعة! بل قلت له بصريح العبارة: يا سعادة البيه هذه الولاعة ضاعت منك؟ أتعرف ماذا فعل يا بسبوسة؟ وطربة أبى نظر لى كأننى لص هجم عليه ليسرقه! فكيف تجيء أنت الآن وتقول إنه كلم الحاج فى التليفون؟ حاجة من اثنين يا بسبوسة: إما أنك تختلق هذا الكلام بعد أن علمت بالخبر ممن رأونى أعرض الأمانة على البك! وإما أن البك أبو شناف واسع الذمة وقد طمع فى الولاعة مدعيا أنها ولاعته!!». .

انفرط بسبوسة من شدة الضحك يابوى حتى لم يعد قادرا على أن يلم نفسه من جديد، فخيل لى أن رأسه فى مكان ويداه فى مكان وكل جزء من أجزاء جسمه فى مكان، حتى صوته كان مبددا هو الآخر فى

ضحك تتخلله حركات بذيئة وشخر وغنج. وكنت أوشك أن أتبدد مثله؛ لكنني صحت فيه بغيظ: «أما تثبت يا ولد الفرطوس؟!» فمسح دموعه بكم جلبابه وصار يعتقل الضحك بقوة قائلا: «أنت أصلك صعيدى قحف! ياله من منظر! ألم تفهم معنى الورطة التى أوقعت فيها محمد بك أبو شناف؟!» نورت لمبة كبيرة فى دماغى يابوى فى ضوئها رأيت الورطة التى أوقعت فيها الرجل. لوحت بأصبعى تجاه موطن عقلى كأننى أحييه على نزوله إلى منطقة الضوء؛ قلت ضاحكا: «نعم نعم يابو العم! أنا فعلا أحرجت الرجل يابو العم إهيء هيء! صاحبنا وقعت منه سريقة مشهورة! فجئت أنا بسلامة مخى التخين لأردها له وسط جمع غفير فى حفل كبير! لم يكن ينقصنى سوى أن أقول له بالفم المليان: خذ يا سعادة البيه الولاعة التى كنت سرقتها سيادتك من مجوهرات العائلة المالكة! هيء! كلانا مثل الصعيدى الذى سرق الكلوب المشتعل بالضوء وراح يختبئ فى مكان مظلم!!»..

وصرت أخبط بكفى على ركبتى فى اتعاظ واستحسان كأننى فهمت شيئا كبيرا يابوى، تحلف اليمين يابوى أننى فرحت فرحا غامضا. على أن الولد بسبوسة الملعون عاد يستأنف الضحك من جديد أقوى مما كان، وأنا أشاركه الضحك حينا وأكتفى بالنظر إليه حينا آخر فإذا هو خلال اندماجه فى الضحك يبعبص لى بأصبعه فى الهواء؛ ثم اعتدل فى قعدته فلمّ جسده واتخذ مظهرا جديا، وانحنى فوق الترابيزة وراح يفرك السجائر على ما تبقى من قطعة الحشيش، فيما يقول بلهجة حميمة: «أنت غشيم يا حسن وعلى نياتك!»؛ ثم أشعل السيجارة واستطرد: تظن أنك فهمت حقيقة المنظر! ولو عرفت الحقيقة لضربت رأسك فى الحائط من الدهشة والعجب! محمد بك أبو شناف طماع

ولص كما تقول هذه ليست محتاجة لتفتيح مخ! هو يا حدق ليس يغتاظ إن جئت أنت بسلامة نية ورددت له الولاعة! إن وجهه والحمد لله مكشوف على الدوام لفحه هواء العهر والتبجح حتى انحرفت دماؤه وتكلست عضلاته مثل القدم الحافية، إذا مشت على الأرض بغير حذاء مدة طويلة صنعت لنفسها حذاء بكعب صلب لو خرطته بسكين يلتوى السكين ولا ينفذ فيه! هكذا وجه محمد بك أبو شناف! إننى أخدمه فى قعدات كثيرة من سنوات بعيدة عند الحاج السنى وغيره! كما قدر لى أن أعرفه منذ طفولتى قبل قيام الثورة حيث كان أبو شناف هذا يعمل فى مهن كثيرة! فمرة كان ضابطا فى الجيش المصرى ورفدوه! وقالوا إنه جاسوس ألمانى فاضطهدوه! أو لما تعرفت عليه كنت أسقيه الحشيش فى دروة فى مدينة السويس! كنت طفلا صغيرا وكان هو سواق عربة نقل كاميون مع شلة من السواقين زبائن المطرح! إننى من السويس كما تعرف ولم أستوطن هنا إلا أثناء الهجرة! الحكومة عينتنى فى الحكومة نظرًا للظروف المؤلمة التى عشناها فى السويس! حيث فقدنا بيوتنا وإخوتنا وآباءنا وأمهاتنا وعقارنا وذكرياتنا وكل شيء وانزرعنا فى أماكن أخرى! ثانى مرة تعرفت فيها على محمد بك أبو شناف اتضح لى أنه فى الأصل عتال شغلته تحميل عربات النقل بالبضائع والمنقولات ثالث مرة كنت أسقيه الحشيش فى فيللا فى مصر الجديدة يملكها رجل كان أعلى رتبة فى الحرس الملكى، حيث كانت أمى تعمل دادة ومربية فى بيته، فكنا أنا وإخوتى ننتهز الفرصة لنجد لأنفسنا أعمالا فى البيت وسط العز والتغتغة! اتضح لى فى هذه المرة الثالثة أنه ضابط فى الجيش حيث قد عاد إليه بعد رفده! ثم بعد ذلك صرت ألتقيه فى أماكن كثيرة، فعن طريق صاحب الفيللا وخدمتى لأصدقائه وزواره تعرفت على

أجواء كثيرة مدهشة وانفتحت لى بوابات لو دخلتها أنت لتهت فيها! من حسن حظى أننى رأيت ناسا كثيرين قيل لى همسا إنهم من الضباط الأحرار، لكن العجيب أننى كنت أرى الواحد منهم واحدين : أحدهما ضابط وهذا ما لا أراه أبداً والآخر مقاول أو تاجر تحف نادرة أو صاحب محلات وإقطاعيات وعزب! تعودت ألا أندهش من أى شيء! تعودت كذلك ألا أصدق القانون إلا إن كان فى مصلحتى! لم أعد أخدم الحكومة وإن كنت أقبض منها ماهية! فآخرة خدمة الغز علقة! أنا أخدم نفسى أولا ثم أعطى ما فاض منى للحكومة!! إذا كانت الحكومة كلها غارقة لأذنيها فى الفسق والعشق والعهر فبأى وجه أروح لأقبض على بغى تعيسة الحظ ليس وراءها أو قدامها معين ولا سند؟ يا بخت من نفع واستنفع! أنا بصراحة أجيء فى صف الناس فأحذرهم من الحكومة وهم فى المقابل يكافئوننى بالحب والإغداق!!». .

وشد السيجارة من شفتيه وقدمها لى وقد احمرت عينه وانزرد وجهه، وبدا أن الحشيشة اللعينة قد سرحت بمخه فشردته وبعثرته فى كل مكان فصار يلقى ببقع من الضوء المشع فى مناطق متعددة من الأمور والنواحى، ولما شفطت النفيسات المتبقية فى السيجارة حتى الزبالة وتعشش الدخان فى جبهتى تذكرت أن أمر محمد بك أبو شناف لم ينته بعد، وأن الولد بسبوسة قد سرح بى وبعثر مخى أنا الآخر فى مكان ألقى عليه لمعة ضوء، هذا ولد ساحر يابوى. هذا سويسى عريق كان يجب أن أعرف سويسيته قبل أن ينطقها يابوى لكنى كنت مبسوطا ومشعشعا إلى حد بهيج ياخال؛ حتى فكرت فى التنازل عن قطعة حشيش أخرى نشعلل بها هذه الحالة التى صرناها؛ لولا أننى نظرت فلقيت التعميرة قائمة لا تزال على الترابيزة بين بقايا ورق البافرة

ونثارات الدخان مثل بلية كبيرة مزلطة لامعة كالمدهونة بالزيت. لافانى العكروت سيجارة ملفوفة، سحبت عدة أنفاس متلاحقة كتمت دخانها فى منخرى تاركا القليل منه يتسرب كأننى أجلو مخى من الداخل بالليفة الخشنة وقلت وأنا أرد له السيجارة متوهجة:

ـ «فتحت لى موال محمد بك أبو شناف فلم تتمه! أنت حين شرعت تتكلم أوهمتنى أنك ستقول شيئا عن محمد بك أبو شناف يبعد عن مداركى ومفهوميتى! ثم نسيت موضوع محمد بك أبو شناف وحكيت لى قصة حياتك!! أعرف أن التعميرة جيدة تسرح بالدماغ لكننى متفطن ما أزال!»..

فلمع الذكاء الحاد فى عينيه كبرق الشمس، فعاجلته قبل أن يسرح ثانية: « وقلت لى إن محمد بك أبو شناف دبر مصيبة فى الحفل ولم تقل لى ما هى هذه المصيبة والعياذ بالله!!» فخبا بريق الشمس تحت جفنيه وهو يغلقهما فى نشوة جذب الأنفاس؛ ثم قدم لى بقية السيجارة وقد ميل رأسه على كفيه تاركا سحب الدخان تهدر على صدره؛ ورفع رأسه قائلا من خلال أنف مزدحم بالمخاط:

ـ «الأمر باختصار أن الورطة التى وقع فيها محمد بك أبو شناف كانت معقدة! لا أنت ولا غيرك لو كان جنا مصورا يستطيع أن يفهمها! محمد بك أبو شناف كان يريد أن يدس الولاعة مع قطعة الحشيش على واحد من الأفنديين اللذين كانا يتوليان السقيا قبل حضورنا! الأفندى الذى كان ممسكا بالجوزة! إنه ضابط مخابرات ويقال إنه ذو منصب مهم فى تنظيم لم نسمع به من قبل اسمه التنظيم الطليعى من داخل الاتحاد الاشتراكى كما أفهمنى الحاج السنى! يكرهه محمد بك أبو شناف

لاعتقاده أنه مدسوس عليه لكتابة التقارير عنه والتسجيل له إن أمكن! ومحمد بك أبو شناف يقربه منه ليمص سمومه ويتمكن فى نفس الوقت من قطم رقبته!! تشاء الصدفة أننى حين نزلت بعدك من غرفة البرج العلوى اصطدمت فى زحام الحفل بهذين الأفنديين جالسين بين جمع من الفتيات المهلبية يسكرون ويدخنون السجائر الملفوفة والدنيا زئيط وكل واحد فى حاله! الأفنديان كانا يضحكان بعمق ويشخران! توقفت خلفهما لعلنى أستلقط من حديثهما بعض الأخبار عن البنات اللائى يجلسن معهما خاصة أن شكلهن ممن يقمن بأعمال لصالح المخابرات! وكنت أرسم على نفسى هيئة من يقف رهن الإشارة لأداء الخدمات باعتبارى من أهل الحفل! فإذا بى أفهم موضوع حديثهم وسخريتهم! حكى الأفندى الذى كان ممسكا بالجوزة أنه ضبط محمد بك أبو شناف يسرب يده فى الخفاء ويسقط فى جيبه الولاعة وقطعة الحشيش! فأحس بالذعر والرعشة خاصة أنه كان علم من طرف خفى أن شيئا يدبر له فى الخفاء! أيقن أن البوليس واقف يترصده على عتبة الباب لكنه مع ذلك لم يجرؤ على صنع فضيحة مزعجة فى الحفل! ولو أنه صاح ولفت الأنظار فسوف يزعم محمد أبو شناف بكل بساطة أنه لا يعرف شيئا عن الموضوع! ما صدق صاحبنا أن نحيناه عن الجوزة حتى جلس متربعا على الشلتة وبصنعة لطافة أخرج المصيبة من جيبه وصار يحركها بيده خلسة حتى حشرها بين المسند والشلتة خلف ظهر محمد بك أبو شناف مباشرة!!» . .

تحلف اليمين ياخال أننى شعرت كأن تركيبة الدنيا كلها قد تفككت ولم يعد فيها ضلع يمسك بالآخر، والهواء يصفر بين الشروخ صفيرا مرعدا مزلزلا، أفى الحياة نحن يابوى أم فى جهنم وجهنم ملتاثة؟!

أفلابد أن تكون جهنم حمراء اللون كالدم؟ لابد ياخال أن محمد بك أبو شناف هو أحد الزبانية، أو لعله إبليس نفسه، ويبدو أن منظرى كان متجمدا على الذهول كأننى انسخطت حجرا بملامح مقفولة . . فها هو ذا الولد بسبوسة يغرق فى ضحك ماجن لبرهة طويلة فيما هو يشوح نحوى بيده فى غمز انعقد دماغى لبرهة أطول فشعرت كأنه يستجمع كل إدارته ومندوبيه ومراكزه ليعقد اجتماعا طارئا يدلى فيه كل بدلوه فى هذه الكارثة الكونية المسماة بمحمد بك أبو شناف، إنه آفة من آفات الزمن وأسخم من الحاج السنى بطوفين. دماغى ياخال صار مزدحما بالخلق وبالأخذ والرد والغاغة والضجيج. ولحظة أن أوشك كيس دماغى يتفرتك ويضيع كل ما فيه سدى، طقت الفكرة فى رأسى، فوجدتنى أصيح فى بسبوسة واضعا ساقا على ساق: «لكن من الذى أخبرك يا حلو أن محمد بك أبو شناف كلم الحاج السنى فى التليفون ليخبره بأمر الولاعة؟!». نظر لى الولد فى استهانة شديدة، وشوح بجوار رأسه علامة على ضياع مخى، وقال: «تقولوا طور يقول احلبوه!»، ثم انفجر ضاحكا وراح يمسح دموعه:

ـ «. . على كل حال الحاج السنى قلب عليك الدنيا! وأنت من يوم الحفل لم تره وجهك رغم أنه أوصاك بالمجيء! هو على فكرة مقتنع ببراءتك ومقتنع أيضا أن الولاعة فى جيبك لأنه واثق أنك لن تستطيع التصرف فيها بأى شكل!» . .

وكان قد برم آخر سيجارة وقدمها لى لأفتتح إشعالها قائلا فى جدية كبيرة: «نشرب هذه السيجارة ونتكل على الله إلى عمك الحاج» قلت فيما أجذب الأنفاس مغمض العينين: «وماله! ثم سلمته السيجارة

فعلقها بين أصبعيه حتى تسترد أنفاسها قائلا: «لا تنس أن تجيء بالولاعة معك!». ولم أسترح للهجته فى قول هذه الكلمة يابوى، شيء فيها نغزنى كالدبابيس الدقيقة وقال صوت فى دماغي: إياك أن تذهب معه الآن يا حسن فأنت لو ذهبت معه الآن على هذه الصورة فسيظهر للحاج السنى أن بسبوسة هو الذى قبض عليك وجاء بك، ولربما تبجح بسبوسة وغمز للحاج بأنه لولا همته ما رأى الحاج وجهك، وجدتنى أرد على هذا الصوت: «باه! أهطل أنا يابوى؟ ولاد المدينة القحباء يستغفلون الصعايدة؟! كيف يابوى؟!.. ثم قلت لبسبوسة بلهجة خشنة: «اسمع يا بسبوسة يا صاحبى! أنا أثبت نيتى وأمانتى! والأمانة فى الحفظ والصون! ولكن إذا تصورت أننى يمكن أن أذهب معك الآن يكون تصورك كعشم إبليس فى الجنة! أنا كنت سأذهب إلى الحاج من تلقاء نفسى يابو العم! لست منتظرا أن يأخذنى أحد من يدى ليسلمنى إلى الحاج! أم أنك تريد أن تصغرنى أمام الناس يا بسبوسة ياخوى؟ شوف يابو العم! إذا ماكان الحاج قد استغيبنى فوالله ثلاثة ما فضيت أهرش! اذهب أنت وسأكون فى عقبيك بعد نصف ساعة!»..

رأيت الزعل الحقيقى ظاهرا فى عينيه؛ فصعب على والله ياخال فطيبت خاطره بأن أريته الولاعة. طارت عينه كالنسر وانقضت على الولاعة بركت فوقها جاحظة منبهرة منذهلة: «يا ابن الكا.. ل.. ب! جوهرة ثمينة لا تقدر بثمن!» وقبض عليها فى الحال بيديه فانضغط قلبى. صار يقلبها بتمعن يرسل اللعن والاستحسان لدقائق طويلة كانت على شكل علبة مستطيلة مبططة تخينة تحوطها اللآلئ من جميع الأنحاء على أرض من الذهب البندقى الأحمر اللامع، وكنت قد

عاجلت فتحها برفق حتى عرفت كيف يقدح زنادها ، وإنه لعجيبة من العجائب ياخال فكل ما عليك أن ترفع غطاءها ، ولكن عليك الأول أن تعرف أين غطاؤها ، إذ إنه مندمج فيها سائح عليها وليس من خط فاصل يشير إلى الغطاء ، فبالصبر مع الشد والجذب فى كل أضلاعها إذا بالغطاء شريحة رقيقة فى تخن قطعة الشكلاطة ، لابس فى بدن الولاعة بأوصال خفية ؛ ما إن تجذبه إلى أعلى حتى ترى الشعلة واقفة مزنهرة كأنها كانت قاعدة تحت الغطاء صاحية فإذا ينجاب عنها الغطاء تهب واقفة كجن الخاتم السحرى قائلة : لبيك ولقد ظللت ليلتذاك بطولها ياخال أفرج عن الشعلة ثم أغطيها حتى أحرقت خرطوشة سجائر ، فلما كشفت سر اللعبة لبسبوسة ظل هو الآخر يفعلها بغير توان كأنه اكتشف سلوى جديدة رائعة صحت فيه : «احذر أن تفسدها يابو العم أو ينفد ما لابد فى جوفها من غاز أو حجارة! خير لنا أن نسلمها سليمة من كل عيب يا بسبوسة ياخوى!» . وشفعت ذلك ، بصنعة لطافة ، بأن دحلبت يدى فقبضت على الولاعة وتاويتها فى جيبى ، ثم ما لبثت حتى قمت إلى حجرة النوم فواريتها فى مكانها الخفى وعدت إلى بسبوسة ، لأراه شاردا سابحا فى ملكوت الله ياخال . .

جلست قبالته واضعا يدى على ركبتى كأننى أستحثه على النهوض لمغادرتي ؛ لكنه أشعل سيجارة وقال :

ـ هذه بالفعل هدية ثمينة! ثمنها يعدينا جميعا من الفقر شرط أن تباع خارج البلاد! ! على فكرة! أنا أعرف عددا كبيرا من تجار الآثار والعاديات بعضهم ذوو أسماء كبيرة فى شغل الصحافة ممن يسافرون كل يوم إلى بلد! جيوبهم عمرانة بالورق الثقيل! هم رجال بمعنى

الكلمة! وخبراء يعرفون كيف يتصرفون فى مثل هذه الهدايا الأثرية الثمينة! لا يجيء من وراءهم لبط! إذ إنهم يعرفون طرق الأشياء!! يعرفون من الذى تنقصه هذه الهدية أو تلك فيذهبون بها إليه فى خطة مدروسة يبتزون بها ما يشاءون من قواه المادية! والأشياء تتسرب إلى من تليق بهم ويليقون بها! بصرف النظر عن مصدرها! فلن يسألك أحد من أين جئت بها! ولا يعنيه هذا! كل ما فى الأمر أن شخصية البائع هى التى تحدد قيمة الشيء ومستواه! فلو ذهبت أنت مثلا أيها الصعيدى القفل لبيعها فلربما طلبوا لك البوليس! غيرك ربما أعطوه فيها بضعة جنيهات وصرفوه! وهناك من يعجز نهائيا عن بيعها مهما كان مفتحا! وهناك من يستطيع بيعها فى غيبتها بالسعر الذى يشاء! المهم الشخصية! والشخصية تكشف الشخصية! يعنى لا أنت ولا أنا نستطيع الادعاء بأننا شخصيات مهمة! فالحوائط التى سننطح فيها ستضحك من صراخنا بعد أول نطحة!!».

طب ما قولك ياخال أن ولد الفرطوس قد أثر على؟ تحلف اليمين أنه إبليس ونجح فى الدخول فى نخاشيشي؛ لكننى انتفضت فجأة ثم صحت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!» فضحك ولد الفرطوس، وأخرج من جيبه قطعة حشيش! اتضح لى فى الحال أنه كان قد خنصرها خلسة من حشيشتى وسربها إلى جيبه، ثم شرع يفركها على دخان السيجارة قائلا: «دع المشيخة الآن بحق النبى!» صحت فيه مازحا: «تريد وضعنا فى تأبيدة يا بسبوسة؟!» وشوح قائلا: «على فكرة أنا أستطيع تخليصك كخروج الشعرة من العجين! أنت أصلا فى السليم! ألم تذهب بها إلى محمد بك أبو شناف وتعرضها عليه؟! إذن فقد أصبح معروفا للجميع أنك كنت تبحث عن صاحب ولاعة ضائعة!».

ثم استطرد: «سيسألك الحاج السني: أين الولاعة التى عثرت عليها فى غرفة البرج ياحسن؟ تقول له بكل بساطة دون أى خوف: أخذها صاحبها يا حاج! صاحبها؟ صاحبها من يا ولد؟ هكذا سيقول لك! فتقول له: بينما كنت أعرضها قائلا يا من ضاع منه شيء ظهر لى أفندى فقال إنها ولاعته فأعطيتها له! سيجيئون لك بالأفندية يعرضونهم عليك! وأنت تستهبل! تزعم أن الأفندى ليس بينهم! فيعرفون أنك وقعت ضحية نصاب! وأنا الذى سأتولى توزيع الأمانة فى السر ولا من شاف ولا من درى! فماذا قلت؟!» . .

ولد الفرطوس لم يكن يمزح ياخال. تحلف اليمين أننى سمرت عينى فى عينه بحثا عن ظل للمزاح فلم أجد. ووجدت ياخال أن ما يشفى غليلى فيه أن أقوم فأضربه حتى يتخرشم ولا يعود يفاتحنى فى مثل هذا الأمر ثانية لكننى اكتفيت بأن قلت له: كلها مسائل عفنانة يا بسبوسة ياخوى!». فبعبص الهواء قائلا فى استخفاف وزراية:

ـ «خذ!! إن ثمنها كما قلت لك يعدينا من الفقر فى خبطة واحدة! إن ثمنها ليس ثمن ما فيها من ذهب حر! ولا ثمن الأحجار الكريمة من زمرد وياقوت وماس! ولا ثمن الآلة الدقيقة الموجودة فى داخلها كل ذلك له ثمن أى نعم! ولكن لا تنس أنها منسَّبة! ولها تاريخ وأصل وفصل! وهذا له ثمن كبير! إننا يمكن أن نخبط فيها فوق العشرين ألفا! والتاجر يمكن أن يخبط فيها مائة ألف بالراحة! أنا أعرف رجلا من زبائن الحاج يدفع لنا فيها مثل هذا المبلغ وأضمن أنه لا يأتى بسيرتنا فى أى حديث! إنه دائما يوصينى إن وقعت فى يدى مثل هذه التحف أن أخش بها عليه مباشرة!!» . .

قلت وقد بدأت أرتعش خوف الوقوع فى الموافقة : «ربنا يغنيها بالحلال يا ولد الفرطوس! حل عنى يا شيطان المدينة يا غليظ القلب! ما كنت أظنك واعرا هكذا!!» فقال بحماسة شديدة : «يا صعيدى يا وجه النحس! إن رجال الثورة الذين توزعوا فى كل مكان نهبوا البلاد وباعوا ما قدروا على نهبه! الآثار يبيعونها! مجوهرات العائلة المالكة يتصرفون فيها وعلى راحتهم وكل يوم تظهر قطعة منها فى مكان ما من العالم! ولا أحد يحقق مع أحد! هذه فرصتنا الكبرى! ومحمد بك أبو شناف لن يستطيع أن يفعل معك أى شيء! والبوليس إن تابعك فسيعرف أنك لا شأن لك بها إذ أنا المسئول فما خوفك؟!» . .

سلطت عليه نظرة ثاقبة ذات معنى وقلت له : «بسبوسة! أتتكلم الجد أم تمزح؟! أم لعلك تريد الإيقاع بى فى شر أعمالى؟!» . .

قال بحماسة : «أتكلم الجد طبعا! ولابد أن تطاوعنى الآن! فمن يدريك أن الحاج السنى أو محمد بك أبو شناف لم يبلغ الشرطة؟! ، قد أخرج من هنا فيطب عليك البوليس من هنا ليأخذك بها متلبسا؟!» آلمتنى هذه الغمزة يابوى، شعرت أنه يلوح مهددا بشيء كالذى قاله؛ فتضايقت منه ياخال، وأسرعت قائلا : «قبل مجيء البوليس تكون هذه الأمانة فى جيب صاحبها! وأحسن شيء تفعله الآن أن تتفضل من غير مطرود! فإن ورائى مشواراً مهمًا سأفعله قبل ذهابى إلى الحاج، ونهضت، فنهض على مضض شديد، ومضيت أمامه نحو الباب، فمضى فى تثاقل يكاد الغيظ يفريه . «مع السلامة يا بسبوسة! أشوفك عند الحاج بعد ساعة واحدة!»، ومددت يدى أسلم عليه، فمد يدا باردة متراخية؛ وظل ينظر لى برهة طويلة، ثم لوى شفتيه مشمئزا

وانصرف، أغلقت الباب خلفه ونظرت من العين السحرية فرأيته يطرق باب الجيران فانتظرت حتى انفتح الباب وزرق هو إلى الداخل، فخرجت متسللا على أطراف أصابعى كى أسبقه إلى دار الحاج السني؛ فإذا بى أصطدم بسنيورة تبارك الخلاق فيما خلق، تفوح منها العطور الفاضحة وينسكب الجمال على كعبيها وردفيها وخصرها وعنقها ووجهها وجدائل شعرها الأسود الفاحم، المصيبة العظيمة أنها قالت لي: «اتصبح بالخير يا حسن!»، فكأن الدنيا بذاتها نطقت باسمى على نغم القيثار، وإذ أنا كطفل غرير أندفع صائحا: «ياميت صباح النور! أهلا أهلا!»، ثم نزلت السلم أكاد أتعثر فى خجلى وحيرتى فيما هى تلوح لى بيدها مودعة.

* * *

يا مثبت العقل فى الدماغ يارب؛ فالحاج السنى قد زعزع كل أبراج عقلى يابوى- أقصد يارب - وقد طيرها برجا وراء الآخر، إنه متخصص فى سرقة كل الحمام من كل أبراجى أنا الآخر، أقصد كل الأفكار فلا تعود إلى ثانية إذ تكون قد ولّفت على أبراجه الشامخة التى تجتذب حمام البلاد كلها فإذا هو تولّف عليها فلا تعود إلى أصحابها، حتى الحمام النادر الذى يبيعه للغاوين يعود إليه ثانية. الحمام ليس عبيطا يابوى! كيف يكون عبيطا وهو يرجع إلى مسكنه الأصلى فى وطنه مهما طالت به الأميال أو احتجزته الصحارى والوديان بأسرع مما يتخيل البشر؟ البنى آدم منا قد يتوه عن داره إذا شرب حجرين زيادة أو جرع قرعة بوظة، أما الحمام فلا يغترب أبدا، لابد أن يعود إلى بنانيه فى المساء كما يعود الفلاح بمواشيه إلى داره، تخيل يابوى أن هذا الحمام

يفهم مثلنا فى أمور الحياة، فمثلنا يكره الفقر يهفو إلى العز والنغنغة والعش اللين الطرى، طبعا ياخال، كل الطيور تصنع عشها بنفسها وتتفنن فى صنعه ولا أجدع مهندس، إلا الحمام فإنه من فرط الدلال والكبرياء الخارق يترك أمر عشه لمن يقع فى هواه، لمن يغواه، متقنزح آخر قنزحة على قدر الهوى تكون الغية، والغية فى خيال الحمام قصر بلا حدود، وطيرك الذى يولف على غيرك منشؤه الحمام، والحمام سيد من يولف، إنه يموت فى الجماعة ياخال، كلما تزايد فى تجمع مهيب سعى كل فرد للانضمام إليه والالتحام به فى فخامة وشرف ليذهب به الركب الحافل المهيب إلى حيث تشاء طلائعه المتقدمة فى اختراق وشموخ وثقة إلى هدف لا شك معلوم، إلى مسكن وديع أمين أليف بكثرة الجماعة يملؤه بالهديل والغزل حتى يتكاثر ويتكاثر، يصير نقوشا ملائكية فى خيمة السماء. ما حيلة الأبراج الخربة إذا كان الحمام يهفو إلى العز وعزه فى التكاثر والتكاثر دينه وديدنه؟ لابد أن الحاج السنى فيه شيء لله لمس به أبراجه العالية هذه حتى أغرى حمام البر كله بالسكن فيها؟!

اقتادنى خادم إلى بناية بعيدة خلف الدار الكبيرة كأنها ضريح الحسين مضروبا فى عشرين ضعفا. قل يابوى إنه مجمع أضرحة فخيمة المنظر ترتفع قبابها وتضيق شيئا فشيئا حتى تصير كالمئذنة تشق السحاب، تطل على حوش واسع دائرى، والأبراج الأضرحة ملتحمة كلها ببعضها وإن استقل كل واحد منها مجسدا بكل أضلاعه، فلما صرت فى قلب هذا الحوش خيل لى أننى فى قلب برج هائل خرافى وإذا رفعت رأسى إلى أعلى شعرت بدوخة عظيمة وخيل لى أننى غاطس فى قلب الأرض إلى أعماق بعيدة. عدلت نفسى متطوحا

أتساند على الهواء فرأيتنى وحدى وقد اختفى الخادم شعرت بخوف مفاجئ ياخال، داهمنى شعور كالذى يعترى من يجد نفسه فجأة فى قلب مقبرة. كانت الأبراج السبعة الملتحمة ببعضها فى دائرة محكمة حول نفسها قد دورت لنفسها سقفا من السماء على قدها، تلقى على فراغ الحوش آلافا من العيون المفنجلة فى صفوف دائرية من الأرض إلى السقف لا تنتهى، ورمادية، تفصل بينها وبين بعضها شرائح من الجدران البيضاء كأنها الجفون التى توشك أن تنسدل. ما إن يسود الهدوء الساكن برهة إلا وتشرخه انطلاقة فرخ من إحدى العيون كرصاصة مدفع، فى الحال يتبعه فرخ آخر، سرعان ما تستجيب لندائهما أفراخ أخرى كثيرة تندفع من العيون السامقة، ليلتئم شمل الجماعة على ناصية الهواء المتاخم. ولقد يؤدى رقصة سريعة خاطفة، تتقارب الرءوس، تتشاور لتنسلك فى رحلة بعيدة، فيعم الهدوء لبرهة تبدو من عمقها دهرا. .

ـ «أنت يا. . هوه! ماذا تفعل عندك؟ ما وقوفك كاللوح؟!». . كان الخادم واقفا فى باب صغير قميء. صحت فيه:

ـ «أين أنت يا جدع؟ لقد اختفيت من أمامى؟!». .

أشار خلفه إلى عمق الباب:

ـ «قلت إنك تريد لقاء الحاج! هاهو ذا الحاج ينتظرك فادخل» هرولت نحوه، فإذا بالباب الذى كان يبدو من بعيد كباب الخن قد استطال، وإذا هو باب أحد الأبراج، وإذا هو من الداخل دائرة كبيرة تطل على حوش مثل الذى كنت واقفا فيه؛ وإذا جدران دائرية كلها عيون لا حصر لها من الأرض صعدا إلى عنان السماء، وقضبان

حديدية ينتظم بعضها البعض فى صفوف متجاورة متقابلة متعاكسة معا تتصل بقضبان عمودية غاطسة فى الأرض تتفرع منها دوائر حديدية بشباك نحو العلو الشاهق، بحيث يستطيع أى إنسان أن يصعد بكل راحة وسلام وأمان لتتمكن يده من الدخول فى العين للحصيد، حصيد الفراخ أو زبل الحمام الذى هو أغلى من الفراخ نفسها عند من يسمدون به أراضى البطيخ، هذه مملكة أخرى يابوى ولسوف أنقلها عن الحاج أحمد نور الدين السنى . .

كان مندمجا بنفسه فى تنظيف الأعين، وملاعبة الحمام وإغرائه بالمجيء إليه ناثرا أمامه بعض حبوب الدنيبة، إذ هو يعرف أن الحمام يتكفل بكسب قوته بعرق جبينه حيث يسعى إليه زرافات زرافات ولو فى أقاصى الأرض البعيدة، قال حين رآنى تسمرت فى مكانى كالأبله منذهلا بإمبراطورية الحمام هذه :

ـ «أين كنت ياولد يا عكروت؟! لم نرك من زمن!» . .

ـ «مشاغل والله يا حاج!»

ـ «أأمر! أى خدمة؟!»

ـ «أأمر أنت يا حاج! ألست تسأل عنى؟!»

ـ أسأل عنك فى كل وقت! ولكن ما الذى فكرك بى الآن؟!»

ـ «فرغت من انشغالى فجئت!» .

قال كأنه يطردنى بصنعة لطافة :

ـ «شرفت وآنست! لكننى الآن مشغول كما ترى! على كل حال

سأفرغ من هذه المشغولية بعد غد فى مدخل الليل! فحاول أن تجيء! لك الآن أن تشرب الشاى فى استراحة البوابة الكبيرة أو تتغدى إن أحببت! اطلب من الولد ما تشاء فى سبيل أن تعذرنى على انشغالى عنك الآن!!».

ـ تشكر! تشكر! لا شـاى ولا غـيـره! كنت أحب أن أكلمك كلمتين!».

كوم زبل الحمام بسيف كفه:

ـ «لك أن تكلمنى بدل الكلمة عشرا ولكن بعد غد!»..

ثم نفض كفيه فى بعضهما ومد يمناه ليسلم على، إه، أهلا وسهلا. سلمت عليه وانصرفت مدعيا العبط كما قد بدا أنه يدعيه على، لكن قلبى لم يطاوعنى، فارتددت إليه مقدما له الولاعة الأثرية؛ فإذا هو ينظر إليها فى دهشة قائلا: «ما هذه يا عكروت؟!» نفضتنى رعشة باردة: «هذه هى الولاعة التى ضاعت من محمد بك أبو شناف!» قال الثعلب: «وما شأنى أنا بها؟!» قلت: «لكى تعطيها له لأنه يبحث عنها!» نظر فى عيني: «أين وجدتها؟!». قلت: «فى حجرة البرج عندك يا حاج!» قال: «إذن خليها معك حتى تسلمها له بنفسك! أنا لا أقبل حفظها عندى لأنها مسئولية! أنت الذى وجدتها وعليك أن تسلمها له يدا بيد!!» أغرقتنى الحيرة: «لكنك بعثت فى طلبها يا حاج؟!» قال الثعلب «إنما طلبت رؤيتك فحسب! ولم تجئ سيرة الولاعة أبدا! الولد بسبوسة لعب بعقلك! على كل حال تعال بعد غد وسترى محمد بك أبو شناف بنفسه!!»

فانصرفت ياخال وأنا من الحيرة فى بلبلة .

تمت

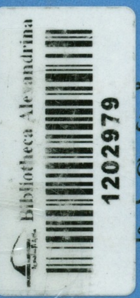
إلى اللقاء مع الكتاب الثالث من سيرة الأمالي :

(وثالثنا الورق)

وثانينا الكومى

هذا هو الكتاب الثانى من سيرة (الأمالى - لأبى على حسن ولْد خالى)، التى ألفها خيرى شلبى ليفتتح بها عالما جديدا فى الرواية العربية، فبينما تدور الأحداث فى بلاد الصعيد وعالم أبناء الليل ومطاريد الجبل والمهمشين الذين يعيشون على تخوم المدينة فيما بين الحضارة والبداوة، يوجد بناء فنى مركب، تتمثل فيه حضارة مصر القديمة والحضارة القبطية والإسلامية. وقد سبق أن تعرفنا على شخصية «حسن أبو ضب» فى الكتاب الأول (أولنا ولد)، الذى حظى بحفاوة كبيرة جدًا من النقاد والقراء، واعتبره الدارسون من أهم وأقوى الشخصيات الفنية فى الأدب العربى قديمه وحديثه. تعرفنا عليه فى طور من أطوار حياته، وتعرفنا من خلاله على عالم من أغنى العوالم الفنية، وفى هذا الكتاب (وثانينا الكومى) نتعرف عليه فى طور جديد وعالم أكثر ثراء.

ومثلما لاقى الجزء الأول من هذه الثلاثية احتفاء كبيرًا من النقاد والقراء، لاقى الجزء الثانى إعجابًا أشد وتقديرًا أكبر.


Bibliotheca Alexandrina
1202979

خيرى شلبى أحد أهم كُتَّاب الرواية فى العالم العربى، وح
الدولة التقديرية عام ٢٠٠٥. له أكثر من ٧٠ كتابا ما بين
والمسرحية والدراسة، من أشهرها: «وكالة عطية» و«صالح
«الأمالى» و«زهرة الخشخاش» و«نسف الأدمغة». وترجم
الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والصينية والك


6 221102 019903

دار الشروق
www.shorouk.com